# تاريخ أوربا الحديث والمعاصر

دكتور
**فاروق عثمان أباظة**
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ووكيل كلية الآداب بجامعة الإسكندرية
لشئون التعليم والطلاب

١٩٩٨

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

## محتوى الجزء الأول

### من عصر النهضة حتى عقد مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥

- مقدمة : أهمية دراسة تاريخ أوربا الحديث والمعاصر.
- تمهيد: انتقال أوربا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة.
- الفصل الأول: حركة النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة.
- الفصل الثانى: حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة.
- الفصل الثالث: حركة الاصلاح الدينى فى مطلع العصور الحديثة.
- الفصل الرابع: تطور الملكية الانجليزية فى العصور الحديثة.
- الفصل الخامس: تطور الملكية الفرنسية فى العصور الحديثة.
- الفصل السادس: تطور روسيا القيصرية فى العصور الحديثة.
- الفصل السابع: الثورة الفرنسية بين أسبابها وأبعادها ونتائجها.
- الفصل الثامن: وصول نابليون إلى السلطة والحكم فى فرنسا.
- الفصل التاسع: مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥ وأثره على أوربا.
- الفصل العاشر: التنافس الاستعمارى الأوربى فيما وراء البحار.
- ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية واللغات الأجنبية.

## مقدمـــة

يهدف هذا الكتاب إلى تقديم رؤية تحليلية مختصرة ومركزه لأبرز معالم تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، بدءاً من عصر النهضة الأوربية التى بلغت ذروتها منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادى، وحتى ظهور المتغيرات الدولية وما صاحبها من نظام دولى جديد فى نهاية القرن العشرين الميلادى. وتعتبر هذه فترة هامةوخطيرة من تاريخ أوربا بوجه عام، انعكست فيها كل المراحل التاريخية السابقة، كما نتج عنها الواقع الذى تعيشه أوربا فى الوقت الحالى، والذى يحدث آثاره الواضحة فى تاريخ البشرية المعاصر. ومن هنا تأتى أهمية هذا التاريخ فى فهم الأحداث المعاصرة وتفسيرها تفسيراً علميا صحيحا. فمن المعروف أن أوربا قد لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ البشرية منذ العصور القديمة حيث ظهرت فيها الحضارة الاغريقية الرفيعة، كما نمت فيها قوة الدولة الرومانية وتعاظم نفوذها حتى امتد إلىٰ أرجاء حوض البحر المتوسط. ثم شهدت أوربا فى العصور الوسطى الدور الذى قامت به الامبراطورية البيزنطية فى الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب، فضلا عن سيطرة الكنيسة على مقدرات أوربا فى تلك العصور. وظهرت بعد ذلك حركة النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة بآثارها العديدة من استكشاف واستعمار وتجديد فى الفنون والآداب. ثم قامت الثورة الفرنسية وامتدت مبادئها وآثار أحداثها حتى شملت أرجاء المعمورة وأثرت فى حضارة الشعوب وأفكار البشر تأثيراً منقطع النظير. وأعقب ذلك ظهور الثورة الصناعية بمبادئها الاقتصادية الحديثة ونتائجها الواسعة النطاق. وما زالت أوربا بعد أن شهدت الحربين العالميتين الأولى والثانية وما أعقبها من ظهور المنظمات الدولية ذات تأثير واضح فى تقرير مستقبل البشرية.

وقد رأيت تقسيم هذا الكتاب إلى جزءين رئيسيين، يبدأ أولهما بعصر النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة، وخاصة فى بداية القرن السادس عشر الميلادى،

ويمتد حتى عقد مؤتمر ڤيينا فى سنة ١٨١٥، بينما يبدأ الجزء الثانى بتتبع تاريخ أوربا عقب انعقاد هذا المؤتمر ليشمل القرنين التاسع عشر والعشرين. وستكون نقطة البداية فى الجزء الأول من الكتاب مركزة على دراسة عصر النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة وهى النهضة التى تحرر أثناءها الفكر الإنسانى فى أوربا من قيود الجمود الذى ران على الحياة العامة فى أوربا أثناء العصور الوسطى، وبدأ تمتع الفرد هناك بشخصيته المستقلة وحريته فى الرأى والتصرف والبحث فى مناطق عديدة اتسع نطاقها فى أوربا تدريجيا، وكانت شبه الجزيرة الايطالية محوراً لهذه النهضة نتيجة لاعتبارات عديدة. كما بدا بوضوح أثر الحضارة الإسلامية فى قيام هذه النهضة الأوربية من خلال جسور الاتصال مع العالم الإسلامى فى الأندلس وجزر البحر المتوسط، ومن خلال التيار الأوربى المعاكس الذى تمثل فى الحملات الصليبية المتعاقبة التى اطلعت على نهضة الشرق الإسلامى فى مرحلة ازدهاره، فضلا عن دور الرحالة الأوربيين فى هذا المجال. وقد حققت النهضة الأوربية انجازات عديدة فى مختلف المجالات على الرغم مما واكبها من تدهور خلقى تمثل فى استخفاف بعض الأوربيين بالآداب العامة نتيجة للتحول المفاجىء من الكبت إلى التحرر والانطلاق.

وقد تتبعنا فى هذا الجزء كذلك حركة الكشوف الجغرافية التى عبرت بالأوربيين إلى المحيط الهندى عبر رأس الرجاء الصالح حيث تعرفوا على مناطق جديدة وعديدة فى افريقيا وآسيا واستراليا، وبدأت لدى القوى الأوربية الرغبة فى بسط النفوذ والتسلط واستغلال الأرض والشعوب معا فيما عرف بحركة الاستعمار التى تبنتها الحكومات ثم الشركات الاحتكارية العالمية. كما امتدت حركة الكشوف الجغرافية فى نفس التوقيت إلى الأمريكتين حيث انطلقت القوى الأوربية وشركاتها الاحتكارية من أجل السيطرة والثراء. وقد أثارت الكشوف الجغرافية فى نفوس كثير من الشخصيات الأوربية روحا صليبية عارمة ضد المسلمين وأماكنهم المقدسة مما

حدا بالقوى الإسلامية المملوكية ثم العثمانية إلى مساندة القوى المحلية فى المناطق المستعمرة من جهة، وإلى حماية العالم الإسلامى ومقدساته من جهة أخرى من تلك الهجمة الاستعمارية الأوربية الشرسة، فى الوقت الذى عجزت فيه الشعوب التى تعرضت للاستعمار فى العالم الجديد عن مقاومة الأوربيين نتيجة لعدم مقدرتهم على توحيد قواهم فى مواجهة الهجمات الأوربية العنيفة. بل أن العناصر الأوربية المهاجرة تمكنت من توحيد جهودها فى العالم الجديد لتتخلص من السيطرة والتسلط الأوربى على مقدارتها وأعلنت قيام الولايات المتحدة الامريكية فى سنة ١٧٧٦ التى أصبح لها دورها الفاعل فى التاريخ الحديث والمعاصر وفى النظام العالمى الجديد.

وقد تناولنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب كذلك حركة الإصلاح الدينى التى اجتاحت أوربا نتيجة لحركة النهضة، فأوضحنا أهداف المصلحين الذين ظهروا تباعاً فى مناطق عديدة من القارة الأوربية، وكان من أبرزهم مارتن لوثر فى ألمانيا الذى نتجت عن حركته ظهور الحركة البرتستانتية التى عارضت الكاثوليكية التى يتزعمها البابا فى روما، فضلا عن ظهور توجهات عديدة نادت بقومية الكنيسة من جهة، وبإصلاح الكنيسة الكاثوليكية نفسها من جهة أخرى على نحو ما أتجه إليه اليسوعيون، ثم قيام حرب الثلاثين عاما التى انتهت بعقد معاهدة وستفاليا فى سنة ١٦٤٨ حيث تمت اعادة تقسيم خريطة أوربا وفقا للمذاهب الدينية.

وقد تتبعنا بعد ذلك فى هذا الجزء من الكتاب التطور الدستورى فى الجزر البريطانية منذ مطلع العصور الحديثة وحتى إنشاء المملكة المتحدة فى سنة ١٧٠٧، وأوضحنا أن حصول الشعب الانجليزى على حقوقه بشكل تدريجى فى ظل الملكية قد حافظ على بقائها حتى وقتنا الحاضر، وهو الأمر الذى لم يتحقق فى فرنسا حيث لم تحظ الطبقة الوسطى بنفس ما حظيت به الطبقة الوسطى الانجليزية من

تطور ونماء، كما لم تكن كثافتها بنفس ما كانت عليه الطبقة الوسطى الانجليزية. وبذلك ظلت الفجوة كبيرة بين الشعب والملكية فى فرنسا التى ظهرت فيها قيادات فكرية حركت الشعب الفرنسى لنيل حقوقه من الحرية والإخاء والمساواة بتفجر الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ ، وما أعقبها من أحداث جسام، حتى ظهور نابليون بونابرت وتوليه السلطة، وجهوده فى بناء فرنسا فى الداخل وإقامة امبراطوريتها التى لم يكتب لها الاستمرار فى الخارج، حتى عقد مؤتمر ڤيينا فى سنة ١٨١٥ وأعيد تقسيم خريطة أوربا فى أعقابه.

هذه هى الموضوعات الرئيسية التى يشتمل عليها الجزء الأول من هذا الكتاب الذى أرجو أن يكون معبراً عن النظرة الموضوعية فى معالجتنا لقضايا التاريخ الأوربى دون تحيز أو تعصب كثيراً ما نجده – للأسف الشديد – فى كتابات أعلام من المؤرخين الأوربيين الذين تكمن فى مؤلفاتهم روح التعصب والكراهية لكل ما هو شرقى أو إسلامى، حتى أن بعضهم ذكر أن الحروب التى شهدتها شبه الجزيرة الايطالية والتى تنافست فيها فرنسا وأسبانيا من أجل السيطرة على أوربا وامتدت بين عامى ١٤٩٤ – ١٥٥٩ قد أسدت إلى أوربا خدمات جليلية، إذ اعتبروا أن وجود قوى الدولتين فى الأراضى الايطالية قد حال دون تعرضها لسيطرة القوات العثمانية، وإلا لأصبحت تلك المناطق الايطالية جزءاً من الامبراطورية العثمانية وحل فيها الإسلام محل المسيحية على نحو ما حدث فى بلاد البلقان والمجر بعد فتح العثمانيين لها. ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذا الرأى يجانبه الصواب، لأن تصارع الجيوش الفرنسية والأسبانية قد نشر الخراب والدمار آنذاك فى تلك المناطق، بينما لم يؤد فتح العثمانيين للبلقان والمجر إلى انتشار الإسلام انتشاراً واسعاً أطاح بالمسيحية فى هذه الأقاليم، بل عاش المسلمون والمسيحيون جنبا إلى جنب فى تلك المناطق المفتوحة حتى وقتنا الحاضر، ولعل أحداث البوسنة والهرسك التى نشهدها فى تاريخنا المعاصر لتوضح بجلاء من الذى يتعرض للاضطهاد رغم رغبته فى

التعايش السلمى، أليسوا هم المسلمون والمسيحيون على السواء فى البوسنة والهرسك الذين يواجهون معاً الهجمات التعصبية والنزعات العرقية الاستعمارية.

وعلى أية حال فقد حرصنا من جانبنا على توخى الموضوعية فى عرض القضايا الرئيسية الهامة فى تاريخ أوربا الحديث والمعاصر من خلال استقرائنا للعديد من المؤلفات التى كتبت باللغة العربية واللغات الأجنبية فضلاً عن المقالات العلمية والبحوث المتنوعة ما بين معقد وسلس، ومتعصب ومنصف، لنعطى صورة واضحة لهذه الفترات التاريخية الهامة من التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر، الذى تعتبر دراسته من أهم مقومات معرفتنا بتاريخنا الوطنى والقومى والتاريخ الإنسانى بوجه عام، نظراً للدور الهام الذى لعبته القارة الأوربية وما زالت تلعبه فى صنع أحداث التاريخ العالمى عبر العصور المتعاقبة.

***والله ولى التوفيق ،***

الإسكندرية فى ٢٤ ربيع الأول ١٤١٥ هـ.
أول سبتمبر ١٩٩٤م.

**د. فاروق عثمان أباظه**

*أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر*

*كلية الآداب - جامعة الإسكندرية*



# تمهيد
# انتقال أوربا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة



## تمهيد

# انتقال أوربا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ العالم إلى عصور متعاقبة، تبدأ بعصور ما قبل التاريخ وهى موغلة فى القدم وتعود إلى الوقت الذى أوجد الله فيه الإنسان على سطح الأرض وتنتهى عند معرفة الإنسان للكتابة فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد، حيث تبدأ العصور القديمة التى تصل – على وجه التقريب – إلى نهاية القرن الخامس الميلادى. ثم تعقبها العصور الوسطى التى تصل على وجه التقريب كذلك – إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، حيث يبزغ فجر العصور الحديثة التى تستمر حتى بداية القرن العشرين، بينما يعتبر القرن الحالى حتى وقتنا الحاضر فى نطاق التاريخ المعاصر.

والعصر فى المفهوم التاريخى يمثل مرحلة زمنية تبدأ عندما يحدث قدر كبير من التحولات والتغيرات البارزة فى البناء الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للمجتمعات الإنسانية، التى من شأنها أن تستغرق فترة زمنية قد تصل إلى عدة قرون. وعادة ما تكون التغيرات الاجتماعية أكثر بطئاً وأقل سرعةً من التغيرات الاقتصادية والسياسية. وبذلك فإن اختيار سنة بعينها أو حدث بذاته لتحديد نهاية عصر من العصور أو بداية عصر آخر، إنما يبدو فى نظرنا أمراً بعيداً عن الحقيقة والواقع، لأن التطور التاريخى يمتاز دائما بالتدرج والاستمرار وتداخل حلقاته بعضها فى بعض.

وإن ما يحدث للمجتمعات عند انتقالها من عصر إلى آخر هو أشبه بما يحدث للإنسان عند انتقاله عبر مراحل نموه المتعاقبة. فكما أننا لانستطيع أن نحدد لحظة بعينها نقول أن الفرد ينتقل فيها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب، أو من هذه المرحلة الأخيرة إلى مرحلة الشيخوخة، حيث يمر الفرد بتغيرات فسيولوجية وسيكولوجية معينة، فكذلك من المبالغة أن نختار سنة محددة لنقول أن العصور

الوسطى توقفت فيها عن السير تماما لتفسح الطريق للعصور الحديثه، وبعبارة أخرى فإننا نؤكد ظاهرة تداخل العصور التاريخية بعضها فى بعض، بحيث لاتفصلها حدود ضيقة وسنوات معينة، وإن كان من الممكن أن نتلمس العذر للمؤرخين عندما يصطلحون على اختيار بعض السنوات الهامة أو الأحداث الكبرى لتكون فواصل بين العصور التاريخية. إذ أن الغرض من ذلك هو مجرد الرغبة فى تسهيل البحث على أساس أن هذه السنين وما تم فيها من أحداث كبرى هى أخطر الوقائع فى مرحلة الانتقال بين عصر وآخر[1].

على أن فترة الانتقال بين عصر وآخر تطول أو تقصر حسب الظروف الموضوعية التى يمر بها المجتمع، وتتشابك مظاهر القديم مع مظاهر الجديد فى هذه المرحلة الانتقالية وتنزوى المظاهر القديمة وتضعف تدريجيا، إلى أن تختفى تماما، بينما تستقر المفاهيم الجديدة فى أذهان الناس وتصبح دعائم ثابتة ومظاهر واضحة للعصر الجديد[2].

وتعتبر فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة التى نطلق عليها فجر التاريخ الأوربى الحديث مرحلة هامة من تاريخ أوربا تطورت فيها من حياة العصور الوسطى بطابعها الخاص إلى الحياة فى العصور الحديثة بسماتها الجديدة، وأن أسس هذه الفترة إنما ترجع فى الواقع إلى القرن الرابع عشر وحتى إلى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر الميلاديين[3]. وأنه من الضرورى ربط عناصر هذه الفترة ببعضها، وفى شكل تحليلى وبنيانى حتى نتمكن من مواصلة فهم الخطوط

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور): **أوربا العصور الوسطى**، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، ص ٦.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور): **أوربا فى مطلع العصور الحديثة**، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٧، ص ٢١

(٣) فشر، هـ. أ. ل: تاريخ **أوربا العصور الوسطى**، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى، دار المعارف بمصر ١٩٦٦، ص ٢٦٠

الأساسية لتاريخ أوربا الحديث والمعاصر.

ومن المعروف أن التاريخ العالمى يشكل وحدة متكاملة، كما أنه يمثل حركة مستمرة[1]، وأن ما يحدث من تطورات فى أى عصر من العصور إنما يشكل حلقة من حلقات سلسلة التاريخ العالمى تتأثر بسابقتها وتؤثر فيما يعقبها. وهذا ما سوف يجعلنا نلتقط مفاتيح تاريخ أوربا الحديث من أغوار التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى، حتى نتعرف على الجذور التاريخية للنهضة الأوربية التى ستبزغ اشعاعاتها فى الافق فى فجر التاريخ الأوربى الحديث. ولهذا فمن المنطقى أن نرجع الى الوراء قليلاً قبيل بدء العصور الحديثة فى أوربا لنلقى نظرة عاجلة على أهم مظاهر الحياه فى أوربا فى العصور الوسطى حتى يمكننا أن ندرك مدى التطور الكبير الذى طرأ على المجتمع الأوربى أثناء تعرضة لحركة الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة.

لقد اعتقد بعض المؤرخين أن العصور الوسطى بدأت بجلوس الامبراطور الرومانى دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية فى سنة ٢٨٤م. ومن المعروف أن دقلديانوس كان ملكا من النوع الشرقى القديم، مستبداً مطلقا، ويضفى على شخصيته مظاهر الألوهية والتقديس، واضطهد الديانه المسيحية والمسيحيين أكبر اضطهاد، وهدم الكنائس وأحرق الأناجيل، ونفى المسيحيين، وعمل على استئصالهم من الامبراطورية الرومانية، وظهرت هذه النزعة بشكل واضح فى مصر، حتى اعتبر عهده أكبر عهد للاضطهاد فى تاريخ مصر، وأخذ أقباط مصر سنة توليه السلطة بداية للتاريخ القبطى، أو تاريخ «الشهداء» واعتبر بعض المؤرخين هذه السنة بداية للعصور الوسطى.

كذلك اعتقد مؤرخون آخرون بأن سنة ٣٢٣م. التى تولى فيها الامبراطور قسطنطين الأول حكم الدولة الرومانية هى بداية العصور الوسطى، إذ تم فى عهده

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : **فجر التاريخ الحديث**، دار الكتب الجامعية، الاسكندرية ١٩٧٦، ص ٧.

الاعتراف بالدين المسيحى دينا للدوله، بعد أن كان دينا للأقلية المضطهده، ونقل عاصمة الدولة الرومانية من روما إلى القسطنطينية التى أقامها على أنقاض مدينة بيزنطة على شاطئ البوسفور فى شرق أوربا وكان ذلك تفريقا بين القسمين الشرقى والغربى للامبراطورية الرومانية وبداية لانشاء الامبراطورية البيزنطية. وكانت مغادرته لمدينة روما ايذانا يتحولها الى مرتع خصب لسلطان البابوية الذى سينمو تدريجيا فى العصور الوسطى ليصبح مسيطراً على مقدرات الحياة فى أوربا طوال تلك العصور.

وهناك مؤرخون يعتبرون أن سنة ٣٩٥م. هى بداية العصور الوسطى باعتبارها السنة التى قسم فيها الامبراطور ثيودوسيوس الدولة الرومانية رسميا الى شطرين منفصلين، الشرقى وعاصمته القسطنطينية، والغربى وعاصمته روما، بين ابنيه.
وأخيراً فإن هناك من المؤرخين من ينظر الى سنة ٤١٠ على أنها البداية الفاصلة للعصور الوسطى، وذلك نتيجة لقيام القوط الغربيين، بقيادة ملكهم آلاريك بدخول شبه الجزيرة الايطالية واحتلال روما نفسها. وأنتهت هيبة روما القديمة وأن كانت قد احتفظت بشبح الامبراطورية حتى سنة ٤٧٦م. حين أرسل صولجان الامبراطورية الغربية منها الى الامبراطورية الشرقية وانتهت بذلك الامبراطورية الغربية فى روما لتحل محلها سلطة الكنيسة.

أما بالنسبة لمنطقة الشرق الأدنى فقد شهدت ظهور الإسلام وبدأت دولته عقب هجرة الرسول محمد ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى سنة ٦٢٢م. وبدأت بذلك العصور الوسطى الإسلامية التى شهدت نهضة حضارية زاهرة فى المناطق التى امتد إليها الإسلام حتى وصل إلى أوربا، حيث مكث المسلمون فى الأندلس ثمانية قرون متعاقبة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى.

وينبغى علينا أن نشير إلى أن العصور الوسطى فى أوربا لم تكن دامسة فى ظلامها، لأنها لم تخل من مدنية لها شخصيتها واتجاهاتها وطبيعتها الخاصة، وإن

كانت لاتعتبر بطبيعة الحال فى مرتبة المدنية الرومانية التى سبقتها فى العصور القديمة، أو مرتبة المدنية فى العصور التى أعقبتها، وذلك لاختلاف مظاهر الحياة فى تلك العصور. فمن أبرز هذه المظاهر ظاهرة العالمية الممثلة فى خضوع أوربا لحكم امبراطوريتين كبيرتين. أما الظاهرة الثانية فتمثلت فى ظهور البابوية كسلطة دينية رهيبة ومسيطرة. بينما تمثلت الظاهرة الثالثة فى ظهور نظام الاقطاع بجوانبه الايجابية والسلبية، كما شكلت الحروب الصليبية الظاهرة الرابعة التى كان لها أبلغ التأثير فى تغيير الأوضاع الأوربية نتيجة لتعرف الأوربيين على جوانب كثيرة من الحضارة العربية والإسلامية التى احتكوا بها ونبهتهم إلى واقعهم المتردى آنذاك.

فبالنسبة للظاهرة الأولى التى قامت عليها الحياة فى أوربا فى العصور الوسطى وهى الظاهرة العالمية، فقد تمثلت فى خضوع أوربا لحكم امبراطوريتين كبيرتين غمرتا معظم أجزاء القارة الأوربية، كانت أولهما الامبراطورية البيزنطية فى الشرق، والثانية هى الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب. وقد أخضعت كلتاهما لحكمهما أجناساً عديدة مختلفة. ونتيجة لذلك لم تعرف أوربا فى العصور الوسطى الروح القومية بالمعنى الذى عرف بعد ذلك فى العصور الحديثة.

لقد مكثت الامبراطورية الرومانية الشرقية التى عرفت بالامبراطورية البيزنطية لمدة عشرة قرون متعاقبة انتهت بسقوط عاصمتها القسطنطينية عندما قام بفتحها السلطان محمد الثانى الفاتح فى سنة ١٤٥٣. وترجع أسباب هذه الحياة الطويلة التى عاشتها الامبراطورية البيزنطية بعد زوال الدولة الرومانية الغربية من روما إلى أن مدينة القسطنطينية كانت مدينة حصينة، تمكنت من أن تصمد أمام هجمات المتبربرين المتتالية فى أعقاب سقوط روما فى أيديهم فى سنة ٤٧٦، كما أن أباطرتها أثبتوا فى معظم عهدها كفاءتهم فى الحكم ومقدرتهم على توجيه هؤلاء المتبربرين إلى جانب آخر غير أملاكهم حتى ولو كان ذلك نحو الامبراطورية الرومانية الغربية فى شبه الجزيرة الايطالية. ولم يقصر أباطرة القسطنطينية الخدمة فى

جيوشهم على المرتزقة الجرمان، كما كان حادثاً إلى حد كبير فى الدولة الغربية، بل عملوا على تنويع هذه الفرق وأدخلوا ضمنها العناصر الآسيوية. كما ساعد على الحفاظ على الامبراطورية البيزنطية حرص الأباطرة والحكومة على تجنب أكثر المساوئ السياسية والملذات التى كان الشعب الرومانى يغرق فيها فى روما. كذلك ساعد على بقاء تلك الدولة قيامها على المسيحية والتفافها حول المذهب الأرثوزكسى الذى كان سائداً فى شرق أوربا وجمع شعوب المنطقة حولها.

حدث ذلك فى الوقت الذى ظهرت فيه امبراطورية فى غرب أوربا على انقاض الامبراطورية الرومانية القديمة، وقد أقامتها الشعوب المتبربرة التى أخذت بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية فى روما. وتمثلت تلك الشعوب فى القوط الذين توغلوا فى أراضى الامبراطورية الرومانية القديمة وكذلك اللومبارديين الذين عاشوا حينا وزالت دولتهم على غرار القوط وتركوا أسمهم على سهول ايطاليا حتى اليوم. وكان الفرنجة من أبقى الشعوب الجرمانية المتبربرة التى نزلت فى أراضى الدولة الرومانية القديمة والتى اتسعت حدودها حتى شملت دولتهم غالة ومساحات كبيرة من ألمانيا التى كانت موطنهم الأصلى. وحكمت الأسرة الميروفنجية الفرنجة حينا من الزمن بعد فترة من العمل على نشر الدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى، وكذلك العمل على تشجيع المصاهرة بين العناصر الجرمانية وبين العناصر الرومانية اللاتينية مع نشأة هذه الأسرة الميروفنجية رسميا فى سنة ٥٠٨ نتيجة لإنعام الامبراطور البيزنطى الذى كان يمثل الامبراطورية الرومانية القديمة على كلوفيس بلقب حاكم غالة الرومانية. وفى سنة ٧٥١ انتقل التاج من آخر الملوك الميروفنجيين إلى بيبين الذى عرفت دولته باسم الدولة الكارولنجية والتى آل تاجها إلى شارل العظيم أو شارلمان أعظم ملوك هذه الأسرة فى الدولة الرومانية المقدسة فى غرب أوربا. وكان شارلمان قويا شجاعاً ذكيا، وعمل على بسط نفوذه فى غرب أوربا كلها، وأفاد من فرصة استنجاد البابا أدريان به فى سنة ٧٧٣ ضد ملك اللومبارديين، الذى كان قد اعتدى على بعض أملاكه، وزحف بجيوشه على شبه الجزيرة

الايطالية وهزم اللومبارديين وعزل ملكهم وأرضى البابا. وانتهز البابا فرصة زيارة شارلمان له فى روما واحتمى به، وكانت روما لاتزال خاضعة نظرياً مع جنوب شبه جزيرة ايطاليا للدولة البيزنطية، وأعلن البابا تحرير روما من سيطرة البيزنطيين وخضوعها لشارلمان من الناحية الزمنية ونتج عن ذلك تحقيق انفصال الكنيسة الغربية فى روما عن الكنيسة الشرقية فى القسطنطينية بصفة نهائية. وحرص شارلمان على أن يجعل العالم المسيحى فى غرب أوربا وحدة ثابتة الدعائم تحت سلطة الامبراطورية، وأعطى لحروبه فى أغلب الأحيان، شكلا دينيا من حيث التبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين القبائل المتبربرة. وفى نهاية سنة ٨٠٠ ميلادية دعى البابا ليو الثالث شارلمان إلى روما حيث حقق له النصر على جميع أعدائه، كما قام البابا بالباس شارلمان تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة فى كنيسة القديس بطرس بروما ليلة عيد الميلاد فى سنة ٨٠٠ فأصبح شارلمان بذلك خليفة القياصرة الرومان الأقدمين، وتم المزج تدريجيا بين الثقافة الجرمانية اللاتينية وبين المدنية الرومانية[١].

وبعد وفاة شخصية شارلمان القوية تفككت الامبراطورية الرومانية المقدسة فى غرب أوربا حيث قسمت بين أبنائه الثلاثة فى سنة ٨١٧ وكانت مجافاة العدل فى هذه القسمة قد أدت إلى قيام الحرب بينهم، واستمرارها حتى عقد معاهدة ڤردان فى سنة ٨٤٣، وهى التى قسمت امبراطورية شارلمان إلى عدة أقسام: الغربى منها يشمل فرنسا على وجه التقريب، والشرقى يشمل ألمانيا، والثالث عبارة عن ممر طويل بين ألمانيا وفرنسا، ويشتمل على اقليم لومبارديا فى شبه الجزيرة الايطالية، فهو ممر يمتد من بحر الشمال إلى البحر المتوسط، وكان ملك هذا القسم هو الذى يحمل لقب الامبراطور لوقوع روما فى حوزته. وبعد اندثار أسرة الامبراطور، أو ملك هذا القسم الأوسط، نشبت المنافسة على أملاكه من جانب الأسرتين الأخرتين فى ألمانيا وفى فرنسا. واستمرت هذه الحروب إلى أن قامت أسرة كابيت فى فرنسا (٨٨٨ – ١١٣٧) والأسرة السكسونية فى ألمانيا (٩١٩ – ١٠٦٥) فانبعثت فكرة

(١) هارتمان، ل. م. وباراكلاف، ج : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة وتقديم الدكتور / جوزيف نسيم يوسف، ص ١٨٤.

الامبراطورية من جديد، ولكن فى وقت كان قد اشتد فيه ساعد البابوية بحيث أدى الأمر إلى الإخلال بالتوازن بين هاتين السلطتين العالميتين، وإلى دخول أوربا فى دور جديد من أدوار تاريخها الوسيط يتمثل فى الصراع بين الامبراطورية والبابوية مما سيضعف قوة الجانبين ويؤدى إلى دخول أوربا فى مرحلة القومية والعلمانية فى مطلع العصور الحديثة.

أما الظاهرة الثانية فقد تمثلت فى ظهور البابوية فى العصور الوسطى فى أوربا كقوة دينية رهيبة سيطرت على عقول الناس وعلى تفكيرهم وطرق معيشتهم. وقد نشأت تلك القوة الرهيبة نتيجة لغارات المتبربرين المتتابعة على الدولة الرومانية وسيادة الفوضى والاضطراب فى أجزاء تلك الامبراطورية الواسعة، وافتقار العالم المسيحى فى أوربا فى ذلك الوقت إلى قيادة جديدة تحل محل الامبراطورية المنهارة، ولهذا نهضت الكنيسة فى ذلك الوقت لتتحمل هذا العبء ونجحت إلى حد ما فى إيجاد نوع من الاستقرار النسبى، وفى ايجاد وحدة سياسية تحت زعامتها الروحية.

لقد تميزت العصور الوسطى فى أوربا بوجود الكنيسة والبابوية، وبعد أن كان نشر الدين المسيحى يتم سراً، اعتنق المسيحية الكثيرون من حكام روما، وانتشرت المسيحية بسرعة بين الرقيق الذين آملوا فى التحرر من الرق، وبين كل من كان يأمل فى التخلص من الوثنية القديمة. وعمد بعض الأباطرة إلى محاربة المسيحية التى صرفتهم من عبادة الشعب لأباطرته إلى عبادة الله وحده، وإلى هدم الفروق بين طبقات المجتمع وتحرير الرقيق، وصمدت المسيحية أمام التعذيب والقتل ومختلف ألوان الاضطهاد، وأسست كنائسها فى دهاليز تحت الأرض فى البداية ثم فوق الأرض بعد ذلك. وأدى إنشاء الكنيسة إلى قيام البابوية من جانب ، وظهور الرهبنة من جانب آخر، ورغم أن كنيسة روما لم تكن تمتاز بأى شئ عن الكنائس الأخرى، إلا أن مكانة روما الخالدة وضعت الكنيسة الرومانية فى مركز الكنيسة المركزية بالنسبة للكنائس الأخرى، خاصة بعد انتقال الأباطرة إلى الشرق، فقد أصبح أسقف روما زعيما طبيعيا لسكانها وحل محل الامبراطور فى هذا النطاق.

وكان أسقف روما هو البطريرك الأول والأوحد فى غرب أوربا وأصبح رئيساً للكنيسة الغربية.

وقد قام أساقفة روما بدور هام فى حملة الكنيسة الغربية أثناء هجوم البرابرة على روما فى سنة ٤٧٦ وما بعدها. إذ عمل أساقفة روما على احلال النظام محل الفوضى فى المدنية، وأيدوا الحكام فى الإشراف على الأمن، وأصبح مركز البطريرك فى مركز الامبراطور القديم. كما أن ما كتبه الرهبان الرومانيون من رسائل وتقديسهم لمقام أسقفية روما كان له أثره البالغ فى الدعاية للبابوية واعلاء مكانتها لدى الاسقفيات الأخرى، وقد برزت شخصية بعض البابوات من أمثال ليو الأكبر، وجريجورى الكبير، مما جعل البابوية تتمثل بقوة لايستهان بها فى التاريخ الأوربى بوجه عام.

وتجدر الإشارة إلى أن البابا جريجورى الكبير (٥٩٠ - ٦٠٤) كان راهباً وعالما كبيرا، وزع أمواله على الفقراء وعاش حياة التقشف، وعمل على شراء أسرى المسيحيين وعتقهم. وكان رجلاً سياسياً ماهراً، ذا إرادة قوية وأطماع واسعة، وكفاية إدارية وحكومية هائلة. وعمل على التبشير بالمسيحية وبالمذهب الكاثوليكى وتم فى عهده تحويل القوط الغربيين إلى الكاثوليكية. وأرسل بعثة برئاسة أوغسطين الأول إلى الملك الأنجلوسكسونى فاعتنق هو وشعبه المسيحية على المذهب الكاثوليكى فى سنة ٥٧٩ ووضع جريجورى الكبير نظاما يمكن أسقف روما من أن يستدعى الاساقفة الآخرين فى غرب أوربا وكذلك كهنتهم لمحاكمتهم إذا حادوا عن جادة الصواب وأعطاه هذا الموقف الأولوية على الكهنة، ورفض جريجورى الكبير بعد ذلك الخضوع لسلطان القسطنطينية الدينى والسياسى الذى كان يتركز فى يد الامبراطور البيزنطى، وفى يد البطريق الأرثوذكسى كما خضعت له روما دينيا وسياسياً، ووضع بذلك الأسس التى بنى عليها البابوات من بعد استقلالهم التام فى أمور الدين، وملكهم فى أمور الدنيا، الأمر الذى ترتب عليه نشأة الصراع بين

البابوات والأباطرة طوال العصور الوسطى، وأضعف نفوذ القوتين فى مطلع العصور الحديثة.

أما بالنسبة لانفصال كنيسة القسطنطينية عن كنيسة روما فقد تم على مراحل متتالية، بدأت بمعارضة كنيسة روما لنفوذ كنيسة القسطنطينية، ثم فى انتقاد وجود بعض العقائد الشرقية، ومطالبة المجامع الكنسية بأبعادها، وبعد ذلك اهمال القرار الخاص بالغاء إقامة الايقونات فى الكنائس، والذى صدر فى عهد الامبراطور البيزنطى ليو الأيسورى فى سنة ٧٢٦. وكان استخدام الايقونات من التقاليد الثابتة والمعروفة فى الكنيسة الغربية، فتطور الخلاف إلى شقاق، ثم انتهى الأمر بانفصال الكنيستين عن بعضهما.

وفيما يتعلق بوجود الكنيسة والبابوية فى أوربا وتعاظم مركزهما فى المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، فقد ارتبط ذلك بظهور الرهبنة وانتشارها آنذاك نتيجة لما عاناه المسيحيون الأوائل من اضطهاد على أيدى الرومان، وهروب المسيحيين إلى الصحارى والقفار والمغارات للتعبد، وحدث نفس الشئ فى أوربا أمام غزوات البرابرة ونزوح عدد من المسيحيين إلى الجبال والكهوف للتعبد. وقد قامت الرهبنة على أساس التوحد، أى الحياة الفردية فى القفار. وكان من لزوم ظروف الحياة ومتاعبها، التفكير فى نظام يجمع شملهم، ويحافظ على معيشة التبتل والطهارة بين صفوفهم، فبدأت الحركة الديرية، وبخاصة فى مصر فى القرن الرابع الميلادى على أيدى آباء الكنيسة المصرية مثل باخوميوس وشنوده وأبو مقار، ثم انتقلت إلى بلاد اليونان. أما فى بقية أنحاء أوربا فقد ظلت هذه الحركة ضعيفة خلال الخمسة قرون الأولى من ظهورها، وإلى أن وضع بعض رجال الدين كنائسهم تحت تصرف الرهبان، وربطوا الرهبنة بالكنيسة فبدأ الرهبان فى الاشتراك فى الصلوات الكنسية الرسمية واعترف المجتمع بمهمتهم.

ويمكن الإشارة إلى أن الرهبنة كانت تقوم على التبتل والتأمل فى الله وخلقه،

وتعذيب الجسم وتنقيته من الأدران، والتفانى فى تعذيب النفس، استعداداً لما وراء هذه الحياة فى ملكوت السماوات. وكان لكل راهب حياته الخاصة دون علاقة باخوانه، وفى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس قام القديس بندكت بتأسيس ديره المشهور فى منطقة مونت كاسينو، ووضع له نظامه الذى يجمع ما بين الناحيتين الدينية والإنسانية. فكان يفرض على الراهب التزامات روحية هى التبتل والطهارة، ونكران الذات، والتخلى عن الثروة الدنيوية والمال، والجنوح إلى معيشة الفقر، هذا علاوة على الطاعة الواجبة لرئيس الدير. ولكن بندكت نظر إلى الرهبان بصفتهم الإنسانية، لهم حاجاتهم ولبدنهم عليهم حق، فأوصاهم بالاعتدال فى التقشف وبعدم الأفراط فى تعذيب النفس كما حتم عليهم الاقلاع عن الحياة الانفرادية، والتمسك بالجماعة، ولم تخل الحياة الديرية من الجانب الفكرى الذى كان له نصيبا واضحا فى هذا النظام. حيث كانت تنشأ فى كل دير مكتبة ومكاناً للرهبان الذين يهتمون بالكتابة والنسخ والقراءة والأبحاث. وقامت الأديرة البندكتية بتأدية رسالة علمية وحضارية فى العصور الوسطى. واحتفظت بكثير من أمهات الكتب القديمة وخاصة الكتب اللاهوتية والأدبية والقانونية القديمة، ووجدت مجموعات من الرهبان يؤلفون وينسخون هذه الكتب فى وقت تفشت فيه الأمية، وضعف فيه الاهتمام بالعلم. وقد زاد انتشار حركة الرهبنة مع بداية الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى واستمرارها لمدة قرنين من الزمان، فتأسست جماعات جديدة من الرهبان للعناية بالجرحى وتهتم بالتبشير بين رعايا الامارات اللاتينية من المسلمين فى الأراضى المقدسة. واضطر الرهبان فى هذه الجماعات إلى تعلم الدفاع عن النفس وهم يعيشون فى مناطق حرب، فتحولوا إلى جماعات رهبان محاربين يجمعون بين حياة التبتل وصناعة الحرب، حتى أصبحت مهمتهم الأساسية القتال فى الأراضى المقدسة. وكان من أهم هذه الفرق جماعات الاسبتارية التى تأسست فى القرن الحادى عشر الميلادى، وجماعة الفرسان الداوية التى نشأت فى القرن التالى. ونجحت هذه التجربة فى الشرق

العربى، وكانت أساساً لنشأة جماعات الرهبان المحاربة المعروفة باسم الوثنيين فى بروسيا الشرقية وحدود ألمانيا الشرقية. وهكذا عملت الرهبنة على تقوية الكنيسة وتدعيمها، ونشر المسيحية فيما وراء حدود الدول الكاثوليكية، واحتفظت بنور العلم خلال العصور الوسطى، وقامت بدور هام فى التعليم وفى تنشيط الحركة الفكرية، وكذلك فى تقوية الحروب الصليبية، وكانت مساندة لنفوذ البابوية فى العصور الوسطى.

غير أن تدخل البابوية فى الشئون السياسية ومحاولة البابوات جمع السلطتين الدينية والزمنية فى أيديهم لم ترض الامبراطورية التى اعتبرت ذلك تدخلاً لامبرر له فى اختصاصها الزمنى. لهذا حاولت الامبراطورية الوقوف فى وجه البابوية بكل ما أوتيت من قوة، ونشأ عن ذلك الصراع الطويل بين القوتين مما أدى إلى إضعافهما وكان ذلك نذيراً بإنتهاء العصور الوسطى وبزوغ فجر التاريخ الحديث.

أما بالنسبة للظاهرة الثالثة التى قامت عليها الحياة فى أوربا فى العصور الوسطى، فقد تمثلت فى نظام الاقطاع، الذى لم يكن نظاماً سياسياً فحسب، بل كان نظاماً اجتماعيا واقتصادياً كذلك[1]. وجاء ظهور هذا النظام مصاحبا لظاهرة الامبراطورية حيث اقتضى تحكمها فى مناطق شاسعة ضمت عناصر متعددة إلى استعانتها بعدد من النبلاء والأمراء يحكم كل منهم نطاقاً محدوداً تمثل فى اقطاعيات تنقسم إليها الامبراطورية. وبذلك نشأ هذا النظام كتطور طبيعى فى نظم الحكم، واستطاع أن يحقق لمواطنى الامبراطورية ما يكفل أمنهم وسلامتهم. كما كانت لهذا النظام فى مرحلته الايجابية فى بداية عهده فائدة كبرى فى حفظ النظام الاجتماعى وفى نشأة حكومات محلية صالحة فى الاقطاعيات المختلفة أخذت على عاتقها سد حاجات الفرد وتحقيق الأمن النسبى له. وينقسم هذا النظام الأفراد إلى قسمين، أولهما تمثل فى طبقة رجال الاقطاع وهم النبلاء والأمراء وأصحاب الأراضى والضياع، وممن يتمتعون بامتيازات واسعة فى اقطاعياتهم. وطبقة أخرى هى طبقة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : أوربا العصور الوسطى، الجزء الثانى، النهضات والحضارة والنظم، ص ٢٥٥.

رقيق الأرض، وهى طبقة مستعبدة تقع على عاتقها التزامات تشكل أضعاف ما لها من حقوق. ونظراً لكثرة الحروب والاغارات التى كان يشنها الأمراء بعضهم على بعض كانت طبقة الزراع تشعر أنها فى حاجة مستمرة إلى حماية هذا النبيل الذى تعمل فى كنفه، وكان من واجب هذا النبيل العمل على حماية المزارعين داخل اقطاعيته. ومن أجل تلك الحماية التى كان أصحاب الاقطاعيات يسبغونها على رعاياهم، كان نظام الاقطاع مقبولا لدى طبقة رقيق الأرض، وتدعو الحاجة إلى بقائه واستمراره، وبذلك كان لهذا النظام جانبه الايجابى فى بداية عهده.

ولكن بمضى الزمن وبعد زوال عدد من الأباطرة الأقوياء أمثال شارلمان الذى كان يرسل مفتشين دوريين للاقطاعيات المختلفة للاطمئنان على حسن سير الأمور فيها، فقد بدأت قبضة الأباطرة تضعف وبدأت سلطة النبلاء تزداد فى أماكن وتضعف فى أماكن أخرى مما أدى إلى زوال الحاجة لاستمرار نظام الاقطاع وخصوصاً بعد أن قلت حسناته ولم يبق منه سوى العبء الضخم الواقع على كاهل طبقة رقيق الأرض دون أن يكون لهذا العبء ما يبرره، خصوصاً وقد وجدت هذه الطبقة من تشجيع الملكية لها ما عاونها على التخلص من هذا النظام البغيض، الذى أصبح لايتمشى مع مقتضيات الظروف بعد أن أخذ نظام الاقطاع هذا الشكل السلبى فى نهاية العصور الوسطى.

أما بالنسبة للظاهرة الرابعة التى تميزت بها الحياة فى أوربا فى العصور الوسطى وظهرت فى مرحلتها الأخيرة مع القرن الحادى عشر الميلادى وكان لها أبلغ التأثير فى تغيير الأوضاع الأوربية فقد تمثلت فى الحروب الصليبية بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين وإن ظلت توابعها تتعاقب فى محاولات دائمة لفرض السيطرة الأوربية على الشرق حتى القرن العشرين. وتعتبر الحروب الصليبية من الحركات التى تعبر أصدق تعبير عن روح العالم الغربى فى العصور الوسطى، إذ أنها تعبر عن الدين، الذى كان من أهم سمات العالم الوسيط، وكذلك عن الحرب،

التى كانت من مستلزمات النظام الاقطاعى وما صاحبه من نظام الفروسية كما كانت تلك الحروب تأخذ السمة العامة لأنها كانت تجمع كل الأمم المسيحية الغربية ضد جامعة الدول الإسلامية الشرقية. وكانت تعلن أن هدفها يتمثل فى الاستيلاء على بيت المقدس، وتحرير الأراضى المقدسة فى فلسطين وإعادتها إلى أيدى المسيحيين وتأسيس مملكة لاتينية كبرى فيها. إلى أن تلك الحروب كانت تمثل فصلا خاصاً من فصول الصراع بين الشرق والغرب. وقد سبق أن ظهر هذا الصراع فى التاريخ القديم فى شكل الصراع بين الاغريق والفرس، كما ظهر فى العصور الوسطى فى شكل الحروب الصليبية، ثم أخذ بعد ذلك شكل الاستعمار والسيطرة فى العصور الحديثة، حتى انتقل إلى الحروب العالمية والايديولوجية وما أعقبها من حرب باردة حتى توجه العالم لوضع أسس نظام عالمى جديد فى التاريخ المعاصر، مازالت ملامحه فى مرحلة التكوين.

لقد بدأت الحروب الصليبية بعد أن أعلن قيامها البابا أربان الثانى فى سنة ١٠٩٥ فى كليرمون فى جنوب فرنسا[١]، وانتهت بخروج الصليبيين نهائيا من الأراضى المقدسة ومن مدينة عكا آخر معاقلهم فى سنة ١٢٩٢. وإن كان بعض المؤرخين يرون أن حروب البيزنطيين ضد السلاجقة قبل سنة ١٠٩٦ كانت حروبا صليبية، ويرون أن هناك حروبا صليبية أخرى وقعت بعد سنة ١٢٩٢، مثل صليبية نيكوبوليس. وذهب البعض إلى أن استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ هى حرب صليبية، وكذلك معركة ليبانتو فى سنة ١٥٧١ اعتبرها البنادقة أنها حرب صليبية، ولكن هذه الحروب لم تكن تجمع كل الدول المسيحية، ولاموجهة ضد كل الدول الإسلامية، كما أن هدفها لم يكن هو الاستيلاء على بيت المقدس واستعادتها من أيدى المسلمين.

والحقيقة أن أسباب الحروب الصليبية كانت كثيرة ومتنوعة، إذ كان المسيحيون فى أوربا يشعرون بتجدد الخطر الإسلامى بعد انتصار المسلمين فى موقعة الزلاقة

(١) جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : الاسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى، ص ٩٧.

سنة ١٠٨٦ ، التى استولوا بعدها على طليطلة فى الأندلس، وحدث ذلك بعد عشر سنوات من انتصار السلاجقة على البيزنطيين فى موقعة مناز جرد سنة ١٠٧٦ ، وبأحداق خطرهم بالقسطنطينية، فاستنجد الامبراطور البيزنطى اليكسيوس بالبابا أربان الثانى، وصادف ذلك هوى فى نفس البابا، وفرصة لمد نفوذه فى الشرق بعد أن وطد هذا النفوذ فى الغرب، وفرصة لتزعم كل العالم المسيحى فى حرب صليبية. وكانت الشعوب المسيحية فى غرب أوربا قد تحفزت للقيام بهذه الحروب نتيجة للدعاية التى كانت تصلهم مع الحجاج وكانوا يقاسون فى ذلك الكثير من المصاعب، بعد أن خضعت الشام لحكم السلاجقة، الذين كانوا حديثى عهد بالإسلام والذين كانوا أقل تسامحا عمن سبقهم فى حكم هذه الأقاليم مع الحجاج المسيحيين ولاشك فى أن هذه الأخبار كانوا قد بالغوا فيها لحشد النفوس للقيام بهذه الحروب، وبدعوى تخليص المسيحية والمسيحيين فى الأراضى المقدسة.

على أنه كانت توجد أسباب أخرى ساعدت على اتساع حركة الحروب الصليبية وتجنيد الجيوش لها فى أوربا من أقصاها إلى اقصاها. فكان كثير من النبلاء الذين لم يوفقوا إلى ميراث اقطاعى يحلمون بالحروب الصليبية التى قد تسمح لهم بتأسيس امارات أخرى فى الشرق، كما وجد رقيق الأرض فى هذه الحركة منفذاً طبيعياً ومعترف به من الكنيسة والحكومات لتحرير أنفسهم من العبودية الاقطاعية. هذا فضلا عن رغبة الكثيرين فى الحصول على الثراء ورغبة البعض الآخر فى نيل المثوبة وزيارة الأماكن المقدسة. وقد قام المئات من الوعاظ ورجال الدين بالتبشير بالحروب الصليبية فى قرى أوربا ومدنها وتجمع مئات الآلاف من الأهالى للمشاركة فى هذا العمل آنذاك. ويمكننا أن نقسم الحروب الصليبية بعد اعلانها على لسان البابا أربان الثانى إلى أربعة مراحل: المرحلة الأولى تمكنت فيها الحملة الصليبية الأولى بعد وصولها إلى مدينة القسطنطينية فى سنة ١٠٩٧ من أن تعبر البوسفور، وتتوغل فى الأناضول، ثم اتجهت إلى سوريا، واحتلت مدينة الرها، ثم أنطاكية فى سنة ١٠٩٨، ثم استولت على بيت المقدس فى شهر يوليو سنة

١٠٩٩ ، وتأسست المملكة الصليبية اللاتينية فى الشرق على النظام الاقطاعى الأوربى، وانتخب جود فرى البرجندى، دوق اللورين السفلى، ملكاً عليها، وقسم هذه الدولة إلى اقطاعات وزعها على قادة الحملة وكان هذا أقصى ما وصل إليه الأوربيون فى تلك المرحلة الأولى من الحروب الصليبية.

أما المرحلة الثانية من مراحل الحروب الصليبية فقد شهدت استيلاء عماد الدين زنكى على حلب فى سنة ١١٢٧ وتخليص الرها من الصليبيين فى سنة ١١٤٤ ، واستمر نور الدين يواصل سياسة والده من بعده فى تضييق الخناق على الصليبيين الذين استنجدوا بأوربا، فحضرت الحملة الصليبية الثانية وكان مصيرها الفشل فى إغاثة مملكة أورشليم اللاتينية وانتهت برجحان كفة المسلمين، واستيلائهم على دمشق.

وتميزت المرحلة الثالثة من مراحل الحروب الصليبية، بتوحيد كلمة المسلمين تحت قيادة صلاح الدين الأيوبى، الذى انتصر على الصليبيين فى موقعة حطين فى سنة ١١٨٧ ، ثم تخليصه بيت المقدس من أيديهم بعد ذلك بأربعة أشهر. وهنا أرسلت أوربا الحملة الصليبية الثالثة بقيادة الامبراطور فردريك الأول، ولكنه غرق فى أحد الأنهار فى أرمينيا وتشتت شمل جيشه. ثم جاء فيليب أغسطس بحراً إلى الأراضى المقدسة، ولكنه أضطر بعد فترة إلى العودة إلى بلاده. وظل ريتشارد قلب الأسد بجوار عكا مظهراً الشجاعة والفروسية ولكن دون أن يصل إلى نتيجة عملية أمام صلاح الدين، وانتهى الأمر بعقد صلح الرميلة فى سنة ١١٩٢ ، واعترف فيه الصليبيون بملكية المسلمين لبيت المقدس، وتعهد فيه المسلمون بمعاملة الحجاج بالتسامح، مع الموافقة على عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات وترك الساحل فيما بين يافا وصور فى أيدى الصليبيين.

على أن الحروب الصليبية اتجهت بعد ذلك فى المرحلة الرابعة اتجاها آخر يدل على أنها فقدت تماماً معناها وأهدافها الدينية وتمثل ذلك فى الحملة الصليبية

الرابعة فى سنة ١٢٠٤ التى فقدت هدفها المتمثل فى الاستيلاء على بيت المقدس وهو ما كان من شأن الحملات السابقة، وعمدت البندقية التى كانت تعيش آنذاك من الحروب الصليبية إلى تحويلها عن وجهتها الأصلية، وتوجيهها بدلا من ذلك إلى السيطرة على القسطنطينية والاستيلاء عليها من الأباطرة البيزنطيين الأرثوذكس حتى يسيطروا بذلك على المراكز التجارية التى كانت فى أيدى جيرانهم المسيحيين الضعفاء، بعد أن فشلوا فى السيطرة على مراكز المسلمين فى تلك الجهات. ولهذا اقتحموا القسطنطينية وكنائسها وسرقوا أيقوناتها ونهبوا شعبها رغم احتجاجات البابا، وتمكنت الحملة من تأسيس امبراطورية لاتينية ظلت منذ سنة ١٢٠٤ وحتى سنة ١٢٦١ حيث استعادها أباطرتها الأصليون، ومنحت البندقية امتيازات تجارية واسعة النطاق مما دل دلالة واضحة على أن المصالح المادية كانت تحكم حركة الحروب الصليبية. وزاد من وضوح هذه الظاهرة حملة بطرس لوسينيان ملك قبرص اللاتينى سنة ١٣٦٥ على الإسكندرية، حيث قام باحتلال المدينة لمدة أسبوع نهب ما كان فيها من ثروة، ثم عاد بجيشه إلى قبرص، وكذلك فى حملة يوحنا الطيب، دوق بربون، على مدينة المهدية بتونس فى سنة ١٣٩٠، تلك الحملة التى كانت توجهها جنوا لتحقيق أغراضها التجارية ومصالحها فى شمال افريقيا، كوسيلة للضغط على الأمراء فى تونس لعقد اتفاقات تجارية.

وعلى أية حال فقد أدى هذا التيار المعاكس المتمثل فى الحروب الصليبية إلى اتصال أوربا بالعالم الإسلامى، إلى جانب تأثر الأوربيين بالوجود الإسلامى والحضارة الإسلامية فى الأندلس من جهة وجزر البحر المتوسط من جهة أخرى. وكان من نتائج هذا الاتصال إحداث تغييرات جوهرية فى المجتمع الأوربى تمثلت فى رغبة الأوربيين فى تحقيق الجوانب الايجابية التى شاهدوها لدى المسلمين والتخلص من الجوانب السلبية التى ظهرت فى مجتمعاتهم الأوربية من سيطرة الاقطاع ورجال الدين والقيود التى اكتنفت حياتهم فى العصور الوسطى.

ولايجب أن يغيب عنا ونحن نحرص على الموضوعية أن نشير إلى أن العصور الوسطى كانت تمثل حلقة من حلقات التطور بين العصور القديمة والعصور الحديثة، بكل ما اكتنف هذا التطور من ايجابيات وسلبيات، إلا أنه كان تطوراً مستمراً وإن تم بايقاع بطيء ومتدرج. ومما يؤكد لنا ذلك تلك المحاولات التى قام بها الامبراطور جستنيان لتوحيد أوربا، فى الشرق والغرب، وإن كان قد فشل فيها، وكذلك محاولات شارلمان جمع شمل أوربا تحت حكمه، على أنها الأساس لنشأة الدول الأوربية الحديثة، وأنه كانت توجد خلف هذه الحياة المضطربة التى عاشتها أوربا فى العصور الوسطى عملية تكوين أوربا الحديثة تسير فى سيرها الطبيعى المتدرج حتى اكتلمت مقوماتها وظهرت أثار هذا التطور والتبلور فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وبشكل لم يكن رجال العصور الوسطى قد ألفوه من قبل، ويتمثل ذلك فى نمو النظم الملكية فى انجلترا وفرنسا وظهور الروح القومية تدريجيا فيهما، الأمر الذى ساعد على ايجاد مجتمع منظم، يتمتع بحياة مستقرة نسبيا، وتأخذ قوة الأمراء ونبلاء الاقطاع فى الضعف فى هذه الدول وتحل محلها سلطة الملوك الأقوياء الذين تزعموا الدول القومية الحديثة.

ويهمنا كثيراً أن نشير كذلك إلى تطور الحياة الفكرية والعلمية فى أوربا فى العصور الوسطى لنقارن بينها وبين ما أصبحت عليه الحياة هناك فى مطلع العصور الحديثة. لقد كان الاهتمام محصوراً بين الكنائس والأديرة للاحتفاظ بالتراث العلمى والفكرى والإنسانى، ثم تبدلت الأمور وتطورت نتيجة للمزج بين حضارات وثقافات البحر المتوسط، ونتيجة لتأثير الفكر اليونانى فى أوربا، بفضل ما نقله العرب إليهم، فأعطى عصر الترجمة ترجمات العرب فى الرياضيات والهندسة والطب، وأخذ الناس يدرسون هذه العلوم كفروع مستقلة للمعرفة. وبعد أن كان من الضرورى لأبناء العصور الوسطى التسلح بالعقيدة من أجل الفهم، أصبحوا لايعتقدون فى شئ قبل فهمه. وبدأت العقول تتحرر وتتجه صوب النقد والتحليل والمقارنة وطبقوا ذلك على الدين نفسه، وهاجموا تصرفات رجال الكنيسة، وبعض

عقائدها، وكان من نتاج ذلك حركة الإصلاح الدينى فى أوربا فى مطلع العصور الحديثة مصاحبة لحركة الكشوف الجغرافية وفى أعقابها.

ومن مظاهر نشاط الحركة العلمية والفكرية فى أوربا فى نهاية العصور الوسطى، ظهور الجامعات التى ارتبطت بانتشار العلم وظهرت منذ القرن الثالث عشر الميلادى، مثل الجامعات الايطالية وجامعة باريس. وبدأت فكرة الجامعة بداية مبسطة باجتماع الطلاب حول اساتذتهم، لتلقى العلم الدينى أو الفلسفى، وتنقلوا معهم من مكان لآخر. ولم تكن هناك أماكن أو بنايات خاصة بهم، فكانوا ينتقلون حيث يطيب لهم الاستقرار. ثم وجدت هذه الجماعات من الطلاب والأساتذة أن من مصلحتهم أن يوثقوا الروابط بينهم، فنشأت الجامعات، فى القرن الثالث عشر الميلادى وأخذ الملوك والبابوات يصدرون القرارات بإنشائها ويمدونها بالأموال ويقدمون لها التسهيلات. ونشأت بهذه الطريقة كليات لدراسة علوم اللاهوت والفنون والقانون، وإن اصطبغت كلها بالصبغة الدينية.

وإذا كانت هذه هى أبرز مظاهر الحياة فى العصور الوسطى، فإن تلك المظاهر تداخلت مع مظاهر الحياة فى بداية العصور الحديثة بحيث أصبحت الآراء والأفكار متداخلة مع بعضها مما يتعذر معه وضع حد فاصل بينها. ويمكننا أن نعتبر أن التاريخ الحديث قد أخذ شكله الواضح ابتداءً من القرن السادس عشر الميلادى، وبطريقة تجعلنا ننظر إلى العهد السابق لذلك على أنه فترة انتقال بين العصور الوسطى والعصور الحديثة.

ففى فترة الانتقال ظهرت بشائر عصر النهضة الأوربية فى شبه الجزيرة الايطالية، ثم امتدت منها إلى بقية أنحاء أوربا، وإن كانت قد أخذت لنفسها طابعاً خاصاً متميزاً فى كل منطقة من المناطق. كما شهدت هذه الفترة توجه أوربا إلى بدء حركة الكشوف الجغرافية التى أدت إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح المؤدى إلى الهند والشرق الأقصى من جهة، واكتشاف الامريكتين من جهة

أخرى، ثم الدوران حول الكرة الأرضية وبدء مرحلة جديدة للتوسع الأوربى والاستعمار العالمى. بل إن هذه الفترة شهدت كذلك حركة الاصلاح الدينى البروتستنتى والتى كانت ثورة على تقاليد وعقائد الكنيسة الكاثوليكية وذلك لإصلاح العيوب التى تفشت فيها وخاضت أوربا غمار المعارك التى قامت بسبب حركة الاصلاح الدينى وكانت لها نتائج خطيرة على حياة المجتمع الأوربى فى مطلع العصور الحديثة، وهو ما سوف نتناوله بالدراسة فى الفصول التالية.

# الفصل الأول
## حركة النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة

# الفصل الأول

## حركة النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة

عرضنا فيما سبق الأوضاع التاريخية لأبرز ملامح ومظاهر الحياة فى أوربا فى العصور الوسطى، لكى نمهد السبيل لتفهم المتغيرات التى طرأت على هذه الأوضاع، بقيام حركة النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة، وذلك فيما يخص الفكرة العالمية التى سادت أوربا فى عهد الامبراطورية البيزنطية فى الشرق، والرومانية المقدسة فى الغرب، وكذلك من ناحية البابوية، وتعاظم سلطتها، وسيطرتها على مقدرات الحياة فى أوربا فى العصور الوسطى، والتنافس بينها وبين النظام الامبراطورى والذى أدى إلى إضعاف القوتين، الامبراطورية، والبابوية على السواء. ثم تطرقنا إلى نظام الاقطاع وكيف كان نظاماً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وكيف بدأ ايجابياً، ثم تحول إلى نظام سلبى، كان ينبغى التخلص منه، على نحو ما حدث فى حركة النهضة الأوربية، عن طريق التوجه نحو الروح القومية، وإنشاء الدول القومية. وأخيراً أشرنا إلى الحروب الصليبية وما أحدثته من آثار، فى المجتمع الأوربى، نتيجة للاحتكاك بالشرق الإسلامى، وما أحدثه ذلك من استنارة لدى الأوربيين، دفعتهم إلى تغيير واقعهم آنذاك، إلى ماهو أفضل، من خلال حركة النهضة الأوربية.

وسوف نحاول فيما يلى التعريف بالنهضة الأوربية، فى مطلع العصور الحديثة، كمصطلح، وواقع. فالنهضة تعنى فى مفهومها المباشر المولد الجديد، أو البعث الجديد، وهو ما يطلق عليه بالانجليزية Renaissance، بينما تعنى فى مفهومها الواسع، تحرر عقل الإنسان الأوربى من قيود العصور الوسطى، وانطلاقة للتعبير بحرية، عما يجيش فى صدره من انفعالات وأحاسيس، دون أن تسيطر عليه قوى اقطاعية، أو كنسية، بعد أن أفرزت هذه القوى فى مراحل تدهورها تأثيرات سلبية.

ونظراً لأن الأحداث التاريخية الخطيرة لايمكن قصر تفسيرها على أصول

محددة، وإنما يمتد تفسيرها إلى أصول متعددة ومتشعبة، فإننا سنحاول تفسير حركة النهضة الأوربية من خلال استقرائنا لوجهة نظر القائمين على أنشطة الحياة المختلفة فى عهدها.

**فإذا نظرنا مثلا إلى عصر النهضة فى أوربا من وجهة نظر رجال الفن،** نجد أنهم يعبّرون عن حركة النهضة بتلك الحركة التى أدت إلى الكشف عن التراث القديم، وإلى بعثه بعثاً جديداً يتلاءم مع روح العصر، وذلك بالمزج بين التراث القديم والتراث البيزنطى. واستطاع هؤلاء الفنانون أن يصهروا تلك الثقافات المختلفة المصادر، وأن يخرجوا لنا فناً جديدا مستمداً من تلك المصادر جميعها. واستطاع هذا الفن الجديد أن يعبر تعبيراً صادقاً عن المشاعر والأحاسيس، التى كانت تختلج نفوس الأفراد فى ذلك الوقت، مما عجزت عن التعبير عنه فنون العصور الوسطى. ومن أئمة هذا الفن الجديد**ليوناردودافنشى** (١٤٥٢ - ١٥١٩) **ومايكل أنجلو، وروفائيل.**

**أما رجال الأدب** فى أوربا فقد عبّروا عن حركة النهضة الأوربية بحركة الكشف عن التراث الأدبى القديم، وتذوقه، والتأثر به، والعمل على محاكاته والاقتباس منه، وادخال التعديلات التى تتطلبها البيئة الجديدة. ثم محاولة خلق عناصر فنية جديدة مكنت الأدباء من أن يعبروا عن روح العصر بصدق وحرية. ومن أئمة الأدب فى عصر النهضة دانتى Dante سنة ١٣٢١، وبوكاشيو Bocac-cio سنة ١٣٧٥، وبترارك Peterarch سنة ١٣٧٤، وفرانسوا رابليه 'Francois Roblais وميشيل ده منتانى Michel De Montange.

**أما حركة النهضة فى أوربا من وجهة نظر رجال الفكر،** فهى تعنى نمو ملكة النقد عند الفرد، واستخدام هذه الملكة، فى استعراض ودراسة النظم المختلفة، التى عرفتها أوربا العصور الوسطى. وكذلك فى الاقتباس من التراث القديم اقتباسا يتلاءم مع الحياة الفكرية الجديدة. وسيؤدى اخضاع كل نظم العصور الوسطى

للنقد، إلى هدم القيم القديمة والوسيطة، وإلى تمهيد الطريق لظهور قيم جديدة وفلسفات جديدة، لافى عصر النهضة ذاته، بل فى العصر الذى يليه، على أيدى ديكارت وغيره من الفلاسفة المحدثين.

وإذا نظرنا إلى عصر النهضة فى أوربا من خلال نظرة رجال الكشوف الجغرافية والمخترعات، نجد أن هؤلاء يعتبرون عصر النهضة عصر الكشوف الجغرافية الواسعة، تلك الكشوف التى تمثل مرحلةً حاسمةً فى التاريخ، والتى أدت إلى تعرف أوربا على مناطق جديدة من العالم، وإلى تطور النظريات الاقتصادية تطوراً كبيراً، جاء بأكبر فائدة على الدول الأوروبية فى ذلك الوقت. كذلك ينظر رجال المخترعات إلى عصر النهضة على أنه عصر استكشاف البارود، والميكرسكوب، وصناعة الورق، والطباعة، بكل ما أحدثته من ثورة فى نشر المعرفة على نطاق واسع.

أما بالنسبة لوجهة نظر رجال العلم ازاء عصر النهضة الأوربية فقد عبروا عن تلك الفترة بالفترة التى ظهرت فيها النظريات العلمية الحديثة، على أنقاض النظريات القديمة، التى سادت خلال العصور الوسطى. وقد نادى بتلك النظريات جاليليو، ووليم هارفى وغيرهم من كبار رجال العلم الذين أحدثوا تطوراً هاماً فى النواحى العلمية خلال عصر النهضة، وفى مستهل التاريخ الحديث للقارة الأوربية.

وإذا انتقلنا إلى الناحية الدينية ونظرنا إلى عصر النهضة الأوربية من هذه الزاوية، لوجدنا أنه عصر إخضاع الدين، والعلوم الدينية لملكة النقد، تأثراً فى ذلك بروح التراث القديم، الذى طورته الحضارة الإسلامية، وماترتب على حركة النقد هذه، من خروج مارتن لوثر على الكنيسة الرومانية، ومن بعده كلفن، وقيام حركة الاصلاح الدينى الكبرى التى ميزت عصر النهضة الأوربية.

أما عصر النهضة فى أوربا من وجهة نظر المؤرخين ورجال السياسة، فهو عبارة عن انهيار نظام الاقطاع، وزواله من الوجود، كدعامة من الدعامات القوية، التى قامت عليها الحياة فى أوربا فى العصور الوسطى، ونشوء القوميات الحديثة والملكيات

الكبيرة فى أوربا، ونمو تلك الملكيات نمواً كبيراً. كذلك ينظر المؤرخون إلى تلك الحركة، على أنها حركة زوال سلطة الكنيسة الكاثوليكية العالمية، وتحول البابوية فى أوربا من سلطة عالمية إلى مملكة صغيرة تمثل جزءاً من وسط ايطاليا والتى تعرف حاليا (بالفاتيكان).

كذلك ينظر المؤرخون ورجال السياسة إلى حركة النهضة الأوربية، على أنها حركة تيقظ الوعى السياسى لدى الشعوب الأوروبية، ومطالبة تلك الشعوب بما لها من حقوق. وقد استطاعت تلك الشعوب الأوربية أن تنال مطالبها تدريجيا، إلى أن قامت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر، والتى كان لها أثرٌ كبيرٌ فى تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر[1].

هذه إذاً وجهات نظر أهل التخصصات المختلفة إزاء حركة النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة، ولكى تكتمل الصورة أمامنا تماماً عن حركة النهضة الأوربية، فإنه ينبغى علينا أن نشير إلى أثر الحضارة الإسلامية فى النهضة الأوروبية الحديثة. فمن المعروف أن اسم «العصور المظلمة» كان يطلق فى التاريخ الأوربى على الشطر الأول من العصور الوسطى، خلال الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الخامس الميلادى، وقيام «النهضة الوسيطة» فى أواخر القرن الحادى عشر. وكانت قد رانت على أوربا خلال هذه القرون الستة، سحابة كثيفة الإظلام، من التخلف الحضارى، توارت فيها معالم الحضارة الرومانية تدريجيا، من ايطاليا وفرنسا، واسبانيا وانجلترا، وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية، واضمحلت المدن الزاهرة، وأغلقت المدارس، وانتشرت الجهالة، ولم يبق أثرٌ للحضارة والعلم والثقافة فى أوربا، إلا بصيص خافت ينبعث من المؤسسات الدينية، مثل المدارس الديرية، والمدارس الاسقفية، أو الكاتدرائية. وكانت البابوية تشرف على توجيه الدراسة فى هذه المدارس، وتُخطط للسياسة

(١) محمد محمود السروجى (دكتور): **معالم تاريخ أوربا الحديث**، ص ٢٢.

التعليمية فيها، مما طبع الثقافة فى أوربا آنذاك بطابع دينى ضيق متزمت. إذ أدخلت الكنيسة فى البرامج التعليمية مايسمى الفنون السبعة الحرة، وهى: النحو والبلاغة والجدل والحساب والهندسة والفلك والموسيقى. وكان تدريس هذه المواد يقوم على أسس مسيحية، لأن المدارس تحولت فى أوربا إلى تحقيق هدف واحد هو تخريج رجال الدين بعد إعدادهم للقيام بمهمتهم فى المجتمع وهى إفهام الناس روح الانجيل وتعاليم المسيحية. وقد ساعد على انتشار الجهل والانحطاط العلمى أن الجرمان الذين أقاموا لهم ممالك فى غرب أوربا على أنقاض الدولة الرومانية كانوا يظهرون نفوراً شديداً من التعليم. إذ حرّم ثيودريك Theodric ملك القوط الشرقيين ارسال أبناء القوط إلى المدارس بمقولة أن الطفل الذى يشب على الخوف من عصا المعلم لن يكون فى مستقبل حياته شجاعاً يواجه السيوف والحراب. كما أن بعض البابوات فى أوربا كانوا لايشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية، ويحاربون ما عداها من دراسات، محاربة عنيفة لاهوادة فيها. وكان من بين هؤلاء البابوات البابا الذى أطلق عليه مؤرخو العصور الوسطى جريجورى العظيم والذى تولى كرسى البابوية فى الفترة الممتدة بين عامى (٥٩٠ - ٦٠٤م).

وبينما كان ذلك هو حال العالم الأوروبى قبيل القرن الحادى عشر الميلادى، فإن المسلمين كانوا آنذاك يمضون قدما فى إقامة بنيان حضارى شامخ، ويضربون أروع الأمثلة فى حرية الفكر، وتشجيع البحوث، وسرعة التطور[١]. وقد كان أثر الإسلام والمسلمين فى التاريخ خلاقاً مبدعاً، لم يقف عند حد التغييرات السياسية، التى أحدثوها فى أوضاع العالم المعروف آنذاك، وإنما كان هذا الأثر أشد ما يكون وضوحاً فى الميدان الحضارى. ذلك أن رحابة صدر الإسلام إزاء الحضارات الاغريقية والرومانية، والفارسية والهندية، وغيرها من الحضارات الأجنبية، ومقدرته على هضمها، إنما تعود إلى قيم الإسلام، التى تحترم ما قدمه السلف عبر الحضارات الإنسانية المتعاقبة. إذ أن المسلمين كانوا يتخيرون عناصر الحضارات التى

(١) فؤاد سزكين (دكتور): **محاضرات فى تاريخ العلوم**، ص ١٩.

صادفوها تخيراً دقيقاً، ثم مزجوا هذه العناصر بعضها ببعض، وأكملوا نواحى النقص فى العناصر القديمة، وصححوا الأخطاء التى وقع فيها أسلافهم، ثم مضوا فى إتمام البناء الحضارى، وتوصلوا إلى نتائج جديدة، واكتشافات علمية مبتكرة، لم يتوصل إليها الفكر البشرى من قبل[١].

وقد أخذت الحضارة الإسلامية تزحف إلى أوروبا، منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، وسلكت فى طريقها عدة معابر، أهمها ثلاثة، هى شبه جزيرة أيبيريا أولا، وجزيرة صقلية ثانيا، وبلاد الشرق الأدنى وما أرتبط بها من حروب صليبية ثالثا.

فلما أفاقت أوربا الغربية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى من سبات الفترة المظلمة، وجدت نفسها أمام حضارة إسلامية عملاقة، أسهمت بنصيب موفور فى كل ميادين العلم والمعرفة، وكان أن هرع طلاب العلم، من مختلف أنحاء أوربا الغربية، إلى مراكز الحضارة الإسلامية، ينهلون من مواردها، يدرسون ويترجمون، ويقتبسون الكثير من معالم هذه الحضارة[٢]. وقد ترتبت على هذه الدراسة والترجمة والاقتباسات نتيجة هامة، هى قيام وثبة حضارية ازدهرت فى القرن الثانى عشر الميلادى، يطلق عليها اسم «النهضة الوسيطة»، وكانت هى فى حد ذاتها ثمرة من ثمار الاتصال الحضارى، بين غرب أوربا، ومراكز الحضارة الإسلامية. وقد أدت هذه النهضة الوسيطة إلى تمهيد طريق الرقى، وتحرير العقل الأوروبى، من القيود الثقيلة التى فرضتها عليه، الهيئات والأنظمة المختلفة عبر العصور الوسطى، وأصبحت النفوس مهيأةً لقبول التطور العظيم الذى حدث بعد قرن وبعض قرن، أى فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى، ونعنى بهذا التطور،

---

(١) فرانتز روزنتال (دكتور): **مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى**، ص ١٥.

(٢) عبد الرحمن بدوى (دكتور): **دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى**، الطبعة الثانية، ١٩٦٧، ص ٥ - ١٠.

حركة النهضة الأوروبية الحديثة. وتعتبر هذه النهضة الحديثة بالفعل ثمرة من ثمار الاتصال الحضارى بين أوروبا، ومراكز المدنية الإسلامية منذ منتصف العصور الوسطى، وكان من نتاج هذه النهضة الحديثة، ظهور الحضارة الأوربية المعاصرة، التى تدين بالتالى بالفضل للمدنية الإسلامية بشتى فروعها ومظاهرها[1].

## بداية النهضة الأوروبية فى شبه الجزيرة الايطالية:

من الثابت تاريخياً أن شبه الجزيرة الايطالية هى المنطقة التى بدأت فيها حركة النهضة الأوروبية فى نهاية العصور الوسطى، ثم انتقلت منها هذه الحركة إلى أنحاء القارة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة. ولكى نجيب عن هذا السؤال ينبغى علينا أن نسترجع تاريخ شبه الجزيرة الايطالية منذ العصور القديمة لنتعرف على ما توصلت إليه من أوضاع فى مستهل التاريخ الحديث.

وتعتبر هذه النهضة الحديثة ثمرة من ثمار الاتصال الحضارى بين أوربا ومراكز المدنية الإسلامية منذ منتصف العصور الوسطى، وكان من نتاج هذه النهضة الحديثة ظهور الحضارة الأوربية المعاصرة. فإذا تناولنا تاريخ شبه الجزيرة الايطالية فى العصر القديم، نجد أنها كانت مقراً للامبراطورية القديمة، تلك الامبراطورية التى عبرت قرون عديدة فى التاريخ القديم، والتى قدمت للإنسانية تراثاً خالداً، قد تطرق إليها الضعف والانحلال شأنها فى ذلك شأن كل الحضارات الإنسانية. فتوالت عليها اغارات البرابرة إلى أن تمكن هؤلاء من إسقاطها فى عام ٤٧٦م.

وأعقب سقوط الامبراطورية الرومانية فترة من الاضطراب نتيجة لسقوط هذه القوة الجبارة التى سيطرت على العالم القديم، فهذا الاضطراب راجع إلى الفراغ الذى تركه سقوط هذه الامبراطورية وزوالها من الوجود. وستنتهى تلك الفترة المضطربة بوجود نوع من الاستقرار النسبى إلى قيام بعض المحاولات التى ترمى

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور): **أوروبا فى مطلع العصور الحديثة**، الجزء الأول، ص ٢٢ - ٢٤.

إلى ايجاد نوع من الوحدة والاستقرار لشبه الجزيرة الايطالية.

فمثلا وجدت محاولة من قبل شارلمان فى النصف الثانى من القرن الثامن سنة ٧٧٦م فتمكن من بسط سيطرته على شمال ايطاليا واخضاعها لحكمه. كذلك قامت محاولة أخرى بعد تقسيم امبراطورية شارلمان طبقا لمعاهدة فردان سنة ٨٤٣. ووجدت محاولة ثالثة من قبل الدولة الرومانية المقدسة، فاخضعت شمال ايطاليا كذلك لحكمها وحققت نوعا من الاستقرار النسبى فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى.

وبالرغم من هذه الوحدة فقد ظلت سلطة الأباطرة ضعيفة فى ممتلكاتها بايطاليا ولم يصبح للامبراطورية الرومانية المقدسة من السلطة سوى الاسم. وظلت عوامل الفرقة والتفكك الطابع المميز لتاريخ ايطاليا السياسى فى العصر الحديث. ولم تنفرد ايطاليا بهذا التقسيم السياسى، بل سبقها إليه المدن الاغريقية القديمة حيث كان من مميزات التاريخ اليونانى القديم فى القرن الرابع قبل الميلاد. ويتشابه تاريخ الولايات الايطالية بتاريخ اليونان القديم فى أن كل منهما قد تعرض لغزو خارجى، وذاق ويلات الحروب والانقسامات الداخلية. ولكن كلا الشعبين الايطالى واليونانى سيساهم بنصيب وافر فى تقدم الحضارة الإنسانية.

وتميز التاريخ الايطالى فى العصر الحديث بنشوء فئة جديدة من المحاربين تخصصت فى أنواع القتال ووضعت أسس الفنون الحربية الحديثة، ودلك خلال القرن الثالث عشر. إلا أن صناعة الحرب لم تجد هوى فى نفوس الايطاليين. فتركوا هذه الناحية الحربية لغيرهم من الجنود المرتزقة للقيام بها، وعكفوا على دراسة الأدب والنحت والتصوير والشعر، وقدموا للإنسانية تراثاً خالداً عملت الدول الأوربية على محاكاته بعد ذلك. وقد دفع حب الايطاليين للفن إلى بعث التراث العلمى والأدبى القديم وإلى إحياء هذا التراث فى ثوب جديد يتلاءم مع الظروف السياسية والحضارية لتلك الفترة من الزمان. ثم أخذ الايطاليون يدخلون تعديلات جوهرية

على ما نقلوه من القديم وصبغوه بالصبغة الايطالية، فأصبح يمثل الحالة فى ايطاليا فى مستهل التاريخ الحديث أصدق تمثيل.

وامتاز تاريخ ايطاليا فى تلك الفترة بصفة عامة بالنبوغ فى الفنون والآداب الحديثة وفى التعمق فى دراسة هذين الفنيين بنوع خاص، فاخرجت لنا ايطاليا فى هذين الميدانين فناً جديدا فى الرسم والنحت والتصوير والأدب، واستطاع الفنان الايطالى أن يعبر عن مكنون نفسه بحرية وصراحة لم تعهدها العصور الوسطى. فالأديب أصبح يعبر عن خلجات نفسه بصراحة تامة فى كتاباته. وكذلك الشأن بالنسبة للشاعر والمصور والمثال فتلك الصراحة فى التعبير أهم ما يميز الاتجاهات الجديدة فى الفنون والآداب فى العصور الحديثة. ونتيجة لهذا الأسلوب الجديد فى التعبير ظهر عباقرة الفنانين فى مستهل التاريخ الحديث، مثل دانتى وبترارك وميخائيل انجلو ورافاييل وغيرهم. وقد انتج هؤلاء تراثاً خالداً ظل المثل الأعلى للفن الرفيع طوال العصور الحديثة، ولم تقتصر قيمة تلك الروائع الأدبية والفنية على عصرها فحسب، بل مازال يُنظر إلى هؤلاء الفنانين كأساتذة للفن فى العصور الحديثة.

ومما يلاحظ أيضا على تاريخ ايطاليا فى مستهل تاريخها الحديث ضعف سلطة الكنيسة فى روما وما ترتب عليه من انصراف الايطاليين عن المثل والتقاليد الدينية التى عرفت فى العصور الوسطى، واتجاههم إلى الحياة الواقعية فالاهتمام بالحياة الدنيا وما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون قد حظيت باهتمام كبير. وقد ارتبط هذا التحول بخروج الناس على قواعد الأخلاق المتعارف عليها، فبدأوا يتحررون من كل القيود التى فرضتها عليهم الأنظمة الوسيطة. وزاد هذا التحرر عن الحد المعقول، فساد ايطاليا حالة غير طبيعية تميزت بالانحراف فى الناحية الاخلاقية كأثر مباشر للثورة العقلية التى سيطرت على تفكير الناس وعلى نظم الحياة فى عصر النهضة وبدء العصور الحديثة.

ولنسرد بشئ من التفصيل الأوضاع القائمة فى بعض الامارات الايطالية التى أسهمت فى التاريخ الايطالى الحديث والتى كان لها دور فعال فى تلك الفترة من الزمان ولنبدأ بامارة نابولى.

**١) امارة نابولى:**

تشمل هذه الامارة الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايطالية مضافا إليها جزيرة صقلية. وقد ارتبط تاريخ نابولى بتلك الجزيرة ارتباطاً وثيقاً. ففى بعض الأوقات كانت تتكون امارة نابولى من الجزء الجنوبى لايطاليا وجزيرة صقلية. وفى الأوقات الأخرى كانت تنفصل تلك الجزيرة عنها. وقد خضعت جزيرة صقلية للحكم العربى خلال العصور الوسطى. كما تعرضت أيضا لغزوات النورمانديين خلال القرن الحادى عشر الميلادى. وكان لهذا الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايطالية أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ ايطاليا بصفة خاصة وللتاريخ الأوربى بصفة عامة.

فهذا الجزء الجنوبى قد خضع لمؤثرات عربية فترة غير قصيرة ثم تلتها مؤثرات نورماندية من القرن الحادى عشر الميلادى واستطاعت جزيرة صقلية أن تستوعب هاتين الثقافتين وأن تمزج بين هاتين الحضارتين وأن تكون من هذا المزيج تراثاً حضارياً جديداً، أدى إلى ظهور عقلية جديدة وأدب جديد فى جنوب شبه الجزيرة الايطالية. وقد حظى هذا التراث الحضارى الجديد بتشجيع الحكام فى نابولى، وعلى الخصوص من فردريك الثانى الذى تولى حكم هذه الامارة خلال القرن الثالث عشر.

وقد اهتم هذا الحاكم اهتماما كبيراً بالنواحى العملية، ففى بلاطه بنابولى اجتمع الأدباء والشعراء والكتاب. كما شجع هذا الحاكم حركة الترجمة والنقل من اللغة العربية واليونانية. بل لقد ذهب فى تشجيعه لهذه الحركة إلى نسخ التراجم الجديدة واهدائها إلى الجامعات الايطالية والأوربية.

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر أخذ التنافس يشتد بين فرنسا وبين امارة اراجون

الاسبانية، وزاد هذا التنافس نتيجة لمحاولة كل من الطرفين الاستيلاء على الجزء الجنوبى من ايطاليا، وقد شجع هاتين القوتين على هذا التنافس حالة ايطاليا وما بها من ضعف وتفكك، تلك الحالة التى أغرت الدول المجاورة على أن تتدخل فى شئون ايطاليا تحقيقا لمصالحها الخاصة وأغراضها الاستعمارية. وانتهى الصراع بين الطرفين بانتصار اسبانيا واستيلائها على جزيرة صقلية. وقد حقق الحكم الاسبانى لتلك الجزيرة نوعاً من الأمن والاستقرار النسبى.

ولم تركن فرنسا لهذه الهزيمة فأخذت تهدد النفوذ الاسبانى فى ايطاليا وخصوصا فى عهد الملك شارل الثامن ملك فرنسا، وهاجمت قوات فرنسا الأراضى الايطالية وسيطرت على بعض أجزاء منها. واتخذت فرنسا من وجودها فى ايطاليا مبرراً للتدخل فى شئون ولاية نابولى، وفى ادعاء فرنسا بحقها فى وراثة عرش نابولى وستصبح ايطاليا نتيجة لهذا التدخل الحربى مسرحا للقتال. وسيجد الفرنسيون بعد دخولهم ايطاليا أن الحضارة الايطالية أرقى من حضارتهم، وسيترتب على هذا انتقال الحضارة الايطالية من ايطاليا إلى فرنسا وإلى غيرها من الدول الأوربية.

**٢) الولايات البابوية:**

عرفنا خلال العصور الوسطى ذلك الصراع الطويل الذى نشب بين القوتين العالميتين وهما الامبراطورية والبابوية والذى انتهى بانتصار السلطة الزمنية نتيجة لانهزام البابوية وزوال نفوذها من أوروبا حتى اقتصر نشاط البابوات على شبه الجزيرة الايطالية نفسها، أى أن البابوات رأوا أن يعوضوا ما فقدوه من سلطة عالمية على حساب حرية الامارات الايطالية.

وحدث أثناء صراع البابوية مع الامبراطور أن انتقل البابا من روما إلى مدينة افنيون Avignon بجنوب فرنسا. وفى هذا المكان البعيد عن مركز البابوية القديم عاش البابوات معيشة مترفة فيها الكثير من البذخ والاسراف، تاركين مدينة روما

للظروف التى ستقرر مستقبلها. ونتج عن سلطة البابوية فى روما أن قامت جماعة من الارستقراطية وأخذت تسيطر على ممتلكات البابوية، ولكن هذه الحركة قد لقيت معارضة من قبل فئة كبيرة من السكان، ونشأت فى ذلك الوقت حركة أخرى مناهضة للحركة الارستقراطية تحت زعامة أحد الايطاليين ويدعى كولا دى رينزى لمحاولة توحيد ايطاليا تحت الحكم الجمهورى واتخذ دى رينزى روما القديمة مادة لاشعال الحماس الوطنى، ولإزكاء الروح القومى نحو الوحدة، لتحقيق ماكان لمدينة روما القديمة من مجد وقوة. ولكن لم يكتب لهذه الحركة النجاح لمعارضة الكثيرين لمبادئها، فيكون نصيبها الفشل وقتل زعيمها فى منتصف القرن الرابع عشر.

وعندما انتقلت البابوية من مدينة افنيون إلى مدينة روما ظلت تعانى الشئ الكثير من الاضطرابات والضعف فترة غير قصيرة، بل لقد وصلت تلك الحالة من الضعف إلى حد وجود بابا فى روما وآخر فى افنيون. وخضع البابا فى روما للمؤثرات الايطالية بينما خضع زميله فى افنيون للمؤثرات الفرنسية وحاول كل منهما أن يسير فى سياسته إزاء روما وإزاء الولايات الايطالية فى الاتجاه المضاد لسياسة تلك الولايات. فسياسة التدخل فى شئون الولايات الايطالية ومحاولة اخضاعها لزعامة البابا كانت السياسة المقررة للبابوية فى ذلك الوقت.

ولم يقف تدخل البابوية فى الشئون الداخلية للولايات الايطالية فحسب، بل تعداها إلى مقاومة كل حركة ترمى إلى الأخذ بأسباب النهضة وبعث التراث الكلاسيكى القديم. نظراً لأن هذا التراث القديم كان مشبعاً بروح الوثنية – وبحكم رياسة البابا للكنيسة المسيحية كان من واجبه أن يقاوم هذه النزعات الوثنية وأن يحول بينها وبين الاختلاط بالثقافة والتعاليم المسيحية.

ولكن رغم الجهود الكبيرة التى بذلت فى سبيل ايقاف تيار النهضة فقد باءت جميعها بالفشل، ولم يستطع البابوات أن يوقفوا عجلة الزمن أو أن يرجعوها إلى الوراء.

ولهذا لم يجد البابوات بدا من مسايرة الحركة، بل وتشجيعها، فظهر بابوات من أنصار تشجيع الاتجاه الجديد، ومنهم من كان يقوم بتدريس التراث القديم. وسنجد أن البابوية في وضعها الجديد ستشجع حركة النهضة في مختلف النواحي الأدبية والفنية.

وسنلاحظ أيضا أن مركز البابوية قد أخذ في التغيير في أواخر القرن الخامس عشر نتيجة لازدياد سلطة حكام الولايات في ايطاليا. وهذا التفوق في السلطة قد صرف جهود البابوات إلى زيادة التدخل في شئون تلك الولايات بشكل واضح، وإلى تدبير المؤمرات المختلفة وإلى خلق عوامل الفرقة والانقسام حتى لا تتحد تلك الولايات، ويقوى نفوذها السياسي في ايطاليا على حساب النفوذ البابوي. ومن أمثلة هؤلاء البابوات الذين اهتموا بالشئون السياسية البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا، وقد اعتلى كرسي البابوية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر. وكان هذا البابا لايختلف في كثير أو قليل سواء في حياته العامة أو الخاصة عن الحكام الزمنين، فله بلاط لايقل فخامة وروعة عن بلاطات ملوك أوربا، كما كان هذا البلاط أيضاً يزخر بالحفلات المختلفة التي لم يكن يراعي فيها بطبيعة الحال قواعد الأخلاق التي تعارف عليها المسيحيون، هذا فضلا عن رأس الكنيسة وحامي الديانة المسيحية. كما اشتهر هذا البابا أيضا بحبه للمؤمرات والدسائس وسفك الدماء وحاول أثناء فترة حكمه أن يبسط سلطانه على ايطاليا بمختلف السبل، وأخذ يدعم نفوذ ابنه القيصر بورجيا في منطقة رومانيا في ايطاليا.

ومثال آخر لهذا النوع من البابوات ليو العاشر وعاش في النصف الأول من القرن السادس عشر، وحاول أيضا السيطرة على امارات ميلانو وتوسكانا ونابولي، ولكن ذهبت محاولاته في هذا السبيل ادراج الرياح.

وخلاصة القول فالبابوية رغم ما بذلته من جهود لتحقيق الوحدة التي تنشدها

لايطاليا تحت زعامتها قد باءت بالفشل. وأدى اخفاقها فى تحقيق هذا الهدف الكبير إلى وقوفها بالمرصاد لكل محاولة تقوم بها إحدى الولايات لتوحيد ايطاليا. أى أن البابوية قد فشلت فى ايجاد وحدة ايطالية وفى نفس الوقت لم تسمح لغيرها من الولايات بأن تقوم بما عجزت عن تحقيقه.

فهذا التفكك والاضطراب السياسى وعدم ايجاد رابطة قوية تضم الولايات وتوحد بين أهدافها قد شجع الدول الأوروبية مثل فرنسا واسبانيا على التدخل فى شئون ايطاليا. واستطاعت هاتان القوتان أن تقسما ايطاليا إلى فريقين متناحرين: فريق تحت الحماية الفرنسية، وآخر تحت الحماية الاسبانية. وقد أعمت المصالح الخاصة الولايات عن الهدف الرئيسى الذى يحقق المصلحة الايطالية بصفة عامة ألا وهو الوحدة.

**٣) ميلانو فى شمال غرب شبه جزيرة ايطاليا:**

تعرضت هذه الولاية لغزوات البرابرة فى العصور الوسطى كما تعرض كل شمال ايطاليا لتلك الغزوات وخصوصاً من جانب اللومبارديين وأصبح شمال ايطاليا جزءاً من أراضى القوط الشرقيين، كما أصبحت جزءاً من الأمبراطورية الرومانية المقدسة. وظهر فى ميلانو خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر حكم اتصف بالصبغة العسكرية. وأخذت الامبراطورية الرومانية المقدسة تنيب عنها فى حكم تلك الولاية أحد الرجال العسكريين. ووجد إلى جانب الحكم العسكرى جماعة من الجنود المرتزقة الذين يحترفون صناعة الحرب والقتال، عرفوا فى التاريخ الايطالى باسم كوندوتيرى Condottieri وكانوا فى أول الأمر من الايطاليين الأشداء الذين نبغوا فى وضع الخطط والأساليب الحربية الحديثة.

ولكن هذا الاتجاه الحربى لن يستمر طويلا فى ايطاليا، فسرعان ما ينصرف الايطاليون عن أعمال الحرب إلى معالجة مختلف نواحى الفنون والآداب كالرسم والنحت والتصوير. وستنتقل تلك الحرفة الحربية من أيدى الايطاليين إلى أيدى

جنود أجانب من عناصر مختلفة الجنسية. ورغم هذا فستشتهر أسرة ايطالية تسمى أسرة سفورزا Sforza بالتقاليد الحربية وبالصبغة الحربية، وتسيطر على شئون الحكم فى ميلانو فى منتصف القرن الخامس عشر.

وسينشأ بين تلك الأسرة وبين البندقية صراع حول السيطرة على الجزء الشمالى من ايطاليا وذلك نتيجة لاهتمام البندقية فى ذلك الوقت بالشئون الايطالية بعد أن كان اهتمامها منصرفا نحو البحر والتجارة وسيحدث بين الطرفين هدنة حربية عندما سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر وبدا الخطر العثمانى واضحاً أمام العالم الأوربى فى ذلك الوقت.

وستتمكن أسرة سفورزا من ايجاد علاقات طيبة مع غيرها من الامارات الايطالية المجاورة، وعلى وجه الخصوص فلورنسا ونابولى. وكذلك ستوجد علاقات مع فرنسا فى عهد لويس الحادى عشر. وعن طريق تلك العلاقات الودية استطاعت أن تستولى على جنوا دون اعتراض من تلك الولايات. وسيؤدى الدور الذى لعبته ميلانو على مسرح السياسة الايطالية إلى تدخل النفوذ الاجنبى فى شئون شبه الجزيرة الايطالية، فعندما تنقص فلورنسا مخالفتها مع ميلانو، وتنضم إلى جانب امارة نابولى تضطر ميلانو إلى الالتجاء إلى فرنسا طالبة حمايتها تحقيقاً لمصلحتها الشخصية على حساب الامارات الايطالية الأخرى. وتتدخل فرنسا بالفعل لصالح ميلانو، وتصبح شبه الجزيرة الايطالية مهددة من النفوذ الفرنسى وفريسة للأطماع الاستعمارية.

**٤) جمهورية البندقية فى شمال شرق ايطاليا:**

نشأت تلك المدينة على بضع جزر ايطالية قريبة من الساحل الايطالى فى الطرف الشمالى الغربى للبحر الادرياتى، وقد تكونت تلك المدينة كملجأ للعناصر الايطالية الفارة أمام ضغط اغارات قبائل الهون تحت قيادة اتيلا فى القرن الخامس

الميلادى، وحاولت تلك العناصر الضالة أن تجد لها مأوى فى تلك الجزر البعيدة عن الساحل الايطالى، والتى كانت تعتبر فى ذلك الوقت فى مأمن من غزوات تلك القبائل. واستطاع السكان أن ينشئوا لهم مساكن فوق صخور تلك الجزر وأن يشتغلوا بصيد الاسماك وبالتجارة مع المناطق القريبة لتلك الجزر. ولما كانت الأراضى الايطالية تكاد تكون مغلقة فى وجوه هؤلاء السكان، فقد ولوا وجوههم شطر البحر وأخذوا يكونون لهم المراكز التجارية المختلفة على سواحل البحر الادرياتى.

استطاعت إذن هذه العناصر المهاجرة أن تثبت أقدامها فى تلك المدينة، وأن توسع نشاطها التجارى ليشمل الجزر اليونانية وجزر الأرخبيل وسواحل الشرق الأدنى فى الأناضول والشام، وأن تحصل على امتيازات ومساعدات من قبل الدولة البيزنطية التى كانت تسيطر وقتئذ على شرق البحر المتوسط.

وعندما قامت الحروب الصليبية بين الشرق والغرب لعبت البندقية دوراً رئيسياً فيها، واشتغلت بنقل التجارة بين الشرق الأدنى وأوربا، وأثرت من هذه العملية ثراء واسعاً، كما أنها اشتركت فى الحرب الصليبية التى وجهت إلى القسطنطينية، وطردت الحكومة البيزنطية إلى مكان بعيد فى شبه جزيرة الأناضول.

وتختص البندقية بميزة هامة انفردت بها عن سائر الامارات الايطالية المختلفة، ألا وهى استقرار نظام الحكم فيها استقراراً تاماً. فوجد بالمدينة ما يسمى بالمجلس الكبير وإلى جانبه مجلس آخر يسمى مجلس الشيوخ ثم مجلس فالث ويسمى مجلس العشرة، وكان يتكون من عشر أعضاء ممن يتمتعون بقوة ونفوذ. وعلى رأس الحكومة حاكم يدعى الدوج، وينتخب لهذه الوظيفة مدى الحياة. وهذا يدل على مدى الاستقرار والثبات فى نظم الحكم. ونتيجة لهذا تركزت السلطة فى يد طبقة الارستقراطية الأوليجاركيه.

كما هيأت لها ظروفها الاقتصادية جمع ثروة هائلة وإلى استخدام تلك الثروة

فى النواحى التجارية ونواحى العمران، وفى زيادة قوتها الحربية ونفوذها السياسى. فمثلا لم تعرف البندقية نظام الأحزاب المتضاربة التى عرفته سائر الامارات الايطالية الأخرى. كما أنها لم تعرف أيضا نظام الاقطاع ووجود طبقة من رجال الاقطاع تنافس رأس الدولة فى سلطته السياسية، نظراً لأن الاقطاع قد نشأ مرتبطاً بالأرض ارتباطاًوثيقاً.

وبما أن البندقية لم تكن تمتلك من الأرض إلا جزءاً يسيراً، لهذا فقد انعدم السبب فى وجود الاقطاع.

ولكن النفوذ والسلطة تركزت فى هذه المدينة فى يد الطبقة المسيطرة على التجارة، فرأس المال إذن أصبح يعتمد على البضائع التى تحملها السفن عبر البحار لا على الأرض، وسيؤدى الدور السياسى الذى ستقوم به البندقية إلى التدخل الأجنبى من قبل فرنسا واسبانيا، وخصوصاً بعد أن زاد اهتمام تلك المدينة بالشئون الداخلية لايطاليا بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح فكان هذا الكشف من الأسباب الجوهرية التى وجهت اهتمجام البندقية إلى الأراضى الايطالية بعد أن فقد البحر المتوسط أهميته بالنسبة لها. وترتب على زيادة اهتمام البندقية بالمشاكل الايطالية دخولها فى صراع مع غيرها من الامارات واستعانة البعض بالنفوذ الاجنبى لمساندته وتأييده ضد الفريق الآخر.

وستحاول البندقية تزعم حركة الوحدة فى ايطاليا وأن تجمع شتات الامارات تحت سلطة واحدة. ولكن البابوية كما سبق أن ذكرنا كانت تحاول القيام بنفس الدور ولم تنجح، فأثار هذا عوامل الحقد فى نفسها ضد البندقية، فعارضت قيام الوحدة تحت زعامة أخرى غير زعامتها، وسنجد أن الخلافات المتعددة بين وجهات النظر المختلفة لتلك الولايات كانت الصخرة العاتية التى تحطمت عليها كل الجهود التى بذلت فى سبيل الوحدة، ولم تستطع البندقية، رغم ما كانت تتمتع به من قوة ونفوذ، أن تصمد أمام هذا التيار الانفصالى الشديد. وسنرى أن دور البندقية كامارة

قوية ينتهى بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة العالمية إلى أيد جديدة تمثلت فى اسبانيا والبرتغال، ومن بعدهما هولندا ثم الدول الغربية الكبرى كانجلترا وفرنسا وسوف تصبح جمهورية البندقية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر جزءاً من المملكة الايطالية الموحدة.

**٥) فلورنسا فى شمال غرب ايطاليا جنوبى ميلانو وجنوه:**

كانت فلورنسا قرية صغيرة فى عصر الاترسكيين Etruscans وهو العصر السابق للعصر الرومانى القديم، ثم احتلها الرومان بعد ذلك وأخذت خلال العصر الرومانى فى النمو والاتساع بفضل موقعها الجغرافى على الطريق التجارى الهام الذى يصل ايطاليا بالمانيا. وقد أدى هذا الموقع التجارى الفريد إلى أن تصبح تلك المدينة بمرور الزمن من المدن الايطالية العظيمة فى القرن السادس عشر.

أما عن الفترة التى إمتدت من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر فكانت من أزهى العصور بالنسبة لفلورنسا، إذ شمل الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية نشاط كبير. وسيكون لهذه النهضة التى عاشتها أثر كبير فى تكوين العقلية الفلورنسية، وإلى توقدها واكتسابها المقدرة على التطور وملاءمة الظروف طبقا لمقتضيات الأحوال الجديدة.

وسنجد أن هذا التطور فى التفكير الفلورنسى وفى العقلية الفلورنسية سيؤثر فى تطوير العقلية الايطالية بأكملها. وستنتقل الأفكار الجديدة التى اتبعت فى فلورنسا من ايطاليا إلى خارجها.

وإذا نظرنا إلى فلورنسا من الناحية الاقتصادية فسنجد أن تلك المدينة قد لعبت دوراً هاماً فى الاقتصاد الأوربى خلال عصر النهضة، إذ سيكون من نتيجة تركيز الأموال الطائلة التى جمعتها تلك المدينة عن طريق التجارة إلى أن تكون فلورنسا من أوائل الدول إن لم تكن الأولى فى تأسيس البنوك والمصارف لخدمة الاقتصاد الفلورنسى وتنمية المشروعات المختلفة. بل وستقوم تلك البنوك باقراض بعض الملوك

والبابوات فى أوربا. فمثلا ستقرض فلورنسا الملكية الانجليزية فى حرب المائة عام. كما ستقرض بعض ملوك فرنسا لتنفيذ بعض المشروعات كإنشاء المبانى والمنشآت الضخمة التى تحتاج إلى أموال كثيرة. ومن هذا نرى مدى ما كانت تتمتع به فلورنسا من ثراء، واستخدمت هذه المدينة تلك الثروة الطائلة فى بعث التراث اليونانى القديم والنهوض بمختلف الفنون والآداب.

أما من الناحية السياسية فقد امتازت فلورنسا بالنظام الحزبى وبالصراع الداخلى العنيف. وقام هذا الصراع بين حزبين كبيرين أحدهما يناصر الامبراطورية، بينما وقف الحزب الثانى إلى جانب البابوية. فكان هذا الصراع الحزبى العنيف يستند إلى جزور تعمقت فى الماضى البعيد وترجع إلى أيام الصراع الطويل الذى نشأ خلال العصور الوسطى بين الامبراطورية والبابوية.

كما ساعدت عوامل أخرى جديدة على إزكاء هذا الصراع، وإلى استمرار النزاع الداخلى والتطاحن بين الطبقات والتنافس بين المدن الايطالية المختلفة أو التناحر بين الأسر الحاكمة أو تعارض المصالح السياسية أو الاقتصادية لتلك المدن.

وقد امتاز كل من هذين الحزبين بميزات هامة كان لها أثر كبير فى توجيه النشاط السياسى وجهة خاصة. فمثلا امتاز حزب الجبليين المناصر للبابوية بميل أعضائه إلى التحرر وعدم الاهتمام كثيراً بحقوق الشعب الفلورنسى فهم حريصون على تحقيق أطماعهم الشخصية ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يعملون على جذب الرأى العام إلى جانبهم عن طريق منحه إدارة شئون الدولة والتمتع بنوع خاص من الحكم الديمقراطى كذلك امتاز هذا الحزب بسعة الأفق وبالنظرة الواقعية إلى الأمور وبعدم التعصب. وكانوا يعملون بطبيعة الحال على سيادة سلطة الامبراطورية على حساب سلطة البابا.

أما الحزب الثانى وهو حزب الجولف فغالبية أعضائه من الطبقة الوسطى التى أثرت عن طريق الاشتغال بالتجارة. وقد اتصف أعضاء هذا الحزب بميلهم إلى

التمسك بالعقائد الدينية والتعصب لآرائهم. واستطاعوا تكوين جبهة قوية للدفاع عن حرية الشعب ضد طغيان الحكام. واستغل أحد المصلحين المسيحيين ويدعى سافونا رولا Savona Rola هذا الشعور لدى الطبقة الوسطى لازكاء روح المقاومة لدى الشعب وتحريضه على مقاومة سلطان أسرة مديتشى Medici وطغيان البابوية. وقد أدى انقسام الشعب الفلورنسى إلى حزبين كبيرين إلى استمرار النزاع بين الطبقات.

وقد اتخذ التنازع الحزبى صبغة عنيفة فلجأ أنصار الحزبين إلى التطاحن فى الشوارع والطرقات، بل كان من المظاهر المألوفة فى تاريخ حياة فلورنسا السياسى أن يقوم الحزب المنتصر ببناء منشآته بمخلفات قلاع الحزب المنهزم من أحجار وأخشاب. كما تميز الصراع السياسى فى فلورنسا بالانقلابات السريعة والمفاجئة أو مايسمى فى الاصطلاح التاريخى Coup d'état وفى هذه الفترة المضطربة من تاريخ فلورنسا عاش دانتى (١٢٦٥ – ١٣٢١) وتجاوب مع أحداثها واشترك فيها. وحاول خلق جو من الاستقرار ونادى بضرورة ايجاد وحدة تضم شتات الامارات الايطالية. ولكن عوامل الفرقة والتنازع كانت أقوى من أن تصمد امامها دعوة دانتى أو غيره من دعاة الاصلاح.

وتبلورت الفوضى السياسية والانقسام الداخلى فى المنافسة التى قامت بين الأسرتين الكبيرتين فى فلورنسا وهما أسرة مديتشى وأسرة البيزى Albizzi وساد جو العلاقات بينهما موجة من الشدة والعنف إلى أن تمكنت أسرة مديتشى فى نهاية الأمر أن يكون لها الغلبة وذلك فى النصف الأول من القرن الخامس عشر. واستطاعت فلورنسا تحت حكم أحد أفراد أسرة مديتشى ويدعى، كوزمو دى مديتشى Cosmo de Medici أن تنعم فترة من الزمن باستقرار سياسى وهدوء داخلى لم تعهده البلاد من قبل. وقد استند هذا الحاكم فى تدعيم سلطته على تأييده الطبقة العامة التى منحها جزءاً من الحكم الديمقراطى. ومن أشهر شخصيات تلك الأسرة لورنز دى مديتشى Lorenzo de Medici وكان يطلق عليه حينذاك

لورنزو العظيم. ويعد بحق من أعظم الشخصيات التى ظهرت فى عصر النهضة. فقد امتاز هذا الحاكم بمقدرة سياسية كبيرة وكذلك امتاز بميله إلى تشجيع الأدب والفنون. كذلك اشترك مع ميلانو والبندقية فى تكوين جبهة متحدة ضد البابوية الغرض منها الحد من نفوذ البابا وتدخله فى الشئون الايطالية والوقوف ضد التدخل الاجنبى. ومما ساعد على هذا التقارب بين الامارات الخطر العثمانى الذى كان يهدد أوربا فى ذلك الوقت.

وستحتل فلورنسا مركزاً هاماً فى العالم القديم. وستقف فلورنسا موقف المعلم بالنسبة لأوربا. فمن تلك الامارة انبعثت حركة إحياء التراث القديم وسيترتب على هذه الحركة العلمية إنشاء الاكاديمية الافلاطونية. وإلى جانبها مكتبة عامرة بمختلف المؤلفات النادرة من أمواله الخاصة. وكان من شدة ولعه بالفنون الجميلة أن جعل أحد قصوره مدرسة للفنون الجميلة يتلقى فيها الراغبون فى الفنون مختلف فروع الفن وسيقوم بالتدريس فى تلك المدرسة ميخائيل انجلو وغيره من كبارالفنانين.

من كل ما تقدم يمكننا أن نستخلص الأسباب الرئيسية التى أدت إلى ظهور حركة النهضة الأوروبية فى شبه الجزيرة الايطالية قبل غيرها والتى يمكننا أن نوجزها على النحو التالى:

أولاً: توفر الرخاء الاقتصادى فى شبه الجزيرة الايطالية، إذ تمتعت معظم المدن الايطالية وخاصة الثغور البحرية كمدينتى البندقية وجنوة برخاء اقتصادى ملحوظ، نتيجة لاشتغالها، بل واحتكارها للتجارة الشرقية. إذ اشتغل عددٌ كبيرٌ من أهالى هذه المدن بنقل المتاجر من ثغور مصر والشام، إلى الموانى الايطالية، حيث كانت توزع منها على الأسواق فى داخل شبه الجزيرة الايطالية، وفى سائر البلاد الأوروبية. وقد ترتب على ذلك زيادة ثراء أهالى المدن الايطالية، فضلا عن استنارة أفكارهم وثقافتهم، بما اقتبسوه من حضارة

الشرق، الذى كانت بلاده أعرق منهم مدنيةً وأكثر منهم تفوقاً فى المجالات الثقافية والعلمية.

ثانياً: كانت شبه الجزيرة الايطالية مهداً للحضارة الرومانية، وهذا ساعد على جعلها مركزاً للنهضة الأوربية إذ كانت معظم المدن الايطالية تزخر بقدر كبير من تراث هذه الحضارة الرومانية التليدة، من مبان وتماثيل ونقوش ومخطوطات وما إلى ذلك، على الرغم من تعرض هذه المدن الايطالية، لغزو القبائل المتبربرة وتدميرها، شأنها فى ذلك شأن بقية الولايات الرومانية. وسيطر على أذهان الايطاليين آنذاك اعتقاد راسخ بأنهم أحفاد الرومان وورثتهم، وأنهم أجدر الناس بالقيام على إحياء تراث الرومان، واستعادة أمجادهم. وكانت الآثار الرومانية بين ظهرانيهم تشكل أمثلة حية على سلوك هذا الاتجاه، احتذوها فى التصوير والنحت، والنقش والعمارة، وما إلى ذلك. أما الحضارة الاغريقية، فقد قامت فى الأقاليم التى كانت جزءاً من الدولة البيزنطية، أو الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية.

ثالثاً: كان تمتع شبه الجزيرة الايطالية بالأمن والسلام عاملاً هاماً فى جعلها مركزاً للنهضة الأوربية إذا تمتعت شبه الجزيرة الايطالية بالأمن والسلام فترة طويلة من الزمن، عقب الهجمات التى شنتها عليها العناصر المتبربرة، فى مطلع العصور الوسطى، واستقرت فيها، مما شكل مناخاً صحيا لنمو البلاد وازدهارها. ومن المعروف أن النهضات العلمية تزكوا، إذا توفر لها الأمن والهدوء، والرخاء والسلام، وهذه المقومات تعتبر بمثابة الأجنحة الظليلة، للنهضات العلمية.

رابعاً: كان قيام حكومات مستنيرة قوية فى المدن الايطالية عاملاً من العوامل التى جعلت شبه الجزيرة الايطالية مركزاً للنهضة الأوربية فمن أبرز الخصائص التى تميزت بها الحياة السياسية فى ايطاليا، انقسام البلاد إلى دويلات سياسية وقيام

حكومات مستنيرة فيها، احتدم بينها التنافس، على تشجيع الآداب والفنون، وقد حكمت فيها أسرات تركت بصماتها قوية فى تاريخ البلاد. نذكر من هذه الأسرات على سبيل المثال: أسرة مدتشى Médici وقد حكمت فلورنسا، وأسرة فيسكونتى Visconti وقد سيطرت على ميلانو (١٢٧٣ - ١٤٤٧)، وأسرة بورجيا Borgia وقد قبضت بيد من حديد على الولايات البابوية. ولجأ كثيرٌ من حكام هذه الأسر إلى النظام الاستبدادى أسلوباً فى الحكم، للاحتفاظ بسلطتهم. ومن هنا أطلق عليهم اسم «الطغاة» وعلى حكمهم «حكم الطغاة». وعلى الرغم من هذا الطابع الاستبدادى، الذى اتسم به حكمهم، فقد كان من أبرز ما تميزوا به، هو تشجيعهم العميق للعلماء والأدباء، والفنانين ومن إليهم. وكان بلاط أولئك الطغاة تهوى إليه أفئدة هؤلاء الأعلام، مما ساعدهم على مزيد من النبوغ، والابداع والإنتاج.

خامساً: نجد أن تأسيس المكتبات فى معظم المدن الايطالية كان عاملاً مساعداً فى جعل شبه جزيرة ايطاليا مركزاً للنهضة الأوربية وظهر تنافس ملحوظ بين المدن الايطالية المختلفة فى مطلع العصور الحديثة على إنشاء المكتبات، واقتناء أنفس الكتب، وأغلى المخطوطات، وأبدع الصور، وهكذا تناثرت فى شبه الجزيرة الايطالية مكتبات زخرت بالمخطوطات والمجلدات وغيرها. ونذكر فى عالم المكتبات أسرة مدتشى، الحاكمة فى فلورنسا، فقد شيد أحد عمدائها وهو كوزومو دى مدتشى Cosmo de Medici مكتبة فى مدينة البندقية، خلال الفترة التى كان منفيا بها، ودعم مكتبة سان ماركو فى فلورنسا، وجمع لهاالمخطوطات المختلفة. واهتم البابا نيقولا الخامس بمكتبة الفاتيكان، واقتنى لها الكتب القديمة النادرة حتى أصبحت المكتبة على عهده تضم قرابة ١٢ ألف مجلد.

سادسا: نلاحظ أن ظهور المجامع العلمية فى شبه الجزيرة الايطالية ساعدها كثيراً لأن

تصبح مركزاً للنهضة الأوربية إذ انتشرت فى شبه الجزيرة الايطالية، المجامع العلمية، التى كان يطلق عليها الاكاديميات فى مطلع العصور الحديثة، وقد اسهمت هذه المجامع العلمية فى نشر الدراسات الاغريقية واللاتينية، إذ كانت بمثابة حلقات ثابتة للبحث والتدريس، يلتقى فيها الاساتذة ويُلقون المحاضرات، تعقبها المناقشات العلمية الموضوعية العميقة، ويشترك فيها الأستاذ المحاضر، وطلابه الدارسون. وقد حوت هذه المجامع العلمية، ألواناً مختلفة من الدراسات القديمة، مثل الفلسفة الاغريقية، والموسيقى والرسم. وكان المجمع أو الاكاديمية، أشبه ما تكون بجامعة غير رسمية.

ومما ساعد على انتشار ظاهرة المجامع والاكاديميات، تنافس الأسرات الحاكمة فى المدن الايطالية المختلفة، فى إنشاء المجامع العلمية وتدعيمها، ودعوة كبار الاساتذة لزيارتها، وإلقاء المحاضرات بها.. وقد فاقت فلورنسا سائر المدن الايطالية، فى هذا المضمار، بفضل رعاية أسرة مدتشى للآداب والفنون، فأنشأ كوزمو دى مدتشى اكاديمية أفلاطون، وكانت أشهر الاكاديميات التى شهدتها شبه الجزيرة الايطالية، وكان كوزمو من أنصار نشر آثار أفلاطون باللغة الايطالية. ووقع اختياره على فرد معين توسم فيه النبوغ هو مارسيليو فيشينو Marsilio Ficino فشمله برعايته وجعله يتخصص فى دراسة اللغة الاغريقية حتى يستطيع أن يقوم بالمهمة العلمية التى عهد بها إليه وهى التوفيق بين تعاليم المسيحية وبين الفلسفة الاغريقية الوثنية، وقد انكب على دراسة أفلاطون وأخرج عدة مؤلفات عنه كما ترجم بعض كتبه. وبعد وفاة كوزمو دى مدتشى تعهد حفيده لورنزو هذه الاكاديمية، وكان يجمع أعضاءها تارة فى قصره فى فلورنسا، وتارة فى بيته الخاص المقام على ربوة وسط المرتفعات القريبة من المدينة.

وقد تأسست فى روما فى سنة ١٤٦٠ أكاديمية على يد جوليوس لايتوس

Julius Loetus وجعلت مقراً للدراسات التاريخية وللآثار. وكان معظم أعضائها من كبار رجال الدين المتخصصين فى اللاتينية وشهدت نابولى تأسيس اكاديمية على يد ألفونس الخامس حاكم نابولى، وتخصصت هذه الاكاديمية فى دراسة الآداب. كما قامت اكاديمية أخرى فى البندقية عرفت باسم الاكاديمية الجديدة أسسها الدو مانوزيو Aldo Manuzio واهتمت بالدراسات الاغريقية وأخرجت بعضا منها إلى عالم الطباعة، لأن مؤسسها كان صاحب دار طباعة، فدفع إلى مطابعه ببعض الكتب القديمة.

سابعاً: نلاحظ أن الموقع الجغرافى الذى تتميز به شبه جزيرة ايطاليا كان من العوامل التى جعلتها محوراً ومركزاً للنهضة الأوربية فهى تقع فى شمال ووسط البحر المتوسط، الذى قامت على ضفافه أقدم الحضارات وأعرقها، وفى وقت كان فيه هذا البحر مركز النشاط الاقتصادى فى العالم.

وكانت المدن الايطالية تشكل حلقة الاتصال بين أوروبا، وبين الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبلاد الشرق بوجه عام.

وكانت ايطاليا بفضل موقعها من أقرب الأقاليم الأوروبية إلى الدولة البيزنطية. فكان العلماء البيزنطيون يتخذون طريقهم إلى ايطاليا، إما أساتذة زائرين، يلقون المحاضرات، وينشرون من الدراسات الإنسانية، ألواناً متعددة، وإما مهاجرين إلى ايطاليا للإقامة الدائمة. ومن ناحية أخرى كان الايطاليون الراغبون فى العلم، ينزحون إلى الدولة البيزنطية، للتعمق فى دراسة اللغة الاغريقية، وآدابها وفنونها، ثم يعودون إلى بلادهم حملة للمشاعل الفكرية.

ثامناً: إذا نظرنا إلى طبيعة الشعب الايطالى المحب للفنون فإننا سنجد ذلك عاملاً هاماً فى جعل ايطاليا مركزاً للنهضة الأوربية إذ اشتهر الشعب الايطالى، بميل طبيعى للحياة الفنية، بكل صورها وأشكالها، وظهر هذا الميل فى شغفه بامتاع العين، والأذن، والنفس، بالجمال الحسى والمعنوى. وقد فتن

بالموسيقى والرقص والاغانى، والتصوير والنحت، والعمارة والشعر، وغير ذلك من أنواع الآداب والفنون.

أما بالنسبة للحياة العسكرية والمعارك الحربية، فقد باعد الشعب الايطالى بينه وبينها، وخاصة فى نهاية العصور الوسطى، ومطلع العصور الحديثة، وعهد حكامه بالناحية العسكرية آنذاك، إلى جنود مرتزقة، كانت غالبيتهم من الالمان والسويسريين.

تاسعاً: من الأمور الهامة التى يجب أن نشير إليها أن تمركز البابوية فى شبه جزيرة ايطاليا قد ساعدها كثيراً وأهلها لأن تكون مركزاً للنهضة الأوربية إذ على الرغم من أن روما فقدت مركزها السياسى الرفيع، لعاصمة الامبراطورية الرومانية الغربية منذ سنة ٤٧٦ ميلادية حين سقطت على يد أودواكر Odoacer، فإنها غدت فى العصور الوسطى مقر البابوية، وقبلة العالم المسيحى الغربى. وكان سقوط الامبراطورية قد جعل من البابوية القوة الوحيدة القائمة، التى التف حولها المسيحيون فى الغرب، طوال العصور الوسطى، ورأوا فيها الزعامة والسند، الكفيل بحمايتهم، الأمر الذى أضفى على شبه الجزيرة الايطالية مكانة ممتازة، لم تتوافر لغيرها من البلاد الأوروبية، وهكذا كانت الزعامة الدينية للبابا، عاملاً هاماً، أكسب الايطاليين شعورا بنوع من السيطرة الدينية، على بقية انحاء أوربا. وقد أصاب الايطاليون كسبا آخر من الناحية المادية، نتيجة وجود مقر البابوية فى بلادهم، إذ كانوا يظفرون بمعظم وظائف الكنيسة، وكانوا يتقاضون مرتبات ضخمة منها.

عاشراً: يمكننا أن نشير أيضا إلى أن زيارة بعض الايطاليين لبلاد الشرق كانت عاملاً من عوامل جعل ايطاليا مركزاً لحركة النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة إذ قام بعض الايطاليين بزيارة الشرق عن طريق ممارسة النشاط التجارى من جهة، وعن طريق القيام برحلات خاصة استطلاعية من جهة أخرى،

كالرحلة التى قام بها إلى بلاد الشرق أحد البنادقة، وهو الرحالة ماركو بوللو، والتى استغرقت اربعاً وعشرين سنة (١٢٧١ - ١٢٩٥)، حتى وصل إلى الصين، وكتب عن رحلته هذه، كتابه المعروف باسم «كتاب العجائب»، الذى أطلع الأوربيين فيه على ثروات الشرق وخيراته، كما غير فكرتهم عن جغرافية الأرض، مما سيمهد فيمابعد لحركة الكشوف الجغرافية، التى تعد أهم نتيجة عملية للنهضة الأوربية.

## خصائص النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة:

تميزت النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة بخصائص معينة وسوف نتناول فيما يلى أبرز هذه الخصائص على النحو التالى:

### ١) كانت النهضة الأوربية امتداداً لحركات النهضة السابقة:

ظهرت حركة النهضة الأوربية واسعة شاملة فى مطلع العصور الحديثة وكانت فى حقيقة أمرها امتداداً لما سبقها من تيارات حضارية شهدتها أوروبا فى العصور الوسطى، لأنه من الثابت تاريخاً أن ركب الحضارة لم يتوقف فى أوروبا إبان العصور الوسطى، وأن هذه العصور لم تخل من وثبات حضارية وحسبتنا أن نذكر من هذه الوثبات ما يعرف فى تاريخ العصور الوسطى باسم «النهضة الكارولنجية» فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع وكان شارلمان هو باعث هذه النهضة وموجهها، وقد امتدت إلى انحاء مختلفة من المانيا وايطاليا واسبانيا. ثم هناك أيضاً «النهضة الوسيطة» وهى حركة حضارية شاملة انتشرت فى أوروبا الغربية فى أواخر القرن الحادى عشر وطيلة القرن الثانى عشر. وقد بنيت حركة النهضة فى مطلع العصور الحديثة على اساس النهضات التى شهدتها أوروبا من قبل وتأثرت بها بطبيعة الحال.

### ٢) كانت النهضة الأوروبية علمانية فى اتجاهاتها:

تميزت النهضة الأوروبية الحديثة بانها كانت نهضة علمانية، أى أنها لم

تخضع لتوجيهات الكنيسة بل على النقيض كان الطابع الغالب عليها هو الابتعاد عن الكنيسة والخروج على تعاليمها. كما جاءت النهضة بفاهيم جديدة وآراء جديدة، وأحدثت تغييرات جذرية تسللت إلى مختلف القطاعات السياسية والدينية والثقافية والفنية والاجتماعية.

### ٣) اعتماد النهضة على المدن والطبقة الوسطى.

اعتمدت النهضة فى نموها وانتشارها على المركز القوى الذى سمت اليه المدن فى نهاية العصور الوسطى، فقد نجحت المدن فى أن تصبح وحدات سياسية حرة فى وسط اقطاعى متزمت، وأن تغدو مهداً للطبقة الوسطى ونمو الشعور القومى، وأن تكون معول هدم فى بنيان النظام الاقطاعى والحد من نفوذ الكنيسة. وقد تجمعت فى المدن الثروات، وبخاصة الاموال السائلة، لأن سكان المدن اعتمدوا على التجارة والصناعة وابتعدوا عن سيطرة النبلاء الاقطاعيين فى اقطاعياتهم الزراعية.ولذلك فان النهضة الأوروبية قامت على اكتاف سكان المدن وهم افراد الطبقة الوسطى، وكانت هذه المدن مراكز صالحة للاشعاع الفكرى والفنى والقومى والحضارى، ومهداً للنشاط الاقتصادى والسياسى فى أوروبا.

### ٤) تميز عصر النهضة بحرية الفرد وانطلاقه:

ومن خصائص النهضة الأوروبية الحديثة أن الفرد ظهر فيها متمتعاً بشخصية مستقلة له حرية الرأى والتصرف، وأصبح الخلية الأولى فى بناء المجتمع، فلم يعد الفرد يذوب فى جماعة أو طائفة أو نقابة ينتمى إليها، بل تعددت أمامه مجالات واسعة طليقة من كل قيد للقيام بدور بارز فى المجتمع الذى يعيش فيه لاستغلال مواهبه وقدراته بعد أن كانت الفرص معدومة أمامه طوال العصور الوسطى بسبب استبداد النظام الاقطاعى وصرامة تعاليم الكنيسة، ولم يكن أمام الشخص الطموح المغمور سوى الانتظام فى سلك الكهنوت ابتغاء الوصول فى نهاية الشوط إلى منصب كبير فى الكنيسة يدر عليه مرتباً ضخماً.

### ٥) عدم ظهور النهضة فى مناطق أوروبا فى وقت واحد:

ومن خصائص النهضة الأوروبية الحديثة أيضا أنها لم تظهر فى جميع البلاد الأوروبية فى وقت واحد، بل ظهرت فيها تباعاً، فبدأت فى مدن شبه الجزيرة الايطالية حتى إذا اكتملت واستوى عودها تسربت أو انتقلت إلى سائر البلاد فى القارة الأوروبية بدرجات متفاوتة وفقاً لطبيعة تلك البلاد وظروف تطورها.

### ٦) تركيز النهضة على إحياء التراث القديم:

ومن خصائص النهضة الأوروبية الحديثة كذلك أنها كانت فى مقدمتها عملية بعث الدراسات الاغريقية واللاتينية واحيائها، وإنشاء مؤسسات علمية مثل الاكاديميات والمكتبات ترعى هذه الدراسات، والاهتمام بدراسة علوم الآثار والتاريخ، ثم النهوض بالفنون الجميلة من نحت وتصوير وغيرهما، وظهور مخترعات جديدة لتكون فى خدمة الإنسان، وكان على رأسها الطباعة، وقد ساعدت على دعم الدراسات الاغريقية واللاتينية ونشرها، واستكشاف البارود ومانجم عنه من ثورة فى النظم الحربية، والاهتداء إلى عدة آلات نافعة مثل الاسطرلاب والبوصلة أو الأبرة المغناطيسية والدفه المتحركة وغيرها من أدوات كان لها الفضل الأكبر فى توسيع نطاق الملاحة البحرية وتسهيل سبل البعوث الكشفية الجغرافية، ونشأة اللغات القومية الحديثة فى كثير من دول أوروبا مثل اللغة الايطالية واللغة الفرنسية واللغة الاسبانية، وانتشار المؤلفات بهذه اللغات.

### ٧) ظهور اتجاهات جديدة فى النهضة الأوروبية:

ومن خصائص النهضة الأوروبية الحديثة أيضا ظهور اتجاهات جديدة فى المجتمع الأوروبى وبخاصة المجتمع الايطالى من تقديس الجمال والتمتع بملذات الحياة والارتفاع بمركز المرأة، ثم انغماس الكثيرين فى حياة الفسق والمجون وعلى أية حال فإن خصائص النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة سوف تنعكس على مظاهر هذه النهضة بطبيعة الحال.

### ٨) التحول عن الفكرة العالمية إلى الفكرة القومية:

عندما نشأ التنافس الحاد بين الامبراطورية والبابوية فى غرب أوربا فى نهاية العصور الوسطى فقد أدى ذلك إلى إضعاف القوتين. وقد جعل الشعوب الأوروبية المحكومة تنعطف على نفسها لتعزيز تجمعاتها لتحقيق أهدافها المباشرة، خاصة بعد الهزائم التى منيت بها أوروبا فى الحروب الصليبية وماترتب عليها من نتائج. وكان هذا الانعطاف أساسا لنمو الفكرة القومية التى جعلت الشعوب الأوربية تناصر ملوكها المحليين وتفضلهم عن الأباطرة الضعاف.

## المظاهر الايجابية للنهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة:

تعددت مظاهر النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة وشملت أوجه الحياة المختلفة. وسوف نتناول بالدراسة فيما يلى أبرز هذه المظاهر التى تتلخص فيما يلى:

### ١) ظهور حركة إحياء الدراسات القديمة:

يطلق على هذه الحركة الفكرية اسم الدراسات الانسانية أو الحركة الإنسانية L' Humanisme وهى تشمل عنصرين أساسيين هما: الدراسات الاغريقية والدراسات اللاتينية. ولم تكن هذه الدراسات حركة شعبية، كما أنها لم تنبثق من داخل الجامعات، بل ظهرت خارجها.

وكان هذا الوضع أمر طبيعيا، لأن الجامعات كانت توجه معظم اهتمامها إلى دراسة العلوم العملية وبخاصة الطب. وقد ظلت الجامعات حقبة طويلة معادية للدراسات الإنسانية، واعتمدت هذه الدراسات على التشجيع المادى والأدبى الذى أضفاه حكام المدن الايطالية على المشتغلين بها.

وقد استهوت الدراسات الاغريقية واللاتينية افئدة الكثيرين من الأوروبيين فى ذلك الوقت، واعتقدوا أنها أروع وأرقى وأجمل مايمكن أن تنتجه عقول البشر،

وأن الفرد لايمكن أن يتبوأ مكانا عليا فى المجتمع مالم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات. ولعل هذا الاهتمام العميق بإحياء الدراسات الاغريقية واللاتينية هو السبب الذى جعل فريقا من الباحثين يطلقون خطأ على النهضة اسم حركة «إحياء العلوم» والواقع أن حركة إحياء العلوم لم تكن إلا مظهراً من مظاهر النهضة الأوروبية.

وقد قامت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة، وكانت الكاتدرائيات والكنائس والأديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات، وكانت على نوعين: المخطوطات الاغريقية والمخطوطات اللاتينية. وقد نشط البحث أولاً عن المخطوطات اللاتينية فى شبه الجزيرة الايطالية وفى سويسرا والولايات الالمانية وغيرها من بقاع أوروبا، وقامت الأسرات الحاكمة فى المدن الايطالية بتمويل عمليات البحث عن المخطوطات وشرائها حتى أصبحت هذه الظاهرة سمة بارزة مشتركة بين حكومات المدن الايطالية انقلبت إلى منافسة حادة بينها. أم المخطوطات الاغريقية فقد اتجهت الانظار بشأنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. ونشأت تجارة واسعة نشيطة للمخطوطات، وكانت القسطنطينية قبل سقوطها فى يد الأتراك العثمانيين مركز هذه التجارة. وكان يقصدها عملاء من حكومات المدن الايطالية يقتنون المخطوطات الاغريقية، أو دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الاغريقية فى القسطنطينية ويجمعون أثناء دراستهم عدداً وافراً من المخطوطات، وعن طريق العملاء والدارسين معاً انتقلت مجموعات ضخمة من المخطوطات الاغريقية إلى مدن شبه الجزيرة الايطالية.

وتأسيسا على هذه الوقائع الثابتة تاريخيا فإنه من الممكن أن نتبين خطأ الرأى الشائع بين جمهرة كبيرة من الباحثين، والقائل بأن فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ أدى إلى ظهور حركة إحياء الدراسات الاغريقية فى شبه الجزيرة الايطالية بسبب هجرة عدد ضخم من العلماء البيزنطيين من وجه

الأتراك العثمانيين والتجائهم إلى ايطاليا حيث استقر بهم المقام وباشروا نشاطاً علميا واسعا. والحق أن هذه الحركة الفكرية ونعنى بها حركة إحياء الدراسات الاغريقية – قد ظهرت فى ايطاليا قبل سقوط القسطنطينية بخمسين سنة على الأقل حين جذبت طلائع الحركة الفكرية عدداً كبيراً من العلماء البيزنطيين إلى الهجرة فى مطلع القرن الخامس عشر إلى ايطاليا حيث طاب لهم المقام فى مدنها لماكان يغمرهم به حكام هذه المدن من رعاية مادية وأدبية. وعلى ذلك فإن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين لم يكن السبب الرئيسى فى ظهور حركة إحياء الدراسات الاغريقية فى شبه الجزيرة الايطالية، بل يمكن القول أن هذا الحادث الحربى لم يكن سوى أحد العوامل التى ساعدت على ازدهار هذه الحركة التى بدأت من قبل.

ومن الحقائق الثابتة تاريخيا أيضاً أنه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكرى بين الدولة البيزنطية وبين المدن الايطالية التى اشتهر بحكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب. وتبودلت الزيارات العلمية من الجانبين فقام عدد من الدارسين الايطاليين بزيارة القسطنطينية للتخصص فى دراسة اللغة الاغريقية على يد كبار اساتذتها، وكانت العاصمة البيزنطية معقل الدراسات الاغريقية ذات المستوى الرفيع، كما وفد تباعاً إلى فلورنسا وغيرها من المدن الايطالية نخبة من العلماء البيزنطيين. ويمثل الفريق الأول جيوفانى بوكاشيو Giovanni Bocaccio (١٣١٣ – ١٣٧٥) الذى ذهب إلى القسطنطينية ينشد التعمق فى الدراسات الاغريقية. ويمثل الفريق الثانى كريزولوراس Chrysoloras من أهالى القسطنطينية. وقد أوفده امبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى مهمة سياسية لدى الحكومات القائمة فى شبه الجزيرة الايطالية يسعى للحصول على مساعدتها ضد الأتراك العثمانيين الذين ازداد ضغطهم العسكرى على آسيا الصغرى فى زحفهم المرتقب نحو القسطنطينية. وحدثت اتصالات علمية فى فلورنسا بين كريزولوراس وبين علمائها الذين قدروا فيه غزارة العلم فلما عاد إلى القسطنطينية ظل علماء فلورنسا على اتصال وثيق معه

وعرضوا عليه القدوم إلى فلورنسا، وكان وجوده كسباً كبيراً للحركة الفكرية فى ايطاليا فقد كان كريزولوراس يمثل بحق الاستاذية الشامخة فى الآداب الاغريقية، وسرعان ما تجمع حوله عدد من تلاميذه المتحمسين كونوا مدرسة فكرية اغريقية برزت بروزاً واضحاً قويا فى نشر الدراسات الإنسانية فى شبه الجزيرة الايطالية. ولم يكن نشاط كريزولوراس مقصورا على فلورنسا، فقد كان ينتقل بينها وبين ميلان والبندقية وبافيا يحاضر فى كل منها. وشعر مواطنوه العلماء البيزنطيون بالتقدير العميق الذى ظفر به كريزولوراس حيثما حل فى المدن الايطالية، وادركوا أن هذه المدن فى حاجة إلى مزيد من الأساتذة المتخصصين فى اللغة الاغريقية وآدابها، فأقبلوا على الهجرة إلى ايطاليا فى الفترة الواقعة بين سنة ١٤٠٠ وسقوط القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ مدفوعين بالرغبة فى الظفر بالمرتبات العالية التى تدفعها لهم حكومات المدن الايطالية. ثم جاء سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين فقضى على تردد العلماء البيزنطيين فى الهجرة إلى ايطاليا، ومن ثم شدوا رحالهم إليها، الأمر الذى ساعد على انعاش الدراسات الاغريقية فى ايطاليا بعد أن كانت هذه الدراسات قد قطعت شوطاً بعيداً فى طريق الازدهار.

وفى نفس الوقت الذى بذلت فيه الجهود لإحياء الدراسات الاغريقية كانت حركة إحياء الدراسات اللاتينية تسير هى الأخرى قدما نحو الازدهار وكان وراءها عامل هام يدفع بها خطوات واسعة سريعة ويميزها عن الدراسات الاغريقية. كان الايطاليون ينظرون إلى اللغة اللاتينية على أنها لغة الحضارة الرومانية، بها سطرت صفحات المجد والخلود، ولما كانوا يعتبرون أنفسهم حفدة الرومان وورثة حضارتهم، فقد جاشت فى نفوسهم عاطفة وطنية تشابكت وتداخلت مع رغبتهم فى الاقبال على الدراسات اللاتينية.

وكان من وراء هذه الدراسات عالم ايطالى هو بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) انصرف إلى دراسة اللغة اللاتينية، حتى سيطر عليها سيطرة تامة، وأجاد الكتابة بها

على نمط الأسلوب اللاتينى القديم، واستهوت اللغة اللاتينية فؤاده وشغف بها شغفاً عظيما حمله على احتقار اللغة الايطالية الشائعة آنذاك، حتى أنه نعى على دانتى شاعر ايطاليا استخدامه اللغة الايطالية. وكان بترارك يعتبر اللاتينية لغة الآداب الرفيعة. ويقيس ثقافة الفرد بمدى المامه باللغة اللاتينية. واستطاع بفضل تمكنه من هذه اللغة أن يتذوق الاتجاهات الإنسانية التى حفلت بها كتابات الرومان فجعلت منه عالما عملاقاً يمثل طرازاً جديداً من رجال الفكر يختلف عن أقرانه مفكرى العصور الوسطى. وقد توفر على جمع المخطوطات اللاتينية والنقوش والنمايات ثم عمل جاهداً على نشر الدراسات الإنسانية وتشجيعها وتنشيطها حتى أطلق عليه «والد الإنسانية»، ونجح فى تكوين مدرسة فكرية تنتمى إليه، وتتكون من مثقفين متحمسين للدراسات الإنسانية.

وكان بترارك يمثل فى معظم كتاباته روح العصر الحديث، فهو فى تفكيره السياسى يبدى أسفه العميق على الانقسامات السياسية التى تمزق وطنه الحبيب، وعلى قيام عدد كبير من الامارات والحكومات المتشاحنة المتنافرة وطالب بضرورة قيام وحدة سياسية تنشر ظلها الظليل على جميع انحاء شبه الجزيرة الايطالية. ومن مظاهر تحرره وتشبعه بروح النهضة أنه عبر عن عاطفة الحب التى تتأجج فى قلبه نحو معشوقته لورا، وشرح احساسيه ازاءها فى صراحة تامة دون أن يستشعر الحرج. ووصف جميع أجزاء جسم الإنسان وصفا دقيقا تأباه تقاليد العصور الوسطى. وقد ألف باللغة اللاتينية أيضا ملحمته الشهيرة: افريقيا Africa سرد فيها حوادث الحروب التى اند لعت بين روما وقرطاجنة، ولم يتح له اكمالها.

**٢) اختراع الطباعة وأثره فى إثراء الحياة الفكرية:**

يعتبر اختراع الطباعة من أهم الاختراعات التى ظهرت فى عصر النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة، حيث تم فى نفس العصر ابتكار صناعة الورق، وكان النجاح فى صنعه هو الذى مكن الطباعة من أداء رسالتها ولاشك أن الطباعة من أعظم الاختراعات التى شهدتها الإنسانية والتى اسهمت فى إثراء الحياة العقلية

على مر العصور والاحقاب وإذا كان حنا جوتنبرج Jean Gutenberg الالمانى - وهو من مدينةماينز Mayence على الضفة الغربية لنهر الراين - قد أدخل على الطباعة تحسينات كثيرة قفزت بها إلى الأمام خطوات واسعة، فسرعان ما تلقفها الايطاليون وادخلوها بحروف معدنية إلى بلادهم فى سنة ١٤٦٥ . وكانوا فى هذا المضمار أسبق من الفرنسيين الذين جاءوا بها إلى باريس فى سنة ١٤٧٠، ومن الانجليز (١٤٧٧) وأهل السويد (١٤٨٣) والاسبان (١٤٩٩). ويتصل الورق بالطباعة اتصالا وثيقا وفى العصور القديمة كان ورق البردى يستخدم فى الكتابة، وفى العصور الوسطى حلت محله رقائق جلود الاغنام، وكانت هذه الرقائق باهظة التكاليف، فكان الناس يعمدون إلى محو الكتابات القديمة من الرقائق لإعادة استخدامها أكثر من مرة. وفى عصر النهضة عرف الورق وكان النجاح فى صنعه هو الذى مكن الطباعة من الازدهار.

وثمة ملاحظة هامة هى أن صاحب المطبعة كان يجمع بين المامه التام بفن الطباعة وبين العلم الغزير والثقافة الواسعة. ومن أبرز أعلام الطباعة الايطاليين الدو مانوزيو Aldo Manuzio (١٤٤٩ - ١٥١٤)، تعمق فى دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية، وغدا متخصصاً فى النقد والنحو وتاريخ الأدب وعلم الاخلاق، ثم رحل فى سنة ١٤٩٠ إلى البندقية حيث أسس اكاديمية البندقية، وأطلق عليها اسم الاكاديمية الجديدة، وتخصصت فى الدراسات الاغريقية. واستعان بعدد من اليونانيين من سكان جزيرة كريت المهاجرين، كان ينسخون له المخطوط لإعداده للطبع. والحق بالمطبعة قسما للتجليد وآخر لصناعة حبر الطباعة، وأخذت هذه المؤسسة تصدر فى تتابع كتبا قليلة التكاليف جعلت الدراسات الإنسانية فى متناول الكثيرين. وكان اخراج الكتب جميلاً ومتقناً ورائعا، وكما يقول هربرت فيشر: «استطاع السيد البندقى وهو ينساب بجندوله فى القناة الكبرى أن يتمتع بمباهج هوميروس فى مجلد صغير أوضح ما يكون طباعة»[1]

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٣٦

ومما يظهر أهمية الطباعة اعتبار التوصل إليها بداية لعصر جديد إذ يذكر فرانتز روزنتال أن الحضارة الإنسانية مرت فى ثلاثة أطوار متميزة، الطور الأول هو الفترة السابقة لظهور الكتابة (عصر ما قبل التاريخ) والطور الثانى هو الفترة التى ظهرت فيها الكتابة (عصر المخطوطات) والطور الثالث والأخير هو طور الطباعة، وهو العصر الذى نعيش فيه[1] والذى بدأ مع ظهور النهضة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة.

### ٣) ظهور اللغات الحديثة فى عصر النهضة الأوروبية:

كانت اللغة اللاتينية هى لغة العلم والكتابة فى العصور الوسطى وقد دون بها العلماء ثمرات قرائحهم، ثم تضاءل استخدامها حتى أصبحت مقصورة على رجال الكنيسة، فقد عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم. فنشأت فى شبه الجزيرة الايطالية وفرنسا واسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتينى. وظهرت فى شمال أوربا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتونى، وعمد علماء كل لغة إلى نحت كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها حتى أصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والآداب بها، وأصبح الاهتمام بهذه اللغات القومية الوليدة مظهرا من مظاهر النزعة القومية وعاملاً هاماً ساعد على نشر الأفكار الجديدة التى أتت بها النهضة. ففى ايطاليا كتب دانتى Dante شاعر ايطاليا وعملاقها كتابه الخالد «الكوميديا الالهية» باللغة الايطالية، ،وفى فرنسا كتب مونتين Michel de Montaigne (١٥٢٣ – ١٥٩٢) باللغة الفرنسية رسائل رائعة فى الفلسفة والاخلاق عرفت باسم Essais وفى اسبانيا وضع سرفنتيس Michel de Cervantes (١٥٥٧– ١٦١٦) باللغة الاسبانية قصته المشتورة «دون كويكزوت Don Cwichotte de la Manche» وفى انجلترا وضع شوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٠ – ١٤٠٠) «قصص كانتر برى Canterbury Tales» باللغة الانجليزية. هذا إلى غيرهم ممن ظهروا فى

---

(١) فرانتز روزنتال (دكتور): مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى، ص ٢٠

مختلف البلاد الأوروبية وكتب كل منهم بلغة شعبه. وبفضل الارتقاء الذى طرأ على هذه اللغات الحديثة والتأليف بها أصبح لها شأن كبير فى نشر العلم وتنوير الأذهان وإعداد أفراد المجتمع لتقبل الآراء الجديدة التى جاءت بها النهضة.

**٤) زيادة العناية بالآثار الدينية وغير الدينية:**

شهد عصر النهضة اهتماماً كبيراً بالمحافظة على الآثار الرومانية وتقديراً عميقا لقيمتها الفنية. وكان كثير من هذه الآثار قد تعرض للتلف والضياع بسبب عبث النبلاء وغيرهم من طبقات الشعب فى العصور الوسطى، إذ كانوا ينزعون الرخام والاعمدة وغير ذلك من بعض الآثار. واستعملوا بعض المخلفات الرومانية كأنها ملك خاص لهم. فلما جاء عصر النهضة أفاق الناس للقيمة الفنية الرائعة لهذه الآثار واعتبروها صفحة مجد وفخار، وانطلق العلماء ينقبون عن الآثار، وبدأت دراسة علمية منظمة للآثار الرومانية تجلت فى ظهور عدد من المؤلفات والموسوعات تناولت تاريخ الآثار الرومانية وتخطيط روما القديمة وعادات الرومان القدماء.

**٥) زيادة العناية بعلم التاريخ والبحوث التاريخية المتنوعة:**

وظفر علم التاريخ بعناية فائقة من رجال النهضة فى شبه الجزيرة الايطالية، وبدأت الدراسات التاريخية تستقى مادتها العلمية من مصادر لايرقى إليها الشك بعد أن كان المؤرخون يعتمدون على السماع أو أقوال الرواة، وتطورت مناهج البحث التاريخى وظهرت مدرسة جديدة فى النقد التاريخى كان من أهم مظاهرها البحث الذى وضعه أحد الايطاليين، وهو لورنزو فالا عن «هبة قسطنطين Donation de Constantin» وهى وثيقة قيل أنها ترجع إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى طالما استند إليها الباباوات فى العصور الوسطى فى صراعهم مع الأباطرة حول حقهم فى السلطة الزمنية. وقد خلص هذا الباحث إلى نتيجة هامة هى أن الوثيقة مزورة، وبذلك «تتهاوى جميع ادعاءات البابوات وتصير إلى هباء. وجاء فى أعقاب هذا البحث حادث له دلالته، وهو أن البابا نيقولا الخامس - كان يتبوأ كرسى البابوية

وقتذاك - أعجب بالبحث وأبدى تقديره لمؤلفه، فعينه موظفاً فى الحكومة البابوية فكان هذا التعيين دليلا على أن البابوية أصبحت نصيرة لحركة الدراسات الإنسانية. وقد تكونت مدرسة تاريخية فى فلورنسا أخرجت عديداً من الكتب التاريخية فى موضوعات شتى، وكان لهذه الأبحاث طابع مميز، هو حرية الرأى وحرية التعبير وعدم التقيد بالموضوعات الدينية والتحرر من التقاليد البالية والبعد عن الخرافات والتزام الموضوعية، مما جعل هذه البحوث باكورة طيبة للدراسات التاريخية الحديثة.

**٦) زيادة العناية بالفنون الجميلة وتنوع مجالاتها:**

كانت الفنون الجميلة هى الميدان الذى نبغ فيه الايطاليون، وإليهم يرجع الفضل فى إحياء الفنون التى كانت مزدهرة فى العصور القديمة. وإذا كان مولد النهضة فى ايطاليا قد انبثق عن احياء الدراسات الإنسانية على أيدى الإنسانيين الايطاليين، فإن ايطاليا تستطيع أن تفخر أيضا بأن الفنانين الايطاليين هم الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة وروعتها وعملوا على محاكاتها فى روحها وتعبيراتها . فالايطاليون هم أصحاب الفضل الأول فى بعث الدراسات الأدبية القديمة وفى نشأة الدراسات الأدبية الحديثة، وهم أصحاب الفضل الأول كذلك - وعلى درجة أكبر - فى ابتكار الفن الحديث. وبعد أن كانت الفنون تتجه لخدمة الكنيسة والاغراض الدينية بوجه عام أصبحت بفضل الايطاليين منطلقاً إلى آفاق جديدة حرر فيها الفنانون الايطاليون أنفسهم وعقولهم من قيود العصور الوسطى وتقاليدها المتزمتة، فإذا بالفنون تدب فيها روح علمانية متحررة مشغوفة بمناظر الطبيعة الخلابة وبجمال الوجه البشرى وسائر أجزاء جسم الإنسان، وإذا بالفنانين الايطاليين يكرسون كل طاقاتهم المبدعة فى الارتفاع بمستوى الفنون الجميلة الحديثة إلى اسمى درجات الكمال وبخاصة فنون التصوير والنحت والعمارة.

فقد بلغ فن التصوير الذروة فى الابداع الفنى حتى اعتبر الفن الأول لعصر

النهضة فى شبه الجزيرة الايطالية. وتميز كثير من الفنانين بنزعة دنيوية مسرفة فى صراحتها، تحرروا من قيود العرف والتقاليد والروح الدينية المتزمتة التى خضع لها أسلافهم فى العصور الوسطى، وأخرجوا صوراً تنبض بالحياة أبرزوا فيها جمال الوجه البشرى وسائر أجزاء جسم الإنسان وصوروا جمال الطبيعة ومشاهدها الخلابة، واستخدموا بمهارة فائقة الأصباغ الزيتية فأضفت على الصور روعة الفن وبهاءه وتنافست المدن الايطالية فى السبق فى هذا الفن حتى أصبح لكل مدينة مدرستها الخاصة فى فن التصوير. وبرزت بوجه خاص فى هذا الفن مدينتا البندقية وفلورنسا. وتميزت الأولى بالروح العلمانية البعيدة عن تقاليد الكنيسة، وتأثرت الثانية إلى حدٍ ما بالروح الدينية.

ويعتبر رافايلو سانتزيو Raphaello Sanzio (١٤٨٣ - ١٥٢٠) على رأس الفنانين الذين برعوا فى فن التصوير فى ايطاليا. وعلى الرغم من أنه قضى نحبه وهو فى ريعان شبابه إلا أنه جسد العبقرية الايطالية فى فن التصوير بما خلفه من آثار فنية بلغت حد الروعة والاعجاز، ويتمثل بعض منها فى صورة عن أسرة المسيح عليه السلام وسر العشاء الربانى المسماه La Dispute du Saint Sacrement ومن اثارة الفنية الرائعة La Belle Jardiniére, Le Parnasse, LEcole d'Athénes. وبجانب رفائيل توجد شخصيتان بارزتان فى فن التصوير أيضا هما ليوناردو دا فنشى Leanardo da Vinci (١٤٥٢ - ١٥١٩)، وقد ولد فى قرية فنشى بالقرب من فلورنسا، واشتهر بنشاطه فى فروع شتى من الفنون والعلوم الطبيعة، واشتغل بدراسة تشريح الأجسام البشرية والحيوانات والنباتات مع عمل رسوم لأعضاء الجسم والعضلات والأوردة والشرايين وما يتصل بالدورة الدموية وكذلك الأمعاء إلى غير ذلك من الأجزاء البشرية، وقام بتشريح الأجسام للرجال والنساء من مختلف الأعمار. كما كان كاتبا وأديبا ممتازا. ويدل تعدد جوانب الثقافة فى الشخص الواحد على ظاهرة من الظواهر اللافتة للأنظار والأفكار معا وهى عدم وجود ما يعرف الآن باسم « التخصص الدقيق» ومع ذلك فإن شهرة ليونارد دى فنشى تعتمد على تفوقه

فى فن التصوير أكثر من امتيازه فى أى فن أو علم آخر، ومن أشهر صوره الجيوكوندا La Jéconde وهى لسيدة ايطالية من مواليد نابولى تدعى موناليزا جيرادينى Mona Lisa Gherardini تزوجت فى السادسة عشرة من عمرها على كره منها أحد ضباط مدينة فلورنسا يسمى فرانشسكو زانوبى جيوكوندو Frnacesco Zanobi de Gicondo فى الخامسة والثلاثين من عمره، وكان زواجه منها للمرة الثالثة. وقد دخلت هذه السيدة مع زوجها مرسم الفنان ليونارد بأمر من حاكمه فلورنسا وعشيقها وكان اسمه جيوليانو دى مدتشى، واستطاع الفنان أن يرسم لها صورة استغرقت منه أربع سنوات كرس كل طاقاته المبدعة فى اثبات أدق التفاصيل بالرسم والألوان حتى خرجت الصورة معجزة فنية خالدة مظهرة مفاتن سيدة وديعة حسناء مثالية تتمتع بجاذبية نادرة، شاءت الأقدار أن تحرم من متاع الحياة الزوجية وهى مازالت فى ربيع عمرها. واختار لجلوسها فى الصورة مكانا موحشا جلست عليه وحيدة بين الصخور التى تشقها مياه الغدير تنساب فى الوادى السحيق إلى عالم المجهول كرمز لما يكتنف حياتها من غموض وما يعصف بذهنها من شرود، يعلو وجهها ظل ابتسامة تفيض من عينيها الناعستين وترتسم على شفتيها. واستطاع ليونارد بمواهبه العظيمة التى أودعها فى صورة الجيوكوندا أن يجعل من هذه السيدة المجهولة شيئاً مذكوراً فى التاريخ وعلما بارزاً على مر العصور والأحقاب فى عالم الفن التصويرى، وأن يصبح هو فى مقدمة عظماء الفنانين الذين انجبتهم ايطاليا فى عصر النهضة[1].

أما الشخصية الثانية التى برزت فى فن التصوير فكانت ميكلأنجلو Michelangelo (١٤٧٥ - ١٥٦٤) ولد فى كابريس Capresse فى توسكانيا. كان شاكلة سابقة. وعرف بتعدد الجوانب الثقافية، فبرع فى التصوير والنحت وهندسة البناء والشعر الايطالى واشتهر بوفرة انتاجه الفنى وتعدد الموضوعات التى عالجها والمستوى الرفيع الذى بلغه فى هذا الإنتاج. ويرى البعض أن ميشيل آنج

(١) حسن عثمان (دكتور) منهج البحث التاريخى، ص ٤٠ - ٤١

ورفائيل، وليونارد دى فنشى، يشتركون معا فى تكوين ثالوث الفن فى القرن السادس عشر بما حققوه من أمجاد فنية ستظل على توالى العصور فى مقدمة ما أبدعه الإنسان فى ميدان الفنون التشكيلية.

أما بالنسبة لفن النحت فقد شهد فى عصر النهضة فى أوروبا بعثا قويا وأتيح له عامل هام ساعد على ازدهاره، اذ كانت التماثيل الرائعة التى خلفها الاغريق والرومان لاتزال قائمة لم تمتد اليها يد الزمان، كما أن أعمال البحث والتنقيب عن الآثار قد اسفرت عن الكشف عن تماثيل اخرى لاتقل روعة عن السابقة. فكانت هذه وتلك أمثلة حية يحتذيها فنانو عصر النهضة فى نحت تماثيل جديدة. ومن هنا يختلف فن النحت عن فن التصوير، لأن - الصور التى تركها كبار المصورين الاغريق كانت قد اندثرت وبليت بحيث أصبح فى حكم الاستحالة أن يرسم فنانو عصر النهضة صورا على شاكلتها، بينما كانت التماثيل القديمة نماذج حية ناطقة أمام فنانى النهضة مما ساعد على ازدهار فن النحت. وقد أنجب عصر النهضة نخبة من النحاتين برزوا فى انتاجهم انتاج الاغريق. ومن أشهر اساتذة فن النحت لورنزو جيبرتى Lorenzo Ghiberti (١٣٧٨-١٤٥٥) وهو من فلورنسا، وكذلك دوناتللو Donatello (١٣٨٦-١٤٦٦) وقد ولد فى فلورنسا وينسب إلى توسكانيا، ولم يتقيد الفنانون بتقاليد العصور الوسطى، فكان يغلب على فن النحت المظهر الوثنى أكثر مما هو الحال فى التصوير، لأن فنانى النهضة كانوا يحرصون على ابراز مفاتن جسم الانسان، وجهه وقوامه وسائر اجزاء جسمه دون التقيد بالأخلاقيات، فأخرجوا انتاجا فنيا شمل تماثيل بلغت شأوا بعيدا فى الابداع الفنى.

وفيما يتعلق بفن العمارة فكان الفن الوحيد الذى لم يندثر طوال العصور الوسطى، فقد ظل قائما مزدهرا معتمدا على نماذج الفن القديم وظهر فى شمال

أوروبا طراز جديد من العمارة هو الطراز القوطى الذى كان يتميز بكثرة الأقبية العالية والدعائم المعلقة Flying Buttresses وانتقل هذا الطراز إلى ايطاليا وتمثل فى بناء الكنائس والكاتدرائيات. ولما بدأ عصر النهضة وظهر الاتجاه إلى احياء الدراسات والفنون القديمة انعكس هذا الاتجاه على فن العمارة، فأدخلت الخصائص والرسومات الهندسية التى كان يتبعها الاغريق فى مبانيهم القديمة. وشهدت فلورنسا هذا التطور الكلاسيكى فى فن البناء فى النصف الأول من القرن الخامس عشر، ومنها انتقل إلى بقية أنحاء شبه الجزيرة الايطالية، ومن المدن التى برزت فى هذا المضمار المعمارى ونافست فلورنسا مدينتا البندقية وروما، ومن أشهر النوابغ فى فن العمارة فى مطلع عصر النهضة فيليب برينلشكى Philippe Brunelleschi وهو من مواليد فلورنسا[1].

## المظاهر السلبية للنهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة:

حتى تكتمل لدينا الصورة الواقعية لحركة النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة وبعد أن تعرضنا لكثير من الجوانب الايجابية، فانه ينبغى علينا أن نتعرف أيضا على بعض المظاهر السلبية التى كان من الطبيعى أن تظهر على مسرح الاحداث فى أوروبا فى هذه المرحلة الانتقالية والتى تركت بصماتها إلى حد كبير على الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة. فمن المعروف أن حركة النهضة قد أحدثت تغييرات عميقة فى المجتمع الأوروبى وبخاصة فى ايطاليا. وكان دور النساء قد برز فى مجتمع النهضة بشكل ملحوظ. وهو مجتمع أصبحت السمة الظاهرة فيه تقديس الجمال والتمتع بملذات الحياة ونعيمها، واحلال الذوق الرفيع والاحساس المرهف محل التقشف والزهد والافكار المحزنة. وسما مركز المرأة فى المجتمع إلى درجة لم تبلغها فى أوروبا من قبل، وتعدد نشاطها اذ اشتغلت بدراسة الفلسفة والدراسات القديمة والموسيقى والرقص والغناء والعناية بالأزياء واقامة

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٤٢ – ٤٣.

الحفلات الصاخبة وما إلى ذلك. ومع هذا التطور الذى يحمل فى جنباته بعض الجوانب الايجابية فقد برزت من خلاله بعض المظاهر السلبية التى جعلت المجتمع فى ايطاليا بوجه خاص يشهد تدهورا فى القيم الاخلاقية. فالحرية التى لاتعرف الحدود فى المسائل الجنسية، والاستهانة بالآداب العامة، والخروج على التقاليد والاخلاق، أصبحت كلها أمورا شائعة فى تلك المرحلة. وتمثلت مظاهر هذا الانحلال الخلقى فى الاغانى العاطفية المبتذلة العبارات والمفضوحة المعانى، والقصص التى تقوم على الاثارة الجنسية المكشوفة، وعجز الشبان والرجال عن السيطرة على شهواتهم ونزواتهم التى ازدادت اشتعالا عندما وجدت استجابة فورية جامحة من الجنس الآخر. وكان ضعف الوازع الدينى من ناحية وارتفاع شأن المال من ناحية أخرى فى مقدمة العوامل التى أدت إلى انتشار الفساد والمنكرات وتدهور المعايير الخلقية وانحلال المجتمع الذى اصيب بما يمكن أن يسمى بالحمى الجنسية أو حمى الجنس. وقد عبر مارتن لوثر عن انتشار هذه الآثام تعبيرا مهذبا جاء فيه « أن كل من يذهب إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التى تصيبه من جراء مايرى هناك».

وصحب حمى الجنس النزوع إلى الاجرام، وقد تمثل فى الاستهانة بأرواح الناس، وزاد عدد السفاكين ومن اليهم من محترفى الاجرام وهواة الموبقات، اتخذوا من الليل ستارا ومن الخناجر أسلحة لازهاق الأرواح وارتكاب السرقات وغير ذلك من أنواع الجرائم والمنكرات. ومع ذلك لم يكن لهذه الفوضى الخلقية الشاملة رد فعل فى نفوس معظم الايطاليين فلم يستنكروها. ومن المعروف أنه اذا انتشر الرخاء المادى وفاض الثراء بالأهالى عاشوا حياة البذخ والترف وسرعان مايتحللون من القيم الخلقية وينبذون تعاليم الدين. وهكذا كان ايطاليو عصر النهضة، وأصبحت السمة الشائعة هى التبذل والتهتك والانغماس فى الملذات.

أما ظاهرة قتل الأرواح فقد كان الايطاليون فى ذلك العصر – وهم على

مانعلم على حظ موفور من الثقافة ومن محبى العلوم ومشجعى الفنون - يطيب لهم أن يعيشوا على حافة الخطر، ولم تعد جرائم العنف تثيرا اهتمامهم لأن المظاهر الأخرى للنهضة كانت تبهرهم،وكان المجتمع الايطالى مليئا بالمتناقضات: علماء وأساتذة اجلاء، فنانين بلغوا الذروة فى روعة الانتاج الفنى بشتى صوره واشكاله، وجماهير اطلقت العنان لشهواتها واتخذت من المرأة آداة للمتعة العاطفية حينا والمتعة الجنسية أحيانا، ومحترفى اجرام قاموا بعمليات سفك الدماء والسطو والنهب، ومجموعة من البابوات انغمسوا فى الملذات وحياة المجون بجانب اهتمامهم بشئون الحكم فى الاقاليم البابوية. وكان لهذا التراخى الخلقى الشديد الذى تعددت صوره وأشكاله فى كافة المجالات والقطاعات رد فعل ضد النهضة تمثل فى قلة من الناس تمسكوا بالفضيلة وانتصروا لمبادىء الدين ومقاومة المنكرات. غير أن جهودهم لم تقو على مواجهة تيار الانحلال الخلقى الذى نتج عن الانتقال من الكبت والتزمت إلى الانطلاق والاباحية. وستظل رواسب هذه السلبيات باقية فى المجتمعات الأوروبية رغم التقدم المادى والفكرى الذى جاء مع عصر النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة، والذى وصل إلى درجات متفوقة فى التاريخ المعاصر.

### انتشار حركة النهضة فى أوروبا فى مطلع العصور الحديثة:

تسربت اشعاعات النهضة من شبه جزيرة ايطاليا عبر جبال الألب إلى اصقاع شتى من القارة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة على أيدى الطلاب الذين كانوا قد توافدوا من أنحاء أوروبا إلى المدن الايطالية ينهلون من مراكز النهضة فيها ماشاء لهم شغفهم بالتحصيل العلمى. ولما عاد هؤلاء الوافدون إلى بلادهم دفعهم حماسهم إلى نشر الآراء الجديدة بين مواطنيهم وقد اتسمت النهضة فى كل دولة أو اقليم بطابع خاص ومظاهر معينة حسب خصائص كل شعب من الشعوب الأوروبية ووفقا لاحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

## ١) النهضة فى المانيا فى مطلع العصور الحديثة:

تجدر الاشارة إلى أن النهضة فى ألمانيا لم تكن تحظى بنفس القدر الذى حظيت به فى ايطاليا من قيام بعض الحكام بتشجيع القائمين على الدراسات الانسانية. وعلى الرغم من أن بعض الجامعات الالمانية قد أفسحت للدراسات الاغريقية واللاتينية مجالا فى برامجها، فقد كانت معارضة رجال الدين الالمان لهذه الدراسات من القوة والعنف بحيث حدت من انتشارها فى نطاق واسع، وقد ربط هؤلاء الرجال بالدراسات الانسانية وبين ايطاليا باعتبار أن هذا الاقليم هو مهد الدراسات الإنسانية منذ بدأت النهضة، وكان الالمان بوجه عام ورجال الدين بوجه خاص يشعرون بمقت شديد لرجال الكنيسة فى روما نظراً لما كان يتناقله الناس فى أحاديثهم ومجالسهم من أخبار تدل على تدهور رجال الكنيسة فى روما فى مستواهم الخلقى والدينى والثقافى. وطالب الالمان بالعودة إلى المسيحية الأولى فى بساطتها وطهارتها وتقواها، ورأوا أن هذا الغرض لن يتم إلا بتفهم المسيحية تفهما صحيحاً سليماً قبل أن تفسدها فلسفة العصور الوسطى وتعقيداتها وقبل أن تدخلها الخرافات والبدع والأساطير الدينية[١].

وقد ظهر فى ألمانيا حنا روخلن Johann Reuchlin (١٤٥٥ - ١٥٢٢) وكان من أعلام الفكر الالمانى الحديث، تخصص فى الدراسات الاغريقية واللاتينية فى روما وغيرها من مدن ايطاليا وفى باريس وبال، وجاهد فى سبيل نشر هذه الدراسات بين مواطنيه، ثم تعمق فى دراسة العبرية. وكان اهتمامه بهذه اللغة راجعا إلى رغبته فى خدمة الديانة المسيحية على أساس أن العبرية هى الوسيلة العملية لدراسة وتفهم كتاب «العهد القديم». وقد ثار جدل عنيف بينه وبين زميل له من رجال الفكر الالمانى يدعى حنا بلفركورن Johann Plefferkorn هاجم الأخير الدراسات الإنسانية هجوما عنيفا، ووقف الرأى العام الألمانى إلى جانب روخلن كما

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٤٩ - ٥١.

كفل له الفوز ورجحان كفته. ومن خلال هذا الجدل ادرك الشعب الالمانى بما لايدع مجالا للشك أهمية الدراسات الإنسانية فى شرح الكتاب المقدس، وبالتالى فى تفهم الديانة المسيحية على أساس سليم، ومن هنا حدث ارتباط وثيق بين الدراسات الإنسانية وبين الرغبة فى الاصلاح الدينى وهى رغبة جاشت فى صدور الجماهير الالمانية واستهوت افئدتهم وعملوا على تحقيقها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ومن ثم اتخذ دعاة الاصلاح الدينى من الدراسات الإنسانية وسيلة لتحقيق رغبتهم بعد أن كان رجال الدين يعارضون هذه الدراسات.

وقد ترتب على هذا الوضع عدة نتائج: فقد استهدفت الدراسات الإنسانية فى ألمانيا خدمة المسيحية، وخلت كتابات أعلام النهضة الالمان من أية نزعة وثنية، وغدت النهضة فى المانيا دينية فلسفية جافة تتميز بطابع الجدية الصارمة البعيدة عن تقديس الجمال. ولم تلبث أن تطورت إلى قيام ما يعرف بحركة الاصلاح الدينى، وهى – كما سنرى – حركة معادية للكنيسة الكاثوليكية فى روما اعتمدت على العنف وأدت إلى تصدع العالم الكاثوليكى ونشوء مذاهب مسيحية أخرى خاضت صراعاً حربياً رهيباً استطال عهوداً وأحقاباً. ومما هو جدير بالذكر أن الالمان لم يتحمسوا لمحاكاة الاغريق والرومان فى طرق معيشتهم أو أزيائهم وتقاليدهم على غرار ما فعل الايطاليون. وقد ظهر هذا الفارق أوضح ما يكون فى فن البناء، فبينما اتجه الفنانون الايطاليون إلى محاكاة النماذج الاغريقية والرومانية تمسك الفنانون الالمان بالطراز القوطى، وهو الطراز الذى كان منتشراً فى العصور الوسطى.

**٢) النهضة فى فرنسا فى مطلع العصور الحديثة:**

تجدر الاشارة إلى أن تيارات النهضة بدأت تظهر فى فرنسا بعد أن وضعت حروب المائة عام أوزارها فى سنة ١٤٥٣ – وكانت عبارة عن عدة حروب متقطعة نشأت بين فرنسا وانجلترا – بسط ملوك فرنسا وامراؤها رعايتهم على رجال العلوم

والآداب والفنون. وبتشجيع ملوك فرنسا وفد إلى باريس مجموعة من كبار العلماء، كان بعضهم من الايطاليين، والبعض الآخر من أصل بيزنطى، وأخذوا يحاضرون فى جامعة باريس فى اللغات العبرية والاغريقية واللاتينية. ومضى هؤلاء الملوك يبدون اعجابهم العميق بالنهضة فأدخلوا فى بلاطهم الكثير من التقاليد والمراسم والمظاهر التى كان معمولا بها فى بلاط الأمراء الايطاليين، ثم أنشأوا الاكاديميات وغيرها من المؤسسات العلمية للعناية بالدراسات الإنسانية وغيرها.

ومن مظاهر هذه الروح الطيبة أن توثقت عرى الصداقة بين فرانسوا الأول ملك فرنسا (١٤٩٤ - ١٥٤٧) وبين رجال الدراسات الإنسانية وكان بينهم جيوم بوديه Guillaume Budé (١٤٦٧ - ١٥٤٠)، وكان من كبار العلماء المتخصصين فى اللغة الاغريقية واستغل الخطوة التى كان يتمتع بها لدى الملك فرانسوا الأول، وزين له إنشاء كلية لتشجيع الدراسات الإنسانية، واستجاب له الملك فأنشأ كلية فرنسا Le College de France فى سنة ١٥٣٠ فى باريس خارج نطاق جامعتها، وعين لها اساتذة متخصصين فى اللغة الاغريقية بوجه خاص. ولايزال هذا المعهد العالى مفخرة من مفاخر فرنسا إلى اليوم. ولم يدخر هذا الملك جهداً فى تشجيع النهضة فى فرنسا واضفاء مزيد من التقدير والتكريم على رجالها حتى أطلق عليه لقب علمى معبر وهو «والد وباعث الآداب Le Pére et Restaurateur des Lettres» ونشطت فى باريس حركة نشر الكتب الاغريقية، وأسست مطبعة يونانية متخصصة لنشر هذه المؤلفات. ومن التقاليد التى أرسيت قواعدها فى فرنسا فى عصر النهضة والتى لايزال معمولاً بها إلى اليوم هناك أن أصحاب المطابع لم يكونوا رجال أعمال فحسب، بل جمعوا بين الثقافة العميقة الواسعة وبين مهنة الطباعة.

ومن بين اعلام النهضة فى فرنسا كذلك فرانسوا رابليه Francois Rabelais (١٤٨٣ - ١٥٥٣) الذى تعلم الطب وغدا استاذاً فى علم التشريح، وكان أول

من خالف أمر البابا وشرح جثة إنسان، وأصبح عاكفا على البحث العلمى، وذلك رغم اشتغاله قسيسا، ونشر أبحاثه فى أسلوب مبسط وممتع. واهتم العلماء الفرنسيون كذلك بدراسة القانون الرومانى القديم وعكفوا على تفسير المصطلحات القانونية.

ويجدر بنا أن نشير إلى الفرق بين موقف العلماء الايطاليين وموقف العلماء الفرنسيين فى عصر النهضة الأوروبية تجاه الدراسات الإنسانية وغيرها من مظاهر النهضة. لقد بهرت المخلفات القديمة افئدة العلماء والفنانين الايطاليين، وأيقنوا أن هذه المخلفات هى أروع وأجمل ما يمكن أن تنتجه عقول البشر، فأقبلوا عليها يتخذونها مثلا أعلى يستوحون منه إنتاجهم الأدبى والفنى دون محاولة لإضافة مزيد من اللمسات أو التعديلات وكانت النتيجة الطبيعية أن إنتاجهم الأدبى والفنى غدا صورة أو نموذجاً للمخلفات القديمة. أما العلماء الفرنسيون فقد نظروا إلى هذه الآثار الأدبية والفنية نظرة ملؤها التقدير، ولكنهم احتفظوا فى نفس الوقت بشخصيتهم الأدبية أو الفنية وبأسلوبهم فى التفكير والتعبير، وكان انتاجهم مزجا بين القديم الذى يتمثل فى المخلفات الاغريقية والرومانية وبين الجديد الذى يتمثل فى خصائصهم الذاتية. ويتضح هذا الفارق بين الإنتاج الفرنسى فى قطاع الأدب والبناء والنحت.

### ٣) النهضة فى انجلترا فى مطلع العصور الحديثة:

تجدر الإشارة إلى أن حركة النهضة فى انجلترا بدأت تظهر تدريجياً بعد أن تخلصت هذه البلاد من مشكلات الحروب التى قامت بينها وبين فرنسا، وهى المعروفة باسم حرب المائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣)، ثم لم تلبث أن شغلت مرة أخرى بحرب داخلية عرفت باسم حرب الوردتين (١٤٦١ - ١٤٨٥) Wars of the Roses فلما وضعت هذه الحرب الأخيرة أوزارها أخذت الدراسات الإنسانية طريقها إلى انجلترا. وكان جماعة من الانجليز قد شدوا رحالهم إلى شبه الجزيرة

الايطالية ونهلوا من الدراسات القديمة فى فلورنسا والبندقية وروما وغيرها ما شاء لهم نهمهم العلمى. وكان معظم هؤلاء الانجليز من اكسفورد، ولما عادوا اتخذوا من اكسفورد مكانا لالقاء محاضراتهم ونشر آرائهم الجديدة، فأطلق عليهم «مصلحو اكسفورد Oxford Reformers».

وقد اسهم ارازمس فى ازدهار الدراسات الاغريقية فى انجلترا ففى زيارته الأولى لها سنة ١٤٩٩ حاضر فى جامعة اكسفورد فى هذه الدراسات، وفى زيارته الثانية لانجلترا - وقد امتدت من سنة ١٥١٠ حتى سنة ١٥١٣ - حاضر فى جامعة كمبردج، وترعرعت بينه وبين أعلام الانجليز فى الدراسات الإنسانية أواصر صداقة وثيقة، ويعتبر ارازمس من أعلام مصلحى اكسفورد بسبب زياراته لانجلترا ولعلاقاته الوطيدة مع علمائها.

اهتم مصلحو اكسفورد بدراسة الأدبيات القديمة، ونادوا بضرورة اطلاق الفكر الإنسانى من القيود التى كانت تفرضها الكنيسة على حرية البحث العلمى وحرية الفكر. وكان هؤلاء المصلحون متأثرين بروح النقد المنتشرة فى عصرهم، وكانوا لايرضون عن مساوئ الكنيسة، ولكنهم لم يذهبوا فى مطالبتهم باصلاحها إلى حد المناداة بانفصالها تماماً عن روما.

ومن أعلام النهضة فى انجلترا توماس كولت Thomas Colet أدخل تعليم اللغة الاغريقية فى جامعة اكسفورد، وسير توماس مور Thomas More وكلاهما كان صديقا لارازمس. وتعاون الثلاثة على نشر الانجيل «حتى يصل إلى كل فلاح خلف محراثه، وكل ناسج خلفه نوله، وحتى يكون سلوى كل مسافر». وأخذت الدراسات الإنسانية طريقها من جامعة اكسفورد إلى جامعة كمبردج على يد ارازمس الذى حاضر فى اللغة الاغريقية، وكون حلقة من دارسين نابغين مشغوفين بتلك الدراسات ثم تعاقب من بعد ارازمس عدد من صفوة الاساتذة الانجليز

يحاضرون فى اللغة الاغريقية فى رحاب تلك الجامعة، حتى إذا جاءت سنة ١٥٤١ أصدر هنرى الثامن مرسوما ملكيا بإنشاء خمسة كراسى أستاذية فى جامعة كمبردج للغة اليونانية واللغة العبرية واللاهوت والقانون المدنى والطبيعة.

وفى النصف الأول من القرن السادس عشر دخلت الدراسات الإنسانية برامج المدارس الانجليزية، وكانت أقدم المدارس التى أسست لهذه الدراسات مدرسة سانت بول Saint Paul وتتابع انشاء مدارس أخرى على شاكلتها فى لندن وضواحيها.

وأهم فارق بين النهضة فى انجلترا وبين النهضة فى كل من ايطاليا وفرنسا أن النهضة فى الدولتين الاخيرتين اتجهت اتجاها وثنيا، أما انجلترا فقد أخذت النهضة طابعا دينيا يستهدف خدمة المسيحية، ولذلك لم تكن النهضة فى انجلترا مقصورة على الآداب والفنون، بل شملت أيضا الدين، وحاولت التوفيق بين الفن والعقيدة وبين الجمال والدين.

واتجهت النهضة فى انجلترا أول الأمر إلى جعل الآداب القديمة فى متناول المثقفين، فأخرجت تراجم لأعلام الفكر القديم، مثل هوميروس وفرجيل وبلوتارك وغيرهم، كما ترجمت إلى اللغة الانجليزية ألوان من الإنتاج الأدبى لأعلام النهضة الايطاليين. ولم تقدم انجلترا فى القرن السادس عشر روائع أدبية مبتكرة إلى الدراسات الإنسانية، حتى إذا جاء القرن السابع عشر بلغ الإنتاج الادبى فى اللغة الانجليزية الذروة فى الروعة والابداع، وقد تمثل هذا الانتاج فى مؤلفات شيكسبير Shakespeare (١٥٦٤ - ١٦١٦) وجون ملتون John Milton (١٦٠٨ - ١٦٧٤)[1].

### ٤) النهضة فى اسبانيا والبرتغال فى مطلع العصور الحديثة:

تجدر الإشارة إلى أن بعض الاسبان قد قاموا بزيارة شبه الجزيرة الايطالية حيث

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٥٣ - ٥٤.

تعرفوا على حركة النهضة وتياراتها المختلفة هناك وتلقوا دراسات فى اللغات العبرية والاغريقية واللاتينية ثم عادوا يحاضرون فى هذه الدراسات فى اشبيليه ولشبونه وغيرهما، وهكذا كانت شبه جزيرة ايبيريا الكاثوليكية فى مطلع القرن السادس عشر مهيأة للدراسات الإنسانية. ولكن ما لبث أن اهتز مركز هذه الدراسات اهتزازاً عنيفاً، إذ اشتهر ملوك اسبانيا بأنهم مسرفون فى تعصبهم للمذهب الكاثوليكى وسنرى أن بعضا منهم قد وضع موارد اسبانيا ومستعمراتها التى كانت لها فى العالم الجديد فى خدمة الكنيسة الكاثوليكية فى روما لضرب البروتستانت.

وكان انتشار النهضة فى شبه جزيرة أيبيريا وما أتت به من بعث للدراسات القديمة من العوامل التى أدت إلى ظهور حركة الاصلاح الدينى. ولقد أحس البابوات مؤخراً ببوادر هذه الحركة المعادية للكنيسة الكاثوليكية فوقفوا موقفا عدائياً من الدراسات الإنسانية، واستعانوا فى هذا الصدد بملوك أسبانيا. وعقد البابا كلمنت السابع والامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا الكاثوليكى – الذى كان قد تبوأ عرش اسبانيا باسم شارل الأول فى سنة ١٥١٦ ثم انتخب امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة فى سنة ١٥١٩ باسم شارل الخامس – عقد معه البابا كلمنت السابع اتفاقاً فى سنة ١٥٣٠ استهدفا منه تصفية الحركة الإنسانية، ونجم عن هذا الاتفاق أن أصبح للدراسات الإنسانية فى اسبانيا خصوم أعز نفرا وأقوى نفوذا، واستعانوا بمحاكم التفتيش تنكل وتبطش بأصحاب الدراسات الإنسانية. وفى هذا الجو الخانق انكمشت هذه الدراسات على نفسها، ولم يكن لها تأثير عميق فى المجتمع الاسبانى.

وجدير بالذكر أن ثمة وحدة سياسية قد قامت بين اسبانيا والبرتغال منذ سنة ١٥٨٠ واستمرت حتى سنة ١٦٤٠، ثم عادتا كما كانتا وحدتين سياسيتين منفصلتين بعضهما عن بعض. ومن الواضح أن تيار النهضة قد تعثر فى شبه جزيرة

ايبيريا من ناحية الدراسات الإنسانية نتيجة للتعصب للكاثوليكية، غير أن تيار النهضة قد بدا واضحا فى حركة الكشوف الجغرافية التى حركها هذا التعصب الكاثوليكى(١).

## أعلام النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة:

حفل عصر النهضة الأوروبية فى مطلع العصور الحديثة بعدد من المفكرين الأوروبيين بسطوا آراءهم فى الحكم والسياسة والمجتمع والاقتصاد والدين فى مؤلفات لاتزال تعتبر مصادر يستقى منها الباحثون فى النظريات والأنظمة السياسية والدستورية وغيرها من نواحى المعرفة مادتهم العلمية عن عصر النهضة. وتعتبر هذه المؤلفات من أبرز ما خلفه هذا العصر من تراث للإنسانية. وقد آثرنا أن نعرض عرضا سريعا موجزاً لثلاثة من أولئك الاعلام، هم على حسب ترتيب ظهورهم: دانتى، وميكيافيلى، وتوماس مور، وهم يعبرون عن عصر النهضة الأوروبية بكل ايجابياته وسلبياته أصدق تعبير.

### ١) دانتى اليجييرى (١٢٦٥ - ١٣٢١):

ولد دانتى اليجييرى Dante Alighieri فى مدينة فلورنسا، ودرس فى بادوا وبولونا فى شبه الجزيرة الايطالية ثم فى باريس وقد زج بنفسه فى الحياة السياسية فى فلورنسا حيث عين فى يونيو ١٢٩٦ عضوا فى مجلس المائة، ثم مستشاراً فى ١٥ يونيو سنة ١٣٠٠، وبقى فى هذا المنصب شهرين، وهو الحد الأقصى لشغل هذا المنصب طبقا لنص دستور فلورنسا. وقد كان يشوب الحياة السياسية فى فلورنسا منازعات طبقية عنيفة بين النبلاء والأثرياء من جهة وبين أفراد الطبقة الدنيا من جهة أخرى. وكانت هناك تجمعات سياسية مختلفة فى أهدافها ووسائلها واتجاهاتها. وحدث أن تغلب أنصار البابا على أنصار الامبراطور الالمانى، ورأى

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٥٦.

الأولون نفى دانتى، فهام على وجهه ينتقل من مدينة إلى أخرى مثل بادوا وفيرونا وأودينى ثم رافنا حيث لفظ أنفاسه الأخيرة.

ودانتى من رواد اللغة الايطالية ألف بها معظم انتاجه الأدبى. وقد قسم اللغة الايطالية إلى لغتين، لغة عامية، ولغة فصحى هى لغة الثقافة لتواكب التقدم الفكرى والعلمى والفنى وغيره من مظاهر النهضة الحديثة. وطالب بضرورة اخضاع هذه اللغة الفصحى لقواعد النحو والصرف.

وباللغة الايطالية الفصحى نظم دانتى قصائد عاطفية جعلته من أعلام الشعر والأدب فى نظر معاصريه وغيرهم، وأطلق على هذه القصائد اسم ديوان الأغانى ومنها قصيدته «الحياة الجديدة Vita Nouva» التى خلد فيها ذكر عشيقته بياتريش Beatrice وهى آنسة على حظ موفور من الجمال هام بها حباً، ولكن ما لبث أن اختطفها الموت ووقع عليه خبر وفاتها كالصاعقة، فانطوى على نفسه حينا من الزمن يبكيها بكاء حاراً.

واتخذ دانتى من النفى فرصة لزيادة حصيلته الثقافية فغدا مغرماً بالقراءة، وتعمق فى المطالعات الاغريقية واللاتينية وأخرج الكوميديا الالهية Divina Cem-media تكلم فيها عن زيارة خيالية قام بها للجحيم والجنة حادث فى أثنائها النزلاء فيهما من رجال الأدب والعلم والدين والسياسة، وحرص على أن يذكر أنه قابل معبودته بياتريش، وقد وجدها فى جنة الفردوس، وتحدث إليها حديثا طويلاً.

والأساس فى الكوميديا الالهية هو الرغبة الدينية الشديدة فى معرفة أسرار الحياة الآخرة. ولقد كانت هذه الفكرة قد استهوت عقول الكثيرين فى العصور القديمة والوسطى، إلا أن الكوميديا الالهية لاتتميز بطابعها الخيالى فحسب، بل بعبقريتها وعمق فكرتها وروعة خيالها مما أفرد لها مكانا مرموقاً فى التراث الأدبى العالمى.

وقد نجح دانتى فى تصوير العدالة الالهية يوم الحشر أروع تصوير. فعدالة الله

سبحانه وتعالى عدالة مطلقة لم تفرق بين الأمير الثرى وبين الشخص الفقير والمناصب مهما سمت لم تعصم شاغليها من الحساب الدقيق، فمنهم من تردى فى نار جهنم، ومنهم من تمتع بنعيم مقيم فى جنات الفردوس. والجحيم فى تصوير دانتى يزخر بعدد من البابوات ومن إليهم من رجال الدين، وكذلك بعدد من رجال السياسة.

وتنقسم الكوميديا الآلهية إلى ثلاثة أقسام: الجحيم، والاعراف، ويطلق البعض عليه المطهر، والفردوس. وهذه الأجزاء الثلاثة تضم مائة انشودة: أربعا وثلاثين للجحيم وثلاثا وثلاثين لكل من الاعراف والفردوس[1].

استهل دانتى وصف زيارته للجحيم بقوله أنه وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ضل الطريق فى غابة موحشة مظلمة كثيفة الشجر، وفوجئ ببعض حيوانات مفترسة نهمه تخرج عليه، فاستولى عليه الرعب من هول المفاجأة. ولكن سرعام ما لمح شبحاً يقترب منه، فإذا هو شخص تبدو عليه أمارات صمت استطال امده فأفقده القدرة على الكلام بسهولة، والتمس دانتى منه انقاذه من موت محقق. وتبين أن هذا الشيخ ليس إلا الشاعر اللاتينى الوثنى فرجيليو Virgilio الذى هدأ من روعه، وأبلغه أنه موفد من لدن بياتريش عشيقة دانتى لينقذه من شر الوحوش أولا، ثم يصحبه إلى الجحيم، ثم إلى الاعراف (المطهر) حيث تكون عشيقته فى انتظاره وتأخذه إلى الجنة.

ولما وصل دانتى إلى الجحيم وجد مكتوبا على بابها العبارات: «الطريق إلى حيث يحشد القوم المجرمون، أنا عدالة الخلاق العظيم، صنعتنى يد القدرة الالهية والحكمة السامية والحب الازلى، لم يسبق وجودى غير الكائنات السرمدية، ولقد كتب على الخلود. أيها الداخلون من بابى، اتركوا كل أمل».

---

(١) جلال يحيى (دكتور) : عصر النهضة والعالم الحديث، ص ١١٠ .

دخل دانتى جهنم يصحبه مرشده الشاعر الوثنى فرجيليو، وجلسا فى زورق سار بهما فى نهر يمتد إلى طبقات جهنم ودركاتها، ووصف دانتى كل درك فيها ونظر إلى النزلاء الذين رآهم فى جهنم فإذا هم أرواح الرهبان الذين باعوا صكوك الغفران للناس بالأموال وجعلوا منها تجارة رابحة لهم، وهؤلاء وجدهم على صورة مفزعة، فقد غرست رؤسهم فى الأرض بينما اشتعلت أقدامهم نارا، وقابل المنجمين والعرافين الذين خدعوا الناس بادعائهم كشف حجب الغيب، ومرتكبى الخيانة الزوجية من الجنسين، والذين خانوا أوطانهم، والمرتشين من رجال القضاء، واللصوص وقطاع الطرق، والذين يغتابون الناس، ومزيفى النقود، والمسرفين البخلاء وأهل البدع، والعائبين فى الذات الالهية، والمصابين بالشذوذ الجنسى، ومن إليهم من نماذج البشرية، ورأى دانتى أرواح هؤلاء الناس تتعرض لعذاب متنوع يتفاوت شدة وعنفاً واعتدالاً، وقد رأى فى جهنم العلماء والفلاسفة والشعراء الذين لم يدركوا عصر المسيحية فعاشوا فى عصور الوثنية، ولكنهم كانوا يحيون فى حياتهم الدنيا حياة فاضلة، ولذلك كان عذابهم يسيراً، وحسبهم حرمانهم من رؤية الله. أما غيرهم فكان ينزل عليهم شواظ من نار دون انقطاع وهم راقدون على رمال محرقة فى أوضاع مختلفة، ورأى فى جهنم ابليس، ويهوذا الذى خان المسيح، كما شاهد بروتوس وكاسيس اللذين خانا ولى نعمتهما يوليوس قيصر، كما لاحظ أن جهنم عامرة بعدد من البابوات.

ومن الجحيم انتقل دانتى ومرافقه إلى سور الجنة وهو الاعراف أو المطهر. ولمابلغاه شعرا بطمأنينة وهدوء واستنشقا هواء نقياً تحت زرقة السماء الصافية، ونزلا فى مياه بحر مجاور لهما تطهرا فيه، ورأيا زورقا يتلألأ نوراً يقترب منهما، ونزلت منه أرواح كثيرة تستحم فى مياه البحر لتطهر من ادرانها قبل دخولها الجنة. ووصف الاعراف متكونا من سبع دوائر تختص كل واحدة منها بخطيئة من الخطايا السبع الكبرى التى أشارت إليها المسيحية (المتكبرون، والحاسدون، والغضبى من الناس،

وأهل الخمول والكسل، والبخلاء، والمسرفون، وأولو الشره والنهم) . وعبر دانتى ومرافقه سوراً من اللهب ضرب بين الاعراف والجنة، ووجدا أجمل البساتين تفوح منها رائحة الورود والازهار. وظهرت له معشوقته بياتريش يعلو رأسها تاج من اغصان الزيتون ويغطى وجهها حجاب أبيض رقيق، أما جسدها فكان عليه رداء من نور فوقه معطف فى لون الزمرد الاخضر. وعند ذاك انتهت مهمة المرافق وهو الشاعر الوثنى فرجيليو، فيختفى، وتأخذ العشيقة بيد دانتى تسير به فى رحاب الجنة.

ومن الاعراف انتقل دانتى إلى الجنة وقبل أن يدخلها غطس فى «نهر النسيان» ليكون جديراً برؤية الله. وأخذ يجوب ارجاء الجنة فى صحبة محبوبته بياتريش وصعد معها إلى تسعة افلاك. ونظر إلى النزلاء الذين رآهم فى الجنة فإذا هم أرواح أهل الزهد، ورجال الكنيسة المطهرين، والشهداء، والملوك العدول والمتصوفين. وفى الفلك الثامن رأى دانتى المسيح عليه السلام جالسا بين القديسيين والأولياء يحف به الجلال، ثم يدلف دانتى إلى الفلك التاسع فيتمتع بمشاهدة رب العالمين، وتطغى عظمة الله سبحانه وتعالى على عقله وذاكرته ولسانه فيعجز تماماً عن وصف ما رآه.

واختلفت آراء الباحثين حول الأهداف التى توخاها دانتى من تأليف الكوميديا الالهية، فمنهم من يرى أنه أراد تخليد اسم معشوقته بياتريش التى بلغ حبه لها شغاف قلبه، ومنهم من يرى أنه توخى التشفى والانتقام من أعدائه السياسيين. ولكن الفكرة العامة التى يخرج بها من درسوا الكوميديا الالهية أن صاحبها أراد وعظ أبناء جيله الذين ضلوا سواء السبيل فأسرفوا فى ارتكاب المنكرات والجرائم، وقد أراد أن يرشدهم إلى السعادة الابدية، فهويصف العذاب الشديد الذى يتعرض له نزلاء جهنم، كما يصف تلهف أهل الأعراف على دخول الجنة، ثم هو يصف ما فى الفردوس من نعيم مقيم. ولذلك تحفل الكوميديا الالهية بعبارات وعظية جاء

بعضها على لسان أرواح الأفراد الذين أطلقوا العنان لنزواتهم فى الحياة الدنيا «إننا ظللنا نرتكب الخطايا إلى أن وافتنا المنية، فاستنارت بصائرنا واستغفرنا لذنوبنا وتبنا منها إلى الله». وجاءت بعض الجمل الوعظية على لسان حبيبته بياتريش فهى تطلب إليه أن يصف إلى أهل عصره سوء مصير الذين أسرفوا على أنفسهم ليكون هذا المصير عبرة لهم. «قالت لى بياتريش سوف تنتقل بدورك إلى العالم الآخر، وتعيش فى الجنة بجانبى أبد الآبدين، ولكن أنظر إلى هذه العربة التى ينقض عليها النسر وينتزع جزءاً منها ذلك التنين. وانقل هذا الذى تراه إلى أولئك الذين يعيشون منغمسين فى الضلالة ليرتدعوا، وتكون واعظاً لهم فى أنفسهم». ثم تمضى المعشوقة تسكب فى اذن دانتى حديثها قائلة له: «تذكر كلامى هذا، وانقله دون تحريف إلى أولئك الذين يتمتعون بحياة الملذات والشهوات، وذكرهم بأن الحياة تخطو بهم إلى الموت».

وتتجلى فى الكوميديا الالهية صور الصراع بين روح العصور الوسطى المتجمدة وبين روح النهضة المتحررة، فالمؤلف يتمشى تارة مع روح الكنيسة، حين يتحرج عن وصف ملامح وأجسام بعض السيدات، وتارة أخرى يخرج على تعاليم الكنيسة، حين يضع فى جهنم بعض البابوات وحين يضع فى الجنة بعض الناس وكان مكانهم فى جهنم من وجهة نظر الكنيسة. وقد تراءت الكنيسة الكاثوليكية لدانتى مهتزة اهتزازاً عنيفاً، إذ فقدت قدرتها على الخير واستشرى الفساد بين رجالها بسبب رغبتهم الجامحة فى الجرى وراء الثروات وفى السيطرة الدنيوية.

لقد قيل أن دانتى قد سلخ قرابة ثمانية عشر عاماً فى وضع الكوميديا الالهية، وقد جاءت بمثابة موسوعة أو دائرة معارف مصغرة صب فيها بأسلوب جذاب شتى أنواع العلوم والمعارف من مذاهب فلسفية واتجاهات سياسية ومبادئ دينية مربها المجتمع على توالى العصور والاحقاب. فهى ثمرة لقاء فكرى بين الثقافات العربية

الإسلامية والاغريقية واللاتينية والمسيحية. ويظهر فيها بوضوح أثر التراث الشرقى العربى الإسلامى، فقد نهل دانتى الكثير من هذا التراث الذى كان قد انتشر فى أوروبا طولا وعرضا منذ استيلاء العرب على اسبانيا، وسرعان ما غدت الاندلس معبراً رئيسياً من معابر الثقافة العربية الاسلامية تشق طريقها إلى أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر للميلاد تضئ ظلمات الحياة العقلية والفكرية أمام الأوربيين فى العصور الوسطى ولتمهد الطريق لقيام النهضة الأوروبية. ويمكن ملاحظة التشابه الكبير بين رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وبين الكوميديا الالهية لدانتى التى ظهرت بعدها مؤكدة تأثر أوروبا بالثقافة العربية والإسلامية.

لقد وضع دانتى باللغة اللاتينية رسالة «الملكية de Monarchia» وقد قرر فيها أن الحرب هى آفة التقدم، وأن السلام العالمى يجب أن يكون هدف الساسة، وذهب إلى أن مصدر الشرور والنكبات فى الماضى والحاضر هو طموح رجال الدين وتطلعهم إلى الاستئثار بسلطات دنيوية وتجميع ثروات عريضة مما لايتفق مع رسالتهم، وقرر أن اصلاح الكنيسة يجب أن يبدأ بنشر روح التقشف والقناعة بين رجالها. وفضلا عن هذه الآراء التى تضمنتها رسالة دانتى فقد أشار فيها أيضا إلى فكر سياسى معين: هو أن قيام الدولة العالمية أمر لامناص منه لتحقيق السلام العالمى الذى يجلب معه الخير والسعادة للبشرية. ولكنه رأى أنه هذه الدولة العالمية يجب أن تكون الامبراطورية الرومانية المقدسة، واشترط ألا يستمد امبراطورها لقبه ونفوذه من البابا، بل يستمدها من الله سبحانه وتعالى مباشرة ودون أن يخضع هذا الامبراطور لسلطان البابا على أى نحو. ومما هو جدير بالذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى غدت هذه الرسالة «الملكية» سلاحاً فى الجدل السياسى الذى نشب بين لويس ملك بافاريا وبين البابا يوحنا الثانى والعشرين. وقد أحرق مندوب البابا هذه الرسالة علناً.

وقد وضع دانتى باللغة الايطالية كتابا اسمه «الوليمة Il Convivio» عالج فيه

موضوعات شتى فى السياسة والحكمة والاخلاق والحب. وله مؤلف آخر باللغة الايطالية أيضاً يسمى «العامية الفصحى».

وتتلخص الفلسفة السياسية فى مؤلفات دانتى فى أن مثله الأعلى فى نظم الحكم السياسية هو الامبراطورية الرومانية المقدسة، وأنه كان لايحبذ قيام النظام الجمهورى، وأن هدفه سيطرة القانون لا الحرية.

**٢) نيقولا مكيافيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧):**

ولد نيقولا مكيافيلى Nicolas Mackiavel فى فلورنسا فى سنة ١٤٦٩ من أسرة متوسطة الثراء. ولايكاد الباحثون يعرفون شيئاً وفيراً عن نشأته الأولى، غير أن القسط الذى حصل عليه مكيافيلى من التعليم قد أهله ليتدرج فى الوظائف الحكومية فى فلورنسا حتى وقع عليه اختيار مجلس الثمانين ليكون أمينا لمجلس العدلية، وهو منصب خطير، لأن هذا المجلس - وقوامه عشرة أعضاء فقط - كان يخطط للسياسة الخارجية التى تسير عليها فلورنسا. وقد أوفد المجلس مكيافيلى فى بعثات سياسية متلاحقة كان بعضها إلى خارج ايطاليا، والبعض الآخر إلى الامارات المختلفة فى شبه الجزيرة الايطالية لتنفيذ السياسة الخارجية لفلورنسا. وقد استفاد مكيافيلى كثيراً من هذه البعثات السياسية، إذ خبر الكثير من خفايا السياسة الدولية، ولمس عن كثب اخلاق رجال السياسة، وأضاف إلى حصيلته العلمية مزيداً من المعلومات والآراء السياسية[1]. وقد اعترف مكيافيلى فى رسائله أن المناصب السياسية تتواءم مع ملكاته، لأنه لايفقه كثيراً ولا قليلاً فى شئون الاقتصاد، وليس له ميل فطرى للفنون. وكان من بين الآراء التى خرج بها من تجاربه أن اعتماد دولة ما على دولة أجنبية فى الدفاع عن أراضيها يعتبر نكبة تؤدى إلى ضياع الدولة الأولى. ولذلك رأى أن سلامة فلورنسا تتطلب إنشاء جيش وطنى قوى بدلاً من الاعتماد على الجنود المرتزقة، وكان أمراً مألوفاً فى تلك العصور استخدام الجنود المرتزقة فى

(١) حسن عثمان (دكتور) : منهج البحث التاريخى ، ص ٤٨ .

الدفاع عن المدن الايطالية وفى تكوين الجيوش الأوربية عامة. وقد بذل مكيافيلى جهداً مضنياً فى إنشاء جيش قوى لفلورنسا دل على صدق وطنيته ورغبته فى حماية مدينته.

وحدث أن أراد البابا جيل الثانى الذى جلس على كرسى البابوية فى سنة ١٥٠٣ إجلاء الفرنسيين عن ايطاليا، وكان على فلورنسا أن تختار بين صداقة البابا الطموح وبين صداقة حليفتها فرنسا. واختارت فلورنسا صداقة فرنسا، وأوفدت حكومة فلورنسا مكيافيلى إلى لويس الثانى ملك فرنسا لابلاغه استمساك فلورنسا بتحالفها مع فرنسا، واشتعلت الحرب بين فرنسا وبين البابا جيل الثانى واستطاع اجلاء الفرنسيين عن ايطاليا، ولكنه استبدل النفوذ الاسبانى بالنفوذ الفرنسى. وكان من نتائج هذه الأحداث أن سقطت جمهورية فلورنسا وعادت أسرة مدتشى إلى الحكم وطرد مكيافيلى من منصبه، وأصبحت فلورنسا خاضعة خضوعاً تاماً للأسرة ممثلة فى الكاردينال جيوفانى مدتشى، ومع ذلك فقد عرض مكيافيلى خدماته على أسرة مدتشى أملاً فى استرداد وظيفته. ولعله كان يعتقد أن رجلا مثله لايمكن أن تسغنى عنه الحكومة الجديدة، وأن خبراته السابقة تجعل وجوده فى منصبه امراً لاغنى عنه. ولكن سرعان ما أفاق على الحقيقة المؤلمة، فلم تقنع الحكومة الجديدة بعزله، بل أمرت بنفيه مدة عام على أن يبقى فى حدود دولة فلورنسا، ولما لم تسفر مساعيه فى العودة إلى منصبه عن النتيجة التى كان يبتغيها رأى أن ينتقل بمواهبه وخبراته من ميدان السياسة إلى عالم التأليف. وفى منفاه فى سان كاسشيانا شرع يؤلف كتاب «الأمير» وقدمه لأسرة مدتشى، ثم وضع كتابا ثانياً بعنوان «مطارحات»، واتبعه بكتاب ثالث عن «تاريخ فلورنسا» ثم بكتاب رابع عن «فن الحرب».

وقدم مكيافيلى كتابه «تاريخ فلورنسا» إلى البابا كلمنت السابع، وهو ثانى بابا

من أسرة مدتشي يلي عرش البابوية. فأمره البابا باعداد خطة للدفاع عن فلورنسا، وعينه مستشارا لهيئة جديدة مكونة من خمسة اعضاء لحماية اسوار المدينة، ولاح لمكيافيلي أن الحظ عاد يبتسم له. ولكن تطورت الحوادث سراعا، فقد منيت فرنسا بهزيمة ساحقة في معركة بافي (٢٤ فبراير ١٥٢٥) ووقع ملكها فرنسوا الأول اسيرا. واضطر البابا إلى مهادنة الامبراطور المنتصر شارل الخامس ووعد بدفع تعويض ضخم له، وظن البابا أن هذه المهادنة السريعة ستجعله بمأمن على نفسة ومنصبه، ولكن كان جنود الجيش الامبراطورى متأثرين بتعاليم لوثر فكانوا يمقتون البابوية، ومن ثم تعرضت روما لهجوم عنيف من جنود جيش الامبراطور شارل الخامس، ولاذ البابا نفسة بالهروب من روما. وكان لهذه الاحداث رد فعل سريع في فلورنسا. اذ قام اهلها بثورة على اسرة مدتشي وأعلنوا النظام الجمهورى. وتطلع مكيافيلي الى استعادة منصبه القديم، ولكن اعرض عنه رجال الحكم الجديد تأسيسا على أنه فقد حقه في أن يكون من دعائم النظام الجديد لسابق تعاونه مع اسرة مدتشي، وحملت هذه الانباء الى ميكافيلي فحزت في نفسه واصيب بنوبة حادة قضت عليه في الثاني والعشرين من يونيو ١٥٢٧ ودفن في كنيسة الصليب المقدس، وأقام له مواطنوه على قبره - بعد حين - نصبا يحمل عبارة «لا يستطيع المدح أن يفي بحق هذا الاسم : نيقولا مكيافيلي المتوفى سنة ١٥٢٧».

وكتاب «الامير» الذى وضعه مكيافيلي عبارة عن دراسة مستفيضة عن أصول الحكم وفن السياسة، وقد وضح فيه خبراته ومعلوماته، وشرح الوسائل التى تؤدى الى تحقيق الامانى القومية التى كانت تجيش بها نفسه. ومنها تحرير بلاده من الجيوش الاجنبية التى تحتلها، وقيام وحدة سياسية تجمع شتات الوطن الممزق، وأنشاء جيش وطنى قوى يحمى الديار، والكتاب لا يقتصر على دراسة العصر الذى عاش فيه مكيافيلي، بل يتعرض للتاريخ القديم بوجه خاص يستقى منه ماده علمية غزيرة تؤيد الآراء السياسية التى يبسطها على أمل أن يأخذ بها الامير الذى يأخذ بيد

ايطاليا نحو الحرية والوحدة والاستقلال. فهو يشير الى احداث معينة فى تاريخ مصر وفارس وامبراطورية الاسكندر المقدونى والامبراطورية الرومانية مما يدل على أنه كان على علم موفور بالتاريخ القديم ونظريات وآراء فلاسفة العصور القديمة. فالكتاب يشتمل من ناحية على آراء استمدها من دراسة الماضى وتجارب الحاضر، ويتضمن من ناحية أخرى نصائح وارشادات يقدمها للامير لكى يسترشد بها فى حكمة ليصل الى أو فى قسط من القوة والمنعة.

والامير الذى يصفة مكيافيلى فى كتابه هو أمير ايطالى، ولكنه يحمل سمات امراء عصر النهضة، وهو حاكم مستبد طاغية، وهو فى تقديرة لا يمكن أن يكون الحاكم غير ذلك اذا ما أريد تحقيق الاهداف القومية على يديه.

وهو يقصد بكلمة «الامير» ما نعبر عنه فى الوقت الحاضر بلفظة «الملك» ولكنة ملك لدولة صغيرة أو دويلة، لأن ايطاليا – كما سبق أن ذكرنا – كانت لا تزال تعبيرا جغرافيا، وكانت ممزقة إلى وحدات سياسية صغيرة أو امارات محدودة المساحة وكانت أسرة مدتشى تحكم فلورنسا، مسقط رأسه ومرتع صباه، وازدهرت احوالها واستفاض ثراؤها، ونشطت فيها حركة احياء العلوم الفنون، وبدأ الفكر العلمى يؤتى ثماره، وغدت هذه المدينة فى عصرها الذهبى من اقوى مراكز الاشعاع الفكرى والحضارى، وخيل لميكافيلى أن الصورة التى رسمها فى كتابه «الامير» للامير الذى سينقذ ايطاليا قد تستهوى خيال احد الامراء من أسره مدتشى فيأخذ على عاتقة عبء النضال القومى.

ويمكن التمييز بين نوعين من النصائح والارشادات التى وردت متفرقة بين فصول الكتاب، فهناك ارشادات لا تنطوى على ما يشينها من ناحية المبادئ الخلقية، وهناك ارشادات تتعارض تعارضاً صارخا مع المبادئ الخلقية، وهذا النوع الاخير هو الذى اضفى على مكيافيلى وكتابه الشهرة العريضة التى ظفر بها. وقد خلط

المؤلف بين هذه الارشادات بنوعيها وهو يعرض للموضوع الواحد بحيث يتعذر فصل النوعين بعضهما عن بعض اذا اردنا المحافظة على وحدة الموضوع.

تكلم مكيافيلى عن نظم الحكم واختيار افضل النظم التى تكفل النهوض ببلاده، وقد رأى وطنه تمزقه الجيوش الاجنبية، وكانت عباراته تنطوى على إحتقار للبشر وسؤ ظن بالانسان، كما كانت تفيض بالاسى على ما حاق بايطاليا من كوارث ونكبات. لقد فكر طويلا كيف ينشئ أمير جديد دوله جديدة، وكان أول شرط فى رأيه هو مقدره هذا الامير على ايجاد الوحدة السياسية بين كل الولايات الايطالية المختلفة سواء تمت الوحدة بالعنف وشن الحروب أو بالاقناع والمسالمة. كان يعتنق الرأى القائل بأن السيف أصدق انباء فى خلق الدولة من اية وسيلة أخرى، وأنه لا ضير على الامير ان يستخدم الرجال ادوات لتحقيق المخطط السياسى ثم ينبذهم نبذ النواه اذا تطلبت المصلحة الاستغناء عنهم.

ومن أخطر الموضوعات التى تعرض لها مكيافيلى مدى محافظة الامير على وعده. وقد جاءت كتابته تحريضا سافرا على نكث العهود. ولنترك مكيافيلى يقرر هذه القاعدة غير الاخلاقية فيقول: «يعرف جميع الناس أن المحافظة على العهد من الامور الجديرة بالثناء. ولكن مع ذلك فقد اثبتت التجارب فى عصرنا أن الامراء الذين نهضوا بأعمال عظيمة لم يكترثوا فى قليل أو كثير بالمحافظة على وعودهم، وعرفوا كيف يحيرون عقول الناس بالخديعة والمكر والدهاء، واصابوا فى النهاية نجاحا لم يظفر بمثله الامراء الذين اتبعوا الشرف والامانة. عليك أن تفهم أن هناك طريقتين للحرب، هما التزام القانون واستخدام القوة، والطريقة الاولى الثقة بالانسان، أما الطريقة الاولى غير كافية وبالتالى فهى غير مجدية، ولذلك يجب على الامير أن يتخذ الطريقة الثانية شريعة ومنهاجا واسلوبا، وعليه أن يتدرب كى يكون وحشا باطشا، وأن يكون انسانا، ولقد لقن الكتاب القدماء هذا الدرس بطريق

المجاز للأمراء حين وصفوا لهم كيف أرسا اخيل Achelle وكثيرون غيره من الامراء الى شيرون ليتولى تنشئتهم، وهو مخلوق نصفه انسان ونصفة حيوان، ومعنى هذا المجاز أن الامير عليه أن يعمل بموجب طبيعة الانسان وطبيعة الحيوان، وأن لم يعمل ذلك فلا بقاء له» .

ويخلص مكيافيلى من هذا العرض إلى أن الأمير لا يقيم وزنا لعهد قطعه على نفسه، أو لوعد التزم به اذا كان الوفاء بالعهد يعرضه للخطر، ولان الناس اشرار مناكيد لا يحترمون العهود، والامير فى حل من أن يتمسك بعهد أو وعد، ويقرر مكيافيلى بعد ذلك أن الانسان لا يقدم على فعل الخير الا مكرها، فلا مناص من استخدام الضغط والعنف بشتى صورهما وانواعهما حتى يمكن حجب نزعته الشريرة عن الظهور وحمله على فعل الخير.

وينتقل مكيافيلى الى عرض النظرية السياسية المشهورة وهى أن الغاية تبرر الوسيلة القذرة أو مجموعة الوسائل القذرة التى يلجأ اليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة. وقرر أن القوانين الخلقية وضعت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الافراد فحسب، أما السياسة فلا مكان فيها للاخلاق، ويجوز لمن يريد انشاء دولة قوية وتدعيمها أن يلجأ الى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة وجميع انواع الجرائم.

وتأسيسا على هذه النظرية يطالب مكيافيلى بأن يكون الامير بارعا فى الكذب والغش، وأن يكون منافقا يتظاهر بالتحلى بالصفات الحسنة. وهو يفرق بين الامير الذى يتصف فعلاً بالصفات الطيبة وبين الامير الذى يتظاهر بالتحلى بها، وهو يحبذ النوع الاخير من الامراء، ويقول مكيافيلى فى هذا الصدد (أن مايضر الامير أن يتصف بهذه الصفات الحسنة وأن يعمل على هداها، فى حين أنه من الخير له أن يبدو متحليا بها فقط) . ويضيف الى ذلك أنه لا حرج على الامير أن يأثم فى حق

الدين والفضيلة والانسانية اذا رأى ان المحافظة على الدولة تتطلب منه ارتكاب مثل هذه الآثام. ثم يعود فيقول ان الواجب الاول الذى يجب على الامير ان يضعه نصب عينية هو المحافظة على كيان الدولة. وأن جميع الوسائل المؤدية الى تحقيق هذا الهدف انما هى وسائل مشروعة ومباحة لا يقف دونها عائق من مبادئ دينيه أو خلقية. وينصح مكيافيلى الامير بأن يتوارى عند تنفيذ الاجراءات أو التدابير الصارمة ويعهد بتنفيذها إلى مندوبية فيتعرضون وحدهم لسخط الجماهير ويبقى الامير بمنأى عن هذا السخط.

ويروج مكيافيلى فى كتابة لمسألة جد خطيرة، فيقول اذا تمسك الامير بالفضائل فإن هذه الفضائل ستقضى عليه لا محالة، واذا مارس الرذائل وجعلها أسلوبا لحكمة فأن هذه الرذائل ستجلب له الامن والرخاء. ويقول أنه يجدر بالامير أن يرهبه رعاياه ويخشون بأسه وسطوته بدلا من أن يكون محبوبا لديهم. وهو يقول فى هذا الصدد : «أن البشر بصفة عامة قوم جاحدون للجميل وأنهم قوم قلب يميلون الى الكذب والغش والخداع، ويطمعون فى الكسب ويتحاشون تعريض انفسهم للاخطار .. فهم يقفون الى جانبك طالما كنت تقدم لهم خيراً وطالما كان الخطر بعيدا فإذا اقترب الخطر واحدق بك فأنهم يتنكرون لك ويركنون الى الفرار فتجد نفسك وحيداً. والامير الذى يقنع بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيله يبوء بفشل ذريع وأن الناس لا تبالى بالاساءه إلى الامير الذى يجعل نفسه محبوبا، ولكنهم يخشون ان يمسوا بسؤ الامير الذى يخشون بأسه» .

ويسدى مكيافيلى النصح بالالتجاء الى القسوة اسلوبا فى حكم رعاياه ولكنه يبصره بنوعين من القسوة. قسوة حكيمة واخرى طائشة، أما القسوة الحكيمة فتتمثل فى الاجراءات العنيفة التى يتخذها الامير دفعه واحدة فى مستهل حكمة، فإذا اطمأن الى توطيد اركان حكمة فلا يعود الى ممارسة هذه التدابير، ولكنه يحرص على كسب رضاء الشعب بتنفيذ مشروعات عامة يعود نفعها على

الجماهير.

ويذكر مكيافيلى مثالا عمليا يوضح الفوائد السياسية التى يجنيها الامير من القسوة الحكيمة فيقول أن قيصر بورجيا Borgia وهو ابن البابا اسكندر السادس قد استخدم القسوة الحكيمة فى توطيد حكمة فى إمارته رومانا Romagne «وهذه القسوة يجب أن تحمد، لأنها قضت على بذور الاضطراب وهى لا تزال فى مهدها. ولو أن قيصر بورجيا استخدم الرأفه لاستفحل أمر الاضطرابات ولا سفرت عن أعمال التدمير وسفك الدماء. وكان من شأن هذه الاضطرابات – لولا تلك القسوة – أن تنزل بالشعب ابلغ الاضرار. ولكن تلك القسوة لم تصب بضرر سوى بضعة افراد قلائل». أما القسوة الطائشة فهى أعمال العنف التى يلجأ اليها الحاكم من وقت الى آخر، وقد نصح مكيافيلى الامير بتجنبها لانها تجعل المواطنين فى جانب والامير فى جانب آخر، لأن المواطنين الذين لا ينقطع اذى الأمير عنهم لا يأمنون جانبه ويفقدون كل شعور بالأطمئنان والأمان والأمير لا يستطيع أن يعتمد عليهم ويكون دائماً على حذر منهم. ويكون مضطرا على الدوام «أن يمسك الخنجر فى قبضة يده» وهو يقول فى هذا الصدد «أن الاساءات يجب أن تتم مرة واحدة فتنسى سراعا، اما النعم المغدقة فيجب أن تمنح بالتدريج ليعظم قدرها فى أعين المواطنين وتكون الذ طعما وأجمل وقعاً».

وينعى مكيافيلى على الامير اتصافة بالكرم والسخاء، بحجة أن هذا الجود يكون عبئا ثقيلا على الدولة، فالامير السخى ينفق من الاموال العامة التى هى أموال الدولة. ولذلك فهو يقرر فى كتابة انه يفضل الامير البخيل، لانه ضنين بأموال الدولة يبددها فى مظاهر لاتجدى ولا تنفع. غير أن مكيافيلى يسمح للامير بأن يكون كريما فى حالة واحدة هى توزيع اسلاب الحرب.

ويعود مكيافيلى فيقول أن الامير اذا اراد أن يكون بمنجاة من المؤامرات فعلية أن يتجنب إغضاب الشعب. لان المتأمرين اذا ايقنوا أن الامير يتمتع بشعبية وأن

اغتيالة سوف يثير نقمة الشعب، فأنهم يحجمون عن تدبير المؤامرات. ولا ريب أن هذا الرأى يتعارض مع ما سبق أن قرره من قبل، حين ذكر أن الامير يجب أن يكون مرهوب الجانب من شعبه، وأن هذه الرهبة أفضل للامير من شعبية يتمتع بها.

ويقول مكافيلى للامير أن قوة الدولة فى قوة جيشها وللجيش فى نظره مهمتان أولهما حماية الامن الخارجى وثانيهما توطيد الامن الداخلى. ويتمثل الامن الخارجى فى ردع الدول المعادية، أما الامن الداخلى فيقتصر على اخضاع الرعايا المتمردين على الامير، ويمضى مكيافيلى فينصح الامير بالتزام القسوة المتناهية مع جنود جيشة، لأن هذه القسوة هى أساس الضبط والربط فى الوحدات العسكرية، ولذلك كان لابد للامير أن يشتهر عنه القسوة البالغة التى بدونها لا يستطيع كسب المعارك والمحافظة على النظام. ويشيد مكافيلى بقسوة هانيبال فى هذا الصدد ويقول أنه «كان يقود جيشاً كبيراً مكونا من خليط من مختلف الشعوب، ومع ذلك فلم يحدث بتاتا أن قام خلاف أو شقاق بين صفوف جيشه إذا قدر له أن ينتصر أو يهزم، ولم يكن لذلك من سبب سوى قسوته البالغة، بالاضافة الى فضائله الاخرى، اذ كان على الدوام محترما مهابا فى أعين جنوده، ولكن فضائله وحدها لم تكن لتنتج هذا الاثر».

ومكيافيلى لا يفكر الا فى ميدان القوة، وهو لا يحفل باحترام مبدأ سيطرة أحكام القانون، وهو المبدأ الذى يطلق عليه باللغة القانونية «المشروعية». وكانت عقيدة مكيافيلى هى أن انتصار الشخص الاقوى هو الظاهرة الاساسية فى التاريخ. ولذلك فأن نزعة الحرب لدية جلية وقوية. والحرب هى أول شئ يجب أن يكون موضع تفكير الامير. أنها المهنة الحقيقية لمن يتولى مهام الحكم. بل أن مكيافيلى رأى أن القوة ضرورة لكل من يريد الاصلاح حتى يكون قادرا على فرض سياسته الاصلاحية. وهو يقول فى هذا الصدد «أن جميع الانبياء المسلحين قد انتصروا،

ومن كان منهم غير مسلح كان نصيبه الهلاك. والشعب بطبيعته متقلب الميول، ومن السهل ان تقنعه بقبول شئ ما، ولكن من الصعب أن تحمله على المحافظة على هذا الاقناع حينما يتحول عنه. ولو كان موسى، وقورش، وتيزيس، وروما لاس غير مسلحين لما استطاعوا أن يحملوا الناس على الخضوع لشرائعهم. وقد اخفق سافونا رولا فى عصرنا، لأنه حينما فقد الناس الايمان به، لم يستطع التشبث بالذين آمنوا ولا أرغام الذين لم يصدقوا به.

ويبدى مكيافيلى اعجابه بحسن نظام الحكومة فى فرنسا على عهده لوجود برلمان استطاع به ملوك فرنسا ارضاء الشعب من ناحية، والحد من سطوة النبلاء من ناحية أخرى دون أن يعرض ملوك فرنسا أنفسهم لغضب النبلاء. ويقدم مكيافيلى نصحة الى الامير بان يحرص على تقدير وتكريم أصحاب المواهب العقلية ومهرة الصناع ومنحهم مكافآت تشجيعية، وألا يثقل كاهل هؤلاء الموهوبين بالضرائب، وأن يعنى بالترفيه عن الشعب.

ويطلب مكيافيلى من الامير أن يحسن اختيار وزرائه وأن يراقبهم ويفيد من نصائحهم، واذا أخلص الوزير فى خدمة الدولة كان لزاما على الامير أن يجعله موضع وتقديره، وإن يغدق عليه من المرتب الضخم وأوسمه الشرف ما يجعل الوزير يعتقد أنه أصبح شيئا مذكورا بتقدير الامير له، وأنه بدون هذا التقدير يصبح الوزير نسيا منسيا. واذا كانت العلاقات بين الامير والوزراء يسودها التعاون والاخلاص والثقة عاد ذلك بالخير على الدولة. ويطلب مكيافيلى بان تكون حاشية الامير مثالية ليس فيها مكان للمنافقين والمتعطلين والمتخلفين والمرتزقه، بل يكون بلاط الامير مقصورا على العقلاء الذين يصدقونه النصح ولا يخفون عنه شيئاً. ويقول فى هذا الصدد أن رجحان عقل الامير وكفايته بصفات الافراد الذين يحيطون به والذين اختارهم لمعاونته فى شئون الحكم، فإذا كانوا على حظ موفور من الامانة والكفاية

والخلق كان ذلك دليلاً ساطعا على حكمة الامير، والا كان الرأى فى الامير على عكس ما تقدم.

ومع تقدير مكيافيلى للدور الهام الذى يلعبه الحظ فى حياة الانسان، فأنه يؤمن ايمانا عميقا بأن الكفاية والمثابرة تلعبان دوراً خطيراً فى تكييف حياة الفرد وتوجيهها فى المسار الذى يشتهيه. وهو يقول أن الحظ من ناحية والكفاية والمثابرة من ناحية يتقاسمان تقرير مصير الانسان، فلكل منهما النصف فى تحديد مستقبل الفرد فى الحياة.

وبعد هذا العرض لمحتوى كتاب «الامير» الذى الفة نيقولا مكيافيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) فى عصر النهضة الاوربية فى مطلع القرن السادس عشر، فإننا سوف نتناول هذا الكتاب بالنقد والتحليل للتعرف من خلاله على مكيافيلى كظاهرة فكرية لعصر النهضة الأوربية، فمن الواضح أن الكتاب على شاكلة مؤلفه فيه الازدواجية وفيه المتناقضات، فمكيافيلى يبدو فى كتابه نصيرا للنظام الملكى، وهو فى قرارة نفسه ومن بين ثنايا السطور جمهورى العقيدة والنزعه. ويقدم الباحثون تفسيرات مختلفة لهذه الازدواجية، فيقول بعضهم أن مناصرته للنظام الملكى هى وليدة نزعة عارضة استهدف منها التقرب الى الامير الجديد الذى ولى حكم فلورنسا ابتغاء استرضائه لاعادته الى منصبه الذى عزله منه. ويرى البعض الآخر من الباحثين انه كان يؤمن ايمانا راسخا بحاجة بلاده الى أمير قوى الشكيمة شديد المراس يجمع شملها ويعالج جراحها ويعيد اليها وحدتها السياسية، ولن يكون هذا الامير البطل سوى حاكم فلورنسا الذى يهدى كتابة اليه، ويخلص هذا الفريق من الباحثين الى القول بأن مكيافيلى ينشد النظام الملكى لدولة واحدة هى ايطاليا ولهدف واحد هو تحقيق وحدتها، وفيما عدا ذلك فهو مؤيد قلبا وقالبا للنظام الجمهورى.

والاسباب التى كانت تشد مكيافيلى الى تفضيل النظام الجمهورى على النظام الملكى تتلخص فى أن النظام الجمهورى يقوم على مبدأ تكافؤ الفرص، بمعنى أنه يفتح الباب امام اصحاب الكفايات، بخلاف الحال فى النظام الملكى الذى يقوم على مبدأ الوراثة بصرف النظر عن حظ الوارث من العلم أو الكفاية، كما أن النظام الجمهورى أكثر مرونه واسهل قابلية للتطور من النظام الملكى الذى يتصف بالجمود وعدم قدرته على تطوير نفسه، ويقول مكيافيلى أيضا أن الحكومة الجمهورية أكثر حرصا على الوفاء بالتزاماتها الدولية من الحكومة الملكية، فقد يرى الملك أن من مصلحة اسرته التحلل من احكام معاهدة جماعية، فيبادر الى فعل ذلك دون أن يكترث بأية مصالح أخرى.

وجدير بالذكر أن مفهوم النظام الملكى ومفهوم النظام الجمهورى كانا يختلفان اختلافا جذريا عن مفهومهما فى التاريخ المعاصر. ففى عصر مكيافيلى وفى العصور السابقة له كان يقصد بالنظام الملكى الملكية المطلقة المستبدة، ويقصد بالنظام الجمهورى الحكم الشعبى الحر، أما فى التاريخ المعاصر فأن هذا المفهوم مختلف تماماً. اذ أن النظام الملكى قد يكون حكما شعبيا حراً كما هو الحال فى انجلترا كما أن النظام الجمهورى قد يكون حكما دكتاتوريا كما هو الشأن فى كثير من جمهوريات امريكا الجنوبية وغيرها.

وفى نهاية كتاب «الامير» يهيب مكيافيلى باسرة مدتشى الحاكمة فى فلورنسا أن يقوم أحد افرادها بدور الامير مترسما الخطى والاساليب التى بسطها فى الكتاب، ويؤكد أن الفرصة جد مواتيه للقيام بهذا الدور البطولى النضالى، فإن فلورنسا فى طليعة بلدان ايطاليا تقدما وثراء، وايطاليا تتطلع الى مثل هذا الامير يأخذ بيدها ويحررها من الاحتلال الاخير، ويبسط عليها نعمة الحرية والاستقلال والوحدة. ويقول فى كلمته الاخيرة «وهناك علامات هائلة تنذر بقرب وقوع تغيرات عظيمة، والظروف جميعها مواتية لعظمتكم، وعليكم أن تقوموا باتمام الجزء الباقى،

فإن الله لا يريد أن يجردنا من الارادة الحرة» . ويختم كلمة الاهداء التى كتبها مكيافيلى الى الامير بهذه العبارات : «وها أنا اقدم كتابى بنية سليمة، فهل لسمو الامير أن يتقبله كذلك؟ ولو أن الامير تنازل فأمعن النظر فى مؤلفى لرأى أنه يسهل عليه بلوغ اسمى درجة. ثم أرجع البصر يا سمو الامير ترى فى الحضيض رجلا تتطلب حالته الشفقة لما أصابة من العذاب عدوانا من الزمان وظلما من أهله، وهو واضع هذا الكتاب الخاضع لاعتابك : نيقولا مكيافيلى» .

لقد خرج مكيافيلى فى كتابه «الامير» على تقاليد العصور الوسطى، فنبذ الناحية الدينية وتجاهل تعاليم الدين وتغافل عن مقومات الانسانية، وفى مقدمتها الاخلاق المثالية، واخضعها جميعا للمصلحة السياسية، وطالب بأن يكون الشعب اداه مسخرة فى يد الحاكم، وأن تكون مصلحة الحاكم وهى مصلحة الدولة مقدمة على كل اعتبار آخر، فهو ينادى بالسياسة الملتوية الغادرة الخائنة اذا كان فى اتباعها محافظة على كيان الدولة ولا يقيم وزنا كبيراً أو صغيراً للسياسة الامنية الصادقة ولئن مارس معظم الساسة فى عصره الاتجاه الواقعى غير الاخلاقى عمليا الا أنهم لم يسجلوا على أنفسهم هذه الآراء كتابة. أما مكيافيلى فقد كانت له الجرأة فى تسجيل واقعية عصره ونزعته فى السياسة والاخلاق. ويؤخذ على مكيافيلى أنه أغفل ذكر المقومات الاخرى للدولة، مثل الدين والثقافة والاقتصاد، فهو لا يهتم الا بدعامتين : السياسية والجيش. وفى نظره لا يمكن المحافظة على كيان الدولة بدون هاتين الدعامتين.

ولابد ونحن نعرض بعض الموضوعات التى زخر بها كتاب «الامير» أن نضع فى الاعتبار عدة عوامل احاطت بالمؤلف من يمين وشمال وجعلته ينحو نحوا اقرب الى الشطط فى الآراء السياسية. ومن هذه العوامل الازمة النفسية المريرة التى كان يجتازها مكيافيلى وهو يجلس منفيا شريدا فى غرفة صغيرة فى سان كاسشيانا، كل

ليلة يضع فصول الكتاب. فقد كتبة وهو يقاسى الفقر والحرمان، ولم يكن لديه من المال ما ينفق منه على زوجته وأولاده. وقد كان مكيافيلى من قبل ملء البصر والسمع، يتبوأ مكانا عليا فى مجتمع فلورنسا، وكان قد أتهم بالاشتراك فى مؤامرة لقلب نظام الحكم فى فلورنسا، وصدر الامر باعتقالة ولقى الهوان والتعذيب فى المعتقل، ثم اطلق سراحة بعد أن برأة القضاء، ولكن كانت آثار التعذيب بادية على جسمه.

أما العامل الثانى من بين العوامل التى أثرت على مكيافيلى فيتمثل فى أن نفسه كانت تجيش بعاطفة وطنية دافقة مما جعله يتأثر كثيراً مما رأى عليه وطنه من تفكك الى وحدات سياسية متعددة، وما يسود هذه من مشاحنات وحروب داخلية، واجتياح الجيوش الاجنبية الغازية لشبة الجزيرة الايطالية التى غدت ميدانا للصراع بين فرنسا واسبانيا. فهفت نفسه الى قيام وحدة سياسية تضم جميع انحاء شبه الجزيرة الايطالية فى دولة واحدة ذات حكومة مركزية. ورأى ان القوة وما يستتبعها من وسائل غير مشروعه هى السبيل الوحيد الذى يعيد الى ايطاليا وحدتها السياسية ومجدها الغابر.

وأخيراً كان هناك العامل الثالث وهو أن العصر الذى كتب فيه مكيافيلى كتابه كان عصرا حافلاً بالمتناقضات اذ كانت حركة احياء العلوم على أشدها، وحركة الكشوف الجغرافية فى عنفوانها. وفى نفس الوقت جاء الرخاء المادى الذى جلب معه الترف والانغماس فى الملذات والامعان فى المجون والفسق والتحلل من القيم الخلقية. فكان من سمات هذا العصر البارزة الانحلال الخلقى، ومما يذكر أن مكيافيلى لم يكن وفيا لزوجته، فقد انغمس فى المتع الجنسية التى أولع بها معاصروه، وتعلق بمفاتن الدنيا وكانت له مغامرات غرامية، وكان ضميره يستقيظ من وقت لآخر يشعر فى قرارة نفسه بسلوكه المعيب، ولكنه كان يعترف بعجزه

عن كبح جماح شهواته. وقد اسدى النصح فى كتابة الى الامير بأن يتجنب الاعتداء على عفاف النساء كى يتحاشى كراهية الشعب له.

وقد انقسم الباحثون تجاه كتاب «الامير» لمكيافيلى وما أورده فيه من آراء سياسية الى فريقين متباينين : قادحين ومادحين، أما القادحون فيرون أنه أسوأ مثل للسياسى الذى ينادى بمباديء تنبو عنها الاخلاق، وأن الحكام المستبدين اتخذوا آراء مكيافيلى ذرائع للجرائم السياسية الكبرى والاضطهادات الدينية التى خضبت أرض أوربا بدماء الالوف من الضحايا.

وأما المادحون فيرون أن ميكافيلى كان أحد اعلام الفكر الأوربى الحديث، وأنه كان رجلا وطنيا من الطراز الاول يعمر قلبه بالايمان بحق وطنه فى الوحدة وفى الحياة الحرة العزيزة الكريمة، وأنه كان فى سلوكة الشخصى ذا خلق قويم. فإذا كان الحكام المستبدون قد اتخذوا من كتابة تكأه للمضى فى سياستهم الاستبدادية، فليس الذنب ذنب مكيافيلى، لأن الاستبداد فى طبائعهم وهو لا يكتسب من الكتب. وسواء عليهم اطلعوا أو لم يطلعوا على كتاب «الامير» فأنهم كانوا سيجنحون لا محالة فى حكمهم الى الاستبداد اسلوبا ومنهاجا.

ولقد لقيت آراء مكيافيلى استجابة من عدد كبير من ملوك الدول الأوربية، وبخاصة فى فرنسا واسبانيا وروسيا وبروسيا على فترات فى التاريخ الحديث والمعاصر. ففى فرنسا انتهجت كاترين دى مدتشى Catherine De Medicci (١٥١٩ - ١٥٨٩) الملكة الوالدة سياسة مكيافيلية فى اثناء وصايتها على ابنها شارل التاسع ملك فرنسا، وقد بلغت هذه السياسة الذروة فى مذبحة سان برتلمس Saint Bar-thelemy سنة ١٥٧٢، وسار فريدريك الاكبر ملك بروسيا على نهج السياسة المكيافيلية. ويقال أنه وجدت نسخة من كتاب «الامير» لمكيافيلى ضمن مخلفات نابليون عقب معركة ووترلو. وكتب بنيتو موسولينى سنة ١٩٢٤ «أننى اقرر ان

مذهب مكيافيلى تدب فيه الحياة الآن أكثر مما كانت تدب فيه منذ أربعة قرون من الزمان» . وقد اصبحت الى اليوم لفظة الميكافيلية Le Machiavelisme مرادفة لمعنى التصرفات التى يشوبها الغدر والدهاء والانانية وغيرها من الصفات التى نادى بها مكيافيلى، وغدت كلمة مكيافيلى Machiaveliste تطلق على الشخص الذى يمارس فى حياته أسلوبا يقوم على الغدر والخيانة وما إلى ذلك من عدم الالتزام بالمبادئ الخلقية ابتغاء الوصول الى تحقيق اهدافة فى الحياة. اما دول شمالى أوربا فلم تستهواها الاراء السياسية المتطرفة التى نادى بها مكيافيلى، ولم يكن قد تطرق الى معظم هذه الدول الفساد أو الانحلال أو الانقسام السياسى، وكانت بها حكومات تستند إلى تأييد ممثلى الشعب ولا تخضع لتوجيهات حكومات اجنبية.

لقد حفلت شخصية مكيافيلى كما حفل كتابه بصور شتى من المتناقضات، فهو يتأرجح بين النظام الجمهورى والنظام الملكى، يفضح الامير بالابتعاد عن النسائيات وهو منغمس فيها لا يطيق عنها فكاكا، يطالب الامير بالتمسك بمواقف معينه ثم يعود فيطالبة بالتخلى عنها، يقرر أن المحالفة التى تعقد بين دولة كبرى وأخرى صغرى هى غنم للأولى وغرم على الثانية، ويذهب الى أن لويس الثانى عشر ملك فرنسا يبلغه تمسك بلده فلورنا بمحالفتها مع فرنسا. وعلى أية حال فإن ميكيافيلى يعبر أصدق تعبير عن المتغيرات والمتناقضات التى عاصرها فى أوربا فى مطلع العصور الحديثة[١].

### ٣- توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) :

ولد توماس مور Thomas More فى لندن فى السابع من فبراير سنة ١٤٧٨، وكان والده جون مور John More من رجال القضاء، واستطاع ان يلحق ابنه بخدمه الكاردينال مورتون Morton رئيس اساقفة كانتربورى، وكان الالتحاق بمثل

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٨٧.

هذا العمل يعتبر فى ذلك الوقت شرفاً عظيماً تسعى اليه العائلات الطيبه لتربية اولادها خير تربية، وقد تنبأ مورتون له بمستقبل زاهر. ولما خرج من خدمة الكاردينال مورتون التحق بجامعة اكسفورد، وتعرف فى هذه الجامعة بكبار اساتذتها اعلام الفكر مثل ليناكر Linacre وكولين ووليم جروسين. وقد تعلم توماس مور اللغة الاغريقية على يد ليناكر، ولكن لم يكن الناس ينظرون الى دراسة اللغة الاغريقية بعين الرضاء، لان دراستها كانت تعتبر اتجاها الى اعتناق الافكار الجديدة المقلقة التى كانت تتسرب من القارة الى انجلترا. وقد حمله والده على دراسة القانون ونبغ فى هذه الدراسة، وبدأ حياته العملية محاميا سنة ١٥٠٠ فمحاضراً فى القانون، ولكن اشتغاله بالدراسات القانونية لم يمنعه من الاستمرار فى الدراسات القديمة.

وقد مرت به فترة انكب فيها على التفكير الدينى وتعذيب النفس ومعاقبتها بالتقشف والزهد الى حد النوم على الواح الخشب، وقد ابتغى من وراء هذا المسلك خلاص نفسه وتنقيتها، وقد دام هذا الدور أربع سنوات، ويرجع الفضل الاكبر فى انقضاء هذا الدور الى احتكاكة بجماعة الانسانيين وتعلقة بآرائهم الجديدة اذ كان يعيش عدد منهم على مقربة من لندن. ولذلك اقبل على الحياة العقلية الهادئة، وتأثر بشخصية ارزمس اذ نشأت بينهما صلة وثيقة جعلت توماس مور يهتم اهتماماً عميقا بالدراسات الانسانية التى كانت تتمثل وقتذاك فى اللغتين الاغريقية واللاتينية.

وفى سنة ١٥٠٤ دخل توماس مور مجلس العموم، وكان عمره وقتذاك ستة وعشرون عاما. وسرعان ما سلطت عليه الاضواء عندما القى خطابا عنيفا فى المجلس يعارض الطلب الذى تقدم به هنرى السابع ملك انجلترا إلى البرلمان لاعطائه منحة مالية كبيرة بلغت ثلاثين الف جنية لتزويج ابنته، وكانت من حقوق الملك

الاقطاعية المطالبة بمثل هذه المنح فى الظروف المماثلة، وعلى الرغم من أن اعضاء المجلس كانوا يشعرون فى قراره نفوسهم أن هذا المبلغ عبء فادح على ميزانية الحكومة، فإن أحداً منهم لم يجرؤ على مالاعتراض على ضخامة المبلغ خوفا من اغضاب الملك، فلما وقف توماس مور موقف المعارض لاقرار المنحة بالحجم الذى طلبه الملك، قرر المجلس تخفيضها الى ثلاثة عشر الف جنية، وقد اسر الملك هذا الموقف فى نفسه، وكان أن أصدر الامر باعتقال والد جون مور، ولم يطلق سراحه حتى دفع غرامه مالية كبيرة. وأما الابن فقد انسحب من الخدمة العامة وانزوى فى عزلة، ولكن لم تكن هذه العزله بعاصمه له من غضب الملك، فأخذ العامة وانزوى فى عزلة، ولكن لم تكن هذه العزله بعاصمة له من غضب الملك، فأخذ توماس مور يعد العدة لمغادرة البلاد هربا من بطشة، ولكنه لم يكد يتم التدابير للهرب حتى مات هنرى السابع فى سنة ١٥٠٩ فرجع الى الاشتغال بمهنة المحاماه واصاب فيها نجاحا وشهرة لفتا اليه انظار الملك هنرى الثامن ووزيره توماس ولزى Wolsey فأرسلاه فى البعثة الاقتصادية الى فلاندر فى ربيع ١٥١٥ لبحث العلاقات التجارية بين انجلترا وبين تلك البلاد، واستمرار العمل بمعاهدات التبادل التجارى التى عقدت من قبل، اذ كانت انجلترا تنتج الصوف فى مراعيها ومروجها وتتولى فلاندر تصنيعة اقمشة ذائعه الصيت، وفى هذه البعثة كان «مور» يمثل مصالح التجار الانجليز الذين لم ينسوا موقفه فى مجلس العموم سنة ١٥٠٤، وقد وصل «مور» الى بروج Bruges فى مايو ١٥١٥، وعاد فى نهاية العام الى انجلترا.

وفى سنة ١٥١٧ ترافع فى قضية خاصة باحدى السفن البابوية كانت السلطات البحرية فى ساوثهمبتون قد القت القبض عليها، وبلغت مسامع الملك مهارتة فى الدفاع فألحقه بخدمته وجعله عضوا فى المجلس المخصوص. فى سنة ١٥١٨. وحضر الاجتماع التاريخى الذى ضم هنرى الثامن ملك انجلترا وفرانسوا الاول ملك فرنسا فى معكسر البساط الذهبى فى سنة ١٥٢٠ ومنحه الملك فى

العام التالى لقب Sir ثم أصبح رئيسا لمجلس العموم سنة ١٥٢٣، وكان الملك يحدوه أمل كبير فى مساندة توماس مور له عند طلب الموافقة على الاعتمادات المالية التى كان الملك فى مسيس الحاجة اليها لتنفيذ خطته فى السياسة الخارجية، ولكن ظل «مور» وفياً لمبادئه فى السياسة المالية، وهى الوقوف الى جانب الشعب ومعارضة مزيد من الاعتمادات المالية، وسرعان ما ظهر الخلاف بينه وبين «ولزى» وزير الملك الذى كان ينقم عليه مكانته وقد حاول اقصاءه بتعيينه سفيراً فى اسبانيا واعتذر مور بحجة ضعف صحته. ولما سقط «ولزى» عينه هنرى الثامن لرياسة اكبر هيئة قضائية فى انجلترا، ولكن مالبث أن وقع صدام بين الملك وكبير القضاه فى مسألتين رئيسيتين أولهما طلاقه من زوجته كاترين ليتزوج «آن بولين»، وهى فتاة رائعة الجمال ظهرت فى بلاطه واستولت على قلبه، وثانيهما حركة الاصلاح الدينى التى كانت قد نشطت فى انجلترا. ورفض مور مسايره الملك فى اتجاهاته لمعالجة هاتين المسألتين، فوجه الملك اليه تهمه الخيانة، وأودع السجن حيث ظل فى غياهبه زهاء سنة، ثم قدم الى المحاكمة وحكم باعدامه، ونفذ فيه الحكم فى السابع من يوليو سنة ١٥٣٥.

ويهمنا أنه فى غضون إقامة توماس مور فى مدينة «بروج» نشأت فى ذهنه فكرة وضع كتاب يصور فيه رحلة خيالية ممتعة الى جزيرة خيالية. ووضع فى الكتاب حديثا شائقاً جذاباً ممتعاً صبّ فيه آراء فى الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والدين واطلق على الكتاب : يوتوبيا Utopia وهى كلمة لاتينيه تعنى بالانجليزية no where أى لا وجود لها أو ليس لها مكان، ويترجم البعض هذه الكلمة ترجمة حرة تتضمن المعنى البعيد الذى استهدفه المؤلف واختار لها هذه العبارة «فى عالم الكمال» وقد فعلوا ذلك لأن المؤلف رسم فى كتابه الخطوط الرئيسية للسياسة التى تنهجها الدولة المثلى فى نظره، وابرز صورة حية للحياة الفاضلة التى يبتغيها فى هذه الدولة، وقد ظفر هذا الكتاب بانتشار واسع لانه ظهر فى عصر الكشوف الجغرافية.

وكانت الجماهير تتهافت على قراءه ما يكتب عن البلاد الجديدة، سواء كانت حقيقة أو من نسج الخيال، كما أن المؤلف كان يحظى بسمعه واسعه عريضة وتبوأ مكانا عليا فى المجتمع الانجليزى.

وتتلخص قصة الكتاب فى أن توماس مور قابل فى مدينة «أنفرس» – إبان البعثة الاقتصادية التى أوفده فيها الملك هنرى الثامن الى «فلاندر» – صديقا له عرفه بأحد العلماء وأسمه ««روفائيل هيتلو داى»، كان ضليعا فى اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية، واسع العلم بالفلسفة ، يهوى الرحلات البعيدة، واشترك الثلاثة فى حديث طويل ممتع، تكلم «هيتلو داى» عن اسفاره ومشاهداته فى البلاد التى زارها، وكان من بينها جزيرة يوتوبيا، و أفاض فى وصفها وتضاريسها والنهر الذى يجرى فيها ومدنها وعاصمتها وسكانها واخلاقهم وقوانينهم ونظمهم السياسية والاجتماعية. وقال «هيتلو داى» أنه أقام فى جزيرة «يوتوبيا» خمس سنوات ووجد أهلها يتكلمون لغة واحدة، ويرتدون زيا واحداً عبارة عن حلة لا تعوق حركة الجسم وتصلح للشتاء والصيف معاً، ولا يجوز أن يستهلك الفرد أكثر من رداء واحد كل عامين، وللنساء المتزوجات رداء واحد ولغير المتزوجات رداء واحد خاص بهن. ويحتم القانون على أفراد الأسرة أن ينسجوا ملابسهم بأنفسهم. وأفراد الأسرة يخضعون جميعاً للوالدين وعلى كل أسرة أن ترسل كل عام عشرين فرداً من أبنائها إلى الريف للعمل فى الأنتاج الزراعى لمدة سنة كاملة. ويعتبر العمل فرضاً على كل مواطن فى جزيرة يوتوبيا، وتحدد الدولة ساعات العمل بحيث لا تزيد كل يوم عن ست ساعات، ولا تتدخل الدولة فى تنظيم أوقات الفراغ إلا فى حالة واحدة، عندما ينحرف الفرد وينزع نحو ارتكاب المنكرات أو الانغماس فى الرذيلة. ولا يؤذن للفتاة فى الزواج قبل أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرها. والسمة البارزة فى المجتمع فى جزيرة يوتوبيا هى الاهتمام بالجمال الطبيعى وتعهده، وأستقر العرف

على أن بقاء الحب بين الزوجين لا يتوقف على جمال الخلقة بقدر توقفه على جمال الخلق، أى الشرف والفضيلة. وتفرض الحكومة فى جزيرة يوتوبيا حدا على عدد أفراد الأسرة، فإذا أنجبت الأسرة عدداً يزيد عن العدد المحدد أضيفت الزيادة إلى أسرة تشكو قلة فى عدد أفرادها. فإذا زادت أسر المدينة كلها نقل الأفراد الزائدون الى مدينة أخرى تعانى نقصا فى عدد أفرادها، واذا استوفت جميع المدن نسبتها فى أعداد العائلات وأفرادها، أخذ العدد الزائد من كل مدينة وتبنى الحكومة لهم فى أرض قابلة للاستصلاح مدينة جديدة.

وأهل يوتوبيا يتمتعون بالمساواة التامه فيما بينهم فى كل شئ، وكل مواطن فيها يجد فى يسر كل حاجياته، لأن الانتاج وفير، بل هو أكثر مما تقتضيه حاجة السكان بسبب اشتغالهم جميعاً بالانتاج. وحرية العقيدة مكفولة تماما فى يوتوبيا، ولذلك توجد عدة ديانات فى هذه الجزيرة.

أما الناحية السياسية فإن كل ثلاثين أسرة تختار ممثلاً لها يكون فى نفس الوقت حاكماً أو رئيساً. والحكومة فى يوتوبيا حكومة حرة وشعبية، وهى جمهورية ديمقراطية تقوم على مبدأ الانتخاب. ويختتم هتيلو داى حديثة عن أهل يوتوبيا بأنهم يمقتون الحرب ويرون أنها نكسة ترتد بالانسانية الى عصور الهمجية المتوحشة، ومع ذلك فهم يهتمون بتدريب الأجيال الصاعدة بنين وبنات تدريبا عسكرياً صارما كى يكونوا جميعاً مستعدين للدفاع عن ديارهم إذا هاجمهم عدو، أو يخفوا لنجدة أصدقائهم اذا داهمهم خطر أو غزو، أو يحرروا شعباً يتطلع إلى الحرية.

ويتضح لنا من هذا العرض السريع لمعظم الموضوعات التى اوردها «توماس مور» فى كتاب «يوتوبيا» الحملة العنيفة التى شنها على النظم المتخلفة فى أوربا فى

العصور الوسطى، مما جعله يسبق عصره ويتطلع الى حياة أفضل بتعديل القوانين الجائرة التى كان معمولا بها فى أوربا آنذاك[1]. وكان كتابه بحق أكبر دليل على تطلع الأوربيين بوجه عام إلى تحقيق النهضة إجتماعياً وإقتصادياً وسياسياً ودينياً فى مطلع العصور الحديثة.

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ١٠٣.

# الفصل الثانى
# حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة

## الفصل الثانى

## حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة

تعتبر حركة الكشوف الجغرافية من أهم النتائج العملية لحركة النهضة الأوربية، كما تعتبر من العوامل الهامة التى ادت الى انتقال أوربا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وقد سارت تلك الحركة جنباً إلى جنب مع حركات الاصلاح الدينى وبعث التراث القديم. ففى خلال العصور الوسطى كانت معرفة الناس بالعالم المحيط بهم معرفة ضئيله لم تكن تتعدى السواحل الشمالية للقارة الافريقية وجزءا صغيراً من ساحلها الشمالى الغربى. وكان الناس فى ذلك الوقت يعتقدون أن حدود العالم لا تتجاوز الصحراء الكبرى وأن المحيط الأطلسى يمتد إلى مالا نهاية، وأن هذا المحيط مأوى للوحوش والشياطين، وأنه لايمكن للجنس البشرى أن يتوغل فيه أو يخوض غماره. وأعتقدوا أيضاً فى وجود صخور فى البحر تجتذب اليها السفن اذا ما اقتربت منها وأن فى تلك الصخور قوة خارقة تمكنها من اقتلاع مسامير تلك السفن واغراقها، واعتقدوا ايضاً فى استحالة عبور خط الاستواء لانه من أبواب جهنم.

تلك كانت معرفة الناس عن العالم المحيط بهم خلال العصور الوسطى ولكن هذه الخرافات رغم ما تشتمل عليه من عنصر التخويف فأنها ايضا كانت تحتوى على عنصر التشويق فى القيام بمغامرات فى تلك البحار للوصول الى المجهول، خصوصا وأن الخرافات التى سادت فى هذا العصر كانت تعد هؤلاء المغامرين – اذا ما استطاعوا اجتياز تلك العقبات التى ستلاقيهم فى البحر – بالانهار التى تجرى على أرض من ذهب، وبالجبال التى تشع منها أنوار الاحجار الكريمة.

وليس معنى هذا أن حركة الكشف الجغرافى لم تعرف من قبل الا فى فى مستهل التاريخ الحديث، بل لقد قام الاقدمون من الفينيقين والقرطاجنيين برحلات

الى سواحل البحر المتوسط، الهدف منها ايجاد صلات تجارية مع تلك المناطق، وكذلك فعل العرب فى العصور الوسطى، فقد قاموا برحلات برية وبحرية الى بعض مناطق من افريقية الشرقية والهند واستطاعوا الوصول الى جزر كناريا أو جزر الخالدات. وقد كشفت تلك الجزر عدة مرات وتعرضت للغزو منذ اقدم العصور، فكشفها الفينيقيون القرطاجنيون والعرب وأهل جنوة والنورمنديون والبرتغاليون فيه اذا ماهوجمت مراكزهم فى البحر المتوسط وقاموا ايضا برحلات برية فى وسط افريقيا الشمالى، ووصلوا الى منطقة غانة فى غرب افريقيا، وقد سجلها الادريسى الجغرافى العربى فى خريطته التى وضعها فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى.

أما عن الكشوف الجغرافية التى تمت فى مستهل التاريخ الحديث فترجع أولا وقبل كل شئ إلى ذلك الصراع الدينى الذى قام فى شبه جزيرة ايبيريا بين الأسبان والعرب فى أواخر الحكم العربى، وقد اعتمد الاسبان فى صراعهم مع العرب على اثارة الحمية الدينية والتعصب الدينى ضد العنصر الاسلامى. واستطاع الاسبان أن يدفعوا العرب الى خارج شبه الجزيرة الايبيريه فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل أن تلك الموجه المسيحية المنتصرة رأت أن تتعقب العرب فى شمال افريقيا للقضاء على قوتهم هناك حتى لا يفكروا مرة ثانية فى العودة الى غزو اسبانيا، وكذلك عمدوا الى نشر الديانة المسيحية بين سكان شمال افريقيا الوثنيين كى يضعفوا شوكة المسلمين، ويوجدوا فى تلك البلاد عنصرا مناوئا للنفوذ الاسلامى.

وقد تطورت حركة المقاومة الايبيرية من مجرد طرد العرب من الأندلس وتعقبهم فى شمال افريقيا الى التفكير فى محاصرة العالم الاسلامى والقضاء على مصالحه فى الشرق. وهذا ما دفعهم الى السير حول القارة الافريقية للوصول الى

قلب العالم الاسلامى، وسلب التجارة من ايدى العرب، وبذلك يتمكنوا من توجيه اقوى الضربات الى المسلمين.

فحركة المقاومة الداخلية فى شبه جزيرة ايبيريا قد تطورت إلى حركة توسع وفتح، وإلى ايجاد امبراطورية واسعة. وقد اعطانا التاريخ امثلة عديدة لتلك الحركات ففى مصر القديمة استطاع احمس الأول طرد الهكسوس من مصر وتتبع فلولهم المنهزمة فى الشام وضم تلك البلاد إلى مصر وتكوين الامبراطورية المصرية القديمة.

كذلك من العوامل التى شجعت البرتغاليين على القيام بحركة الكشوف فى ذلك الوقت، رحلة ماركو بولو (١٢٧١ - ١٢٩١) الى الصين وما كتبه فى وصفها وما تتمتع به من ثروة واسعة، ومدى ما يمكن للعالم الغربى أن يستفيده اذا ما أستطاع انشاء علاقات تجارية مع تلك البلاد الغنية. وكان لكتاباته اثر كبير فى توجية بعض الناس وخصوصا المشتغلين بالتجارة الى التفكير فى ايجاد علاقات مع تلك المناطق النائية من العالم.

كذلك كان لحاجة أوربا الشديدة الى البهارات والتوابل التى كانت تستورد من الشرق، والتى تستخدم فى تجفيف لحوم ماشيتهم. فضلاً عن حاجاتهم الى بعض العقاقير لعلاج الأمراض، مثل الافيون الذى كان يستعمل كمسكن للاوجاع والالام، وكانت تلك المنتجات الزراعية تصل الى اوربا من الشرق عن طريق الخليج العربى أو البحر المتوسط، ويقوم باحتكارها المماليك والبنادقة الذين اثروا من تلك التجارة ثراء عريضاً، ومكنهم هذا من أن يلعبوا دوراً هاما فى التاريخ، مما دفع الأوربيين الى التفكير فى طريق آخر يصلون به الى كنوز الشرق وينتزعون التجارة من ايدى المماليك والبنادقة.

وكان البرتغاليون اسبق الى هذا التفكير من سواهم من شعوب أوربا نظرا لظروفهم ولطبيعة ارضهم. فالشعب البرتغالى يقطن منطقة ساحلية جبلية ضيقة وهو

فى نفس الوقت لا يستطيع التوسع على حساب الاسبان نظرا للمقاومة الشديدة التى يلقاها على ايديهم. فليس أمامه اذن سوى توجيه نشاطه الى خارج البلاد.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فطبيعة أرض البرتغال فقيرة لا تفى بحاجيات السكان، ولذا فقد دفعت بأبنائها الى الخارج شأنها فى ذلك شأن اليونان.

هذا بالاضافة الى استبداد الملكية البرتغالية مما حدا بالامراء البرتغاليين الطامحين الى السلطة والجاه الى التفكير فى ترك بلادهم والتعبير عن نشاطهم فى خارجها.

كما أن شعور اسبانيا والبرتغال بقوميتهما عقب طرد العرب واستكمال نموهما السياسى وظهورهما فى المجتمع الأوربى كدولتين حديثتين تعملان على صون الاستقلال السياسى بدعم الاستقلال الاقتصادى، ولهذا فقد لجأت الدولتان الى تنفيذ تلك السياسة فى شكل الكشوف الجغرافية تدفعها الرغبة فى بناء اقتصادها القومى ونشر الديانة المسيحية.

ومن حسن حظ هاتين الدولتين ان القوتين الكبيرتين فى أوربا وهما انجلترا وفرنسا كانتا مشغولتين بتحقيق مآربهما السياسية فى القارة الأوربية، فساعد هذا على قيام الدولتين بحركة الكشوف الواسعة التى مكنتهما فى فترة وجيزة من تحقيق ارباح طائلة وتكوين امبراطوريتين كبيرتين[1].

## أولاً : حركة الكشوف البرتغالية :

نتناول فى هذه الدراسة دور الرحالة البرتغاليين فى الدوران حول افريقيا والوصول إلى المحيط الهندى فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة،

(١) جلال يحيى (دكتور) : عصر النهضة والعالم الحديث، ص ٧٣.

موضحين أهدافهم وكشوفهم وجهودهم فى ميدان الاستعمار البرتغالى لمناطق عديدة فى ارجاء المحيط الهندى، وعداءهم الصليبى وعدوانهم على العرب والمسلمين. وكان العرب والمسلمون منذ انتشار الاسلام فى أعقاب ظهوره فى القرن السابع الميلادى وحتى مطلع العصور الحديثة يعتبرون سادة للمحيط الهندى والمسيطرين على الخليج العربى وبحر العرب والبحر الاحمر بلا منازع. واعتمدت العلاقات التجارية بين أوربا من جهة، وآسيا وافريقيا من جهة أخرى اعتماداً كليا على نشاطهم، فكانوا يجلبون البضائع الشرقية من الشرق الآقصى وجنوب آسيا وشرق أفريقيا فى سفنهم إلى الخليج العربى والبحر الأحمر اللذين كانا يمثلان الذراعين البحريين الممتدين إلى أوربا حيث يتم نقل هذه البضائع عبر نهرى دجلة والفرات من الجهة الشرقية وعبر نهر النيل من الجهة الغربية، وكان لهذه الانهار التى تعبر أراضى العرب، فضلا عن طرق القوافل عبر الجزيرة العربية والمشرق العربى، أكبر الاثر فى تسهيل حركة التجارة العالمية بحرياً وبريا إلى موانى البحر المتوسط فى الشام ومصر، لتنقل عبرها إلى أوربا. وساعد العرب والمسلمين فى مجال الاعمال التجارية والبحرية معرفتهم بعلم الفلك وتحديد الاتجاهات الجغرافية بالشمس والكواكب حتى تمكن،ا من ابتكار تقنيات قياسيه علمية سهلت مهمتهم وعمقت معرفتهم. وكان من الطبيعى أن يصاحب ذلك النشاط التجارى والبحرى استقرار جاليات عربية واسلامية كثيرة فى أرجاء المحيط الهندى والخليج العربى والبحر الاحمر، وأن يترتب على ذلك ايضاً ثراء العالم والاسلامى الذى كان يجنى ثمار نشاطه التجارى والبحرى وقد حباه الله موقعاً جغرافيا وسطا بين قارات العالم.

وعندما ظهرت النهضة الأوربية الحديثة فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة متأثرة بالاحتكاك الحضارى مع العالم العربى والاسلامى سواء فى الاندلس غرباً أو فى جزر البحر المتوسط فى الجنوب أو عبر آسيا الصغرى فى الشرق أو من خلال التيار المعاكس الذى تمثل فى الحروب الصليبية بين القرنين الحادى

عشر والثالث عشر الميلاديين واحتك بديار العرب والمسلمين وحضارتهم فقد اتجهت النهضة الأوربية الى القيام بحركة الكشوف الجغرافية التى كانت أهم نتيجة عملية لتلك النهضة. غير أن حركة الكشوف الجغرافية الاوربية لم تكن موضوعية الاتجاه بهدف الكشف العلمى بقدر ما كانت تعبيراً عن التعصب والعداء للعرب والمسلمين ورد فعل للوجود الاسلامى فى الاندلس الذى استمر قائماً لمدة ثمانية قرون سابقة من ناحية الغرب، ولفشل الحروب الصليبية التى شهدها العالم العربى والاسلامى المطل على البحر المتوسط بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين، ولدور العثمانيين فى السيطرة على القسطنطينية عام ١٤٥٣م من ناحية الشرق. كما كانت حركة الكشوف الجغرافية الاوربية رد فعل ايضاً لاندفاع القوات العثمانية الى شرق ووسط أوربا من جهة، وإلى سواحل البحر الاسود وبلاد فارس من جهة، وإلى سواحل البحر الاسود وبلاد فارس من جهة أخرى، مما أدى إلى سد الطرق التجارية الموصلة بين آسيا وأوربا عبر هذه المناطق، وحول التجارة العالمية بالتالى تماما إلى موانى مصر والشام المطلة على البحر المتوسط، والتى كانت تسيطر عليها دولة المماليك آنذاك والتى أثرت ثراء كبيراً من عوائد تلك التجارة.

ولهذا رأى الغرب الاوربى بعد أن مل التعامل مع دولة المماليك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك وقوة الاحتكاك أن يبحث عن طريق آخر أكثر أمنا وأقل تكلفة علم يتحكم من خلاله فى السيطرة على التجارة الشرقية وحرمان العالم العربى والاسلامى من عوائدها. بل رأى الغرب الاوربى ايضاً ان يستثمر طاقة العداء الصليبى – رغم اغراقة فى العلمانية – لحشد الجهود لتحقيق تلك الغاية أملا فى الحصول على طاقة مادية تمكنة من استرداد الاماكن المسيحية المقدسة من أيدى العرب والمسلمين، كما أكدت هذا الاتجاة المصادر المعاصرة والبراءة التى أصدرها البابا نقولا الخامس فى عام ١٤٥٤م والتى تطابق البراءة التى اصدرها من قبل البابا أوريان الثانى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى. فضلاً عن الممارسات الانتقامية التى مارسها البحارة البرتغاليون الذين هاجموا السفن الاسلامية المسالمة فى

البحار الشرقية فى أعقاب حركة الكشوف بطريقة انتقامية.

واستطاع الاوربيون من خلال حركة الكشوف الجغرافية أن يحققوا غايتهم مستندين الى اقتباسهم العملية من الحضارة العربية والاسلامية وتجربتها فى المجالات البحرية، ورغم مما تحقق لهم من معرفة عن طريق الاحتكاك الحضارى وسرقة المخطوطات والادوات البحرية والخرائط الجغرافية مستعينين فى أحيان كثيرة بعناصر يهودية كانت تفتح لها ابواب العالم العربى والاسلامى بمساحته المعهوده، الا أن الاوربيين اختلفوا فى نظرتهم العلمية غير الناضجة والتى تمثلت فى توجة البرتغاليين الى الهند عن طريق الشرق، فى الوقت الذى توجه الاسبان الى نفس الغاية عن طريق الغرب مما أوصلهم الى عالم جديد ظنوا خطأ أنه الهند ثم تبينوا بعد ذلك أنه الامريكتين.

كما اتجه الاوربيون وهم يخططون لكشوفهم البحرية الى جهود استطلاعية اتسمت بالسرية وتركزت حول جمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق، وطرق هذه التجارة، وأنواع البضائع الشرقية، وامكانات القوى العربية والاسلامية التى سيحاربونها بل أنهم اتجهوا كذلك الى البحث عن حليف يساعدهم فى أحكام الحصار الاقتصادى على العالم العربى والاسلامى وتوقعوا أن يكون ذلك ممثلاً فى الحبشة رغم علمهم بأنها كانت تابعة عقائدياً للكرازة المرقصية الاورثوذكسية اليعقوبية بالاسكندرية كما تربطها بالعالم العربى والإسلامى روابط عديدة. وكان بعض ملوك الحبشة قد سبق أن مالوا الى الاستجابة الى نداءات الاوربيين بالاتفاق معهم على تطويق بلاد المسلمين فى الشرق الادنى من ناحيتى الشمال والجنوب فى الوقت الذى حرصت فيه البابوية الكاثوليكية على تحقيق هذا التحالف مع الحبشة رغم الخلافات العقائدية بينهما، مما جعل البابورية الكاثوليكية ترسل الرسل والسفراء إلى ملوك الحبشة فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى فى عامى ١٣٠٥ و ١٣١٦م، كما أرسل

ملك فرنسا سفارة الى ملك الحبشة فى عام ١٣٣٨م[١].

وقد أدت هذه الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوربى من ناحية وملوك الحبشة المسيحين من ناحية اخرى الى استثارة ملوك الحبشة ضدذ المسلمين وجذبهم داخل دائرة الحركة الصليبية. من ذلك أن ملك الحبشة لم يكد أن يسمع خبر أغارة القبارصة الصليبيين على الاسكندرية فى سنة ١٣٦٥م حتى بادرالى اعداد جيش ضخم، وأعلن أنه سيهاجم مصر من ناحية الجنوب، وبذلك يتم تطويقها اقتصادياً وحربياً. ولكن لم تلبث أن جاءت الاخبار مالى ملك الحبشة بانسحاب القبارصة من الاسكندرية، وعندئذ عاد الاحباش الى بلادهم بعد أن فقدوا كثيراً من رجالهم.

وعلى الرغم من ذلك فإن ملوك الحبشة لم يتخلوا عن فكرة حصار مصر ومهاجمتها من ناحية الجنوب، بدليل أن أسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩م) اراد القيام بحملة صليبية كبرى ضد مصر، فيدهمها من ناحية الجنوب، وأرسل الى ملوك أوربا فى سنة ١٤٢٨م يدعوهم لمساعدته فى القيام بهجوم على مصر من ناحية الشمال. وتروى المصادران رسول الملك اسحق الى الملوك غرب اوربا كتن تاجرا فارسياً يدعى على نور الدين التبريزى. وقد نجح هذا الرسول الخائن فى ابلاغ رسالة ملك الحبشة الى حكام الغرب الاوربى، وتم الاتفاق فعلا على خطة مزدوجة لمهاجمة مصر من ناحيتى الجنوب والشمال. ولكن حدث عند عودة التبريزى بعد ذلك ذلك الى الحبشة عن طريق مصر أن اكتشف امره، فقتله السلطان المملوكى برسباى جزاء خيانته. وعلى الرغم من مقتل التبريزى فأن دعوة ملك الحبشة صادفت قبولا لدى بعض ملوك أوربا، من ذلك أن الفولس الخامس ملك ارغونه شرع فى أعداد اسطوله لمهاجمة شواطئ

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية، العدد ١١٨، المكتبة الثقافية، ص ٦٠ - ٦١.

مصر، وأرسل سفارة الى ملك الحبشة يؤكد فيها حسن نيته عن طريق عقد مصاهرة بين الطرفين كذلك اظهر ملك فرنسا اهتمام كبيراً بذلك المشروع على الرغم من انشغال فرنسا عندئذ بحرب المائة عام ضد انجلترا حتى عام ١٤٥٣م.

تمت هذه الاتصالات الودية بين طليبى غرب أوربا والاحباش قبل اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى بين عامى ١٤٨٧ - ١٤٩٨م، وكانت هذه الاتصالات مصحوبة كذلك بفكرة أخرى طالما نادى بها دعاة الحروب الصليبية فى أوربا، وهى تجويع مصر والقضاء على شعبها بتحويل مجرى النيل عن مصر من منابعة فى الحبشة. وظلت هذه الفكرة تراود عقول المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى، فأرسل الفونس ملك أرغونة الى ملك الحبشة فى سنة ١٤٥٠م يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من ناحية الجنوب، فى الوقت الذى يقوم الذى يقوم الفونس بغزو بلاد الشام.

ولهذا فأن خطة الغرب الأوربى فى مطلع العصور الحديثة فى فرض حصار اقتصادى على العالم العربى والاسلامى هى من افرازات الحركة الصليبية فى العصور الوسطى باعتباره عامل مؤثر فى طاقته الحربية، سواء بالبحث عن طريق جديد غير طريق مصر للحصول على تجارة الشرق، أو عن طريق البحث عن حليف يساعد فى أحكام الحصار الاقتصادى عن طريق اغلاق البحر الاحمر من ناحية الجنوب، وحرمان مصر من مياه نيلها. وهى الاهداف التى سعى البرتغاليون الى تحقيقها فى مطلع العصور الحديثة. غير أن رد الفعل الصليبى لم يصل الى هذا الحد فقط، بل تطلع البرتغاليون الى غزو الجزيرة العربية مركز العقيدة الاسلامية والعدوان على مقدساتها والذى بلغ حد أعلان رغبتها فى نبش قبر الرسول محمد ﴿ﷺ﴾ فى المدينة المنورة. كما كانوا يهدفون كذلك إلى ادخال الحبشة فى حظيرة

الكاثوليكية وتحولها عن كنيسة مصر ليستمر ولاءها لهم[1]، ومعنى ذلك أنهم استهدفوا اقتلاع تراث المنطقة من جذوره سواء كان اسلاميا أو قبطياً، وظل هدفهم حتى بعد وصولهم الى الهند والشرق الاقصى وسيطرتهم على منابع التجارة الشرقية فى المحيط الهندى.

واستطاع البرتغاليون أن يحققوا غاياتهم مستندين الى قواهم وجهودهم وخبرتهم البحرية التى اقتبسوها من العرب والمسلمين من جهة، والى جهود استطلاعية أخرى اتسمت بالسرية وتركزت حول جميع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق، وطرق هذه التجارة، وأنواع البضائع الشرقية، وامكانات القوى التى سيحاربونها من جهة اخرى. وتمكن الملك البرتغالى «يوحنا الأول» Jean أن يضع اللبنة الأولى فى تاريخ البحرية البرتغالية المتسمة بالطابع العدوانى الصليبى حيث استولى على ميناء سبتة على الساحل الغربى لافريقيا من أيدى المسلمين فى عام ١٤١٥م واقطعها لولده الامير هنرى الشهير بالملاح والمعروف بحقده وكراهيته المتناهية للاسلام والمسلمين والذى كرس حياته وبذل جهوده لاكتشاف طريق بحرى جديد يدور حول افريقيا للوصول الى الهند للسيطرة على تجارة المسلمين[2]. وبدأت أولى رحلات الكشوف البحرية البرتغالية لسواحل غرب افريقيا فى سنة ١٤١٨م ولجأت البرتغال الى اضفاء المشروعية الكنسية على التوسعات البرتغالية فى أعقاب فتح العثمانيين للقسطنطينية فى سنة ١٤٥٤م بأحقية التاج البرتغالى فى امتلاك سبته وغيرها مما يؤكد توفر الروح الصليبية فى توسع البرتغال فضلا عن الدوافع الاقتصادية الغالبة.

وقد استمرت الرحلات البحرية البرتغالية تكتشف الساحل الغربى لافريقيا، حتى تمكن «بارتلميو دياز» Bartholomew Diaz من الوصول الى أقصى نقطة فى

---

(1) Alvarez, F.J: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the Years 1520 - 1527, PP. 265, 270.
(2) Ackinson, W. C. : A History of Spain and Portugal. P. 99

هذا لاساحل واكتشاف الطرف الجنوبى لافريقيا الذى عرفه «برأس العواطف» والذى اطلق عليه ملك البرتغال «يوحنا الثانى Jean II » (١٤٨١ - ١٤٩٥م) «رأس الرجاء الصالح» تيمنا بالكشف الجديد فى عام ١٤٨٧م[١].

وجاء بعد ذلك دور الرحالة البرتغالى «بيرو دى كوفلهام Pero de Kovilham» الذى اتسمت رحلته بالطابع الاستطلاعى والذى تمكن من الوصول الى مصر عبر البحر المتوسط فى سنة ١٤٨٧، وابحر منها الى ميناء سواكن عبر البحر الأحمر، ثم اتجه جنوباً حتى وصل الى عدن، ووصفها بأنها كانت آنذاك مدينة عظيمة وأن بها تجاراً من جميع الاجناس، وبعد ذلك واصل رحلته الى الهند[٢]. وعند عودته قام بزيارة معظم المناطق الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقى لافريقيا، كما مر بمدينة زيلع، ثم اتجه جنوباً حتى وصل الى «سوفالا»[٣]. وقد عاد هذا الرحالة الى مصر حيث تمكن من مجتمع معلومات عن الحبشة دفعته للتوجه اليها. وكانت رحلته الى الحبشة - التى كانت تتسع من الناحية العقائدية الكنيسة الارثوذكسية اليعقوبية فى مصر - بداية لسلسلة من رحلات المستكشف والبعثات الاوربية الكاثوليكية التى وفدت اليها اثناء القرن السادس عشر، والتى كانت تهدف الى استقطابها للكاثوليكية لتطوير العالم الاسلامى وانتزاع التجارة الشرقية التى تشكل مصدر قوته آنذاك. وقد أصبح «بيرو دى كوفلهام» مستشاراً لملك الحبشة «قسطنطين الثانى» ثم رسوله الى ملك البرتغال «يوحنا الثانى» للاتفاق على حملة مشتركة لتحرير القدس، ولكن البعثة لم تبتعد كثيراً بسبب نزاع نشب بين حراس البعثة وبعض الاهالى، وهكذا فشل هذا المشروع العدوانى الصليبى المتعصب[٤].

---

(1) Kammerer, A. : La Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie Depuis L'Antiquite, T. II. P. 75.

(2) Playfair, R. L. : A History of Arabia Felix or Yemen, Selections From The Records of The Bombay Government, XLIX, P. 69.

(3) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, P. 42.

(4) Ziade, M. : Foreign Relations Of Egypt in the Fifteenth Century, Vol. 1, PP. 287, 288.

وقد مهدت جهود الرحالة «بيرو دى كوفلهام» السبيل أمام الرحالة «فاسكو داجاما Vasco da Gama» عندما قام برحلته حول رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٧ ومر بالساحل الشرقى لافريقيا حتى وصل الى بوزمبيق حيث وجد قاربا على متنه بعض الزنوج واحد واحد البحارة، ظنه البرتغاليون فى بداية الامر من المغاربة. وعندما اقتربت السفن البرتغالية من القارب، هرع الزنوج والقوا بانفسهم فى البحر وفروا الى الساحل بينما نقل البحار الى سفينة القيادة البرتغالية حيث احسن «دا جاما» الستقبالة، واكتشف أن الرجل هندى، وليس عربياً مغربياً، وأنه من أهل «كمباى Campay» بالهند ويدعى «دافان»، وقد اتخذه «داجاما» مستشارا له لانه كان خبيراً بالتوابل ومن سماسرتها. وقد وافق هذا الملاح على مرافقة البرتغاليين الى الهند. وتعهد بتزويدهم بحموله من التوابل نظير توصيله الى بلادة[١]. كما استجاب شيخ موزمبيق لطلب «داجاما» وزوده باثنين من المرشدين، الا أنهما تمكنت من الفرار عندما تأكدا أن البرتغاليين من المسيحيين مما أدى الى أستخدام البرتغاليين العنف مع الاهالى[٢]. ولهذا لم يغامر «داجاما» بالرسو بسفنة فى ممبسة، عندما شك فى أحتمال قيام ملكها بتدمير سفنه وأغراقها انتقاما لما فعله ضد اهالى موزمبيق.

وعندما وصل «داجاما» بعد ذلك الى ميناء مالندى – الواقعة حاليا فى كينيا – لقى فيها ترحيباً من ملكها خوفاً أو ضعفاً. فلما عزم على مغادرتها بعد عدة اسابيع، طلب من صاحبها امداده بملاح يرشدة إلى الهند، فأستجاب له الملك وامده بملاح ماهر قاد اسطوله الى قاليقوط، فوصل،ها فى مايو سنة ١٤٩٨[٣]. واذا كان ذلك ما اوردته الكتابات البرتغالية حول هذا هذا الموضوع فإن أول من أشار اليه من المؤرخين العرب قطب الدين النهر والى الذى اشار الى

(1) Howe, Sonia : In quest of Spices, PP. 193, 195.

(2) Strandes, J. : The Portuguese Period in East Africa, PP. 20, 24.

(3) Strong, A. : The History of Kilwa, (J. R. A. S.) London, 1985, PP. 397, 428.

ان البرتغاليين «لهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبة كبير الفرنج وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، وتوغلوا فى البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الامواج. فلما فعلوا ذلك، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم. فكثروا فى بحر العرب .. وصارت الامدادت تترادف عليهم من البرتغال. وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرار ونهباً، ويأخذون كل سفينة غضباً، إلى أن ضرورهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين[1]. وعلى هذا النص اعتمد المستشرق الفرنسى «جبرييل فران Ferrand» فيما ذهب اليه من أن أحمد بن ماجد العربى المسلم هو الملاح الذى قاد اسطول «فاسكو داجاما» من مالندى الى موطن التوابل فى قاليقوط[2]. ومن المرجح أن دورابن ماجد انحصر فى اسداء النصح وتقديم المشورة للرحالة البرتغالى «فاسكو داجاما» وامداده بالمعلومات التى ساعدت على سلامة سفنة، وتعليمة الطريق قولا ووصفا، وليس عملا وقيادة. اما الملاح الذى قام بمهمة ارشاد «فاسكو داجاما» فهو ذلك الملاح الهندى الذى أشارت إليه المصادر البرتغالية. وبذلك «لا تلقى المسئولية كاملة على ابن ماجد فى وصول البرتغاليين الى الهند، خاصة وأن البرتغاليين آنذاك لم يكشفوا عن اهدافهم الحقيقة، ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم. طالما كانت معاملتهم حسنة، وتكلفوا باعطاء الاجر المناسب»[3].

وقد استغرقت رحلة «فاسكو داجاما» الأولى الى الهند ثلاث سنوات (١٤٩٧

---

(١) قطب الدين النهروالى، محمد بن احمد الحنفى المكى : «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» مخطوطة نشرها حمد الجاسر ، عام ١٩٦٧، ص ١٨ - ١٩.

(2) Ferrand, G. : Le Pilote Arabe de Vasco de Gama, PP. 290, 307. Art Shihab Al Din ENC. of Islam, Vol. IV, P. 368.

(٣) محمد عبد العال أحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملاح فاسكو دى جاما، مجلة معهد الدراسات والبحوث الافريقية بجامعة القاهرة، العدد الخامس، ١٩٧٦، ص ١٥٥ - ١٦٧ - ١٧٨.

Hunter, F. M. : An Account Of The British Settlement at Aden, P. 162.

– ١٤٩٩)م. عاد بعدها الى لشبونه في شهر سبتمبر سنة ١٤٩٩م. وقام «فاسكو داجاما» أثناء رحلته بمهاجمة احدى السفن التجارية العربية واستولى على ما بها من بضائع، ثم امر باغراقها بمن تحملهم من الركاب، كما قام اثناء رحلته الثانية الى الهند فى سنة ١٥٠٢ بتكليف أحد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الاحمر لمهاجمة السفن التجارية الاسلامية ولمنعها من التاجرة أثناء ابحارها فى مياه المحيط الهندى الا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين. واشتط «فاسكو داجاما» فى مهمته عندما قام فى شهر يناير سنة ١٥٠٣ بمهاجمة سبع سفن اسلامية واستولى عليها، بل انه قام بقتل بعض ركابها واسر البعض الآخر، وفى ذلك يورد المؤرخ «بامخرمه» فى حولياته عن سنة ٩٠٨ هـ التى يوافق مطلعها اليوم السابع من يوليو ١٥٠٢م أن : «فى هذه السنة ظهرت مراكب الفرنج فى البحر بطريق الهند وهرموز وتلك النواحى، وأخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا اهلها واسروا بعضهم»[١]. كما يشير ابن اياس فى حولياته عن سنة (٩١٢ هش التى يوافق مطلعها ٢٤ مايو ١٥٠٦م) الى أنه قد حدث» فى هذه السنة قويت شوكة الفرنج، وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم فى ناحية الهند وهرموز، اهلكهم الله»[٢]. ولم يكتف البرتغاليون بذلك، بل أنهم هددوا جده فى سنة ١٥٠٥م، وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل الى مكة نفسها على هيئة حجاج فى زى عربى وكشف امراهم[٣]. وكان ملكهم قد اقسم أن يستولى على مكه وأن يقوم ينبش قبر الرسول محمد ﴿ﷺ﴾ فى المدينة المنورة كما سبق أن أشرنا[٤].

---

(١) بامخرمه، ابو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م)، قلادة النحر فى وفيات اعيان الدهر، مخطوطة، السنة الثانية بعد التسعمائة، لوحة ١١٩٠.

(٢) ابن اياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٢، ص ٣٤٧.

(3) Stripling, G. W. F. : The Ottoman Tuks and The Arabs, P. 28.

(4) Kammerer, A. : Op. Cit., Tome 2, P. 144.

وقد تطورت اهداف الرحالة البرتغاليين فى المحيط الهندى التى بدأت برغبتهم فى كشف الطريق البحرى المؤدى الى الهند لتحقيق المكاسب الاقتصادية لبلادهم بتحويل مسار التجارة الشرقية عن العالم العربى والاسلامى لافقاده أهم مقومات قوته اعمالا لتعصبهم الصليبى، الى الرغبة فى أحتكار التجارة الشرقية والسيطرة على مصادرها الاصلية، بل وإى اقامة أول حكومة استعمارية اوربية فى بلاد الشرق وضعوا على رأسها نائباً لملك البرتغال فى بلاد الهند، وكان تفوق البرتغاليين الحربى فى ذلك الوقت عاملا اساسياً فى سرعة تطور موقفهم اثناء تلك الفترة، بحيث اصبحوا يمتلكون سفنا حربية مزوده بالمدافع، وهى اسلحة لم تكن معروفة فى الهند فى ذلك الحين[1]. كما سيطر البرتغاليون على جزيرة سقطرى فى عام ١٥٠٦م الواقعة فى مواجهة القرن الافريقى وتشرف على خليج عدن وشرق افريقيا، وسيطروا على مضيق هرموز فى نفس السنة واحتكروا مصايد اللؤلؤ فى الخليج العربى[2]. وامتد نفوذهم الى مضيق ملقا فى عام ١٥١١م فى اقصى جنوب شبه جزيرة الملايو فى الشرق الاقصى والتى كانت تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية حيث كانت تتجمع منتجات منطقة الشرق الاقصى والهند الصينية، وهكذا ادى نشاط الرحالة البرتغاليين فى المحيط الهندى الى سيطرة البرتغال على التجارة الشرقية ومصادرها فى أرجاء هذا المحيط وحرمان العالم العربى والاسلامى من عوائدها نتيجة لتحويل طريق التجارة الشرقية الى رأس الرجاء الصالح.

وكان من الطبيعى أن تقوم القوى العربية والاسلامية فى العالم العربى والاسلامى وفى كافة ارجاء لمحيط الهندى بمقاومة هذا الغزو البرتغالى الاستعمارى الصليبى فى مراحلة الاولى بكافة ما لديها من طاقات وامكانات. وقد تمثلت هذه

---

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، ص ٥٠ - ٥١.

(٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ٢١، ص ٦٩٨ - ٦٩٩.

القوى فى الكيانات المحلية الصغيرة التى قامت كل منها بمواجهة هذا الغزو بقدر طاقتها وامكاناتها مثل الدولة الطاهرية فى جنوب غرب الجزيرة العربية، ودولة اليعارية فى الساحل الغربى من الخليج العربى، والسلطنات الهندية وغيرها من القوى المحلية وأن كانت طاقاتها وامكاناتها محدودة للغاية اذا قيست بطاقات وامكانات القوة البرتغالية الطامعة والمتطلعة الى السيطرة والثراء ولهذا استنجدت هذه الكيانات المحلية بالقوى الاسلامية البحرية الكبرى التى تمثلت فى الدولة المملوكية كانت تسيطر على مصر والشام والحجاز والتى واصلت دورها فى مواجهة الغزو البرتغالى منذ بدايته وحتى عام ١٥١٧ حيث حلت محلها الدولة العثمانية التى كانت اقدر منها على المواجهة والصمود أمام الخطر البرتغالى طوال القرن السادس عشر الميلادى وحتى خبا نجم البرتغاليين فى المحيط الهندى فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى وحلت محلهم قوى استعمارية اخرى جديدة تمثلت فى هولندا وانجلترا وفرنسا التى أسست شركات احتكارية استعمارية ضخمة فى المحيط الهندى، والتى اصبحت تمثل اعمدة الاستعمار الاوربى الحديث هناك وفى العالم اجمع.

وقد تمكن الاتراك العثمانيون من ملءالفراغ السياسى والعسكرى الناتج عن ضعف الدولة المملوكية فى مواجهة الغزو البرتغالى الاستعمارى الذى هدد بالوصول الى الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ونبش قبر الرسول (ص) فى المدينة المنورة. وقد نجح العثمانيون فى اقامة مظلة امنية استراتيجية امتدت من الخليج العربى شرقاً الى حدود المغرب العربى فى اقصى الغرب، حيث كان الاسبان يتطلعون الى السيطرة على سواحل المغرب العربى بعد أن تمكنوا من اخراج المسلمين من غرناطة فى سنة ١٤٩٢م وتعقبوهم فى ديارهم بالمغرب العربى للحيلولة دون عودتهم الى الاندلس. كما امتدت المظلة الامنية العثمانية الى اليمن فى أقصى الجنوب والى الاحساء فى شرق الجزيرة العربية لاقامة حزام امنى حول الحرمين الشريفين بينما كان الربع الخالى فى جنوب الجزيرة العربية بشكل درعا واقيا للحرمين الشريفين من ناحية الجنوب. وظلت الدولة العثمانية تحرص على

تأمين الاماكن المقدسة فى الحجاز وفلسطين خلال الاربع قرون التى حكمت فيها معظم اجزاء العالم العربى فى العصر الحديث.

### دور المماليك فى مواجهة الغزو البرتغالى الصليبى :

لما كانت دولة المماليك تشكل اكبر قوة اسلامية متواجدة فى منطقة الشرق الاوسط بحكم سيطرتها على مصر والحجاز الى جانب سيطرتها على الشام فى نهاية العصور الوسطى وحتى سقوطها على أيدى الاتراك العثمانيين فى عام (٩٢٣هـ / ١٥١٧م)، كما كانت من أكثر الدول تأثراً بأية متغيرات تطرأ على تلك المنطقة كتهديد امن الحرمين الشريفين من جهة، وكتحول التجارة العالمية عنها الى طريق رأس الرجاء الصالح من جهة أخرى، مما ادى الى ضياع العوائد والرسوم الجمركية الضخمة التى كانت تجنبها الخزانة المملوكية فى الموانى التابعة لها والمطلة على البحرين الاحمر والمتوسط. لهذا كان على الدولة المملوكية - للاعتبارات الاسلامية الامنية والاقتصادية - أن تتصدى للبرتغاليين فى البحار الشرقية بوجه عام وفى البحر الاحمر والخليج العربى بوجه خاص، للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة، خاصة بعد أن عجز الطاهريون فى سواحل اليمن - التى شكلت خط المواجهة الاول مع البرتغاليين فى أقصى جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر - من جهة، وكذلك السلطنات الاسلامية على الساحل الغربى للهند[١]. من جهة أخرى، عن مواجهة الخطر البرتغالى المتزايد فى المحيط الهندى[٢]. وكان هؤلاء جميعاً قد استنجدوا بالدولة المملوكية باعتبارها اقوى المماليك الاسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة مع الهند آنذاك، والمشرفة على أمن الحرمين الشريفين فى الحجاز[٣].

---

(١) ابن الديبع، عبد الرحمن بن على محمد الشيبانى : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد، محظوظة، ص ٣١ ب.

(٢) الملبارى، زين الدين المعبرى : تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتكاليين، ص ٤٠.

(٣) قطب الدين النهروالى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، مخطوطه، ص ٤ (أ).

وقد استعان المماليك بالعثمانيين الذين شاركوهم غيرتهم الدينية من جهة[١]. وبالبندقية التى حرمت مثلهم من التجارة الشرقية التى كانت تقوم بتوزيعها فى أسواق اوربا وتجنى من ورائها الأرباح الطائلة من جهة أخرى. وذلك للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة. كما ارسلت البندقية سفيرها «فرانسوا تالدى» إلى القاهرة للتفاوض مع السلطان الغورى سرا فى الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين التجارى فى مياه الهند وذلك بناء على تعليمات مجلس العشرة الصادرة فى البندقية فى ٢٤ مايو سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م[٢].

وقد ادى ذلك ايضاً الى تشجيع السلطان الغورى على أرسال جملة بحرية الى الهند لتعقب البرتغاليين ومحاولة طردهم من البحار الشرقية وتأمين الحرمين الشريفين واعادة التجارة الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر والشام والبحر المتوسط. وذلك فى ٤ نوفمبر سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م بقيادة حسين الكردى نائب جدة[٣].

وقد أحرز المماليك انتصارا جزئياً أمام الاسطول البرتغالى فى مياه الهند بعد وقت قليل من وصوله الى «ديو Diu» التى كانت اهم موانى سلطنة «كجرات». كما انتصر الاسطول المملوكى على اسطول برتغالى مكون من ثمانى سفن وذلك فى خريف عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م(٤). غير أن البرتغاليين تمكنوا بقيادة «فرانسيسكو دا الميدا Francisco D' Almeida» نائب ملك البرتغال فى الهند من احراز نصر حاسم على المماليك فى موقعة «ديو» فى اليوم الثانى من فبراير

---

(١) الموزعى، شمس الدين عبد الصمد بن أسماعيل : «كتاب الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان» مخطوطه، ص ٦.

(٢) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق، وقد نشر فى ملاحق كتابة مجموعة التعليمات التى اصدرها مجلس العشرة فى البندقية للسفير البندوقى «فرانسوا تالدى» المبعوث الى السلطان الغورى بالقاهرة فى ٢٤ مايو سنة ١٥٠٤، ص ٤٢٩ - ٤٣٥.

(٣) ابن اياس : المصدر السابق، جـ ٤ ، ص ٨٥.

(٤) سعاد ماهر (دكتور) : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية، ص ١٣٢.

سنة (٩١٥هـ / ١٥٠٩م)[1]. كما حاول بعد ذلك «الفونسو البوكيرك Albuqurque» الذى عين نائبا لملك البرتغال فى الهند احتلال المراكز البحرية الهامة فى المحيط الهندى حتى تمكن من السيطرة على البوابات البحرية الثلاث الموصلة اليه وهى مضايق باب المندب، وهرمز، وملقا عند الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الملايو[2]. كما تمكن من السيطرة على جزيرة سقطرى فى سنة (٩١٣هـ / ١٥٠٧م) وعلى مشيخة هرمز فى سنة (٩١٤هـ / ١٥٠٨م)[3]. ثم حاول

مهاجمة عدن فى ٢٤ مارس سنة ١٥١٣م (٩١٩هـ)، غير أنه فشل فى ذلك أمام استبسال أهالى عدن وحصانة مدينتهم الطبيعية، مما جعله يكتفى بالقيام بأعمال تخريبية واغراق السفن الراسية فى الميناء[4]. كما فشلت محاولات «البوكيرك» فى الوصول الى جده، التى كان يتوقع وصول قوات مملوكية اليها، مما جعله يخفى فشله بادعاء أن الرياح بددت أحلامه واضطرته للعودة الى جزيرة قمران، التى بقى فيها مدة شهرين، واصل اثناءها اعمالة التخريبية فى موانى البحر الأحمر الجنوبية كميناء زيلع، كما ضرب عدن بمدافعه مدة خمسة عشر يوما

قبل عودته الى الهند فى اليوم الرابع من أغسطس سنة ١٥١٣م (٩١٩هـ).

وعلى الرغم من فشل «ألبوكيرك» فى تحقيق أهداف البرتغاليين فى البحر الأحمر، فقد قدم لخلفائه من بعده خطة غزوو هذا البحر عن طريق المعلومات التى توفرت لديه عن طبيعة البحر الأحمر ومراكزه المختلفة وحركة التجارة فيه، فضلا عن تعرفه على امكانات القوى المسيطرة عليه، والقوى التى يمكن استقطابها إلى جانب البرتغاليين كالأحباش آنذاك[5].

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار، جـ٢، ص ٢٦.

(2) Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, PP. 53 - 60.

(٣) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى، ص ١٤.

(٤) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥م، ص ٧٢ – ٧٣.

(5) Wilson, A. : The Persian Gulf P. 120.

وعندما أرسل المماليك حملتهم الثانية لضرب البرتغاليين فى مياه الهند والتى انطلقت من ميناء السويس، ومرت بميناء جده، ثم وصلت الى سواحل اليمن فى منتصف شهر يونيو سنة ١٥١٦م (٩٢٢هـ)، فقد اضطر قائدها حسين الكردى أن يقتحم المدن التهامية ومن بينها زبيد[١]. فى اليوم الحادى والعشرين من نفس الشهر، واضطدم بالطاهريين هناك وانتهز فرصة صراعهم مع الامام الزيدى شرف الدين من جهة، ومع أشراف جيزان من جهة أخرى، وأبقى قوة مملوكية على رأسها الأمير برسباى فى تهامة، ثم اتجه بعد ذلك الى عدن التى استعصت سيطرته عليها وظلت فى أيدى الطاهريين حتى استولى عليها الأتراك العثمانيون فى سنة (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) وقد رأى المماليك أن قوتهم لن تسمح لهم بمهاجمة البرتغاليين فى مياه الهند آنذاك، فاكتفوا باتخاذ سواحل تهامه اليمن كخط دفاع أول عن البحر الاحمر، بينما اعتبروا جدة خط الدفاع الثانى. هذا فى الوقت والذى تمكنت فيه قواتهم فى اليمن من دخول صنعاء بعد أن قضوا على السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى فى اليوم الخامس عشر من مايو سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ)[٢]. وكانت هذه الجهود هى أقصى ما بذله المماليك لتأمين الحرمين الشريفين والبحر الأحمر من الخطر البرتغالى. ولا شك أن خطة المماليك واستراتيجيتهم لتأمين الحرمين الشريفين والبحر الأحمر التى كانت ترتكز على تدعيم سيطرتهم فى جهات هذا البحر، واتخاذ عدن قاعدة لهم فى جنوبه، هى نفس الخطة والاستراتيجية التى اتبعها العثمانيون فيما بعد أثناء سيطرتهم على اليمن فى الفترة من (٩٤٥ - ١٠٤٥هـ / ١٥٣٨ - ١٦٣٥م)[٣].

---

(1) Ross, E., D. : The Portuguese in India and Arabia Between 1507 - 1517, Journal of The Royal Asiatic Society, London, Part IV. October 1921, P. 560.

(٢) يحيى بن الحسين : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن، مخطوطة ، ص ١٦ (أ).

(٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المرجع السابق، ص ٨٩.

## دور الاتراك العثمانيين فى مواجهة الغزو البرتغالى الصليبى :

كان على العثمانيين بعد أن ورثوا حكم السلطنة المملوكية فى سنة (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) أن يحملوا لواء الحرب بأنفسهم ضد الأسبان فى البحر المتوسط وخاصة فى جانبة الغربى، وضد البرتغاليين فى البحار الشرقية وخاصة فى البحر الأحمر. وكان العثمانيون بذلك يحاولون تأمين الحرمين الشريفين ومعالجة أهم المشكلات السياسية والاقتصادية التى واجهوها فى العالم العربى بعد أن حول البرتغاليون طريق التجارة العالمية عنه الى ط ريق رأس الرجاء الصالح[١]. وكان البرتغاليون يواصلون ارسال حملاتهم البحرية سنويا الى البحر الأحمر لمهاجمة ميناء جدة الى ميناء مصوع لتنسيق التعاون بينهم وبين الأحباش[٢]. كما وجه البرتغاليون اسطولا يقوده «دى سلفيرا» إلى عدن من جديد وأجبروا حاكمها على عقد معاهدة نمصت على أن تدوفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين، وأن تفتح ميناءها لاستقبال سفنهم، وعلى أن يسمح لسكان عدن بحرية الملاحة بشرط عدم توجههم الى ميناء جدة، وتم ذلك فى شهر فبراير سنة ١٥٣٠م (٩٣٧هـ)[٣].

وتجدر الأشارة الى أن حاكم عدن الأمير مرجان الذى عقد خليفته المعاهدة المشار اليها مع البرتغاليين كان قد أرسل رسالة الى السلطان العثمانى سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٧هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م) كتبها على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى كان قد قتل أثناء صراعه مع المماليك موقع عليها من قبل بعض الفقهاء والتجار فى عدن يؤكدون ما جاء بها، واشتكى فيها من أعمال المماليك فى اليمن مما اضطره الى مهادنه البرتغاليين حتى لا يعرض

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثورة عسير، ١٨٦٤ - ١٨٦٦، ص ٩٣.

(2) Marston, T. E. : Britain's Imperial Role in The Red Sea Area, P. 23.

(3) Kammerer, A. : Op. Cit., Tome II, P. 288.

عـدن لعدوانهم[1]. كما أرسل حاكم عدن الذى عقد المعاهدة المشار اليها هو الآخر رسالة الى السلطان سليمان القانونى (٩٢٧ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) يبلغه بالدخول فى طاعته. وكان يهدف من وراء ذلك أن يقوى من جانبة بالاستعانة بهذه القوة الاسلامية المتمثلة فى السلطنه العثمانية ليتمكن من مواجهة البرتغاليين اذا هاجموا عدن من جديد[2]. وإلى جانب دعوة القوى المحلية فى الجزيرة العربية للعثمانيين لمساندتهم ضد الخطر البرتغالى، فضلا عن رغبتهم فى اعادة فتح الطرق البحرية التجارية وتأمينها ضد هذا الخطر، فقد كان أمام العثمانيين سبب آخر يجعل الحرب مع البرتغاليين ضرورة حتمية، وهو تحالفهم مع أعدائهم الشيعة الصفويين فى فارس الذين كانوا على عداء مذهبى مع الدولة العثمانية، فضلا عن حرص العثمانيين على الدفاع عن الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ضد الخطر البرتغالى لينالوا بذلك شرف حماية الحرمين الشريفين بما يعزز مكانتهم لدى العالم الاسلامى.

وقد اقتضت استراتيجية العثمانيين لمواجهة الخطر البرتغالى ضرورة السيطرة على اليمن لموقعه المتحكم فى مضيق باب المندب من جهة[3]. ومد نفوذهم الى العراق مما أدى الى دخول أمراء البصرة والقطيف والبحرين فى طاعة الدولة العثمانية فى أعقاب فتح العثمانيين لبغداد فى سنة (٩٤١هـ / ١٥٣٤م) من جهة أخرى، بحيث أصبح العثمانيون يواجهون البرتغاليين ومباشرة فى البحر الاحمر والخليج العربى على السواء أنذاك، ولاشك أن هذه الاستراتيجية تمكن العثمانيين من

---

(١) بامخرمه : أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن على : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر، مخطوطة، جـ٣، ق٢، ص ١٢٠٥ - ١٢٠٦.

(2) Serjeant, R. B. : Op. Cit., PP. 55, 59.

(٣) الهمدانى، ابو محمد الحسن بن أحمد يعقوب : صفة جزيرة العرب، ص ٥١.

- الواسعى، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن، ص ٨.

إمتلاك موطئ صالح للوثوب على البحرية البرتغالية فى البحار الشرقية[1] . وإوقامة حزام أمنى حول الحرمين الشريفين ناحيتى الشرق والغرب، ويبقى الربع الخالى درعا واقيا للحرمين الشريفين من ناحية الجنوب فى مواجهة القوة البحرية الغاشمة للبرتغاليين.

وبناء على ذلك فقد وجه العثمانيون حملة بحرية إلى جنوب البحر الأحمر بهدف ضرب البرتغاليين فى مياه الهند عام (٩٣٣هـ / ١٥٢٦م) تكونت من عشرين سفينة، غير أنها لم تزد عن أن تكون حملة استطلاعية نجحت نسبياً فى القضاء هعلى بعض القيادات المملوكية المناوئة فى اليمن مما مهد السبيل أمام العثمانيين فى السيطرة عليها[٢] . غير أن تلك الحملة لم تتمكن من القيم بعمل إيجابى يذكر فى الهند ضد البرتغاليين الذين قويت شوكتهم هناك نتيجة للامدادات المستمرة لهم من جهة، ولتحالفهم ومع الصفويين من جهة أخرى، ولهذا وجه العثمانيون حملة قوية بقيادة سليمان الخادم أبحرت من ميناء السويس فى ٢٧ يونيو سنة ١٥٣٨م (٩٤٥هـ) متجهة الى جنوب البحر الأحمر بهدف الوصول الى الهند لمواجهة الخطر البرتغالى. وقد اتصل سليمان الخادم بالأمراء الحاكمين فى جهات البحر الأحمر وبحر العرب وخاصة أمراء الساحل اليمنى مثل أميرى عدن والشحر طالبا إليهم إعلان ولائهم للدولة العثمانية. وقد قبل سلطان الشحر بدر الطويرق الدخول فى طاعة العثمانيين، بينما راوغهم عا.مر بن داود الطاهرى حاكم عدن مما كان سببا فى قتله عقب إحتلالهم لها فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ / اليوم الثامن من أغسطس سنة ١٥٣٨م[٣] . بل إن سليمان الخادم

---

(١) ابن داعر، عبد الله بن صلاح الدين بن داود : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية، مخطوطة، جـ١ ، ق١ ، ص ١٨٧ ب.

(٢) ابن داعر : المصدر السابق، مخطوطة، جـ١ ، ص ١٨٨ (أ).

(1) Playfair, R. L. : Op. Cit., P. 101.

قد أمر كذلك بقتل كل بقى من آل طاهر [1]. كما أمر بمصادرة ممتلكاتهم بحجة أنهم اتفقوا مع البرتغاليين وقبلوا تسليم عدن إليهم، وقد أنكر كثيرون من المؤرخين هذه التهمة عن الطاهريين حيث اضطروا أمام مدافع البرتغاليين وسفنهم أن يهادنوهم حتى تصل إليهم المساعدات العثمانية[2]. على أن سليمان الخادم بعد أن حاصر قلعة «ديو» البرتغالية على الساحل الغربى للهند قرر رفع الحصار، بعد أن أدخل عليه نبأ وصول نجدة برتغالية الى هناك، والعودة الى سواحل الجزيرة العربية وذلك فى اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٥٣٨ (٩٤٥هـ)[3]. وبذلك اكتفى العثمانيون باتمام فتح السواحل اليمنية حتى يمكن عن طريقها تأمين الحرمين الشريفين والبحر الأحمر من أقصى الجنوب من الخطر البرتغالى آنذاك[4].

بل أن العثمانيين رأوا من واجبهم فى نفس الوقت مواجهة النشاط البرتغالى المتزايد فى الخليج العربى. وكان البرتغاليون قد سبقوا العثمانيين فى الوصول الى السواحل الغربية للخليج منذ مطلع القرن (العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى) وسيطروا على مسقط وهرمز والبحرين بهدف سد طريق التجارة الشرقية الذى كان يمر بالخليج والعراق والشام ويصل الى البحر المتوسط ومنه الى الموانى الأوربية. وقد زاد من خطورة الوجود البرتغالى فى الخليج العربى آنذاك اتفاقة وتحالفة مع الصفويين فى فارس مما شكل تهديداً خطيراً للدولة العثمانية. وكان العثمانيون قد سيطروا على شمال العراق الذى شمل الموصل وديار بكر عقب انتصارهم على الصفويين فى موقعه جالديران سنة (٩٢٠هـ / ١٥١٤م)، بينما أعلن ذو الفقر حاكم بغداد آنذاك انفصاله عن الدولة الصفوية وولاءه للسلطان سليم الاول

---

(١) الجرافى، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن، ص ٨٨.

(٢) أحمد ،حسين شرف الدين : اليمن عبر تاريخ، ص ٢٦٢.

(3) Denison, R, E, : The Portuguese In India and Arabia, J. R. A. S., Part 1., January 1922, P. 7.

(٤) العقيلى، محمد بن أحمد عيسى العقيلى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ، جـ ١، ق ٢، ص ٣٠٧.

وخطب باسمه على منابر بغداد[1]. غير أن «طاهماسب» أبن اسماعيل الصفوى تمكن من السيطرة على بغداد عام (٩٣٦هـ / ١٥٣٠م) وأعاد الحكم الصفوى اليها. ولهذا وجه السلطان سليمان القانونى حملة كبرى بقيادة ابراهيم باشا، زحفت الى حلب واستولت بعد ذلك على العاصمة الصفوية تبريز للمرة الثانية، ثم سيطرت على أذربيجان، وزحفت بعد ذلك الى بغداد التى دخلت تحت السيطرة العثمانية فى سنة (٩٤١هـ / ١٥٣٤م)[2]. وقد أعلن حاكم البصره راشد بن ومغامس ولاءه للعثمانيين عقب دخولهم بغداد، غير أن العثمانيين رأوا بعد ذلك ضرورة السيطرة على البصرة وتم لهم ذلك فى سنة (٩٥٣هـ / ١٥٤٦م). كما زحفوا على الاحساء فى عام (٩٦٣هـ / ١٥٥٥م) حتى يقفوا فى وجه الخطر البرتغالى الذى كان قد سيطر على هرمز ومسقط والبحرين[3]. كما سبق أن أشرنا. ولهذا فإن فتح العثمانيين للعراق والاحساء كان يشكل ضرورة من ضروريات استراتيجية تأمين الحرمين الشريفين والبلاد العربية التى دخلت تحت السيطرة العثمانية من الخطر البرتغالى المتحالف مع الصفويين، ومحاولة ايجابية من الجانب العثمانى لتأمين طريق التجارة العالمية من ناحية الجبهة الشرقية لمنطقة نفوذهم فى الخليج العربى بأرسوال حملات مباشرة لضرب مراكز البرتغاليين فى عام (٩٦٠هـ / ١٥٥٢م)، فإن اجلاء البرتغاليين عن السواحل الغربية للخليج العربى لن يتم الا على أيدى اليعاريه وخاصة بعد أنضمام البرتغال إلى أسبانيا عام (٩٨٨هـ / ١٥٨٠م) وهزيمه الأسول الأسبانب «الأرمادا» أمام اسطول انجلترا فى عام (٩٩٧هـ / ١٥٨٨م). وعلى أية حال فإن للعثمانيين الفضل فى حماية الاحساء

(١) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : الشعوب الاسلامية، ص ١٣٧.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : تاريخ العرب المعاصر، مصر والعراق، ص ٣٣٧.

(٣) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : المراحل الأولى للوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة العربية، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية بالدوحة – قطر ٢١ – ٢٨ مارس ١٩٧٦، ص ٦٢٦، ٦٢٩.

واغلاق العراق فى وجه الأطماع البرتغالية فى ذلك الحين، وتأمين الحرمين الشريفين من ناحية الشرق، وتسيير التجارة البرية عبر العراق لتخفف من وطأة تحول التجارة العالمية على أيدى البرتغاليين الى رأس الرجاء الصالح. وبذلك شكل العثمانيون حزاما أمنيا حول الحرمين الشريفين من ناحية الغرب باغلاق البحر الأحمر ومن ناحية الشرق بحماية العراق والاحساء، بينما شكل الربع الخالى درعا واقيا للحرمين الشريفين من ناحية الجنوب أمام القوة البحرية البرتغالية الصليبية المعادية.

أما بالنسبة لاستراتيجية العثمانيين فى تأمين الحرمين الشريفين عقب هذا الزحف التأمينى السريع فقد تمثل فى حرص العثمانيين عقب فتحهم لليمن فى عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) على ابقاء عدن فى قبضتهم عن طريق ترك حامية قوية هناك لتدعيم سيطرتهم عليها[١]. وعندما تعرضت هذه الحامية الى تمرد بعض القبائل فقد وجهت الدولة العثمانية أسطولا قوياً يقوده «برى باشا» لاقرار الأمور فى عدن فى سنة (٩٥٨هـ / ١٥٥١م)[٢]. وتمكن من طرد البرتغاليين الذين كانوا قد انتهزوا الفرصة ونفذوا الى هناك، كما أبقى «برى باشا» حامية قوية فى عدن وأبحر عائداً رى مصر[٣]. وقد ارتبطت استراتيجية العثمانيين للحفاظ على أمن الحرمين الشريفين والبحر الأحمر بدعم وجودهم فى عدن باعتبارها قاعدة أساسية لتحقيق ذلك.

بل أنهم حرصوا كذلك على تحصين ميناء جدة من جهة، كما دعموا وجودهم فى مصوع وسواكن وجعلوهما تحت اشراف حاكم جدة من جهة أخرى، كما استعانوا بأحد الزعماء الوطنيين الأفارقة وهو ونائب «أركيكو Arikiko» للمعاونة فى أعمال الحكومة بمصوع، وأستعانوا أيضاً بآخر مثله فى

(1) Sanger, R. : The Arabian Peninsula, P. 220.
(2) Hunter, F. M. : Op. Cit., P. 163.
(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) : فتح العثمانيين عدن عام ١٥٣٨م، ص ١٢.

سواكن، وكلفوهما بجباية الضرائب من الوقبائل المنتشرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر[١]. وكان العثمانيون يهدفون الى دعم وجودهم على الساحلين الشرقى والغربى للبحر الاحمر ضمانا لمنع تسرب القوى البرتغالية الى الحجاز وتهديد أمن الحرمين الشريفين.

بل أن العثمانيين قد حرصوا كذلك على تدعيم وجودهم فى اليمن كلما أمكن كما حدث فى عهد السلطان سليم الثانى (٩٧٤ - ٩٨٢هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤م). وذلك لتثبيت حكمهم هناك أمام مقاومة الزيدية من جهة، وللتصدى للنشاط البرتغالى المتزايد فى المحيط الهندى من جهة ثانية، هذا فضلا عن محاولة اجتذاب تجارة الهند والشرق الاقصى من جهة ثالثة. ولهذا أرسل العثمانيون حملة سنان باشا[٢] . التى وصلت الى اليمن فى سنة (٩٧٦هـ / ١٥٦٩م) وأعتبرت فتحا عثمانياً جديداً لتلك البلاد[٣]. وقد أوظهرت هذه الحملة أن الدولة العثمانية ظلت تواصل مهمتها حتى هذا التاريخ فى التصدى للبرتغاليين فى البحار الشرقية[٤]. يتدعيم مركزهم فى اليمن آنذاك، وتأمين الحرمين الشريفين والبحر الاحمر من أقصى الجنوب[٥].

بل أن نضال العثمانيين ضد البرتغاليين قد امتد كذلك الى الساحل الشرقى لافريقيا فى عهد السلطان العثمانى مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٤هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٥م) حيث أرسل القائد البحرى «ميراك بك Mirale Bey» فى سنة (٩٩٧هـ / ١٥٨٨م) بقوة عثمانية لتخليص البلاد الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقى لافريقيا من السيطرة البرتغالية. وقد قوبل هذا القائد العثمانى

---

(1) Plowden, W. : Travels in Abyssinia and the Galla Eountry, PP. 2.3.

(٢) قطب الدين النهروالى : المصدر السابق، ص ١٣١.

(3) Hammer, J. : Histoire de L' Empire Ottoman, Tome 6, P. 367.

(٤) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق، ص ٢٧٨.

(٥) عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات فى تاريخ العرب الحديث، ص ١٠٣.

بالترحاب من قبل سكان الامارات الاسلامية فى «مدغشقر» وبراوا و«قسيمَايو» اذ نظروا اليه ن ظروه المخلص من يد الاجنبى، وفضلوا التبعية للعثمانيين المسلمين عن الخضوع للسيطرة البرتغالية[١]. وهكذا اتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السواحل الافريقية الشرقية بما فيها موانى الساحل الغربى للبحر الاحمر صوراً متعددة، منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون الممالك الاسلامية المحيطة بهضبة الحبشة والتى سميت بممالك الطراز. بينما كان البرتغاليون يؤيدون الحبشة ويحرضونها على محاربه الممالك الاسلامية المحيطة بها. وقد ظل هذا الصراع قائماً حتى منتصف القرن السابع عشر عندما فترت الحمية نسبياً لدى الجانبين البرتغالى والعثمانى وضعفت قواهما. اذ اضطر البرتغاليون الى التنازل عن مكانتهم فى البحار الشرقية لمنافسيهم الهولنديين ولاانجليز والفرنسيين الذين أسسوا شركات استعمارية لهم فى المحيط الهندى.، بينما قرر العثمانيون الرحيل عن اليمن والاكتفاء بسيطرتهم على الحجاز فى سنة (١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م)، ولم يبق تحت سيادتهم سوى بعض الثغور الافريقية فى جنوب البحر الأحمر كميناء مصوع. وقد فعل العثمانيون ذلك بعد أن خبا نجم البرتغال فى البحار الشرقية وفقدت استقلالها بانضمامها إلى أسبانيا فى عام (٩٨٨هـ / ١٥٨٠م) وهزيمه الأسول الاسبانى الأرمادا أمام الاسطول الانجليزى فى عام (٩٩٧هـ / ١٥٨٨م)[٢]. وبدأت تحل محل البرتغاليين قوى أوروبية جديدة لم يكن الهدف الصليبى هو غايتها وأن اتخذته وسيلة لتحقيق مآربها، عن طريق انشاء الشركات الاستعمارية الاحتكارية[٣]. مثل هولندا التى دخلت حلبة الصراع فى البحار الشرقية لتحقيق أهدافها الاستعمارية عندما أسست شركة الهندية الشرقية الهولندية The Dutch East India Company فى سنة (١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م)[٤]. ثم أعقبتها انجلترا التى أسست «شركة الهند

(1) Coupland, R. : Op. Cit., P. 59.
(2) Fisher, H. A. L. : History of Europe, Vol. 1., P. 605.
(٣) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى، ص ٢١.
(4) Hoskins. H. L. : British Routes to India. PP. 4, 5.

الشرقية الانجليزية The East India Company في سنة (١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م)[1]. بينما كانت قد أنشأت من قبل «شركة الليفانت The Levant Company» في سنة (٩٨٩هـ / ١٥٨١م)، التي كانت لها اختصاصات سياسية وتجارية واسعة في شرقي البحر المتوسط[2]. وكذلك أسست فرنسا «شركة الهند الشرقية الفرنسية Compagine des Indes » في سنة (١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م) والتي احتكرت نقل التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقية ومدغشقر عن طريق رأس الرجاء الصالح[3]. مما أدى في النهاية الى تحطيم الافكار البرتغالي لتجارة الشرق الذي استمر قرابة قرن من الزمان منذ أن وصلت السفن البرتغالية الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م).

وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية ظلت تحافظ على إغلاق البحر الأحمر في وجه السفن الأوربية طوال القرن السادس عشر وتعارض في فتحه كطريق ملاحي، حفاظاً على آمن وسلامة الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز حتى بعد زوال الخطر البرتغالي. وإن كانت الدولة العثمانية لم تجد غضاضة بعد ذلك في السماح للسفن التابعة لبعض القوى الاوروبية الجديدة والتي لم تعلن صراحة عداءها وتهديدها للأماكن المقدسة، بنقل التجارة عبر مضيق باب المندب وحتى ميناء جده فقط أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادين، لتشكل بذلك حصيلة للحجاز من العوائد الجمركية التي كانت تكفي لسد نفقات رعاية الحرمين الشريفين، ولا تُحمِّل الدولة العثمانية مثل هذه النفقات، في وقت كانت تنؤ فيه ميزانيتها بأعبائها الثقيلة[4]. ولهذا فقد ظلت الدولة العثمانية حَريصة على تطبيق هذا

(1) Phillips, C. H. : The East India Company 1784 - 1834, P. 15

(2) Epstein, M. : Early History of The Levant Company, P. 52.

(3) Hoskins, H. L. : The Growth of British Interest in The Route to India, (J. O. F. H.) P. 169.

(4) Rabath E. : Mer Rouge et Golfe d' Aqaba L' evolution du Droit International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962., PP. 21.

المبدأ حتى نهاية القرن الثامن عشر، مما جعلها تحتج بشدة لدى بريطانيا لوصول بعض سفنها إلى السويس آنذاك[١]. وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية تبذل جهودها بصفة دائمة لاحياء طريق التجارة القديم عبر البحر الأحمر ومصر والبحر المتوسط لنقل التجارة والمسافرين بين انجلترا والهند آنذاك، حتى حصل الانجليز على اتفاق مع على بك الكبير (١١٨٣ – ١١٨٧هـ / ١٧٦٩ – ١٧٧٣م) بحقهم فى تجاوز جدة شمالا بمراكبهم الى السويس، بعد أن كان محرما عليهم ذلك[٢]. وقد ظل الحال على ذلك فى عهد خلفه محمد بك أبى الذهب (١١٨٧ – ١١٨٨هـ / ١٧٧٣ – ١٧٧٤م) وتابعهم الفرنسيون فى الحصول على مثل هذه الامتيازات بعد قليل[٣].

وعلى آية حال فقد شكل العثمانيون تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الاسلامى بوجه عام والأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز بوجه خاص طوال القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين، والسادس عشر والسابع عشر الميلاديين، حتى أفل نجم البرتغاليين فى البحار الشرقية فى نهاية القرنين الأخير. وقد جاءت هذه التغطية الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة فى وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سياسى واستراتيجى نتيجة لانقسام المماليك وفشلهم فى صد الغزو البرتغالى الذى كان يهدد المنطقة من جهة، هذا فضلا عن انهيار الاوضاع الاقتصادية لديهم من جهة أخرى، ويعد هذا الدور أكبر مكرمه للعثمانيين فى جوهر علاقاتهم بأشقائهم المسلمين فى العالمين العربى والاسلامى، كما يؤكد وحدة المنطقة العربية والاسلامية فى مجال التخطيط الاستراتيجى لقضية أمنها وسلامتها.

---

(١) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ١، ص ١٠ – ٢١.

(2) Aitchison, C. U. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads, Relating to India and The Neighbouring Countries Vol XI. P. 123.

(3) Marston, T. E. : Op. Cit., PP. 31, 32.

بل أن العثمانيين حرصوا أثناء الفترة المذكورة على تنشيط المنطقة العربية والاسلامية اقتصاديا عن طريق احلال الطرق البرية محل الطرق البحرية المؤدية الى العالم العربى سواء من ناحية الشرق الآسيوى عبر العراق والشام والجزيرة العربية. أو من ناحية الجنوب من أواسط القارة الافريقية. وخاصة من الصومال واثيوبيا والسودان وصعيد مصر، أو من ناحية الغرب من أرجاء المغرب العربى من طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش، فضلا عن النطاق الداخلى للبحر الأحمر حتى مضيق باب المندب، الذى أمنه الوجود العثمانى فى اليمن، بحيث مر عبرها قدر نسبى من التجارة العالمية. وقد ساعد على تنشيط حركة التجارة العالمية فى الطرق البرية والبحرية المشار اليها رحلة الحج السنوية الى الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ذهابا وعودة، على الرغم من الحصار البرتغالى للمنافذ البحرية المؤدية للمحيط الهندى أثناء القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى.

وكان العثمانيون قد مارسوا نشاطا دبلوماسياً ملحوظاً مع بعض الدول الأوروبية انتهى بعقدة عدة معاهدات تجارية مع تلك الدول التى أبدت رغبتها فى تبادل التجارة مع البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية. وقد رحب العثمانيون فى تلك المعاهدات برعايا تلك الدول مع ضمان الأمن وحرية الحركة لهم وتبادل المنفعة معهم بروح التسامح الاسلامى الذى تميزت به الدولة العثمانية فى معاملة رعاياها والرعايا الآجانب من أهل الذمه، كما نصت تلك المعاهدات على التعامل بالمثل بالنسبة لاستقبال الرعايا العثمانيين وتأمينهم فى ديار الدول الأوربية المذكورة، فى وقت تكافأت فيه الدول العثمانية فى قوتها مع تلك الدول. اذ عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع البندقية فى الثانى والعشرين من شهر المحرم سنة ٩٢٣هـ الموافق الرابع عشر من فبراير سنة ١٥١٧م لتشجيع البنادقة على القدوم الى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى فى جو من الطمأنينة والعدالة

والأمن[١] . كما عقد السلطان سليمان القانونى معاهدتين مع فرنسا أولهما فى عام (٩٣٥هـ / ١٥٢٨م) وثانيهما فى عام (٩٤٢هـ / ١٥٣٥م) فى عهد الملك فرانسوا الأول لتحقيق نفس الغاية[٢] . كما تبادل السلطان مراد الثالث (٩٨٢ – ١٠٠٥هـ / ١٥٧٤ – ١٥٩٦م) الرسائل مع الرملكة اليزابيث الأولى ملكة انجلترا[٣] . انتهت باصدار السلطان فى شهر يونيو سنة ١٥٨٠م (٩٨٨هـ) براءة تضمن للتجار الانجليز حرمة التبادل التجارى مع البلاد التابعة للدولة العثمانية مع اقرار التعامل بالمثل بالنسبة للتجار العثمانيين[٤] .

وتوضح الوثائق المحفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية والتى تخص محكمة الاسكندرية الشرعية والعائدة الى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى استمرارية النشاط التجارى النسبى فى العالم العربى فى ذلك الحين، على نحو ما توضحه موضوعات هذه الوثائق فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية. وهى تعد نماذج لمئات الوثائق التى تضمها سجلات المحاكم الشرعية أثناء القرن العاشر الهجرى الشرعية أثناء القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى، كما أنها تتعلق بتجارة نوعيات عديدة من سلع التجارة الشرقية التى تبادلها العرب عبر مصر مع الاوربيين الذى وفدوا اليها آنذاك، بالاضافة إلى تأخير وكالات تجارية لهم ومراكب ودواب لنقل التجارة، مع استخدامهم للعملات المعاصرة فى أوربا والشرق، هذا فضلا عما صاحب ذلك من نمو للعلاقات الاجتماعية الممثلة فى العديد من عقود الزواج ومختلف

(١) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ١، ص ١٠ – ٢١.

(٢) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ٢، ص ٧٠٦ – ٧٠٧.

(3) Epstein, M. : Early History of The Levant Company, P. 52.

(4) Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. II, PP. 7 - 9.

المعاملات الأخرى[١] .

غير أن هذا القدر من التجارة العالمية، وهذا النشاط التجارى النسبى الذى شهده العالم العربى أثناء القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين والسادس عشر والسابع عشر الميلاديين، لم يوفر للعرب وللمسلمين عموما نفس المستوى من الازدهار الاقتصـادى الذى عاشوا فى ظلاله الوارفه قرونها عديده قبل تحول التجـارة العـالمية الى طريق رأس الرجـاء الصـالح على أيدى البرتغاليين الصليبيين الاستعماريين آنذاك . ولكنه يؤكد حرص العثمانيين المسلمين على ايجاد الحلول الممكنة للعالم الاسلامى لمواجهة الحصـار الاقتصادى البرتغالى بأطماعة الاستعمارية الصليبية آنذاك .

(١) أرشيف الشهرى العقارى بالأسكندرية، محكمة الأسكندرية الشرعية دفتر سجل مبايعات رقم (١) ويعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ / ١٥٥١م)، ص ٢٤ مادة ١٠٩، ص ٣٦ مادة ١٦٦، ص ٣٨ مادة ١٧٥، ص ٤٨ مـادة ٢١٧، ص ٥٥ مادة ١٤٦، ص ٩٩ مادة ٤٧١، ص ١٠٢ مادة ٢٨٤، ص ٢٠٧ مادة ٩١٨، ص ٢٣١ مادة ١٠١٦، ص ٣٢٧ مادة ١٣٩٢، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩، ص ١٣٩، ص٣٣٩ مادة ١٤٣٧، ص ٤١٣ مادة ١٧٣٢، وهى وثائق تتعلق بنشاط التجار المغاربة بالاسكندرية ولم يسبق نشرها، وص ٩٢ مادة ٤٣٥، ص ٩٦ مادة ٤٥٦، ص ٦٠ مادة ٢٧٠، ص ١١٤ مادة ٥٤٠، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٤، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٣، ص ٣٢٠ مادة ١٣٦٤، وهى وثائق تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الأوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط فى مدينة الاسكندرية فى الفترة المذكورة.

**ثانياً : حركة الكشوف الاسبانية :**

تجدر الاشارة إلى أن حركة الكشوف الاسبانية قامت فى أول الأمر على اكتاف نفر من المغامرين، ووقفت منهم الهيئات الاسبانية المسئولة موقف المعارضة وعدم التشجيع. كما أن الكشف البرتغالى اتجه ناحية الشرق للوصول الى الهند، بينما اتجه الكشف الاسبانى جهة الغرب للوصول الى الشرق تحقيقا لنظرية كروية الأرض.

ويعتبر كريستوفر كولمبس بطل الكشوف الجغرافية الاسبانية، ولم يكن هذا المكتشف أسبانى الاصل، ولكنه جنوى الاصل تلقى علومه بجامعة بافيا ودرس الرياضة والفلك والجغرافيا وكان على صلة دائمة بحركات الكشوف الجغرافية، وكان ممن يؤمنون بكروية الارض وبامكان الوصول الى الشرق عن طريق الغرب، ولكن معلوماته التى استقاها عن رحلة ماركوبولو (١٣٧١ - ١٢٩١) إلى الصين أكدت له تلك النظريه ولكنة كان يظن بأن قارة آسيا تمتد الى الشرق أكثر من الواقع وان مجرد رحلة بحرية قصيرة ناحية الغرب توصله إلى الساحل الآسيوى.

ولم تكن الشجاعة تنقص كريستوفر كولمبس ليخرج تلك النظرية من حيز الخيال الى حيز الواقع، فتقدم الى جون الثانى ملك البرتغال بمشروعة هذا، وشكلت لجنة من الملمين بالشئون الجغرافية لبحثه ولكنها رفضته فيمم كولمبس وجهه شطر اسبانيا وعرض مشروعه على فرديناند وايزابيلا، ولكن رجال الدين رفضوه واتهموه بأنه مشروع خيالى، وقالوا بأن الانسان لا يستطيع أن يصدق بأن الناس فى الجهة مهيأه فى ذلك الوقت للقيام بمثل هذا العمل، نظرا لانشغال فرديناند وايزابيلا بمحاربة العرب.

مضى على هذا العرض ثمانى سنوات عاشها كولمبس فى سأم وملل الى أن احتضن مشروعه هذا أحد الكرادلة الاسبان، وتطوع بعرضه على الملكة ايزابيلا

والدفاع عنه، وقد بذل الكردينال جهده فى اقناع الملكة بفائدة هذا المشروع فى تحويل الهنود الى الديانة المسيحية، وفى الانفراد بثروة الهند، واوضح لها بأنها اذا لم تؤيد هذا المشروع فربما ايده ملك آخر وبذلك تضيع على اسبانيا تلك الفرصة الذهبية، وقد اقتنعت الملكة بوجهة نظره وكانت اكثر حماسا للمشروع من زوجها الملك فرديناند.

صدرت الأوامر بتعيين كريستوفر كولمبس اميرا للبحر وحاكما على المناطق التى يكتشفها وأن يمنح عشر الارباح من التجارة، كما تعهد هو بدفع ثمن نفقات الرحلة، ثم زوده بخطابات اعتماد الى امراء الشرق الذين يقعون فى دائرة اكتشافه.

كانت الرحلة الأولى التى بدأت فى أغسطس سنة ١٤٩٢ تتكون من ثلاث سفن مزوده بما يقرب من تسعين بحارا، وقد مرت الرحلة فى سيرها بجزر كناريا، ثم تركتها واتجهت غربا على أمل أن تجد اليابسة بعد رحلة قصيرة كما كان يعتقد كولمبس وكل البحارة المرافقين له. ولكن الرحلة طالت ووجد البحارة انفسهم فى بحر لجى متلاطم الامواج لانهاية له. فظنوا بأن كريستوفر كولمبس قد غرز بهم، وفكروا فى إلقائه فى البحر والتخلص منه. وكلما ازدادت حالتهم سوءا كلما اخذ كريستوفر كولمبس فى ملاطفتهم وفى ادخال الأمل على تلك النفوس اليائسة. واخيراً لاح لهم على البعد بعض الاشجار وفى المساء شاهدوا بعض الاضواء تنبعث من هذا المكان البعيد، فأيقنوا بأن الفرج آت لاريب فيه وأن وصولهم الى الأرض بات قاب قوسين أو أدنى، وقد وصلوا الى جزيرة سان سلفادور وركع رجال الرحلة لله شكرا، واخذوا يجوبون انحاء الجزيرة وقد ادهش منظرهم ولون بشرتهم سكان الجزيرة من الهنود الحمر الذين عاملوهم بلطف وود. وكان هؤلاء يقطنون اكواخا مرتبة نظيفة ويدخنون، وكانت هذه هى أول مرة يرى فيها الغربيون الدخان، فلم يكن لهم عهد به من قبل كذلك.

وقد واصل كولمبس سيره إلى جزيرة كوبا ثم سار إلى سان دومينيكو وبعدها بدأ فى العودة الى اسبانيا فى يناير عام ١٤٩٣ حيث وصلها فى مارس من نفس السنة واستقبل من مواطنيه استقبالا حافلا.

بدأت الرحلة الثانية على نطاق واسع اذ اشتملت على ١٧ سفينه وعدداً أكبر من البحارة. واصطحبت معها بعض الصناع ورجال الدين، وكذلك انواعا من الحيوانات وأخرى من النباتات، وخرجت الى عرض البحر فى سبتمبر سنة ١٤٩٣، ولم يواجه البحارة من العقبات مثلما شاهدوه فى المرة السابقة وقد وصلت الرحلة الى بعض جزر الهند الغربية، اخذ كولمبس فى تسميتها باسماء مختلفة. ووجد كولومبس أن الجنود الذين تركهم فى الرحلة السابقة داخل القلعة قد قتلوا ودمر الحصن نتيجة لسوء معاملتهم للوطنيين من الهنود الحمر، ولم تطل اقامته هناك فرجع الى اسبانيا مرة أخرى.

قام كولمبس بعد ذلك بعدة رحلات نذكر منها تلك الرحلة التى قام بها فى عام ١٤٩٨ والتى اكتشف فيها جزر الرأس الاخضر، ومنها سار غربا مارا بمنطقة خط الاستواء مدة ثمانية ايام عانى فيها البحارة الشئ الكثير من شدة الحر الى أن وصل الى جزيرة ترينيداد Trinidad وفى تلك الرحلة شاهد كرستوفر كولمبس اجزاء من القارة الامريكية ولكنه لم ينزل فيها وظنها جزيرة كبيرة. ولو قدر له النزول فى القارة الامريكية لنزل بأرض البرازيل ولكانت تلك المنطقة من املاك اسبانيا.

وقد راعه رؤية نهر الأورنيكو والارض المزدهرة اليانعة الممتدة على جانبيه والمزدحمة بأشجار الفواكة والنباتات المختلفة حتى أنه ظن بأنه على أبواب الجنة.

وفى عام ١٥٠٢ قام كريستوفر كولمبس برحلته الاخيرة التى وصل فيها الى أراضى امريكا الوسطى بالقرب من اقليم بنما.

ورغم تلك الجهودة الكبيرة التى قام بها كولمبس فى كشف جزر الهند الغربية

الغربية والقارة الامريكية، فلم ينعم بثمرة نجاحه، ووقع فريسه للحاقدين عليه الذين استطاعوا ايغار صدور رجال الحكومة الاسبانية عليه، فسجن وعذب ومات بعد ذلك بقليل فى عام ١٥٠٦.

**التنافس الاستعمارى بين البرتغال واسبانيا وظهور الخلافات بينهما :**

ونظراً لانفراد اسبانيا والبرتغال بحركة الكشوف الجغرافية فى ذلك الوقت قامت بينهما خلافات حول تقسيم مناطق النفوذ، فتدخل البابا اسكندر السادس لحل هذا النزاع واقترح فى عام ١٤٩٨ جعل خط طول ٣٥ حداً فاصلا بين ممتلكات كل من الطرفين. وبعد ذلك بقليل اتفق الطرفان فى معاهده تورد سلاس Tordesillas على نقل خط التقسيم الى ناحية الغرب قليلا ليتسنى للبرازيل الدخول فى حوزة البرتغال.

وفى سنة ١٥٠١ ارسل ملك البرتغال رجلا ايطاليا يدعى امريجو ليتعرف على مقدار الارض التى تقع فوق خط التقسيم. وقد استطاع امريجو الوصول الى شاطئ البرازيل وادرك بان تلك الارض ليست جزيرة ولكنها قارة عظيمة، واذاع تلك المعلومات الجديدة عند عودته الى البرتغال فأثار بذلك الاهتمام الشديد وتسابقت الدول الأوروبية الى ضم ما تستطيع ضمه من تلك القارة الجديدة. ولهذا فقد سميت القارة الجديدة باسمه.

وقد تجدد النزاع مرة ثانية بين اسبانيا والبرتغال، ورأت اسبانيا ان من مصلحتها ان يمتد خط التقسيم فى الناحية الاخرى من الكرة الارضية حتى يصل الهند، وقد تم هذا التعديل باتفاق الطرفين.

وقد رأت اسبانيا فى عهد ملكها شارل الخامس أن تنتهز فرصة هذا التعديل الجديد وأن تبعث بالرحالة ماجلان Magellan وهو شريف برتغالى الاصل كان يعمل فى خدمة الحكومة الاسبانية فى رحلة كشفية تضم جزر جديدة الى حيازه اسبانيا ، واقلع من البرتغال فى سبتمبر سنه ١٥١٩ متجها نحو الجنوب الغربى فمر

بالشواطئ الشرقية لامريكا الجنوبية ماراً بمضيقها الجنوبى الذى سمى باسمه. ثم سار فى المحيط الهادى متجها نحو الشمال الغربى إلى أن وصل الى جزر الفلبين فى سنة ١٥٢٠ حيث قتل فى مناوشات مع الوطنيين.

وقد واصل بحارته الرحلة فطافوا حول افريقية حيث وصلوا الى اشبيليه فى ٨ سبتمبر سنة ١٥٢٢ بعد غيبة حوالى ثلاث سنوات، فقد خلالها اربعة اخماس السفن وعاد من رجالها ١٨ رجلا من مجموعهم البالغ ٢٧٠.

وقد أكدت تلك الرحلة بما لا يترك مجالا للشك كروية الأرض وكشفت عن معظم اجزاء العالم الجديد، ولم يبق بعد ذلك سوى استراليا والمناطق القطبية.

### ثالثا : الكشوف الانجليزية والفرنسية :

دخلت انجلترا ميدان الكشف الجغرافى فى عام ١٤٩٧ بارسال «جون كابوت John Cabot» فى رحلة الى الهند متجها نحو الشمال الغربى، فوصل الى نيوفوندلند وفلوريدا والساحل الشرقى للولايات المتحدة الأمريكية الآن.

كما ارسل ملك فرنسا «جاك كارتييه Jacques Cartier» الى الهند متخذا نفس الطريق فكشف عن مصب نهر سانت لورانس سنة ١٥٣٤ وكذلك كندا وحوض نهر المسيسبى.

وستواصل اسبانيا توسعها فى امريكا الجنوبية عن طريق كورتز Cortes الذى تمكن من الاستيلاء على بلاد المكسيك. وكذلك زميله بيزارو Pizzaro الذى اتجه الى بيرو فى امريكا الجنوبية حيث وجد هناك شعبا راقيا عريقا فى الحضارة يدعى شعب الانكا.

واستطاع بيزارو أن يستغل الخلافات القائمة بين زعماء هذا الشعب فى توطيد النفوذ الاسبانى واستغلال البلاد استغلالا قائما على العنف واستنزاف مواردها.

ويمكننا القول بأن حركة الكشوف الجغرافية قد اثرت فى تاريخ أوربا فى العصر الحديث تأثيراً خطيراً. فمن الناحية الاقتصادية كان لاستغلال اسبانيا لمناجم الذهب في امريكا استغلالا شديدا اثره فى الحالة الاقتصادية فى أوربا.

كما أدت تلك الكشوف أيضاً الى تحول الثروة إلى ايدى طبقة جديدة هى طبقة التجار وسيكون لهذه الطبقة دوراً هاما فى تطور نظم الحكم فى العصر الحديث.

أما من الناحية السياسية فقد ترتب على حركة الكشوف هذه نشأة الاستعمار وتنافس الدول الأوروبية تنافسا خطيراً على السيطرة على العالم الجديد، وسيكون الاستعمار حجر الزاوية فى السياسة الأوربية فى العصر الحديث وفى العلاقات بين الدول.

وستدخل هذا الميدان اخيرا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دولتان حديثتان هما ايطاليا والمانيا، وستدخل هاتان الدولتان مع الدول التى سبقتها الى هذا الميدان وخصوصا انجلترا فى صراع عنيف لاستخلاص بعض تلك المستعمرات.

وتجدر الاشارة الى أن الجهود الكشفية التى قام بها كريستوفر كولمبس والتى كانت موضع تقدير الامريكيين طوال العصور الحديثة، قد تعرّضت لانتقاد شديد على أيدى كتاب كثيرين فى تاريخنا المعاصر، نظرا لما صاحبها من عدوان وحشى على السكان الاصليين فى الامريكتين، وما أعقب ذلك من اضطهاد وتفرقة عنصرية عانوا منها طوال العصور الحديثة، حتى تمكنوا من خلال نضال طويل ومرير من نيل حقوقهم الانسانية فى التاريخ المعاصر.

وقد انعكس هذا الموقف على الاحتفالات التى كان من المزمع اقامتها بمناسبة مرور خمسمائة عام على اكتشاف الأمريكتين والتى كان سيصاحبها تكريم كولمبس وأمثاله، فأوقفت هذه الاحتفالات فى الامريكتين، كما صرفت الأمم المتحدة النظر عن اقامتها تقديراً لمشاعر الملايين من سكان الامريكتين الاصليين، الذين أصبحت لهم كلمتهم المسموعة لدى الرأى العام العالمى.

## أثر حركة الكشوف الجغرافية على العالم الجديد حتى قيام الثورة الامريكية:

يتميز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بميزة قد لا تتوفر فى تاريخ كثير من الدول، وهى أن هذا التاريخ لا يكتنفه الغموض بالقدر الذى قد يجده المؤرخون فى تاريخ كثير من الدول الأخرى. وهذا يرجع الى أن القارة الأمريكية نفسها لم تكتشف الا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى بعد أن قطع العالم القديم شوطا بعيدا فى ميدان الحضارة الانسانية. ولهذا تمكن المؤرخون من تسجيل معظم وقائع التاريخ الأمريكى بكل ما فيها من تفصيلات.

ورغم أن الولايات المتحدة الأمريكية لم يمض على استقلالها سوى قرابة قرنين من الزمان، وهى فترة وجيزة فى حساب الزمن، غير انها اصبحت اكبر قوة انتاجية على وجه الأرض، وتحتل الآن مكانة مرموقة فى المجتمع الانسانى وفى النظام الدولى الجديد فى عالمنا المعاصر، خاصة بعد أن غيرت من سياستها الخارجية، من موقف الحياد ازاء القضايا الأوربية والعالمية، الى التدخل الحاسم فى شئون العالم القديم بوجه عام. وقد حدث هذا التدخل بشكل تدريجى على نحو ما سوف نوضحه فى دراستنا.

واذا تتبعنا المراحل الأولى لحركة الكشوف الجغرافية فى القارة الامريكية، فاننا سنجد أن «كريستوفر كولمبس». قد استطاع أن يصل الى القارة الأمريكية فى العقد الاخير من القرن الخامس عشر بعد أن كلفته ملكة اسبانيا ازابلا وأمدته بالرجال والعتاد نظير تعهده لها بادخال وثنيى «جزر الهند الشرقية» – كما كان يعتقد حينذاك – فى الديانة المسيحية الكاثوليكية. وكان «كريستوفر كولمبس» قد ابحر من اسبانيا فى اغسطس ١٤٩٢ يقود ثلاثة مراكب عليها تسعون بحارا، واتجه ناحية الغرب عبر المحيط الاطلسى الى أن استطاع أن يصل فى ١٢ أكتوبر عام ١٤٩٢ الى احدى جزر الهند الغربية التى اطلق عليها اسم «سان سلفادور» كما وصل فى

تلك الرحلة أيضا الى جزيرة «كوبا» ثم بدأ فى العودة الى اسبانيا فى يناير من عام ١٤٩٣ فوصل اليها فى شهر مارس من نفس السنة حيث قوبل حينذاك بحفاوة بالغة. وقد قام «كريستوفر كولمبس» برحلة ثانية فى سبتمبر من عام ١٤٩٣ وكانت تتكون من سبع عشرة سفينة عليها عدد كبير من البحارة والخيول والحيوانات والنباتات المختلفة وبعض الصناع ورجال الدين. ووصلت هذه الحملة الى جزيرة من مجموعة جزر الهند الغربية ايضا اسماها جزيرة «جواد الوب Guadalope» ثم قام كريستوفر ايضا برحلة ثالثة فى عام ١٤٩٨ وصل فيها الى جزيرة «ترينداد» وفى هذ المرة رأى كولمبس القارة الأمريكية، ولكنه حسبها احدى الجزر الكبيرة. إما رحلته الاخيرة فكانت فى سنة ١٥٠٢ حيث وصل الى امريكا الوسطى بالقرب من منطقة بنما الحالية على وجه التحديد.

وعندما ارسل البرتغاليون الرحالة الايطالى «أمريجو Amergo» الى القارة الجديدة قدم هذا الرجل الايطالى تقريرا مسهبا بعد عودته من تلك الرحلة ذكر فيه ان الجزيرة التى اشار اليها «كولمبس» من قبل ليست الا قارة عظيمة . وقد احدثت تصريحاته هذه دويا فى الأوساط الأوربية ولفتت الانظار الى تلك القارة الواسعة مما سيكون له اثر كبير فى حركة الهجرة الى العالم الجديد. [1]

ومما لاشك فيه أن الاحوال السائدة فى اوربا فى نهاية القرن الخامس عشر أى فى مطلع العصر الحديث كانت تدعو بدرجة ملحة الى كشف اراضى جديدة خالية من تلك النظم المعقدة المضطربة التى عرفتها اوربا فى العصور الوسطى ولهذا فيمكن القول بأن كشف القارة الأمريكية كان تطورا طبيعيا للحياة التى سادت اوربا فى ذلك الوقت، وتلبية لرغبات ومطالب الحياة الأوربية فى تطورها الجديد وهى تجتاز عصر النهضة الأوربية.

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ١٣١ .

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التى بذلتها كل من اسبانيا والبرتغال فى ميدان الكشف الجغرافى بحيث اصبحتا تمتلكان امبراطوريتين واسعتين فى القارة الامريكية فان انجلترا التى جاءت متأخرة عنهما الى العالم الجديد قد نزلت هذا الميدان تعززها قوة بحرية عظيمة جعلتها تحقق نجاحا كبيرا. ففى عهد الملك هنرى السابع ارسلت انجلترا الى العالم الجديد حملة بحرية عى رأسها رجل ايطالى يدعى «جون كابوت Johm Cabot فى عام ١٥٩٧، فاستطاع هذا الرجل الأيطالى ان يصل الى شواطئ لبرادور، مما جعل انجلترا تدعى ملكيتها لامريكا الشمالية بناء على هذا الكشف. وكونت لها اول مستعمرة فى ولاية «فرجينيا». وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون قد كونوا لهم مستعمرة ثابتة الاركان فى «بورت رويال» على ضفتى« أنا بوليس» فى «نوفا سكوشيا» بكندا عام ١٦٠٤.

واذا كانت قوة انجلترا البحرية قد ساعدتها فى توطيد مركزها فى القارة الأمريكية، فقد ساعدها ايضا فى هذا المجال ظهور الطبقة الوسطى التى اشتغلت بالتجارة والتى بدأت تشترك فى الحكم الى جانب الطبقة الأرستقراطية مما ساعدها تدريجيا فى السيطرة على مقاليد السياسة وجعلها توجه نشاطها نحو التوسع والاستعمار. ولهذا اخذت تلك الطبقة الوسطى تنادى بمبدأ التوسع والفتح لايجاد اسواق جديدة للتجارة الانجليزية.

وهناك اختلاف واضح بين طبيعة ومنطلقات الاستعمار الانجليزى فى القارة الأمريكية وبين الاستعمار الاسبانى الذى سبقه فى هذا الميدان. فالاستعمار الاسبانى قامت به الملكية الاسبانية وكانت تسيطر عليها النزعة التعصبية التى سادت الحكم فى اسبانيا عقب خروج العرب منها. فالاسبان كانوا ينظرون الى تلك المستعمرات نظرة السيد للعبد، أى أن تلك المستعمرات يجب أن تدار أولا لمصلحة الاسبان بعد اخضاع اهلها والقضاء على كل مقاومة للنفوذ الاسبانى. اما الاستعمار الانجليزى

لامريكا فكان يغاير الى حد كبير الاستعمار الاسبانى فانجلترا قد واجهت فى الأراضى التى استولت عليها ظروفا خاصة حاولت أن تتصرف بمقتضى تلك الظروف فوجدت انجلترا فى تلك الأراضى الواسعة فرصة ذهبية لنقل اكبر عدد من المهاجرين الانجليز لتعميرها واقامة نظم الحكم وحضارة جديدة تتفق مع الحضارة الانجليزية. أى أن انجلترا حاولت فى تلك المستعمرات ان توجد نظاما للحكم مطابقا للنظام السائد فى انجلترا فقامت فى الولايات الانجليزية نظم جديدة وحضارة جديدة هى صورة من الحضارة الانجليزية. وعلى اكتشاف الولايات الانجليزية قامت الحضارة الأمريكية فى العصر الحديث.

وجدير بالذكر أن موجات هجرة الأوربيين التى وصلت الى امريكا عقب الكشوف الجغرافية، انما يمكن تفسيرها فى اطار التاريخ العام على انها احدى موجات التاريخ[1] التى حدثت فى مختلف العصور مثل هجرة قبائل «الهون Huns» فى العصور القديمة تلك القبائل التى قضت على الدولة الرومانية الغربية، وكهجرة التتار التى قضت على الخلافة العباسية فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، وكهجرة العنصر التركى السلجوقى من اواسط آسيا الى شبه جزيرة الاناضول، ثم تلا تلك المجموعة موجة اخرى من الاتراك العثمانيين. فكل هذه الهجرات التى ظهرت عبر التاريخ كانت ترجع الى حد بعيد الى اسباب اقتصادية وسياسية ودينية.

واذا تأملنا هجرة الشعوب الأوربية الى القارة الأمريكية بصفة عامة وهجرة الشعب الانجليزى بصفة خاصة نجد أنها ترجع الى عوامل متعددة اولها ذلك التنافس بين اسبانيا من ناحية وانجلترا من ناحية اخرى حول التوسع والفتح. وكان طبيعيا أن يحدث هذا التنافس بين قوتين بحريتين عظيمتين اذ كانت اسبانيا تمتلك فى ذلك الوقت اسطولا بحريا قويا ينافس الاسطول الانجليزى. واذا نظرنا الى حركة الاستعمار والتوسع فى القارة الأمريكية. نجد أنه حتى منتصف القرن السادس عشر كان الاستعمار يكاد يكون حكرا على دولتى اسبانيا والبرتغال، مما جعل انجلترا

تتطلع الى الاستيلاء على جزر الهند الغربية، وما بها من متاجر، وعلى الثروة الطائلة التى تتمتع بها اسبانيا. ولهذا بدأ تحرش الانجليز بالاسبان فى عهد الملك فيليب الثانى ملك اسبانيا الذى امتدت مدة حكمة بين عامى ١٥٥٦ - ١٥٩٨، وكان هذا الملك يدين بالمذهب الكاثوليكى، ويسير على سياسة اضطهاد العناصر البروتستانتية. ولهذا أخذت انجلترا تهاجم السفن التجارية الاسبانية، وتستولى على مابها من متاجر وثروات، ولم يجد فيليب الثانى بدا من مواجهة الانجليز، فحدثت بين الاسطولين الانجليزى والاسبانى، المعروف باسم الأرمادا، معركة فاصلة قرب شواطىء اسبانيا دمر فيها هذا الاسطول تدميرا تاما فى عام ١٥٨٨، ونتج عن تلك المعركة الفاصلة أن تأكدت السيادة البحرية الانجليزية على البحار منذ ذلك الوقت، وخلا الجو لانجلترا فى أن تستولى على ما تشاء من المستعمرات الاسبانية فى القارة الأمريكية.

أما ثانى تلك العوامل التى أدت الى هجرة الشعب الانجليزى الى امريكا فهو يتمثل فى كتابات الكتاب والرحالة المختلفين حول القارة الجديدة وما تخبئه فى بطونها من كنوز طائلة والاثر الكبير الذى تركته القصص التى كانت تصور حياة المغامرين المهاجرين الأول الذين وطأت اقدامهم أرض القارة الأمريكية. كل تلك الكتابات كانت مؤثرة فى نفوس افراد الشعب الانجليزى مما جعل الكثيرين منهم يتوقعون الى الهجرة الى تلك البقاع الجديدة للتمتع بخيراتها.

وتمثل العامل الثالث فى الدافع الدينى، حيث كانت أوربا مسرحا لحركات دينية عنيفة بانقسامها الى معسكرين تمثلا فى معسكر الخارجين على الكنيسة الكاثوليكية ومعسكر المؤيدين لها. وقد حاول كل فريق من هذين الفريقين ان يكون له السبق فى الوصول الى القارة الجديدة، وفى ادخال وثنيى القارة الأمريكية فى المذهب الذى يعتنقه. ولهذا هاجر كثيرون من الكاثوليك والبرتستانت بغية التبشير وكسب عناصر جديدة لمذهبهم الدينى.

كذلك كان لانهيار الأسس التى قامت عليها الحياة فى العصور الوسطى من زوال الاقطاع، وظهور الطبقة الوسطى، ونمو الفردية، ونشوء الروح القومية ان انعدمت الوحدة الدينية فى أوربا، فظهرت الفرق المختلفة وثار البرتستانت على الكنيسة الكاثوليكية فى عام ١٥١٧ ولم تكن تلك الثورة قوة دينية فحسب بل كانت ثورة اقتصادية فى آن واحد.

فثورة الامراء والطبقة الوسطى ضد رجال الدين فى أوربا كانت تهدف الى التخلص من الاعشار والضرائب التى كانت مفروضة عليهم لحساب الكنيسة الكاثوليكية . كذلك كانوا يهدفون من وراء ثورتهم هذه الى التخلص من سلطة الكنيسة الروحية، ومن سيطرتها على الشئون العامة، ومحاولة الاستئثار بكل الاملاك الواسعة التى تمتلكها الكنيسة. ولهذا كانت حركة هنرى الثامن ملك انجلترا تعبر أصدق تعبير عن هذا الاتجاه الجديد، وكانت حركته بداية لعصر ملئ بالثورات. ففى عهد ابنه ادوارد السادس ساد المذهب البرتستانتى فى انجلترا، ثم عاد المذهب الكاثوليكى مرة ثانية فى عصر الملكة مارى، ثم اعترف بالبرتستانتية مرة ثانية على انها الدين الرسمى للدولة.

وقد اوجدت كل هذه التقلبات والثورات الدينية نوعا من الحيرة والبلبلة الفكرية فى نفوس الانجليز بصفة خاصة والأوربيين بصفة عامة، فى نفس الوقت الذى لم تكن تعرف فيه اوربا التسامح الدينى. حدث كل هذا فى نفس الوقت الذى بدأ ت فيه موجة الهجرة والكشوف الجغرافية، فوجدت تلك الحركة قبولا لدى فريق كبير من الشعب الانجليزى الذى فضل أن ينجو بعقيدته وان يذهب الى تلك القارة الجديدة ليمارس عقيدته الدينية فى حرية واطمئنان.

ويمكننا ملاحظة عامل رابع تمثل فى الناحية القومية التى ظهرت بعد أن استطاعت انجلترا ان تقضى على الاقطاع داخل بلادها، كما استطاعت ايضا ان تتخلص من سيطرة البابوية أى من السيطرة على الناحية الدينية بفضل الكنيسة

الانجليزية عن كنيسة روما وانشاء المذهب الانجليكانى. وقد دعت تلك الاحداث التى مرت بانجلتراالى تكاتف الشعب الانجليزى وظهور القومية الانجليزية، تلك القومية التى ارادت ان تعبر عن وجودها بالتوسع فى القارة الامريكية الجديدة.

أما العامل الخامس فيتصل باتساع نطاق التجارة بين الشرق والغرب وبين القارة الامريكية الجديدة وبين انجلترا بصفة خاصة ان امتلات اسواق انجلترا بالمعادن الثمينة. ونتج عن ذلك ارتفاع مستوى المعيشة فى البلاد لتدفق الثروة الطائلة على الطبقة الارستقراطية والطبقة الوسطى دون أن تنال الطبقة الدنيا من تلك الثروة الطارئة شيئا مذكورا . ولهذا فقد عانت تلك الطبقة من صعوبات شديدة فى ذلك الوقت، وقد ظن بعض الباحثين بأن تلك الضائقة التى تعانى منها الطبقة الدنيا نشأت عن ازدحام انجلترا بالسكان، مع العلم بأن عدد سكان انجلترا فى ذلك الوقت لم يكن يتجاوز خمسة ملايين نسمة، وكان هذا الزعم الخاطئ مدعاة لتشجيع الهجرة الى خارج انجلترا، فوفدت وفود كثيرة من المهاجرين على القارة الامريكية فى ذلك الوقت سعيا وراء الرزق، وفى حقيقة الأمر لم يكن سوء حال تلك الطبقة يرجع الى زيادة عدد السكان بل كان يرجع الى التفاوت الكبير فى الدخل بين الطبقتين الارستقراطية والوسطى من جهة وبين طبقة العامة من جهة أخرى.

وهناك عامل سادس يتعلق باضطراب النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى انجلترا وما ترتب على ذلك من تفكير كثير من الناس فى التخلص من هذه البيئة المضطربة والالتجاء الى القارة الامريكية ليستطيعون بذلك تحقيق المثل العليا التى ينشدونها فى هذا الوطن الجديد.

وسابع تلك العوامل ذلك الصراع الدستورى الطويل الذى نشأ بين الملكية الانجليزية وبين البرلمان الانجليزى، سواء فى عهد اسرة تيودور التى حكمت فى الفترة الممتدة من ١٤٨٥ – ١٦٠٣ اوفى عهد اسرة استيوارت التى حكمت فيها بين عامى ١٦٠٣ – ١٧١٤ ، والذى ترتب عليه توهم بعض الانجليز بأنه صراع

لانهاية له وان الشعب الانجليزى لن يظفر بحقوقه الدستورية كاملة الا بعد اجيال طويلة ولهذا فكر هذا الفريق فى مغادرة انجلترا والالتجاء الى المستعمرات الجديدة فى القارة الامريكية ليستطيع بذلك أن يضع مبادئه الدستورية الجديدة موضع التنفيذ والممارسة.

وجدير بالذكر ان تلك الهجرات الأوربية الى القارة الامريكية تميزت بميزات خاصة، تلك الميزات هى قوة العزيمة وشدة الاحتمال التى كان يتمتع بها المهاجرون الأول. فقد كان هؤلاء المهاجرين يتركون ديارهم وأوطانهم الاصلية ويعبرون المحيط الاطلسى على مراكب قديمة غير آمنة للاقامة فى اراضى موحشة وتأسيس مدنية جديدة فى تلك البقاع النائيه ، فكان لابد لهؤلاء المهاجرين من مواصلة الكفاح لاقامة حياة سهلة رغيدة على اساس من العدل والمساواة والحرية.

بل ان هذه الهجرات الأوربية الاولى الى القارة الامريكية قد تميزت فى نفس الوقت بتغلب الطابع الدينى عليها. فنظرا للاضطهاد الدينى الذى ساد اوربا فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث، وعدم اعتراف الممالك الاوربية بفكرة التسامح الدينى، لجأ كثيرون الى الهجرة لاقامة حياة دينية سمحة فى القارة الامريكية.

وعلى ايدى هؤلاء المهاجرين وضعت اسس النظم الامريكية والحضارة الامريكية التى نمت بمرور الزمن ثم تطورت مع مطالب الحياة ومقتضيات الاحوال. فالنظم الامريكية الجديدة تميزت بالمرونة وبتشكلها وفقا لحاجيات البيئة الجديدة ومطالبها.

واستطاع المهاجرون الأوربيون الجدد أن ينزلوا على الشواطئ الشرقية للقارة الامريكية، وفى امكنة تكاد تكون خالية من السكان الاصليين. هؤلاء السكان الذين اطلق عليهم اسم «الهنود الحمر» والذين يقدر عددهم بما يتجاوز نصف مليون نسمة تقريبا. ورغم القوة والنشاط اللذين تمتعت بهما تلك العناصر قد

بدأت تتلاشى نتيجة لانزوائها فى مناطق الغابات الكثيفة. كما أن العناصر البيضاء والعناصر الاخرى الزنجية التى وفدت على القارة الامريكية قد بدأت تتشرب تلك العناصر الهندية وتختلط بها الى حد اصبح معه عدد الهنود الحمر الآن وبعد مرور عدة قرون يقل عن نصف مليون نسمة، أى أن عدد هؤلاء الهنود الآن لم يزد عما كان عليه ايام كشف القارة الامريكية.

ويلاحظ أن تلك الهجرات الأوربية الى القارة الامريكية قد تركزت فى المناطق الساحلية الشرقية، وقد ادى هذا التركيز الى تعاون تلك العناصر لاتخاذها قواعد لاقامة نظم جديدة تكفل لها الحرية والتقدم. ولم تستطع تلك العناصر فى اول الأمر ان تتقدم نحو الغرب نظرا لوجود «جبال الابلاش Applation Mountains» التى تمتد من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى فى موازاة الساحل الشرقى لامريكا. كما كانت سفوح تلك الجبال تكسوها الغابات الكثيفة التى لجأت إليها العناصر الهندية، واتخذت منها مراكز لمقاومة تقدم البيض نحو الغرب. على ان الولايات المتحدة بعد استقلالها عن انجلترا فى بداية الربع الاخير من القرن الثامن عشر سوف تبدأ فى عبور جبال الابلاش وفى التقدم نحو الغرب. وقد استطاع هؤلاء المهاجرون فى سنة ١٨٠٠ أن يصلوا الى حوض «نهر المسيسبى Mississippi». وكذلك استطاعت افواج المهاجرين فى الفترة ما بين ١٨٠٠ و ١٨٧٥ من استيطان الولايات الغربية والوسطى بعد كشف الذهب فى منتصف القرن التاسع عشر وبهذه الطريقة امتدت حركة العمران والانتشار نحو الغرب[1]، وصارت الولايات المتحدة دولة تقع على المحيط الهادى أيضاً.

ومنذ بداية وصول تلك الهجرات الأوروبية الى القارة الأمريكية وحتى استقلال الولايات المتحدة فى عام ١٧٧٦ فقد سارت حياة المهاجرين فى تقدم مستمر بفضل ما بذلوه من جهود مضنية لتعمير تلك القارة الجديدة ولم يكن

---

(١) حسن صبحى (دكتور) : معالم التاريخ الأمريكى والأوربى الحديث، ص ١١٠.

اعتماد المهاجرين على الثروات المحلية فى العالم الجديد فحسب، بل انهم اعتمدوا ايضا على الثروة التى حصلوا عليها من تجارة الرقيق تلك التجارة غير المشروعة التى كانت سببا فى زيادة عدد السكان فى الولايات المتحدة وبالتالى كانت سببا فى قيام الحرب الاهلية الأمريكية لتحرير هؤلاء الرقيق، ونشأة مشكلة الملونين، تلك المشكلة ظلت الولايات المتحدة الأمريكية تعانى منها معاناه كبيرة فى تاريخها المعاصر.

واذا تتبعنا تطور الأوضاع فى القارة الأمريكية فى السنوات الأولى من سنى الاستعمار الأوربى لهذه القارة فى مطلع العصور الحديثة، فاننا سنجد أن المهاجرين الانجليز تمكنوا من تأسيس مدينة «جايمس تون Jamestown» على الساحل الشرقى لامريكا الشمالية بشكل بدائى بحيث تكونت فى أول الأمر من قلعة وبعض الأكواخ ومخزن للمحصولات وكنيسة لاداء الشعائر الدينية. واشتغل هؤلاء المهاجرين بزراعة الأرض ثم تخصصوا بعد ذلك فى انتاج التبغ الذى لم يكن معروفا للعالم القديم حتى ذلك الوقت. أى اننا اذا استطعنا أن نقول بأن الهنود الحمر قد تركوا اثرا فى الحياة الأمريكية والأوربية بصفة عامة فإن هذا التبغ هو احد الثمار التى استطاع الهنود الحمر نقلها الى العالم فى العصر الحديث. كما احترف هؤلاء المهاجرين تربية المواشى التى كانت تدر عليهم ثروات طائلة. وبالرغم من نمو المستعمرة فلم يزد عدد سكانها فى سنة ١٦١٩ عن الفى نسمة. وقد تميزت تلك السنة بميزات خاصة لها اهميتها الخطيرة بالنسبة للمجتمع الامريكى فيما بعد. اذا حدثت فى تلك السنة ثلاث حوادث هامة على النحو التالى:

**الحادثة الأولى:** تمثلت فى وصول احدى المراكب الانجليزية تقل تسعين فتاة انجليزية لتزويجهم الى المهاجرين المستعمرين الجدد فى نظير مقدار معين من التبغ، وقد وجدت تلك الصفقة قبولا واقبالا لدى المستعمرين الجدد مما شجع هؤلاء التجار الانجليز على مواصلة تلك التجارة الرابحة، وما ترتب عليها من أثر فى استقرار الحياة فى هذا المجتمع الجديد.

**والحادثة الثانية**: تمثلت فى أنه فى اليوم الثلاثين من يوليو من نفس تلك السنة اجتمع فى كنيسة «جايمس تون» اول برلمان تمثيلى يمثل السكان الجدد فى تلك المستعمرة ، أى أن هؤلاء السكان الجدد قد مارسوا الحياة النيابية الشبيهة الى حد كبير بالحياة التى الفوها فى انجلترا. وكان هذا المجلس يتكون فى أول الأمر من حاكم المدينة وستة اعضاء وبعض ممثلين عن الزراع.

**اما الحادثة الثالثة**: فتتمثل فى شراء المستعمرين لعشرين شخصا من الرقيق من احدى المراكب الهولندية التى رست على شاطئ المدينة. وكان لهذه الحادثة التى ستتكرر كثيرا فميا بعد - اثرها فى انتشار تجارة الرقيق بشكل واسع بحيث أثرت تلك الاعداد الهائلة من الرقيق تأثيرا قويا فى المجتمع الأمريكى وفى اقتصاديات القارة الامريكية كما ادت الى قيام الحرب الاهلية الأمريكية فيما بعد.

وقد استمرت حركة الهجرة الانجليزية بعد ذلك بشكل واضح وتدفق المستعمرون على الشواطئ الشرقية للقارة الامريكية حتى تمكن هؤلاء المستعمرين من تأسيس مدينة «بوسطن Boston» فى سنة ١٦٣٠ وكذلك تأسيس مستعمرة «ماريلاند Maryland» فى سنة ١٦٣٤ ، ومدينة «برفيدانس Providence» فى ولاية «ايلاند Island» فى سنة ١٦٣٩ . وقد وجد المستعمرون الانجليز آن المستعمرين الهولنديين يشاركونهم فى استعمارهم للساحل الشرقى للولايات الامريكية، فرأوا أن تخلص لهم تلك الولايات ولهذا قاموا بحرب مفاجئة ضد الهولنديين وهجموا على مدينة «نيوا مستردام» التى أسسها الهولنديون فى سنة ١٦٢٤ واستطاعوا الاستيلاء عليها فى سنة ١٦٦٤ وتسميتها باسم مدينـــة «نيويورك New York» التى تعتبر حاليا من اعظم المدن فى عالمنا المعاصر.

ويمكننا القول بأن الاستعمار الانجليزى للولايات الامريكية قام على دعامتين اساسيتين اولهما شركات الاستغلال الاستعمارية وثانيهما نظام الاقطاع. ففيما يتعلق بتلك الشركات الاستعمارية يمكننا القول بأنه كان من الطبيعى ان

الاستعمار ما كان ليقوم على جهود فردية، لان الفرد لا يستطيع أن يقيم دولة. كما أن انشاء تلك المستعمرات كان يحتاج الى الجهود الكبيرة والاموال الطائلة التى لاتتوفر لفرد أو افراد محدودى العدد. ولهذا تأسست الشركات الانجليزية المساهمة لاستغلال الأراضى الجديدة. وقد قامت تلك الشركات بتعضيد من الحكومة الانجليزية فأمدتها بالمعونة وبالحماية اللازمة للقيام بعملها فى هذا الميدان. لقد كانت هذه الشركات تشبه الى حد بعيد حكومات مصغرة داخل حكومة كبيرة، اذ كانت تلك الشركات تسيطر سيطرة تامة على الأراضى الداخلة فى امتيازها. وأقامت تلك الشركات نوعا من الحكم تسانده قوة مسلحة للدفاع عن مصالحها. وتمتعت تلك الشركات بنوع من الاستقلال الذاتى فى الأراضى التابعة لها، ولكنها فى نفس الوقت كانت فى حاجة ماسة الى حمايتها من قبل انجلترا. بل لقد ذهبت تلك الشركات الى مدى بعيد، فسكت النقود، واقامت الحصون والقلاع لحماية مصالحها فى هذا المجتمع الجديد.

وقد استطاعت تلك الشركات ان تؤسس اربع مستعمرات من تلك المستعمرات التى كان يتكون منها الاتحاد الامريكى، فأنشأت شركة لندن فى سنة ١٦٠٧ مستعمرة فرجينيا. كما استطاعت شركة جزر الهند الغربية الهولندية فى عام ١٦٢١ من تأسيس مستعمرة هولندا الجديدة New Netherland «كما أنشأت شركة الخليج» «ماساتشوستس Messachusetts» فى عام ١٦٣٠ وبعد ذلك بقليل تمكنت شركة سويدية من انشاء مستعمرة «دلاوير Delaware» . وقد اهتمت هذه الشركات فى بادئ الأمر بالاستغلال التجارى ولم توجه عنايتها الى تنشيط حركة الاستعمار، ولكنها وجدت بعد مرور الوقت ان زيادة الانتاج لن تتوفر الا اذا زاد عدد المستهلكين، لهذا وجهت عنايتها بعد ذلك الى جلب أكبر عدد ممكن من المهاجرين الى مناطق نفوذها[(١)] .

---

(1) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, P. 362.

واذا كانت هذه الشركات الاستعمارية قد قامت بدور هام فى تأسيس الولايات الأمريكية، فقد قام نظام الاقطاع بدور آخر لايقل اهمية عن دور الشركات وسنجد أن ملوك انجلترا سيلجأون الى منح بعض الامراء اقطاعات جديدة فى القارة الامريكية على اساس حكم تلك الاقطاعيات طبقا للنظام الانجليزى. وقد منح بالفعل عدد من الامراء بعض الاقطاعيات الهامة التى كانت نواة لايجاد مستعمرات جديدة. ونتيجة لجهود اصحاب هذه الاقطاعيات فقد نشأت خمس مستعمرات فى نفس مواقع الاقطاعيات هى مستعمرة «مارى لاند Mary land ومستعمرة «بنسلفانيا Pensylvania» ومستعمرة «نيوجرث New Jorth» ومستعمرة «نيو كارولينا New Carolina» ومستعمرة «سوث كارولينا South Carolina » وهذه هى المستعمرات الخمس التى انشأها الاقطاع على الشاطئ الشرقى للولايات الامريكية. وقد حاول بعض امراء الاقطاع مثل «اللورد بلتيمور » الذى منح ولاية «مارى لاند» أن يحكم تلك الولاية حكما استبداديا على نمط الحكم الذى ساد اوربا خلال العصور الوسطى ولكن يقظة هؤلاء المستعمرين قد حالت بينه وبين اقامة هذا النوع من الحكم، فاضطر فى النهاية صاغرا الى اشتراك المستعمرين فى حكم تلك الولاية.

وجدير بالذكر ان انجلترا حرصت منذ البداية على أن لاتسمح للعناصر الاجنبية بأى تدخل فى تلك المستعمرات حتى ولو كان هؤلاء المستعمرين من الاسكتلنديين أو الايرلنديين أو من سكان «ويلز» حتى لايثيروا فى وجهها المتاعب. ولكن انجلترا لم تستطيع تنفيذ ما اعتزمت عليه، اذا استطاع عدد كبير من الاسكتلنديين والايرلنديين دخول تلك المستعمرات حتى انهم كادوا يوازون من الناحية العددية تعداد السكان الانجليز الخلص. وقد نزحت هذه العناصر الى تلك المستعمرات تحت ضغط الحالة الاقتصادية التى سادت بلادهم الاصلية فى ذلك الحين. هذا بالاضافة الى مالاقته تلك العناصر من اضطهاد دينى فى بلادهم. وقد تركز هؤلاء المستعمرون الجدد بصفة خاصة فى المستعمرات الخمسة التى اشرنا

اليها والواقعة على الساحل الشرقى لامريكا الشمالية. وقد بلغ عدد الاسكتلنديين والايرلنديين بالولايات الامريكية ما يقرب من ثلاثمائة الف نسمة قبيل قيام الثورة الامريكية. كما هاجرت ايضا الى الولايات الامريكة عناصر اخرى من البرتستانت الفرنسيين (الهيجونوت) الى الولايات الامريكية فيما بين عامى ١٦٦٠ ، ١٦٩٠. وقد نظر اليهم معظم السكان القدامى نظرة ملؤها الشك والريبة، بل أن بعض هؤلاء قد استخدم العنف ضدهم، وظلوا على هذه الحال حتى قيام حرب الاستقلال الامريكية فاندمجوا مع المهاجرين القدامى بحيث ذابت تدريجيا معالمهم ومميزاتهم لتتشكل من هؤلاء جميعا القومية الامريكية الجديدة التى ستتميز بها الولايات المتحدة الامريكية بعد الاستقلال.

ومن الملاحظ ان اغلبية الهجرات التى وصلت الى الولايات الامريكية الشمالية كانت من العنصر الانجليزى، ولهذا كان من الطبيعى ان يلعب الدم الانجليزى دورا رئيسيا فى تكوين الشعب الأمريكى الجديد. ولايعنى هذا ان كل الولايات كانت تتكون من العنصر الانجليزى فقط، ولكن كان اغلب تلك العناصر أو الصفة الغالبة عليها هى الصفة الانجليزية لانه قام الى جانب العنصر الانجليزى عناصر اوربية اخرى كالهولنديين والاسبان والفرنسيين وغيرهم على أنه حتى عام١٧٩٠ كان تعداد الولايات الامريكية ما يقرب من اربعة ملايين نسمة. أما الفترة التى اعقبت تلك السنة فيمكن تقسيمها على حسب الهجرات الى الاقسام الثلاثةالتالية:

**أولا:** الفترة فيما بين عامى ١٧٩٠، ١٨٢٠ : كانت الصفة الغالبة على هذه الهجرات هى الصفة الانجليزية، أى ان معظم المهاجرين الى الولايات الامريكية كانوا من الانجليز، ويقدر عدد هؤلاء بما يقرب من مائتى الف نسمة.

**ثانيا:** الفترة من ١٨٢٠ – ١٨٦٠ : كانت الهجرات الغالبة الى الولايات المتحدة الامريكية من الهولنديين والايرلنديين، وقد ظهرت فى سنة ١٨٧٠ الهجرات

الايرلندية بشكل واضح ملحوظ.

**ثالثا:** الفترة فيما بين ١٩٠٠ ، ١٩١٠ : وفدت فيها الى الولايات الامريكية أكبر الهجرات الاوروبية عددا، إذ يقدر عدد هؤلاء المهاجرين بما يزيد قليلا عن ثمانية ملايين نسمة.

من هذا الاحصاء نتبين مدى تعدد الاجناس فى الولايات الامريكية وتبع هذا التعدد فى الاجناس تعدد فى اللغات ايضا. ولكننا سنجد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ان هذه الاجناس المختلفة قد انصهرت وتبلورت حول العنصر الذى يتكلم اللغة الانجليزية. وتكون من هذا المزيج شعب امريكى له خصائصه ومميزاته التى تختلف عن مميزات وخصائص الشعوب الأوروبية المختلفة.

على أننا لانستطيع القول بأن كل العناصر التى وفدت الى الولايات الامريكية بعد ذلك قد انصهرت انصهارا تاما، لأن ذلك يحتاج الى اجيال طويلة، خصوصا وأن الهجرات الحديثة التى وفدت الى الولايات الامريكية فى أواخر القرن الثامن عشر وفى خلال القرن التاسع عشر قد احتفظت بميزاتها الخاصة، ولم تختلط بالسكان الاصليين، بل حاولت أن تحافظ على مميزاتها الجنسية، ولم تندمج مع العناصر المهاجرة قبل ذلك. ونتج عن هذا الوضع الجديد أن اصبح الشعب الامريكى لا يمثل أمة بالمعنى الصحيح. ولهذا فقد حاولت الحكومة الأمريكية أن تعالج هذا الوضع الجديدة باصدار قانون للهجرة يضع أمام العناصر الحديثة التى احتفظت بجنسيتها الاصلية عقبات كثيرة.

واذا تعرضنا للاجناس التى وفدت الى الولايات الامريكية والتى اصبحت عنصرا اساسيا فى تكوينها يجب الا نغفل عنصر الزنوج. فهذا العنصر الذى وفد على القارة الامريكية عن طريق تجار الرقيق الذين كانوا ينقلونهم من القارة الافريقية الى الولايات الامريكية، قد بلغ فى سنة ١٧٩٠ حوالى ثلاثة ارباع المليون نسمة. وقد ازداد هذا العدد عن طريق التوالد وعن طريق صفقات الشراء الكبيرة، وبلغ حسب تعداد عام

١٩٣٠ ما يقرب من اثنتـــى عشرة مليون نسمـــــة، أى ما يعادل ١٠,٣ ٪ من العـــدد الكلى لسكان الولايـــات المتحدة، ويقدر عددهم حاليا بما يزيد عن خمسة وعشرين مليون نسمة[1].

وهكذا كان لابد أن يكون لهذا العنصر الزنجى أثره فى الحياة الامريكية، وفى الاقتصاد الامريكى بصفة خاصة. ولكن هذه الاهمية قد اختلفت من ولاية الى اخرى، كما اختلفت ايضا بالنسبة للولايات الشمالية أو الولايات الجنوبية. فهذا العنصر الزنجى قد استخدم فى الولايات الشمالية فى الاعمال المنزلية، أما فى الولايات الجنوبية فقد استخدم فى الزراعة، وقامت على اكتافة النهضة الزراعية الكبرى فى الولايات الامريكية. ولهذا السبب اختلفت نظرة الشماليين أى سكان الولايات الشمالية عن نظرة سكان الولايات الجنوبية فيما يتعلق بالغاء الرق. فالولايات الشمالية كانت تحبذ هذا الالغاء، نظرا لأن هذا العنصر الزنجى كان يقوم بأعمال ثانوية. بعكس الحال بالنسبة للولايات الجنوبية، فالولايات الجنوبية قد اعتمدت فى اقتصادياتها على الخدمات الهامة التى يؤديها هذا العنصر فى ميدان الزراعة والاقتصاد. فالاستغناء عن خدمات هذا العنصر بالنسبة للولايات الجنوبية معناه انهيار اقتصاديات تلك البلاد انهيارا يكاد يكون تاما. ومن هنا تمسك كل من الشمال والجنوب برأيه فى مشكلة الرق الى أن حسمت تلك المشكلة الحرب الأهلية الامريكية فى عام ١٨٦١.

وبالنسبة للأوضاع السياسية فى الولايات الامريكية فاننا نجد أنه على الرغم من تعدد الاجناس التى هاجرت الى الولايات الامريكية منذ مطلع العصور الحديثة فقد كانت الغلبة للعنصر الانجليزى على تلك الاجناس جميعها. وقد أخذ المهاجرون الانجليز على عاتقهم ادخال النظم الانجليزية التى الفوها فى بلادهم الاصلية. بل انهم اعتبروا انفسهم فى الولايات الجديدة جزءا من الشعب الانجليزى الاصلى، ورأوا ان النظم الجديدة التى يجب أن تنشأ فى تلك الولايات يجب أن تكون

(1) Coupland, R. : Op. Cit., PP. 362 - 363.

مستمدة من روح الدستور الانجليزى. ونتيجة لاعتناق هؤلاء المهاجرين لهذا المبدأ الهام حاولوا تكييف نظم الحكم الجديدة بما يتفق مع الأسس الجوهرية التى قام عليها الدستور الانجليزى. أى انهم تمسكوا بما حصلوا عليه من حقوق فى بلادهم الاصلية نتيجة للصراع الطويل الذى استمر قرونا بين الملكية والشعب ممثلا فى برلمانه من ناحية اخرى. فحاول هؤلاء المستعمرون أن يحتفظوا بما لهم من حرية شخصية وحرية الاجتماع وحرية العقيدة، ولكن نظرا لاختلف نسبة الشعوب الأوربية من ولاية الى اخرى ان نشأت بعض التغيرات البسيطة، لكنها جميعا اتفقت فى المبدأ وهو أن تكون دساتير هذه الولايات تتفق فى الهدف والغاية ، وفى الأسس ايضا، مع الدستور الانجليزى. فكان لكل ولاية من هذه الولايات حاكم عام وهيئة تشريعية وهيئة قضائية، ولكن اختيار الحاكم فقد اختلف من ولاية الى اخرى طبقا لطبيعة تلك الولاية. فالولايات الملكية كان يعين فيها الحاكم من قبل الملك، اما الولايات الاقطاعية فكان صاحب الاقطاع هو حاكم تلك الولاية والمتصرف فى شئونها. وكان الى جانب ذلك ولايات اخرى تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى. وبهذا فقد قامت تلك الولايات بانتخاب الحاكم بنفسها، مثل ولاية «كونكتيكت Connecticut» وسنجد انه بعد مرور فترة من الوقت سيواجه المستعمرون جبهتين متعارضتين: الجبهة الأولى وتمثل الاستقراطية الرجعية، والجبهة الثانية وتمثل الحركة الديمقراطية الشعبية.

وكان لكل ولاية أو كل مستعمرة امريكية مجلسان أولهما مجلس يسمى «مجلس المساعدين»، ويقوم حاكم المستعمرة بتعيينه من بين اعوانه ومساعديه. وكان بطبيعة الحال يعضد آراء الحاكم ويعاونه ضد المجلس الآخر. اما المجلس الثانى فهو «مجلس العامة» وكان ينتخب من قبل الشعب وتمثلت فى هذا المجلس القوة الشعبية المحافظة على مالها من حقوق وامتيازات وحاول اعضاء هذا المجلس ان يحدوا من سطلة اعضاء مجلس المساعدين، ونجحوا فى منع مجلس المساعدين من النظر فى الشئون المالية، وخصوصا ما يتعلق بالضرائب.

والى جانب هذه الهيئة التشريعية بكل ولاية امريكية كانت توجه هيئة اخرى قضائية مستقلة تشرف على شئون القضاء. وقد وجد المستعمرون بعد فترة من الوقت أن هناك اتجاهين متضادين: أولهما هو وجود حركة ارستقراطية تنادى بتركيز السلطة في ايدى الحاكم وفى وجوب تمتع هذا الحاكم بما كانت تتمتع به الملكية القديمة من امتيازات. أما الاتجاه الآخر فتمثله القوة الشعبية التى كانت تصر على المحافظة على ما للشعب من حقوق، والتوسع فى هذه الحقوق الى ابعد حد مستطاع. ولهذا نشأ بين القوتين نوع من الصراع. وليس معنى ذلك أن المستعمرين لم يكونوا يتمتعون بحرية كافية فى مستعمراتهم الجديدة، بل على العكس من ذلك اذا كان هؤلاء المستعمرون بحرية واسعة لم يتمتع بها اغلبية الشعوب الأوربية فى ذلك الوقت. ولكن نشأة هذا الصراع جاءت نتيجة لمحاولة المستعمرين التمسك بحقوقهم وامتازاتهم التى منحوها فى أوربا أو فى اوطانهم الاصلية، مع التوسع فى تلك الحقوق بشكل يضمن لهم حياة مستقرة آمنة فى هذا الوطن الجديدة.

وكان من الطبيعى نتيجة لتمسك هؤلاء المستعمرين بحقوقهم وامتيازاتهم ان تعارضت تلك الحقوق والامتيازات مع مصلحة اوطانهم الاصلية. وهذا ما حدث بالفعل فى حرب الاستقلال الامريكية، حيث تعارضت مصلحة المستعمرات الانجليزية مع مصلحة انجلترا نفسها، وكانت النتيجة ان اغلب المستعمرين فضلوا مصلحة مستعمراتهم الجديدة على مصلحة اوطانهم الاصلية. وهذه الظاهرة قد خلقت وعيا قوميا فى تلك المستعمرات الانجليزية وهذا يعكس الحال فى المستعمرات الاسبانية التى حكمها المستعمرون الاسبان حكما استغلاليا قائما على الاستبداد والشدة والبطش، ولهذا لم تقم فى تلك المستعمرات حركة قومية تشابه تلك التى نشأت فى المستعمرات الانجليزية[1].

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور): الجمهورية الحديثة، ص ٤٣.

اما بالنسبة للاوضاع الاقتصادية فى الولايات الأمريكية فيمكننا التعرف عليها من خلال تقسيمنا للمستعمرات الانجليزية الى ثلاث اقسام: المستعمرات الشمالية والمستعمرات الوسطى والمستعمرات الجنوبية. فبالنسبة للمستعمرات الشمالية فقد كانت حتى عام ١٧٦٠ تشتغل بالزراعة شأنها فى ذلك شأن سائر المستعمرات الانجليزية. ولكننا اذ نظرنا الى طبيعة تلك المستعمرات فاننا نجد أن الطبيعة لم تمنحها سعة فى الأراضى الزراعية كما منحت المستعمرات الجنوبية، فالزراعة قد انحصرت فى أودية صغيرة ممتدة على الساحل. أما سائر المستعمرات فهى تتشكل من مناطق جبلية تكسوها الغابات. فلا نتوقع اذن أن تكون الزراعة من الحرف الهامة التى يعتمد عليها السكان فى معاشهم. ولكن الطبيعة قد عوضت تلك المستعمرات بأشياء اخرى. فهى قد منحتها الخلجان الكثيرة التى استغلها المستعمرون فى صيد الاسماك وفى تصديرها الى جزر الهند الغربية والى اوربا. كما استطاعوا ايضا استغلال الغابات فى تصدير الاخشاب وفى صناعة المراكب، كما استغل بعض المستعمرون إخراج انواع من المعادن من باطن الأرض فترتب على هذا التنوع فى الثروة الطبيعية ان تنوعت مصادر الثروة وتنوعت اقتصاديات تلك المستعمرات بعكس الحال بالنسبة للمستعمرات الجنوبية، كما طبقت هذه المستعمرات الشمالية قانونا خاصا فى توريث الأراضى الزراعية للابناء وهذا القانون يخالف ما اتبع فى الولايات الجنوبية وفى انجلترا نفسها، اذا كانت تلك الولايات تقسم الاراضى الزراعية بين الابناء بالتساوى. ونشأ عن ذلك ظاهرة انعدام الضياع الزراعية الواسعة. وتعدد الملكيات الصغيرة، بعكس الحال فى الجنوب حيث كانت الأراضى الزراعية تورث الى الابن الاكبر وبذلك نشأ الاقطاع الزراعى فى الجنوب بشكل واضح.

أما بالنسبة للمستعمرات الوسطى، فقد جمعت فى اراضيها بين خصائص الشمال وخصائص اراضى الجنوب. فاذا نظرنا الى ناحية الأراضى الزراعية فاننا نجدها تتمثل فى سهول «هدسون» وسهول وادى «الموهوك» الموجودة بمستعمرة نيويورك،

وكذلك الأودية الخصبة الموجودة بمستعمرات «بنسلفانيا ونيوجرسى» وكلها تماثل فى الخصوبة وفى وفرة المحصول ما تحظى به وتتميز معظم اراضى الشمال. وترتب على ذلك أن – استطاعت تلك المستعرات الوسطى ان تجمع فى منتجاتها بين منتجات المستعمرات الشمالية والمستعمرات الجنوبية. ونشطت ايضا حركة التجارة فى تلك المستعمرات نشاطا كبيرا. واهم مرافئ تلك المنطقة ميناء «نيويورك» الذى يعتبر من اعظم موانى العالم الجديد. ومن مينائى «نيويورك وفيلادلفيا» سارت المراكب التجارية تحمل منتجات هذا الاقليم من زراعية وصناعية الى جنوب اوربا والى جزر الهند الغربية، ثم تعود تلك المراكب من اوربا محملة بالمنسوجات الفاخرة وبالانواع المختلفة من الخزف والاثاث.

اما بالنسبة للمستعمرات الامريكية الجنوبية فقد خصتها الطبيعة بالخصوبة وبوفرة المحصولات الزراعية، واذ تشتمل تلك المستعمرات على مساحات واسعة جدا من السهول الخصبة، وخصوصا بعد أن استطاع المستعمرون قطع الاشجار التى كانت تغطى مساحة كبيرة منها. وفى تلك المستعمرات الجنوبية تخصص ملاك الأرض فى زراعة محصولات معينة فتخصصت فى زراعة التبغ والارز والنيله. كما قامت الزراعة فى هذه المناطق الشاسعة على ايدى عاملة تتمثل فى العناصر البيضاء والعناصر الزنجية على حد سواء. ونتيجة للحالة الاقتصادية السيئة التى سادت اوربا ابان كشف القارة الامريكية ان هاجر عدد كبير من سكان اوربا وممن كانوا لايملكون اجر سفرهم، ولجأوا الى بيع انفسهم لمن يدفع لهم اجر السفر فى نظير ان يقوم هذا المهاجر بالعمل مدة تتراوح بين سنتين وسبع سنوات كعبد لهذا الدائن، حتى اذا وصل هذا المهاجر الى القارة الامريكية ابتاعه اصحاب الضياع الزراعية الواسعى كى يعمل فى خدمتهم فى زراعة الأرض مدة عبوديته. وقد ذاقت هذه الطائفة انواعا من العذاب على ايدى اصحاب الضياع والمشرفين على زراعة الأرض. وقد قل الاهتمام باقتناء هؤلاء العبيد البيض نظرا لأن اصحاب الضياع لم يرحبوا بهم لأن مدة عبوديتهم قصيرة وليست مستديمة، كما هو الحال عند

الزنوج. كذلك كانت تكاليفهم اغلى وانتاجهم اقل بكثير مما ينتجه الزنوج. وقد تلاشت تلك العبودية نظرا لازدياد عدد الزنوج فى تلك المستعمرات الجنوبية.

ونظرا لحاجة المستعمرات الجنوبية الى ايدى عاملة باستمرار لجأ التجار الانجليز الى التوسع فى تجارة الرقيق فارتاد هؤلاء التجار الشواطئ الغربية لافريقيا، وابتاعوا الزنوج من مشايخ القبائل نظير ثمن بخس يتمثل فى الاقمشة الرخيصة، وفى البارود والخمور، ثم يأخذون تلك السلعة البشرية ليبيعونها الى اصحاب المزارع الواسعة فى المستعمرات الجنوبية بثمن مرتفع. وقد جنى هؤلاء التجار الانجليز ثروة طائلة نتيجة اشتغالهم بتلك التجارة. وقد ازداد عدد الزنوج حتى بلغ نصف عدد سكان مستعمرة «فرجينيا»، وزاد على النصف فى مستعمرة «كارولينا» الجنوبية، وبطبيعة الحال كانت الصفة الغالبة على منتجات المستعمرات الجنوبية هى المنتجات الزراعية.

وفيما يتعلق بالأوضاع الاجتماعية فى المستعمرات الامريكية فاننا نجدها فى تقدم متواصل نتيجة لاشتغال جزء كبير من سكان تلك المستعمرات بالتجارة، ولصلة هؤلاء السكان الوثيقة بالدول الأوربية المختلفة، وعلى وجه الخصوص انجلترا. واخذت تلك الصلات المختلفة من ثقافية وفكرية واجتماعية تتوثق بالحياة العامة فى انجلترا. ونتيجة لنشاط التجارة بين القارة الجديدة واوربا اصبح الانتقال بين الولايات الامريكية وانجلترا سهلا ميسورا عن ذى قبل. واذا نظرنا الى الطبقة الأرستقراطية فى تلك المستعمرات نجد انها شبيهة الى حد بعيد بطبقة الأرستقراطية الانجليزية سواء فى طرق معيشتها أو فى تفكيرها أو فى سلوكها الخاص. بل ان اصحاب الضياع الواسعة فى المستعمرات الامريكية قد تمكنوا من ايفاد ابنائهم الى انجلترا لاتمام دراستهم هناك وذلك للتخصص فى الطب مثلا بجامعة «ادنبره» أو للالتحاق بكلية الحقوق بجامعة لندن. هذا بالاضافة الى انتشار الكتب والمجلات العلمية المختلفة فى سائر المستعمرات.

وقد كان سكان المستعمرات الشمالية حتى قيام حرب الاستقلال الامريكية يتكونون من عنصر متجانس يشبه العنصر الانجليزى فى خصائصه ومميزاته . وكذلك يتفق معه فى اللغة وفى العادات والتقاليد والدين، هذا اذا استثنينا مستعمرة «رود ايلان» حيث امتازت تلك المستعمرة بالتطرف فى الناحية السياسية وبتعدد المذاهب المختلفة. ولكن بصفة عامة فقد احتلت الكنيسة والمدرسة فى المستعمرات الشمالية مكانا مرموقا من سكان تلك المستعمرات. وكذلك تمتع رجال الدين باحترام شديد من قبل هؤلاء السكان. وسنجد ان نشاط هؤلاء لم يقتصر على الناحية الدينية فحسب، بل تعداها الى الناحية الاجتماعية ايضا، وكان للدور الذى قام به رجال الدين اهميته الخاصة فى بناء المجتمع الامريكى الجديد.

وقد تميزت المستعمرات الامريكية الشمالية ايضا بالمحافظة على القديم وقد ذهبت فى أو ل الأمر الى ابعد الحدود فى التمسك بتلك العادات والتقاليد والمحافظة عليها وحاولة تطبيقهاو بكل شدة وصراحة، كما كان متبعا بشكل واضح فى مستعمرتى «كونكتيكت Connectticut» «وماساتشوستس Massachussetts » . ولكن حركة الاختلاط بين تلك العناصر المختلفة وبينها وبين الغرب قد خفف من حدة تلك الصرامة المتبعة فى المحافظة على العادات والتقاليد.

كما تميزت المستعمرات الامريكية الشمالية ايضا بميزة هامة وهى روح الاعتماد على النفس. وقد بدا ذلك فى وجود مجلس بلدية فى كل مدينة من المدن يشترك فيها كل من له حق الانتخاب، وذلك للتداول فى الشئون الهامة التى تهم ذلك البلد. وقد نشأ عن هذا النظام انعدام التفرقة بين الأغنياء والفقراء على حد سواء. ولهذا فان الطبقة الارستقراطية التى نشأت فى مدنية «بوسطن» وفى «نيوهافن» لم تؤثر اى تأثير على الطبقة العامة، سواء فى التمتع بالحقوق أو أداء الواجبات، وهذا بعكس الحال فى القارة الأوربية حيث كانت الطبقة الأرستقراطية هى المسيطرة.

اما بالنسبة للأوضاع الاجتماعية فى الولايات الجنوبية فيمكن تقسيم المجتمع الجنوبى الى اربعة اقسام، اولها يمثل الأرستقراطية الزراعية من اصحاب الضياع والممتلكات الواسعة، وهى الطبقة المسيطرة على اداة الحكم والسياسة،. وثانيها الطبقة الوسطى وتتكون من صغار الملاك المزارعين واصحاب الحرف والصناعات، وهناك قسم ثالث تمثله طبقة العامة وتكون من فقراء المجتمع أما القسم الرابع فيتمثل فى طبقة العبيد اى عبيد الأرض وهى احطها شأنا واتعسها حظا، واقلها نصيبا من متع الحياة.

ونشأ عن طبيعة الأراضى الجنوبية الواسعة المترامية الاطراف ان قل اجتماع الناس الا فى الاعياد والمناسبات العامة. وترتب على ذلك ان سكان المستعمرات الجنوبية كانوا يستغلون كل فرصة لاغتنامها والتمتع بها والمبالغة فى ابداء شعورهم وتحررهم من العادات والتقاليد. وهذا يعكس الحال فى الولايات الشمالية، حيث كان السكان اكثر اتزانا واعتدالا فى تصرفاتهم العامة من سكان الجنوب. وكانت الحياة بصفة عامة تتركز فى كل مدينة حول مبنى السوق العام.، ومبنى آخر للتبادل التجارى، وفندق لارتياده من قبل كبار التجار وطبقة الارستقراطية. والى جانب تلك الدور مكتبة عامة تضم مختلف المؤلفات العلمية التى عرفت حينذاك.

وفيما يتعلق بالمستعمرات الوسطى، فقد تكونت من خليط من الشعوب التى امتازت بالبعد عن الشدة والتسامح الدينى، ولهذا نعم المستعمرون بمستوى عال فى معيشتهم، كما اشتهر المجتمع فى مدينتى «نيويورك» و«فيلادلفيا» بالثقافة والتهذيب. كما حفلت مدينة «نيويورك» بالاندية العامة وبالملاعب والمقاهى والحدائق الغناء. كما لبس اغنياؤها احسن انواع الحرير المستورد من اوربا. كما امتازت مدينة «فيلادلفيا» ايضا بشوراعها الواسعة النظيفة وهدوئها وتفوقها فى نواحى العلوم والمعارف. وعلى أية حال فقد تمتعت تلك المستعمرات بحياة اقل صرامة فى نظمها عن مستعمرات الشمال. كما تميزت مستعمرة «بنسلفانيا» بطابع خاص

ميزها من غيرها من المستعمرات. وهذا الطابع قد اوجده «الفرندز» «الاصدقاء وهى طبقة دينية» الذين هاجروا اليها واشتهـــروا بالتسامح والصداقة وبالبعد عن مظاهر التطرف والتعقيد. ولهذا فقد تميزت الحيـــاة بالبساطة وبالمســـاواة وعدم التعصب الدينى أو المذهبى، وهذا ما جعل مدينة «فيلادلفيا» مركزا للحياة الدينية فى القـــارة الأمريكية.

اما بالنسبة للحياة الفكرية والثقافية فى الولايات الامريكية، فاننا نلاحظ ان «البيوريتانز» «المتعصبين من الكاثوليك» قاموا بنصيب كبير فى نشر الثقافة بين افراد تلك المستعمرات فأنشأوا فى أول الأمر المدارس الابتدائية لتعليم النشئ مبادئ القراءة والكتـابة واصـول الدين. ثم انشـأوا بعـد ذلك المدارس الثـانوية لتـدريس العلوم الكلاسيكية من يونانية وررومانية أى لاتينية وكذلك الرياضيات . وانشئت فى ولاية «ماساشوستس» فى عام ١٦٣٦ «كلية هارفارد» . وفى ولاية «كنكتيكت» انشئت كلية «ييل» فى عام ١٧٠١ ، وقد أخذت هاتان الكليتان فى النمو والازدهار نتيجة للاقبال الشديد عليهما من قبل المستعمرين.

هذا فيما يتعلق بالولايات الشمالية اما الولايات الوسطى فلم تعرف نظام التعليم العـام الا فى ولاية واحـدة هى ولاية «مـاريلاند» . ولكنْ جـمـاعـة «الفـرندز» وجماعات الالمان قد اخذوا فى انشاء مدارس خاصة لاشراف الكنيسة كما أنتشرت ايضا المدارس الخاصة فى «نيويورك» و«فيلادلفيا» و«بنسلفانيا» وانشأت تلك المستعمرات من الجامعات كلية «وليم اند ماردى» فى عام ١٦٦٣ فى مستعمرة «فرجينيا» وكذلك كلية «فلادلفيا» التى يطلق عليها الآن اسم «جامعة بنسلفانيا» . كما انشأت ايضا «جامعة برنستون و«كنج» التى عرفت فيما بعد باسم جامعة «كولومبيا» .

أما المستعمرات الامريكية الجنوبية فقد غلب على التعليم فيها الصفة الخاصة، فكبار رجال الاقطاع قد استقدموا من انجلترا ومن الولايات الشمالية المعلمين

الخصوصيين لتعليم ابنائهم القراءة والكتابة واللغات القديمة والرياضيات . اما عن المدارس العامة فلم يكن هناك سوى مدرستين فى كل من ولايتى «فرجينيا» و«ساوثكارولينا».

وبعد ان تعرضنا للاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى المستعمرات الامريكية قبيل الاستقلال ، فإن ينبغى الاشارة الى أن هذه الأوضاع قد ساعدت على تكونها العوامل التالية:

**أولا** : اللغة الانجليزية، تلك اللغة التى كان لها الفضل فى جمع تلك الشعوب المختلفة وانشاء شعب واحد يتكلم لغة واحدة، مما كان له اكبر الأثر فى ربط هذه الاجناس المتعددة برباط وثيق.

**ثانيا**: نشوء الحركة النيابية فى تلك المستعمرات التى كان لها الفضل فى تمتع تلك الولايات بقدر كبير من الحكم الذاتى، وحرص تلك الولايات على أن تحتفظ بمالها من حقوق كحرية الاجتماع والصحافة. بعكس الحال فى المستعمرات الفرنسية والاسبانية فى القارة الأمريكية.

**ثالثا**: مبدأ التسامح الدينى، هذا المبدأ قد اوجد نوعا من التضامن لرعاية مصالح اصحاب المذاهب المختلفة فى تلك البقعة الجديدة من العالم وهذا التسامح الدينى الذى لم تعرفه اوربا الا مؤخرا.

**رابعاً** : انتشار روح الفردية والاعتماد على النفس التى كانت من أهم الاسس التى قام عليها الاقتصاد الامريكى فى العصر الحديث.

**خامساً**: سيادة فكرة المساواة وتكافؤ الفرص بين الجميع مما كان له اكبر الاثر فى ظهور الشخصيات الكبيرة التى افاد منها المجتمع الامريكى والتى ستشترك فى تأسيس الولايات المتحدة الامريكية.

ومن ابرز الاحداث التى كان لها اعظم الاثر فى تطوير الحياة فى المجتمع

الامريكى ذلك الصراع الطويل بين انجلترا وفرنسا حول المستعمرات الأمريكية. والاصل فى هذا النزاع يرجع الى سياسة العداء التقليدى بين انجلترا وفرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ذلك العداء الذى نشأ فى القارة الأوربية نتيجة لتضارب المصالح بين الدولتين وانعكس على نشاطها فى العالم الجديد[1] . أى أن تلك المستعمرات الانجليزية والفرنسية اطلق عليها اسم «شركة فرنسا الجديدة»، وكان عمل هذه الشركة هو احتكار تجارة الفراء، كما لعبت تلك الشركة دورا هاما فى تدعيم الاستعمار الفرنسى فى تلك الجهات، كما قامت الشركات الانجليزية بنفس الدور فى المستعمرات الانجليزية. وقد زاد اهتمام فرنسا بمستعمراتها فى امريكا فى عهد الملك «لويس الرابع عشر»، اذ بذل هذا الملك جهودا كبيرا عن طريق وزيره «كولبير» فى تدعيم النفوذ الفرنسى فى امريكا، والعمل على زيادة توسعه وانتشاره.

واذا اجرينا مقارنة بين الاستعمارين الاسبانى والفرنسى من جهة اخرى، فاننا سنجد ان كلا من الاستعمارين الاسبانى والفرنسى قد اختلف فى طبيعته عن الاستعمار الانجليزى. فالاسبان قد اهتموا بصفة خاصة بجمع الثروات الطائلة واستنزاف القوى الانتاجية فى تلك البلاد لمصلحة الاسبانيين دون مراعاه لمصلحة سكان المستعمرات. وقد ذهبوا فى هذا السبيل الى تسخير قوة الزنوج والهنود الحمر فى استغلال تلك البلاد اى انهم طبقوا النظام الاقطاعى الذى عرفته اوربا فى العصور الوسطى فى تلك المستعمرات الجديدة بأجلى معانيه، وترتب على تلك السياسة الاسبانية وجود طبقتين اجتماعيتين: طبقة كبار رجال الاقطاع التى تتمتع بالثراء الواسع والنفوذ العريض، وطبقة اخرى هى طبقة عبيد الأرض، تلك الطبقة التى لم يكن لها أى حقوق بل كان عليها كل الواجبات، ولم يسمح هذا النظام بإيجاد طبقة وسطى. كما ساد تلك المستعمرات الاسبانية روح تعصبية بغيضة

(١) محمد محمود السروجى (دكتور): سياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ الاستقلال الى منتصف القرن العشرين، ص١٣.

فحرموا دخول المستعمرات الاسبانية على الجانب وعلى البرتستانت على وجه الخصوص اما نظام الحكم السائد فى تلك المستعمرات فكان نظاما استبداديا يقوم على الحكم المطلق، وبذلك لم تتح الفرص لهذه المستعمرات لممارسة النظام النيابى.

اما المستعمرات الفرنسية فقد ساد فيها نوع آخر من الاستغلال، وهو استغلال الثروة الحيوانية، اى ثروة الفراء والثروة المائية، كما أن الاستعمار الفرنسى قد اتخذ طريقه نحو المجارى المائية استغلالا لتلك الثروة التى تخصص الفرنسيون فى الاشتغال بها. اما نوع الحكم الذى ساد تلك المستعمرات فهو الخضوع المباشر للحكم الفرنسى، اى انها لم تتمتع بنوع من الحكم الذاتى الذى تمتعت به المستعمرات الانجليزية، كما أن الفرنسيين قد تشددوا فى السماح بالهجرة الى تلك المستعمرات، ولم يسمحوا بها لغير اصحاب المذهب الكاثوليكى. وكان من جراء سياسة التضييق على حركة الهجرة ان قل عدد السكان فى المستعمرات الفرنسية عن مثيلاتها الانجليزية بشكل واضح، اذ قدر الخبراء عدد سكان المستعمرات الفرنسية بالنسبة لعدد المستعمرات الانجليزية عند بدء النزاع بنسبة (١ : ١٦) الا انهم رغم قلة عددهم فقد كانوا يتمتعــن بمميزات هامة، منها ان الفرنسيين كانــوا يحتلــون الاجزاء الكنديـــة الممتـــــدة من الشمـــــال الى الجنـــوب حتى حوض نهر المسيسبى على شكل قوس يحيط بالمستعمرات الانجليزية، ويحـــــول بينها وبين التوسع فيها وراء جبال الابلاش كذلك نظرا لخضـــــوع المستعمــــرات الفرنسية للحكم الفرنسى المباشر فقد تمتعت تلك المستعمرات بسلطة قوية موحدة بعكس الحال فى المستعمرات الانجليزية التى سادت فيها أنواع مختلفة من نظم الحكم ومن التمتع باستقـــلال ذاتى له اثره فـــى تفكك تلك المستعمرات وفى وقوفها صفا واحدا امام الخطر الذى يتهددها من قبل المستعمرات الفرنسية.

ولهذا فان النزاع بين الفرنسيين من ناحية والانجليز من ناحية اخرى وبينهم وبين الاسبان قد دعت اليه الظروف التى احاطت بنشأة الاستعمار فى القارة الامريكية. كما زاده ايضا قوة العداء التقليدى بين الدولتين والاختلاف فى وسائل الحكم وفى النظرة الى الدين. كل هذه الاسباب مهدت لقيام النزاع بين انجلترا وفرنسا فى بداية القرن الثامن عشر، وسبب هذا النزاع الذى نشأ فى اوربا فى أول الأمر هو ان ملك اسبانبا قد اوصى بالعرش الاسبانى من بعده لدوق يسمى «دوق انجو» حفيد «لويس الرابع عشر» «ملك فرنسا نظرا لعدم وجود وريث للعرش من الأسرة المالكة الاسبانية. فبعد وفاة ملك اسبانيا ارسل «لويس الرابع عشر» حفيده الى اسبانيا لتولى العرش فوقفت انجلترا ضد تولى الدوق الفرنسى عرش اسبانيا لأن اسبانيا فى ذلك الوقت كانت تضم اليها ممتلكات واسعة مثل الأراضى المنخفضة وميلان ونابلى والمستعمرات الاسبانية فى امريكا.

وهكذا رفضت انجلترا تولى هذا الدوق عرش اسبانيا خشية أن تنضم اسبانيا بمستعمراتها الى التاج الفرنسى فى يوم من الايام، وبذلك يختل التوازن الدولى الذى حرصت انجلترا على التمسك به وعلى تطبيقه، لما فى ذلك من تحقيق للمصالح الانجليزية، ولهذا لجأت إلى تكوين تحالف دولى منها ومن هولندا والنمسا وبروسيا ضد فرنسا، وقامت بين المعسكرين حرب سميت حرب الوراثة الاسبانية وقد امتدت من عام ١٧٠٠ – ١٧١٣ وانتهت تلك الحرب بعقد صلح «اوترخت Utricht» فى عام ١٧١٣. وبمقتضى الصلح استولت انجلترا على المستعمرات الفرنسية فى امريكا وهى «نيوفوندلند» «نوفاسكوشيا» و «خليج هدسون» وجبل طارق فى البحر المتوسط.

والجدير بالذكر أن صلح «اوترخت» لم يكن نهاية لهذا الصراع الذى نشب بين الفرنسيين والانجليز، اذ قام صراع آخر فى عام ١٧٤٤ نتيجة للمشكلة التى ثارت حول وراثة العرش النمساوى ووجد هذا الصراع الذى نشأ فى اوربا صداه فى

المستعمرات الامريكية فتجدد النزاع من جديد وتنافس الطرفان حول الاستيلاء على وادى نهر «أوهايو» الخصيب واستمرت الحرب سجالا بين الطرفين، ولكن سرعان ما تجددت تلك الحرب بشكل اكبر وعلى نطاق أوسع وهى ما سميت بحرب السنوات السبع التى امتدت من عام ١٧٥٦ – ١٧٦٣. وسبب نشوب هذه الحرب فى أوربا اولا هو هجوم الملك «فردريك الأول» ملك بروسيا على الممتلكات النمساوية وانتزاء اقليم «سيليزيا» من النمسا. وانضم اليه فى هذا النزاع فرنسا وولايات «بافاريا» و «سكونيا» وسافورى، وانتهى هذا النزاع بصلح وبعقد معاهدة «بروسلاو» فى عام ١٧٤٢.

غير أنه قد حدث بعد ذلك ان تركت النمسا محالفة صديقتها انجلترا وحالفت عدوتها فرنسا، وانضم الى جانبهما الروسيا والسويد ضد بروسيا وانجترا. حدث هذا فى اوربا وانعكس على المستعمرات الأمريكية. فقد اخذت انجلترا تقوم بهجمات فاشلة على وادى نهر «أوهايو» كما اخذ الفرنسيون وحلفاؤهم من الهنود الحمر فى مهاجمة المستعمرات الانجليزية. ولم تكن المستعمرات الانجليزية فى ذلك الوقت فى حالة تمكنها من صد هذا العدوان، نظرا لتشتت شملها وعدم الاتفاق على رأى معين للوقوف ضد الخطر الفرنسى، ونظراً للصراع الذى نشب بين حكام تلك المستعمرات وبين الاهالى حول الاستئثار بالسلطة.

على أن ثمة عوامل اخرى ساعدت على ضعف المستعمرات الانجليزية منها ان المبادئ التى حصل عليها الانجليز نتيجة للثورة المجيدة فى عام ١٦٨٨. هذه المبادئ الدستورية الهامة لم تحاول انجلترا تطبيقها فى تلك المستعمرات، بل نظرت الحكومة الانجليزية على انها مناطق نفوذ واستغلال لايرقى اهلها الى مصاف الشعب الانجليزى. بل ان الحكومة الانجليزية اصدرت عدة قرارات تتعلق بالملاحة Nevigation Acts فى تلك المستعمرات (١٦٥١ – ١٦٦٠). وقد راعت فى وضع تلك القرارات ان تحقق المصالح الانجليزية تحقيقا تاما دون مراعاة لمصلحة تلك

المستعمرات[١] هذا الى جانب أن الحكومة الانجليزية كانت تنظر الى الضباط الامريكيين نظرة تقل عن نظرتها الى زملائهم الانجليز. لكل هذه العوامل لم تتكاتف المستعمرات الانجليزية للذود عن حياضها ضد الخطر الفرنسى الذى يتهددها من قبل المستعمرات الفرنسية.

على أن هذه الاحوال سوف تتغير نتيجة للجهود التى قام بها الوزير الانجليزى «وليم بت William Pitt» حيث حاول اصلاح العيوب الموجودة فى تلك المستعمرات وذلك باصدار اوامره الى الشركات الانجليزية التى تقوم باستثمار اموالها فى تلك المستعمرات بأن تراعى فى معاملتها مصلحة تلك المستعمرات الى جانب مصلحة الدولة، كما أنه قد اسند بعض المناصب الرئيسية الى الضباط الامريكيين المحليين، كما عاملهم نفس المعاملة التى يعامل بها الضباط الانجليز. كذلك حاول التخفيف من القيود الاقتصادية التى فرضتها انجلترا على اقتصاديات المستعمرات تحقيقا لمصلحتها وبهذه الاصلاحات العديدة أمكن «لوليم بت» أن يعبئ جهود المستعمرات وأن يوحدها حول هدف واحد هو الدفاع عن كيانها ضد الغزو الفرنسى.وبهذا استطاعت انجلترا ان تهاجم القلاع الفرنسية التى كانت منبثة حول مستعمراتها من مصب نهر المسيسبى حتى مدينة «كويبك» فى كندا. واستطاعت الجيوش الانجليزية والامريكية الاستيلاء على تلك المدينة التى تعد من أعظم المدن الفرنسية فى مستعمرة فرنسا الجديدة وذلك فى عام ١٧٥٩. ثم تلا سقوط تلك المدينة سقوط مدينة اخرى هى « مونتريال» فى عام ١٧٦٠ . وبذلك يتم للانجليز الاستيلاء على كندا وتطهير المستعمرات الفرنسية من النفوذ الفرنسى. وفى عام ١٧٦١ انضمت اسبانيا الى جانب فرنسا وحاول الاسطولان الاسبانى والفرنسى انتزاع السيطرة على البحار من الاسطول الانجليزى فلم يستطيعا تحقيق هذا الغرض. ولهذا ارغمت فرنسا على توقيع معاهدة باريس عام ١٧٦٣ ، وتخلت بموجبها عن كندا لانجلترا وكذلك عن كل الأراضى الواقعة شرقى نهر المسيسبى، كما تخلت اسبانيا ايضا عن مستعمرة فلوريدا نظير استرجاعها لجزيرة كوبا التى احتلتها القوات

الانجليزية خلال تلك الحرب. وبذلك تخرج انجلترا من هذه الحرب منتصرة واستطاعت ان تضم الى ممتلكاتها فى امريكا اراضى جديدة. غير أن هذا الكسب المطرد لن يلبث ان يزول نتيجة لتشدد انجلترا فى حكمها للمستعمرات الامريكية مما سيترتب عليه قيام ثورة الاستقلال الامريكية فى بداية الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

وبعد أن تم حسم الصراع الانجليزى الفرنسى لصالح انجلترا فى القارة الامريكية بعقد معاهد باريس عام ١٧٦٣، فقد كان من المنتظر أن تنظم انجلترا علاقاتها مع المستعمرات الأمريكية بحيث تحتفظ لنفسها بحكومة مركزية تشرف على شئون الدفاع والعلاقات الخارجية لتلك المستعمرات وتترك لحكوماتها المحلية حرية التصرف فى شئونها الداخلية وفقا لمصالحها الخاصة. غير أن انجلترا أصرت على التحكم فى الشئون الداخلية للمستعمرات الامريكية مما ادى الى اصطدامها بتلك المستعمرات التى ارادت أن تحافظ على كيانها الذاتى ورفضت السيطرة الانجليزية [١] ولهذا ستنفجر الثورة الامريكية نتيجة لذلك ولعوامل اخرى متعددة نوضحها فيما يلى:

**أولا**: ادى خروج الفرنسيين من المستعمرات الامريكية الشمالية الى اشعار سكان المستعمرات الانجليزية بالامن والطمأنينة بحيث لم يصبحوا من وجهة نظرهم فى حاجة الى حماية انجلترا. وترتب على هذا الشعور أن أصبحوا يضيقون بالامتيازات التى تمتع بها الانجليز من قبل، ونظروا الى تلك الامتيازات على انها شئ لامبرر له. فاذا كان سكان تلك المستعمرات قد قبلوا فى أول الأمر الامتيازات الانجليزية فذلك لانهم كانوا فى حاجة الى حماية انجلترا ضد الاعتداءات الفرنسية. أما وقد زال هذا الخطر فلامبرر اذن لانجلترا لأن تحتفظ بتلك الامتيازات دون مقابل.

**ثانيا**: ان هذا الصراع الذى نشب بين فرنسا وانجلترا فى حرب السنوات السبع كان

بمثابة مدرسة عملية لتمرين الجنود والضباط الامريكيين على اعمال الحرب والقتال، بل لقد ظهر تفوقهم على تلك الحرب على زملائهم من الانجليز الذين ارتكبوا اخطاء فادحة اثناءها.

ثالثا: ان تلك الحرب قد هيأت للمستعمرات الانجليزية فرصة ذهبية لتوحيد افكارها وجهودها فيما يضمن سلامتها وامنها، وقد انعقد لهذا الغرض مؤتمر مستعمرة نيويورك فى عام ١٧٥٤ ورغم أن هذا المؤتمر لم ينجح فى الوصول الى تلك الغاية الا ان فكرة عقد المؤتمر قد اوحت الى تلك المستعمرات ضرورة العمل على توحيد كلمتها وعلى التضامن فيما بينها لدرء الاخطار عنها وتحقيق المصالح المشتركة فيما بينها.

رابعا: تضارب المصالح الاقتصادية بين انجلترا ومستعمراتها فى القارة الامريكية، خاصة وان انجلترا كانت تنظر الى تلك المستعمرات على انها موردا للموارد الخام من جهة ولتصريف منتجاتها الصناعية فيها من جهة أخرى. وعلى اساس تلك النظرة فرضت من القيود ومن القوانين ما يحقق لها هذا الهدف.

ويمكن تقسيم تلك القوانين الاقتصادية التى وضعتها انجلترا دون مراعاة من جانبها لصالح تلك المستعمرات الأمريكية الى اربعة اقسام على النحو التالى:

١ – تحديد انجلترا لانواع الصادرات والواردات التى ابيح لسكان المستعمرات التعامل فيها مع الدول الأخرى. فالزمت انجلترا تلك المستعمرات بالا تصدر أو تستورد من اوربا او من غيرها من الدول بضائع الا على سفن يقودها بحارة من الانجليز. ومعنى هذا ان تستأثر انجلترا بأجور نقل تلك البضائع الى أوربا. هذا من ناحية ومن ناحية اخرى ان تحول بين تلك المستعمرات وبين تكوين اسطول تجارى كبير ينافس الاسطول التجارى الانجليزى فى التجارة مع امريكا. بل لقد تجاوزت انجلترا هذا الحد بفرض ضرائب عالية على الورادات التى تستوردها المستعمرات الامريكية من غير انجلترا. ولهذا لجأ المستعمرون الى

طريقة تهريب تلك البضائع حتى تفرض عليها الضرائب العالية.

٢ - حرمت انجلترا على مستعمراتها الامريكية إقامة انواع خاصة من الصناعات مثل صناعة الاقمشة الصوفية ومنتجات الفولاذ وصناعة القبعات وذلك لتبقى تلك المستعمرات سوقا رائجةو لتصريف المنتجات الانجليزية فى القارة الامريكية.

٣ - حرمت انجلترا على مستعمراتها الامريكية تصدير انواع التبغ والقطران وزيت التربنتينا الا الى انجلترا نفسها، أى أن انجلترا قد احتكرت تلك الاصناف لمصلحتها الخاصة دون ان تتعرض تلك السلع للمنافسات التجارية او لقانون العرض والطلب مما يتنافى مع مصلحة تلك المستعمرات.

٤ - ان الحكومة الانجليزية سنت بعض القوانين التى تكفل حماية الدائنين الانجليز، كما حرمت على تلك المستعمرات اصدار الأوراق النقدية حتى لا يحدث تضخم مالى فى العملة ويترتب عليه الاخلال باقتصاديات البلاد والحاق الضرر بمصلحة الدائنين.

من كل ذلك نرى ان انجلترا قد ذهبت الى ابعد الحدود فى اخضاع اقتصاديات تلك المستعمرات وذلك نتيجة لتكتل رجال الصناعة من الانجليز وضغطهم على الحكومة الانجليزية لاتخاذ امثال تلك القرارات حماية لمصالحهم فى القارة الامريكية. وفى عام ١٦٦٠ تشكلت لجنة انجليزية للاشراف عى تنظيم اقتصاديات المستعمرات، ومراقبة تنفيذ تلك القوانين السالفة الذكر تنفيذا دقيقاً. وخول لها من السلطة ما يمكنها من الغاء كافة التشريعات التى تصدرها حكومات المستعمرات المحلية والتى تتعارض مع تلك اللوائح والقوانين. ولكن بالرغم من ذلك فلم تراعى تلك القوانين بدقة بل كثرت مخالفتها. وقد استغل سكان المستعمرات قيام حرب السنوات السبع بين انجلترا وفرنسا فى خرق تلك القوانين وفى الاتجار مع الفرنسيين خلسة وبيعهم العتاد الحربى والذخائر، بقصد الاثراء السريع وجمع المال حتى ولو عن طريق مساعدة العدو الفرنسى، غير أن

تلك الحالة التى سادت فترة الحرب قد انتهت بانتهائها. فما أن وضعت الحرب اوزارها الا وبدأت انجلترا فى تنظيم شئون المستعمرات وفى محاولة تنفيذ هذه القوانين الاقتصادية تنفيذا دقيقا، فأدى هذا بطبيعة الحال الى زيادة تذمر المستعمرين.

والى جانب تمتع انجلترا بتلك الامتيازات الواسعة، فقد تمتعت ايضا المستعمرات الانجليزية ببعض الامتيازات نتيجة لوضعها السياسى بالنسبة لانجلترا. فمما لاشك فيه ان صادرات تلك المستعمرات الى انجلترا قد فرضت عليها ضريبة بسيطة تخالف تلك الضريبة التى تفرضها انجلترا على سائر الواردات اليها. كذلك شجعت انجلترا بعض المنتجات الزراعية الخاصة مثل زراعة التبغ اذا حرمت زراعة هذا النوع من المحصول فى انجلترا او فى ايرلندا تشجيعا للتبغ الامريكى على الازدياد والانتشار.

وعلى الرغم من استفادة المستعمرات الانجليزية فى امريكا من الاتفاقات التجارية التى عقدتها انجلترا مع غيرها من الدول، فضلا عن تمتع التجارة الامريكية بحماية الاسطول الانجليزى لها، فان تلك المستعمرات لن تقيم وزنا للحكومة الانجليزية عندما تتعارض مصلحتها الخاصة مع مصلحة انجلترا ولما عرف عن تلك المستعمرات من نزعة فردية وحب للاستقلال عن انجلترا فى كل شئونها من اقتصادية وسياسية. وقد استمر هذا النزاع بين انجلترا وبين تلك المستعمرات ما يقرب من قرن من الزمان.

ولهذا فان السبب المباشر لقيام الثورة ضد الحكم الانجليزى فى القارة الامريكية لم يكن نتيجة لتعنت الملك جورج الثالث ملك انجلترا وتمسكه بتنفيذ ما يصدره من قوانين على تلك المستعمرات، بل ان السبب اعمق من ذلك بكثير وترجع جذوره الى ما يقرب من قرن من الزمان.

ومن ابرز الاسباب التى طرأت على الموقف بين المستعمرات الامريكية وانجلترا

هى مشكلة المستعمرات الفرنسية التى وقعت فى ايدى انجلترا أو ما كان يطلق عليه فى ذلك الوقت اسم مشكلة الأراضى الغربية. فانجلترا بعد أن - استولت على مستعمرات فرنسا فى امريكا لم تكن تدرى أى نوع من نظم الحكم يمكن تطبيقه على تلك المستعمرات كما لم تكن على علم بامكانياتها فى التصرف فى اراضى تلك المستعمرات الجديدة. ولهذا ترددت انجلترا فى ان تتخذ موقفا حاسما منها فى الوقت الذى لجأت فيه فرنسا الى تحريض الهنود الحمر الموالين لها على الثورة ضد انجلترا، وعلى مهاجمة مستعمراتها الانجليزية لانها كانت تأمل فى استرجاع تلك المستعمرات مرة ثانية فى يوم من الايام.

وقد نجحت تلك الاساليب الفرنسية فى قيام ثورة عام ١٧٦٣ قام بها الهنود الحمر ضد الحكم الانجليزى، فهاجموا المستعمرات الانجليزية واستولوا على كثير من القلاع فى الاراضى الغربية. وواجه الانجليز تلك الثورة العاتية التى يرجع سببها الى تحريض فرنسا من ناحية والى تنافس الهنود الحمر مع الانجليز على مناطق صيد الحيوانات والفراء. هذا بالاضافة الى أن فرنسا كانت تمنح هؤلاء الهنود بعض المساعدات المادية، ولكن عندما خضعوا لحكم انجلترا رفضت منحهم ماكانوا يتلقونه من عون.

ومن ناحية اخرى حاولت انجلترا ان تتصرف فى الأراضى الجديدة التى تختلفت عن انسحاب الفرنسيين من تلك المستعمرات ولهذا قررت فى عام ١٧٦٣ انشاء ثلاث مستعمرات ملكية هى مستعمرة «فلوريدا» و«غربى فلوريدا» و«كويبك» اما باقى الأراضى الغربية الواقعة بين جبال الابلاش وبين مجرى نهر المسيسبى فقد خصصت للهنود الحمر، وحرم على المستعمرين امتلاك الاراضى. وقد كان لهذا القرار اسوأ الاثر فى نفوس المستعمرين ، اذا ظن هؤلاء بأن المقصود من هذا القرار هو وضع حد لتوسع المستعمرات الانجليزية نحو الغرب، وكانت اكثر تلك المستعمرات تشوقا نحو تلك الأراضى الجديدة هى مستعمرة «فرجينيا

«Virginia» تلك المستعمرة الى ضحت بالكثير من الاموال والانفس فى حرب السنوات السبع بغية الوصول الى اراضى جديدة تكون مجالا حيويا لها نحو الغرب.

بل أن هذا التذمر قد ادى ايضا الى أن شركات الأراضى قد حيل بينها وبين استغلال تلك المناطق الجديدة. هذا بالاضافة الى أن المحاربين الامريكيين قد وعدوا خلال تلك الحرب بمنحهم بعض الأراضى فى تلك المستعمرات الجديدة فى امريكا مكافأة لهم على بلائهم. كذلك اصدرت الحكومة الانجليزية ، قراراً بضم الأراضى الواقعة فى وادى «أوهايو» الى مستعمرة «كويبك» ، وكانت تلك الأراضى الخصبة مطمعا للمستعمرات الانجليزية المجاورة.

وجدير بالذكر أن مشكلة الأراضى الغربية اعتبرت من اهم المشاكل التى ادت الى قيام النزاع بين الجانبين. ولم تكتف الحكومة الانجليزية بذلك بل انها فكرت فى وضع حامية انجليزية قوامها ١١ الف جندى فى تلك المستعمرات لاعتقادها بعدم مقدرة الجنود الامريكيين. وفى نفس الوقت فقد فرضت على تلك المستعمرات ضريبة جديدة لمواجهة النفقات المترتبة على وجود مثل تلك القوة ولو أن تلك الضرائب لم تغط سوى ثلث نفقات القوة.

وبالرغم من أن الحكومة الانجليزية قد فرضت الضرائب المرتفعة على الصادرات والواردات لتلك المستعمرات من غير انجلترا، الا أن حصيلة تلك الضرائب كانت قليلة نظرا لعمليات التهريب التى كانت تجرى على نطاق واسع. ولهذا فكرت انجلترا فى فرض ضريبة جديدة على تلك المستعمرات تتلخص فى فرض ضريبة دمغة على جميع الاوراق الرسمية التى تقدم الى الهيئات العامة او التى يتعامل بها الاهالى مع تلك الهيئات.

غير ان الحكومة الانجليزية لم تشأ أن تفرض تلك الضريبة من تلقاء نفسها بل عرضت تلك الفكرة على المستعمرات الانجليزية لاخذ رأيها فيها، حتى اذا مارفضت تلك المستعمرات الاخذ بتلك الفكرة كان عليها ان تفكر فى باب آخر

يمكن أن تحصل منه ضريبة توازى النفقات التى تتحملها الحكومة الانجليزية فى ادراة شئون تلك المستعمرات. ولكن البرلمانات المحلية رفضت تلك الضريبة بل رفضت مبدأ الضرائب بصفة عامة، فاضطر البرلمان الانجليزى الى اصدار هذا القانون فى فبراير من عام ١٧٦٥ دون نظر الى الاحتجاجات المتتالية من قبل سكان المستعمرات. اذ رأى هؤلاء انه لا يجوز ان تفرض عليهم ضرائب من قبل برلمان يبعد عن مستعمراتهم كل البعد ولايوجد بين اعضائه من يمثل مصالحها ولهذا اجتمع مندوبون عن تلك المستعمرات فى مدينة نيويورك فى اكتوبر من عام ١٧٦٥ للنظر فى هذا القانون وفى مبدأ فرض الضرائب. ويعتبر هذا الاجتماع بحق خطوة من قبل تلك المستعمرات نحو توحيد مجهوداتها، وتقريب افكارها، لمواجهة الخطر الانجليزى، وقد اعلن المؤتمرون انه مع تمسكهم بالولاء للعرض الانجليزى ، الا انهم لايتمتعون بنفس الحقوق والامتيازات التى يتمتع بها الشعب الانجليزى، ومن تلك الحقوق حقهم فى رفض أية ضريبة تفرض عليهم بغير ارادتهم من برلمان لايمثل مصالحهم الحقيقية وقابل سكان المستعمرات هذا الاجراء من جانب انجلترا بمقاطعة البضائع الانجليزية، فقلت الواردات من انجلترا واصيبت التجارة الانجليزية بضربة شديدة. كما صمم سكان المستعمرات على تجاهل قانون الدمغة والتعامل فيما بينهم دون الالتجاء الى تلك الطوابع، فاضطرت الحكومة الانجليزية تحت ضغط اصحاب رؤوس الاموال الانجليزية ونتيجة لكساد التجارة الانجليزية الى الرضوخ لادارة تلك المستعمرات والغاء تلك الضريبة.

ولكن انجلترا فى نفس الوقت تمسكت بمبدأ حق البرلمان الانجليزى فى فرض الضرائب بصفة عامة على جميع اجزاء الامبراطورية البريطانية. كما لجأت الحكومة الانجليزية ايضا الى اصدار قرار يلزم المستعمرين بايواء الجنود الانجليز، وبتزويدهم بالاسلحة والعتاد عند الحاجة اليهم. فزاد هذا بطبيعة الحال من روح التذمر لدى سكان تلك المستعمرات وتمسك البرلمان الانجليزى بحقه فى فرض الضرائب، كما تمسك سكان المستعمرات بعكس هذا المبدأ وهو عدم احقية البرلمان

الانجليزى فى فرض أية ضريبة تمس المستعمرات فكان لابد من التوفيق بين هذين المبدأين، وان تراعى الحكومة الانجليزية مصلحة تلك المستعمرات الى جانب مصلحتها هى. ولكن ركبت رأسها ، ولجأت الى تشديد الرقابة على تنفيذ قوانين الملاحة وعلى فرض الضرائب على الواردات من المناطق الاخرى الى تلك المستعمرات.

وهنا لجأ سكان المستعمرات مرة أخرى الى سلاحهم القديم الا وهو مقاطعة البضائع الانجليزية، وعدم تصدير المنتجات الامريكية الى انجلترا وقامت فى ذلك الوقت مستعمرة «ماساتشوستس» بتقديم لائحة جديدة الى المستعمرات، وطلبت تأييدها فى المبادئ التى تضمنتها تلك اللائحة وهى معارضتها لمبدأ فرض الضرائب دون عرضها على برلمان المستعمرات الأمريكية. وقد احتجت انجلترا على هذا الاجراء، ولجأت الى تهديد مستعمرة «ماساتشوستس» وفى هذا الجو المضطرب نشبت معركة فى مدينة بوسطن فى عام١٧٧٠ بين اهالى تلك المدينة وبين الجنود الانجليز ذهب ضحيتها اربعة من الاهالى. فقام سكان المستعمرات باطلاق كلمة مذبحة على تلك المعركة ، والتهويل من شأنها لاثارة الرأى العام، ضد انجلترا، واتخاذ هذه المعركة مادة لمهاجمة تصرفاتها فى تلك المستعمرات، فاضطرت الحكومة الانجليزية امام تلك الثورة الى التراجع، والى الغاء جميع الضرائب التى فرضتها على الورادات الى المستعمرات الامريكية، فيما عدا ضريبة الشاى التى تمكست بها للاحتفاظ بحقها فى مبدأ فرض الضرائب.

وقد اصبح هذا الخلاف اذن بعد تنازل انجلترا عن تلك الضرائب المختلفة على المبدأ فقط، لأن ضريبة الشاى كانت بسيطة جدا الى درجة ان الشاى الوارد الى تلك المستعمرات كان يباع فيها بثمن اقل بكثير مما كان يباع فى انجلترا نفسها. وتصادف فى ذلك الوقت وهو عام ١٧٧٣ ان رغبت الحكومة الانجليزية فى مساعدة شركة الهند الشرقية الانجليزية على تصريف المخزون لديها من الشاى فى

تلك المستعمرات. ولكن سكان المستعمرات رفضوا قبول هذا الشاى لأن انجلترا تمسكت بحقها فى فرض الضريبة على هذا النوع من المنتجات الزراعية. فقام اهالى «نيويورك» و «فيلادلفيا» بمطاردة السفن المحملة بالشاى وارغامها على العودة الى عرض البحر دون أن تستطيع تفريغ حمولتها فى هذين الميناثين.

غير ان اهالى ميناء «بوسطن» ذهبوا الى ابعد من هذا الحد اذ تزعم احد الاحرار المتطرفين ويدعى «صمويل آدامز» فريقا من الاحرار وتزيوا فى زى حمالة من الهنود الحمر، واستطاعوا الوصول الى السفن المحملة بالشاى والقوا مابها من شاى فى عرض البحر. فثارت الحكومة الانجليزية واعتبرت هذا العمل تهديدا لسلطتها ولجأت الى اتخاذ اجراءات عنيفة، وفرض عقوبات صارمة رغم معارضة المعتدلين من الساسة الانجليز لهذه السياسية الهوجاء ونصحوا الحكومة الانجليزية بضرورة التروى والاعتدال ولكنها اصدرت عدة قرارات تتلخص فى الحد من سلطة حكومة مستعمرة «ماساتشوستس» فى تصريف شئون تلك المستعمرات، وكذلك تنصيب القائد العام الانجليزى حاكما عسكريا عاما للمستعمرات. كما فرضت على ميناء بوسطن غرامة ثمن الشاى الذى ألقى فى البحر. كما قامت باغلاق هذا الميناء حتى يقوم الاهالى بدفع تلك الغرامة وقد ادت تلك الاجراءات بطبيعة الحال الى زيادة روح التذمر والسخط.

وهنا دعت ولاية «فرجينيا» فى ذلك الوقت سائر المستعمرات الاخرى لارسال مندوبين عنها للاجتماع الذى حدث فى مدينة «فيلادلفيا» فى ٥ سبتمبر من عام ١٧٧٤. وقد عرف هذا المؤتمر باسم «الكونجرس الأول» وسيكون من بين المندوبين شخصيات هامة سيلمع اسمها فى تاريخ الولايات المتحدة مثل «جورج واشنطون»[1] «بنيامين فرانكلين» و «جان آدامز» واصدر هذا الكونجوس عدة قرارات مضادة للقرارات الانجليزية وكانت على جانب كبير من الاهمية. وتتلخص تلك

(١) بسام العسلى : جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩)، ص ١٠.

القرارات فى الاعتراف بحق المستعمرات المطلق فى ادارة شئونها الداخلية بموافقة الملك فقط اما البرلمان الانجليزى فليس له حق التدخل فى الشئون الداخلية لتلك المستعمرات،بل ان واجبه يتلخص فى تنظيم التجارة الخارجية فيما يعود بالنفع على جميع شعوب الامبراطورية البريطانية. كما قرر هذا المجلس مقاطعة انجلترا تجاريا، والوقوف الى جانب مستعمرة «ماساتشوستس» فى محنتها، ومؤازرتها فى مواجهة الضغط الانجليزى.

ومما لاشك فيه ان الظروف كانت مهيئة لحدوث هذا الانفجار، وذلك لتمسك كلا الطرفين بمبدئه فى فرض الضريبة. وقد ايقن سكان المستعمرات ان الحرب آتية لامحالة، فاستعدوا لذلك اليوم، وبدأوا يشترون الاسلحة. وقد لعبت فرنسا فى تلك الآونة دورا خطيرا فى امداد تلك المستعمرات بالاسلحة المختلفة وبالمدربين. وقد علم القائد الانجليزى بما اضمره سكان المستعمرات وتأكد بأنه مهاجم فى ميناء «بوسطن» فى أى وقت من الاوقات. ولهذا فقد احتاط للأمر وارسل فى مساء ١٨ ابريل عام ١٧٧٥ قوة حربية قوامها ٨٠٠ جندى انجليزى الى ضاحية قريبة من ميناء «بوسطن» للاستيلاء على بعض الذخائر والمهمات الموجودة هناك وقد علم الاهالى بما عزم عليه القائد الانجليزى، فاتخذوا للامر عدته، وبثوا بعض العيون حول تلك المنطقة ، حتى اذا ما حاول الانجليز مهاجمتها كان على هؤلاء العيون أن يصدروا اشارة الى مندوبين آخرين للاستعداد ومهاجمة الحامية الانجليزية. وتتلخص هذه الاشارة فى رفع مصباح مشتعل. حينما تصل القوة الانجليزية فوق قمة احد ابراج كنيسة قريبة من هذا المكان. وكان على احد الاحرار الامريكيين ويدعى «بول ريفير» بأن يتلقى تلك الاشارة ثم يمتطى صهوة جواده ليعلن الى الاهالى هذا النبأ حتى يستعدوا للأمر. ونتيجة لذلك نشبت بين الفريقين، أى بين الاهالى والجنود الانجليز معركة دامية هزم فيها الاهالى، واستطاعت القوات الانجليزية ان تستولى على الاسلحة والذخائر. ولكن فى اثناء عودة تلك الحامية ستهاجم من جانبى الطريق ويقضى عليها قضاء تاما وبذلك يحقق سكان

المستعمرات انتصاراً تصل انباؤه سريعا الى بقية المستعمرات، فاجتمع شمل سكانها ووثقوا فى انفسهم وتمادوا فى مقامة النفوذ الانجليزى فى المستعمرات الامريكية.

وقد تجمعت قوات المستعمرات الشمالية وحاصرت ميناء «بوسطن» ووقع بين الطرفين صراع عنيف فى يومى ١٦ و ١٧ يونيو عام ١٧٧٥ انتصر فيها الامريكيون مرة ثانية فقويت روحهم المعنوية وشجعهم هذا على التمرد على المسئولين الانجليز، فطردوا الموظفين الانجليز الذين كانوا يتولون بعض المناصب العامة. فلم يصبح اذن هناك مجال لحل هذا الصراع بالطرق الودية بعد ان احتكم الطرفان الى السلاح وكان لابد لأحد الطرفين ان ينتصر على الآخر حتى يوضع حد لتلك المشكلة.

وهكذا دفعت تلك المناوشات الاولى الطرفين الى الاستعداد والتأهب لخوض معركة طويلة، فاجتمع الكونجرس الثانى فى ١٠ مايو ١٧٧٥، وفى هذا الاجتماع قرر اعضاء الكونجرس تنظيم خطة الدفاع وتعيين «جورج واشنطن» قائدا عاما للقوات الامريكية وكذلك رفع الكونجرس ملتمسا الى ملك انجلترا تبرر فيه المستعمرات هذا التصرف من جانبها، وتلقى تبعة تلك النتائج على تعنت الحكومة الانجليزية الذى لامبرر له. وفى نفس الوقت تؤكد تلك المستعمرات بانها لاتبغى من وراء تلك الحركات الانفصال عن الامبراطورية البريطانية، ولكن هدفها هو التمتع بحقوقها كاملة كما يتمتع بها سائر الشعب الانجليزى. ولكن ملك انجلترا لم يقبل هذا التبرير، بل اصر على اخماد تلك الثورة بالقوة، واعلن بأن تلك المستعمرات قد اصبحت فى حالة عصيان تام، واستخدم الجنود الالمان المتسأجرين لقمع الثورة فى المستعمرات الامريكية.

ومن الواضح ان انجلترا لم تقابل هذا التصرف من جانب المستعمرات الامريكية بشئ من التعقل أو الحزم، ولذلك سيلجأ الثوار الى تنظيم شئونهم الداخلية والى ايجاد نوع من التمثيل الدبلوماسى لدى الدول الأوربية المختلفة ليضمنوا بذلك

تأييدها وعطفها على الثورة. كما قام الكونجرس الامريكى بتنظيم شئون الدفاع الداخلى، وتكتيل القوى الامريكية لمواجهة هذا الصراع الخطير. وقد تصرف الكونجرس هذا التصرف الذى يدل على تمتع الولايات بالحرية والاستقلال شأنها فى ذلك شأن سائر الدول الأخرى. فانشاء علاقات دبلوماسية مع الدول الأوربية عمل لايقدم عليه الا كل دولة مستقلة ذات سيادة على اراضيها.

ويلاحظ أن الكونجرس الأمريكى على الرغم من كل ما قام به من اجراءات استقلالية، الا أنه لم يعلن الاستقلال والانفصال عن الامبراطورية البريطانية. والسبب فى ذلك يرجع الى أن الظروف لم تكن مواتية فى ذلك الوقت للامريكيين لاعلان استقلالهم، فطبقة رجال الدين وطبقة كبار رجال الاقطاع واصحاب الاعمال كانت مصلحتها ترتبط ارتباطا وثيقا بمصلحة انجلترا. ولهذا فهى لاتحبذ فكرة الانفصال، لأن هذا سيحرمها من الميزات التى تتمتع بها فى سائر انحاء الامبراطورية البريطانية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان العنصر الغالب فى المستعمرات الامريكية هو العنصر الانجليزى وكان هذا العنصر يعطف بطبيعة الحال على موطنه الاصلى انجلترا. فليس اذن من السهل ان تقطع امريكا علاقتها بانجلترا فى الجولة الاولى من هذا الصراع خاصة وان الناحية العاطفية لعبت دورا هاما فى تاخير اعلان هذا الاستقلال. هذا فضلاً عن خشية بعض سكان المستعمرات من أن يؤدى انسحاب انجلترا من مستعمراتها سيذهب بما للمستعمرات من حقوق وتخضع البلاد لحكم دكتاتورى لايمكن التخلص منه بسهولة.

واذا كانت فكرة انفصال الولايات الامريكية عن الامبراطورية البريطانية قد صادفت بعض العقبات فى أول الأمر، غير أن التجاء انجلترا الى الشدة والعنف واستخدام العناصر الالمانية فى اخماد الثورة، الى جانب ظهور بعض المفكرين الذين حاولوا بكتاباتهم أن يوضحوا للشعب الامريكى بأن إمكان الجمع بين المصالح الانجليزية ومصالح المستعمرات أمر مستحيل، وأن – طبيعة الاحداث تدفع

الامريكيين دفعا الى الاستقلال والانفصال. وقد اثرت تلك الكتابات فى الشعب الامريكى تأثيرا كبيرا، ومالت الاغلبية منه الى الأخذ بفكرة الانفصال.

وهكذا ترتب على هذا الشعور وتلك الاعتبارات ان اجتمع الكونجرس الامريكى فى ٢ يوليو من عام ١٧٧٦ وقرر أن المستعمرات الامريكية قد أصبحت مستقلة وذات سيادة ولاتربطها صلة بالامبراطورية أو بالتاج الانجليزى. وفى ٤ يوليو من نفس السنة وافق الكونجرس على لائحة الاستقلال الأمريكية، تلك اللائحة التى قررت استقلال الولايات المتحدة عن انجلترا وبررت هذا الاستقلال وفى نفس الوقت تضمنت تلك اللائحة المبادئ الاساسية التى سيقوم عليها الحكم فى الولايات المتحدة فيما بعد، فنصت اللائحة على أن الناس ولدوا احرارا متساوين فى الحقوق والوجبات، وان مهمة الحكومة هى المحافظة على تلك الحقوق والواجبات تحقيقا لسعادة الفرد والمجموع، وان الحكومة الغاشمة لاتمثل رغبات الشعب، ويحق له استبدالها وتعيين اخرى بدلها على اساس من العدل والحرية.

وواضح ان الدستور الامريكى قد اخذ بفكرة «جان جاك روسو» فى كتابه العقد الاجتماعى Contract Social » الذى نادى به فى فرنسا والذى طبقته الولايات الامريكية قبل ان تطبقه فرنسا نفسها. وهذا سيدفع الثوار الفرنسيين الى الاخذ بتلك النظرية بعد أن نجحت آراء روسو فى تحقيق الثوار الفرنسيين الى الاخذ بتلك النظرية بعد أن نجحت آراء روسو فى تحقيق مجتمع جديد فى ظل الحرية والمساواة. وسنجد ان الامريكيين ينفذون تلك المبادئ تنفيذا فعليا [1] إذ تضمنت الدساتير المختلفة للولايات تلك المبادئ ، وسيقوم على تنفيذها حكومات تؤمن بها وتعمل على سيادتها. وسيكون لها اكبر الاثر فى جمع كلمة تلك المستعمرات، والى تشجيعها على المضى فى هذا الصراع الطويل.

ومما لاشك فيه أن قرار الكونجرس الامريكى فى ٤ يوليو ١٧٧٦ بالموافقة على

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور): الجمهورية الحديثة ، ص ٤٧ .

لائحة الاستقلال الامريكية، كان خطوة موفقة لانها ستدفع الامريكيين الى الدفاع عن استقلالهم وعن شئ يمتلكونه ، لا عن شئ يسعون لتحقيقه. فهذا القرار قد وضعهم امام الامر الواقع، وجعلهم يستميتون فى الدفاع عن هذا الاستقلال الذى اعلنوه بمحض اراداتهم. ولم يقف الكونجرس الامريكى عند هذا الحد، بل انه اخذ فى تنفيذ نصوص لائحة الاستقلال الامريكية على الدساتير القائمة فى الولايات الامريكية، وسنجد ان الشعب الامريكى سينقسم على نفسه الى قسمين: قسم يؤيد الانفصال عن الامبراطورية البريطانية، وهو عامة الشعب اما القسم الآخر الذى يتكون من اصحاب الاقطاعيات وكبار رجال المال والاقتصاد فى امريكا وكذلك رجال الدين فقد كان يميل الى الاخذ بنظرية عدم الانفصال. وقد وجد هذا الفريق اضطهادا كبيرا من قبل الفريق الآخر، فهاجر منه عدد كبير الى كندا والى انجلترا نفسها.

واذا قارنـــا بين قوة الجانبـــين الانجليزى والامريكـــى المتصارعـــين فاننا سنجـــد ان انجلترا كانت تتمتع بقوة حربية كبيرة، وتمتلك اسطولا بحريـــا عظيمـــا له السيادة على البحار ويستطيع ان يحاصر الشواطـــئ الامريكيـــة، ويمنع كل عـــون الى تلك المستعمرات. اما الجانب الآخر وهو جانب الثوار فكان يفتقر فى حقيقـــة الأمر الى كل مقومات القوة الحربيـــة اذ كان يفتقر اولاً الى العدة، كما كان يفتقـــر الى الرجال لأن نظام التجنيـــد فى ذلك الوقت لم يكن اجباريا، كما لم تكن هناك هيئة عليـــا تستطيع ان تنظم التعبئـــة العامـــة، وان تفرض على كل ولاية من الولايـــات ان تقـــدم قدرا معينا من الرجال اوالمال. بل كان التجنيـــد اختياريـــا، كما كانت الامـــوال التى تنفـــق على تلك العمليات الحربية تأتى عن طريق الهبات القليلة التى تجود بها تلك المستعمرات للمساهمة فى هذا الصراع. ولهذا لجأ الكونجرس الذى لم تكـــن له السلطة فى اجبار تلك الولايات على اتخاذ موقف معين من تلك الحرب ا ذ اضطـــر الى اصدار اوراق نقدية لتغطية نفقات الحرب، كان من نتيجتـــهـــا احداث تضم

مالى كبير اخل بالتوازن الاقتصادى الامريكى، وادى الى ارتفـــاع اثمان نفقات المعيشـــة. ولم يكن يتمتـــع هذا الجانب سوى بايمانه العميـــق فى حريته واستقلاله. كما كان من حسن حظ هذا الفريق ان وجد على رأسه شخصية قادرة هى شخصية «جورج واشنطن».

وفى اليوم السابع والعشرين من اغسطس من عام ١٧٧٦ حدثت بين الجانبين المتصارعين معركة بالقرب من مدينة «نيويورك» انهزم فيها «جورج واشنطن» ورفاقه، فالتجأوا بفلول جيشهم الى ولاية «نيوجرسى» للاعتصام بها، ولكنه مالبث ان اعاد تنظيم قواته، وقام بهجوم مفاجئ على فرقة انجليزية بالقرب من مدينة «ترينتون»، فهزمها واسر منها ما يقرب من الف مقاتل. ثم اتجه بعد ذلك صوب مدينة «برنستون» فى ٣ يناير عام ١٧٧٧، وقضى على الفرقة الانجليزية المعسكرة بتلك المدينة. وقد اضطرت القيادة الانجليزية الى وضع خطة حربية تستطيع بها القضاء على مقاومة الولايات وتمزيق شملها من عدة جهات مختلفة، فسيرت جيشا وهو الجيش الاول من كندا مخترقا ولاية نيويورك الى أن يصل الى مدينة «البانى Albany» فى ولاية «نيويورك». والجيش الثانى ويسير من جنوب بحيرة «أونتازيو» «متجها نحو الجنوب، ثم يتجه نحو الشرق لمقابلة الجيش الأول فى مدينة «البانى» ايضا. اما الجيش الثالث فاتخذ طريقه من خليج «هدسون» مخترقا ولاية نيويورك لمقابلة الجيشين الآخرين فى نفس المكان.

وعلى الرغم من ضخامة تلك العمليات الحربية فلم يكتب لها النجاح وذلك لعدم استطاعة الجيوش الثلاثة التعاون فما بينهما لتحقيق هذا الهدف. كما انها لم تستطع ان تصل الى هذا المكان المتفق عليه فى وقت واحد. فمثلا استطاع جيش المستعمرات الامريكية من ايقاف زحف الجيش الثانى نحو الشرق، كما استطاع الجيش الأول الاستيلاء على ميناء «فيلادلفيا» ولكنه لم يتقدم داخل البلاد لمعاونة الجيشين الآخرين فى عملياتهم الحربية. اما الجيش الثالث فقد استطاع الثوار

الاطاحة به فى مدينة «ساراتوجا Saratoga» وارغامة على التسليم فى ١٧ اكتوبر من عام ١٧٧٧ بعد ان اسروا من قواته ما يقرب من ثلاثة آلاف مقاتل[١].

ولعلنا نتساءل الآن كيف استطاع الثوار سكان الولايات الامريكية الانتصار على قوات انجلترا فى تلك المعارك رغم ما يفتقدون اليه من عتاد ورجال؟ والجواب على هذا السؤال انه يرجع اولا الفضل ايضا لمساعدة الحكومة الفرنسية الفعال للثوار الامريكيين فى صراعهم ضد انجلترا، ففرنسا التى اخرجت من مستعمراتها الأمريكية بعد صراع طويل فى حرب السنوات السبع لم تنس لانجلترا هذا العمل، بل انتهزت هذه الفرصة لكى ترد لانجلترا الصاع صاعين، وأن تكيل لها بنفس الكيل الذى كالت لها به من قبل. فأمدت الثوار الأمريكيين سرا بالاسلحة وبالرجال المدربين الذين استطاعوا اعداد الجيش الامريكى اعدادا حربيا راقيا. كما وضع الاسطول الفرنسى فى خدمة تلك الولايات لمحاصرة قطع الاسطول الانجليزى، وابطال مفعول حصاره لتلك الولايات. وكان لهذ العون الفرنسى الكبير اثره فى نجاح مقاومة الامريكيين، اذا قامت فرنسا بعبء كبير فى اعداد الجيش الامريكى بمعظم المعدات الحربية، وبنصب رجاله تقريبا. هذا بالاضافة الى ما قام به الاسطول الفرنسى فى المياه الامريكية لمساعدة الثوار.

وهكذا استطاع الثوار بمساعدة فرنسا الانتصار فى أول الأمر على الجيش الانجليزى وسنجد ان انتصار الأمريكيين فى «ساراتوجا» قد شجع فرنسا على المجاهرة بعدائها لانجلترا، والاعتراف رسميا باستقلال الولايات المتحدة[٢] فى اليوم السادس من فبراير من عام ١٧٧٨، كما دخلت فى حلف عسكرى مع تلك الولايات.

---

(١) موجز التاريخ الأمريكى، أصدرته وكالة الاعلام الامريكية بالتشاور مع الدكتور وود جراى أستاذ التاريخ الأمريكى فى جامعة جورج وشنطن، فى العاصمة وشنطن والدكتور ريتشارد هو فستدتر أستاذ التاريخ فى جامعة كولومبيا فى نيويورك، ص ٣٦.

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة، ص٤٧.

هذا بالاضافة الى دخول اسبانيا الحرب وسائر الدول الأوربية تدخل مع الولايات المتحدة فى تمثيل سياسى، أى ان تتبادل التمثيل السياسى مع تلك الولايات.

واذا استعرضنا العمليات الحربية التى حدثت بعد ذلك فتتلخص فى أن «جورج واشنطن» قد عسكر بقواته خلال شتاء عام ١٧٧٧ / ١٧٧٨ على بعد عشرين ميلا غربى مدينة «فيلادلفيا» وفى صيف عام ١٧٧٨ اشتبكت قواته العسكرية مع قوات انجلترا فى ولاية «نيوجرسى» ولم يستطع احد الطرفين ان يثبت تفوقه على الأخر. ولهذا لجأت انجلترا الى محاربة الولايات المتحدة الامريكية فى الميدان الجنوبى، فترسل جيشا كبيرا تحت قيادة قائد انجليزى يدعى «كورن واليس Corn Wallis» فاستولى هذا القائد على مدينة «سافانا» بولاية «جورجيا» ،وعلى مدينة «تشارلستون» فى «ثاوث كارولينا» وذلك فى عام ١٧٨٠ . ولكنه لم يستطيع التوغل داخل الأراضى الامريكية اكثر من ذلك.

وهنا قام «جورج واشنطن» فى ذلك الوقت بجمع اكبر عدد من القوات الامريكية والفرنسية تحت قيادته لمحاولة الهجوم الشامل على القوات الانجليزية فى الجنوب. واستطاع «جورج» بقواته البالغة ست عشرة الف جندى مهاجمة ميناء «يورك تاون» الذى اعتصم به القائد الانجليزى «كورن واليس» ، فى نفس الوقت الذى حاصر فيه الاسطول الفرنسى هذا الميناء كى يحول بين القوات الانجليزية وبين الهروب عن طريق البحر، وبذلك حوصرت القوات الانجليزية من ناحيتى البر والبحر فى آن واحد. وامام هذا الحصار الشديد اضطر القائد الانجليزى «كورن واليس» الى التسليم «لجورج واشنطون» فى اليوم التاسع عشر من اكتوبر عام ١٧٨١ بعد أن اسر من قواته ما يقرب من ثمانية آلاف مقاتل. وبهذا النصر الذى احرزه الامريكيون يكون الصراع بين الطرفين قد شارف على النهاية. وتبع ذلك

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) سياسة الولايات المتحدة الخارجية ص ١٩ .

(٢) Pratt, Julius W. : A History of United States Foreign Policy, P.27.

انسحاب القوات الانجليزية من جميع المدن الامريكية ، فيما عدا مدينة «نيويورك».

وفى اليوم الثالث من شهر سبتمبر من عام ١٧٨٣ عقدت معاهدة الاستقلال النهائية التى اعترفت فيها انجلترا رسميا باستقلال الولايات المتحدة الامريكية [١] مع تنازلها للجمهورية الامريكية عن كل الأراضى الواقعة فيما بين جبال الابلاش ونهر المسيسيبى[٢]، كما تنازلت لاسبانيا عن ولاية «فلوريدا»، وبهذا التنازل من قبل انجلترا اتيحت لتلك المستعمرات فرصة التوسع نحو الغرب. وبذلك تم وضع حد للنزاع بين الطرفين تمهيدا لايجادعلاقات طيبة تتخذ اساسا للعلاقات بين تلك الولايات وبين كندا التى كانت خاضعة للحكم الانجليزى حينذاك.

وبعد أن تحقق النصر للولايات المتحدة الامريكية بحصولها على الاستقلال تنازل القائد العظيم «جورج واشنطون» امام الكونجرس الامريكى عن تلك المسئوليات الضخمة التى القيت على عاتقه ما يقرب من ثمانى سنوات ضاربا بذلك اروع الامثلة لروح الديمقراطية التى اصبحت المثال للشعب الامريكى بعد ذلك. وسنجد انه على الرغم من انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن انجلترا انفصالا سياسيا، الا انها لم تستطيع فى حقيقة الأمر أن تنفصل عنها فى النواحى الاخرى، فاذا نظرنا الى النواحى الثقافية والدستورية والقضائية، وكذلك الى عادات الامريكيين والى تقاليدهم نجد ان فترة القرن ونصف التى امضتها انجلترا فى حكمها لتلك الولايات قد اثرت فيها الى حد كبير وصبغتها بالصبغة الانجليزية. ولعل هذا هو مادفع بعض المؤرخين الى اعتبار الصراع بين انجلترا والولايات الامريكية نوعا من النزاع الذى جرى داخل انجلترا ذاتها بين عامة الشعب من جهة والارستقراطية الانجليزية من جهة اخرى.

وكان على الولايات المتحدة الامريكية بعد ان فازت باستقلالها أن توطد دعائم مركزها السياسى والا تتورط فى حرب خارجية، فلا مناص فى ذلك الوقت من

اتباع سياسة السلام والايمان بمبدأ الحياد كما كان على الولايات المتحدة أن توطد الروابط فيما بينها رغم اختلاف المصالح والاهواء والامزجة لدى سكان الولايات. واصبح يقع على عاتق الولايات المتحدة ان تخلق من سكان هذه الولايات المتعددة المنازع شعبا واحدا تربطه قومية وان تجعل له هدفا واحدا مشتركا[1]. ولهذا جعلت للشئون الخارجية وزارة مختصة للولايات المتحدة كلها ولم يعط ذلم الحق للولايات منفصلة، وجعل الرأى النهائى فى تقريرها لمجلس الشيوخ الامريكى، ووزير الخارجية الامريكية مسئول امام رئيس الجمهورية لا امام ذلك المجلس. وظل رئيس الجمهورية منذ عهد الاستقلال وحتى وقتنا الحالى يتمتع بنفوذ كبير فى تصريف الشئون الخارجية[2].

وعلى أية حال فان استقلال الولايات المتحدة الامريكية فى بداية الربع الاخير من القرن الثامن عشر كان حدثا جليلا فى تاريخ العالم الجديد وكان ايذانا بميلاد دولة جديدة ستعيد التوازن مع العالم القديم، وستسهم بدور ايجابى فى تاريخ العالم الحديث والمعاصر وفى النظام العالمى الجديد.

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة، ص٤٩ .

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة الولايات المتحدة الخارجية ص٢٢ .

# الفصل الثالث

# حركة الاصلاح الدينى فى مطلع العصور الحديثة

# الفصل الثالث

## حركة الاصلاح الدينى فى مطلع العصور الحديثة

تعد حركة الاصلاح الدينى التى شهدتها القارة الأوربية فى مطلع العصور الحديثة من أهم نتائج حركة النهضة الأوربية فى جانبها العقائدى، بحيث ظهرت آنذاك توجهات ومذاهب دينية جديدة انعكست على النواحى السياسية وأثرت فيها، وأدت إلى اعادة تقسيم خريطة أوربا السياسية والمذهبية، كما أعادت تشكيل العلاقات بين دول أوربا المختلفة سياسياً وعقائدياً.

وقد قام بالدعوة لحركة الاصلاح الدينى فى أوربا فى مطلع العصور الحديثة مجموعة من الرواد والمصلحين الذين تأثروا بحركة النهضة الأوربية وأعادوا النظر فى كل الأمور الدينية بعد تحول الكنيسة الأوربية من مرحلة القوة والاستقامة الى مرحلة الضعف والانحلال. وقد ظهر هؤلاء الرواد المصلحين فى مواقع عديدة فى أوربا وإن اتفق معظمهم فى الآراء والتوجهات. فقد أجمعوا على ضرورة العودة الى الكتاب المقدس ومحاولة تعريف الأوربيين بفحواه عن طريق ترجمته الى اللغات القومية من جهة، واصدار رسائل متنوعه لتفسير أحكامة من جهة أخرى. كما أجمعوا على الحد من سلطان البابوية ورجال الدين ورفضوا قرار الحرمان وصكوك الغفران وحددوا مهام رجال الدين وحقيقة رسالتهم. بل أن بعضهم نادى بقومية الكنيسة المحلية وانفصالها عن سلطة البابوية واستقلالها بمذهب معين. واستند بعض هؤلاء الرواد الى الملوك والحكام والاسرات العريقة ليدعموا مركزهم أمام تحدى البابوية، وافتقد بعضهم هذه المساندة فكان مصيره أن يفنى ضحية السلطة بعد أن عجز عن ترويضها.

وقد اختلف وضع رجال الدين ومسلكهم عما كانوا عليه فى بداية العصور الوسطى إذ كان ينظر إلى رجل الدين على أنه مثل أعلى فى الزهد والتصوف. فإذا ماخرج عن تصوفه وزهده، وأخذ يهتم بملذات الدنيا فقد قيمته وهيبته فى نظر الناس، وهذا ما انتهى إليه أمر الكثيرين من رجال الدين فى نهاية العصور الوسطى.

كما كان القصر البابوى فى يوم من الأيام منبع الفضيلة، فإذا به فى عهد بعض البابوات ينقلب إلى قصر يزخر بمتاع الدنيا وأبعد ما يكون عن حياة الفضيلة. وحدث فى ذلك الوقت أن نشأ الصراع الطويل بين الامبراطورية والبابوية. ومع أن الامبراطور لم ينجح فى القضاء على قوة البابا، إلا أن هذا الصراع قد ترتب عليه إضعاف القوتين معا. وحالة الضعف هذه مكنت الحكام والملوك وكذلك المصلحون من مهاجمة البابا والكنيسة ومناقشة سلطتها وما يجوز أن تقوم به وما لايجوز.

زد على ذلك أن تدخل البابوات فى الشئون السياسية قد سبب أضراراً بليغة سواء فى ايطاليا أم خارجها. وترتب على ذلك وجود أحزاب متضاربة اساءت إلى العلاقات مع الولايات الايطالية المختلفة. فتدخل الكنيسة فى الشئون السياسية قد أضر بمصالح ايطاليا، وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا.

كما أننا لاننسى أن عصر النهضة قد دفع الناس إلى التحرر العقلى وإلى النقد، فكما طبقوا قواعد النقد على ما وقع فى أيديهم من تراث الأقدمين فقد طبقوها أيضا على الدين فأخذوا فى مناقشة أقوال الكنيسة ونقد تصرفاتها. وقد ظهر ذلك فى المانيا بصفة خاصة لأسباب متباينة، أولها أن المانيا كانت مفككة من الناحية السياسية، وكانت منقسمة إلى ولايات ومدن مختلفة خضعت لأنواع متعددة من نظم الحكم، ولم يكن للامبراطورية سلطة تذكر إلى جانب سلطة الأمراء والحكام. وقد حاول الامبراطور مكسميليان أن يحقق لألمانيا شيئاً من الوحدة بأن يصلح نظم الحكم والضرائب ولكنه لم ينجح فى ذلك، وظلت المانيا مفككة منقسمة على نفسها بفضل تنافس امرائها. ولكنها بالرغم من تفككها السياسى فقد وُجد فيها نشاط فنى صناعى وكان مركز هذا النشاط الفنى مدينة نورمبرج، وهى تفوق فى هذه الناحية مدينة فلورنسا بالنسبة لايطاليا، وسنجد أن هذا النشاط الذى ظهر فى المانيا فى عصر النهضة قد اتجه إلى الاصلاح الدينى وإلى الموسيقى والبحث

العلمى. وهنا نتساءل ما هى العوامل التى أدت إلى أن تتخصص المانيا فى تلك النواحى دون غيرها ...؟.

ويمكننا القول بأن المانيا لم تكن على درجة من الغنى مثل ايطاليا التى استغلت موقعها الجغرافى فى جمع ثروة كبيرة مكنتها من الاتجاه إلى الفنون الجميلة كالبناء والنحت والتصوير.

كذلك لم تستفد المانيا من حركة الكشف الجغرافى ولا من الثروة التى تدفقت على أوربا نتيجة لتلك الحركة. فهى إذن فقيرة بالنسبة لغيرها من الدول، والغنى كما نعلم يساعد على تقدم الفنون.

أما من الناحية الدينية فقد عاشت المانيا فى فوضى دينية شاملة وعاش رجال الدين معيشة فاسدة أبعد مايكونوا عن تعاليم الديانة المسيحية. وقد أوجدت هذه الحياة الدينية الفاسدة روحا من التذمر والاستياء ضد رجال الدين. وأزكت تلك الروح ما كان يتغلغل فى نفوس الألمان من ميل نحو الوثنية التيوتونية القديمة. كل هذا شجع الألمان على عدم احترام البابا ورجال الدين.

كما أن ظروف المانيا السياسية قد عرضتها لضغط الكنيسة بشكل واضح، فإذا نظرنا إلى ممتلكات الكنيسة فى ألمانيا نجد أنها تشمل ثلث مساحة الأرض، وهذا أعطى للكنيسة سلطاناً كبيراً فى تلك البلاد.

هذا بالإضافة إلى أن ضعف سلطة الامبراطور قد مكنت الكنيسة من توطيد سلطتها على حساب سلطة الامبراطور. ولم يستطع حكام الولايات الالمانية أن يقفوا حائلا بين تقدم سلطة البابوية وانتشارها[١].

لهذا فقد اتجه النشاط الالمانى إلى مقاومة التدخل الاجنبى فى صورة البابا ومحاولة ابعاده أو القضاء عليه، فظهرت حركة الاصلاح الدينى كأحسن تعبير عن

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ٨٤ - ٨٥.

روح المقاومة الالمانية لنفوذ الكنيسة الدخيل.

**١) حركة جون ويكليف فى انجلترا John Wycliffe (١٣٢٨ - ١٣٨٣م):**

لم تكن حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر فى المانيا هى أولى الحركات التى قامت لاصلاح شئون الكنيسة الكاثوليكية، بل سبقتها حركات أخرى قام بها مصلحون آخرون مثل جون ويكليف John Wycliffe المصلح الانجليزى الذى قام بحركته الاصلاحية فى القرن الرابع عشر فهاجم الكنيسة وتعاليمها التى لاتتمشى مع مبادئ الديانة المسيحية. وهاجم شخصية البابا ورجال الدين، ونادى بمبدأ إشراف الملكية الانجليزية على شئون الكنائس الانجليزية بعد أن وصل الفساد حدا لايمكن السكوت عليه، وهاجم بشدة صكوك الغفران Indul-gencies وكيف أن رجال الدين قد استغلوا تلك البدعة فى جمع الأموال الوفيرة من المسيحيين وإيهامهم بأن تلك الصكوك تمحوا ما تقدم من ذنبهم وما تأخر وتدخلهم جنات النعيم.

ونادى ويكليف أيضا بأن الأساس الذى ينبغى أن تقوم عليه سلطة الكنيسة هى الفضيلة وأن السلطة الدينية يجب ألا يكون مرجعها الكنيسة وتفسيرات رجال الدين التى تصدر عن أهوائهم، أما مرجع تلك السلطة يجب أن يكون للكتاب المقدس نفسه.

كما نادى أيضا بأن البابا يجب أن يتبع تعاليم الدين، وأنه إذا حاد عن تلك التعاليم وجب عزله. وأوضح للناس بأن رجال الدين ما هم إلا بشر مثلهم لم يؤتوا القوة السحرية الخارقة التى كانوا يضفونها على أنفسهم والتى اعتقد فيها معظم الناس. ولكن بالرغم من ذلك ظل على ولائه للكنيسة الكاثوليكية حتى آخر أيام حياته[1].

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور): فى مطلع العصور الحديثة، ص ٣٥٨.

وتعتبر حركة جون ويكليف فى انجلترا أساساً لحركة الاصلاح الدينى فى بريطانيا وخصوصا أن ما نادى به من ضرورة إشراف الملكية الانجليزية على شئون الكنيسة كان أساساً فى حركة انفصال الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما.

**٢) حركة جون هس John Huss فى بوهيميا فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر (١٣٧٣ - ١٤١٥م):**

أما الحركة التالية فى سلسلة حركات الاصلاح الدينى فقد قام بها جون هس John Huss (١٣٧٣ - ١٤١٥) فى بوهيميا وهى منطقة يسكنها شعب من التشيك من أصل صقلبى يعتنق المسيحية الارثوذكسية. وقد خضع هؤلاء للمؤتمرات الالمانية وتحولوا نتيجة لذلك من المذهب الارثوذكسى الشرقى إلى المذهب الكاثوليكى الغربى، وأدى هذا التحول بطبيعة الحال إلى حالة من القلق والاضطراب فى العقائد الدينية نتيجة اعتقاد هؤلاء السكان بالمذهبين الدينيين. ونشأ عن ذلك أن سادت بينهم روح النقد لقواعد الدين وخصوصا ما يتعلق منها بالمذهب الجديد.

وقد تزعمت جامعة براغ حركة النقد هذه حوالى منتصف القرن الرابع عشر. وفى تلك البيئة المضطربة من الناحية الدينية ظهر جون هس فى هذه الجامعة، فأخذ فى مهاجمة الكنيسة فى بوهيميا وما هى عليه من فساد العقيدة متأثراً فى ذلك بوجهة نظر جون ويكليف الانجليزى إلى حد كبير. فآراؤه التى نادى بها تتفق فى مجموعها مع ما نادى به جون ويكليف من قبل مع اختلافات بسيطة أوجدتها ظروف كل من البلدين.

فمن تعاليم جون هس ضرورة الرجوع إلى نص الكتاب المقدس لفهم قواعد الدين الصحيحة دون الاعتماد على الشروح والتفسيرات التى وضعها البابوات طبقا لأهوائهم كما نادى أيضا بأن البابا لايطاع إلا بقدر تمسكه بقواعد الدين وتعاليمه. وحمل أيضا على بيع صكوك الغفران. وحاول فى نفس الوقت أن ينشئ

فى بوهيميا كنيسة وطنية مستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية ولكنه لم يستطيع ذلك وتمكن خصومه من توجيه تهمة الزندقة إليه وإلى الحكم عليه بالموت غرقاً فى أوائل القرن الخامس عشر.

### ٣) حركة سافونا رولا Savona Rola فى فلورنسا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر:

ومن الأمثلة على حركات الاصلاح الدينى حركة سافونا رولا Savona Rola (١٤٥٢ - ١٤٩٨) الراهب الثائر بفلورنسا فى أواخر القرن الخامس عشر. كانت حركة سافونا رولا ترمى إلى اصلاح المجتمع على أساس دينى وتحقيق العدالة الاجتماعية لأكبر عدد ممكن من الناس، وأن يشترك الشعب فى حكم نفسه بنفسه بالطريقة التى تلائمه.

وقد انتابه فى وقت من الأوقات الشعور بالضيق من المجتمع الذى يعيش فيه، فاعتزله فى أحد الأديرة. ثم تدرج فى سلك الرهبنة إلى أن أصبح رئيساً لدير سان مارك بفلورنسا أثناء حكم لورنزو العظيم، من أسرة مديتشى.

وقد أطاحت فرنسا بحكم أسرة آل مديتشى بفلورنسا أثناد غزوها لتلك المدينة، وقد أعقب هذا الغزو شعور أهل فلورنسا بضرورة تغيير نظم الحكم السائدة. ورأى فريق من زعمائها أن يقتبسوا من النظام الديمقراطى بالبندقية. ولكن الآراء تشعبت وتضاربت ووجد أهل فلورنسا أن أحسن حل لهذا الموقف المائع هو الاعتماد على مشورة سافونا رولا بعد أن ذاع صيته بين الناس [١].

وكان سافونا رولا يرى الابتعاد عن السياسة وأن يكرس جهوده لاصلاح شئون الدين، ولكن الظروف أجبرته على النزول إلى خضم السياسة فى أدق الفترات التى مرت بفلورنسا وكان على سافونا رولا أن يجد مخرجا للحالة القلقة فى فلورنسا،

---

(١) حسن عثمان (دكتور) : سافونا رولا الراهب الثائر، ص ٥.

فلم يتردد فى اتخاذ ما يراه من أوجه الاصلاح، وأن يمزج بين الدين والسياسة فى خلق نظم سياسية جديدة ومجتمع جديد وهو بطبيعته لايميل إلى الاستبداد، ولذا فهو لايؤيد الحكم الاستبدادى ويرى فى الحكام المستبدين شرا يجب التخلص منه والقضاء عليه. فلا غرابة إذا يمم وجهه شطر النظام الديمقراطى الذى يستطيع أن يكون للشعب الدور الأول فى حكم نفسه، ووجد فى النظام السائد فى البندقية وفى مجلسها الكبير خير مثل يحتذى.

وبناء على توصيات سافونا رولا انشئ المجلس الكبير بشروط خاصة وبجانبه مجلس آخر يدعى مجلس الثمانين وهو أشبه بمجلس الشيوخ. ورغم تلك الاصلاحات المتعددة التى ادخلت على نظام الحكم فى فلورنسا، فسنجد أن الأمور لم تستقر فيها وبدأ التنازع من جديد بين الأحزاب السياسية المختلفة وبدأت عناصر الرجعية من أنصار أسرة ميدتشى تظهر من جديد وتعمل للقضاء على سافونا رولا.

ولو أن الحركة السياسية والاجتماعية لم تنجح النجاح المطلوب بل إن زوال شخصية سافونا رولا قد أتى على معظم النظم التى ادخلها إلا أنه بحق يعتبر من بناة الجمهوريات الحرة فى العصر الحديث، وممن أسهموا بنصيب وافر فى هذا الميدان. ويمكننا إن نرجع فشل تلك الحركة إلى عدة أسباب:

أولاً: إن سافونا رولا قد أخفق فى اجتذاب أهل فلورنسا إليه لفترة طويلة كما أنهم لم يهتموا بتعاليمه الدينية، فلم يكن لهم اهتمام بالمسائل الدينية، فكل ما كان يهمهم هو الحرية السياسية التى حرموا منها فى عهد أسرة المديتشى.

ثانياً: عندما نادى سافونا رولا بالعفو عن أنصار العهد السابق، دخل منهم عدد كبير فى زمرة انصاره، ولكنهم أخذوا بعد ذلك يعملون لاسقاطه والقضاء عليه.

ثالثاً: إن سافونا رولا كان يعتمد على صداقة فرنسا فى تذليل ما يعترضه من صعاب وقد أغضب بهذا العمل الجبهة الداخلية المعادية للتدخل الاجنبى، وقد

انتهز البابا هذه الفرصة فوقف بجانب الجبهات المعارضة لسافونا رولا للتخلص منه نتيجة لجرأته على الكنيسة ورجال الدين.

وقد حاول البابا اسكندر السادس أو بورجيا أن يسترضيه فعرض عليه منصب الكردينالية فرفضه. فأصدر البابا ضده قرار الحرمان فلم يعبأ به وواصل تحديه لسلطة الكنيسة. وقد وجد أهل فلورنسا أن وجود سافونا رولا يثير ضدهم المشاكل من نواح متعددة، ورأوا أن من الأفضل التخلص منه، فدبروا له مؤامرة وحملوا الحكومة على اصدار الأمر بالقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته وألقى بها فى النهر.

وخلاصة القول فإن حركة سافونا رولا قد أخفقت فى أن تحقق كل ماترمى إليه، ولكنها فى نفس الوقت نجحت فى مهاجمتها للكنيسة، وفى إظهار عيوبها أمام أعين الناس. وهذا ما شجع غيره من المصلحين أمثال مارتن لوثر على أن يواصل هذا الهجوم وأن يربط أيضاً مثله بين السياسة والدين.

كما أن محاولته إنشاء جمهورية حرة فى فلورنسا قد مهد السبيل لقيام الجمهوريات المختلفة فى العصر الحديث.

**٤) حركة ارازمس Erasmus الهولندى الأصل فى المانيا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر:**

أما الحركة الأخرى فى سلسلة حركات الاصلاح الدينى فقد قام بها ارازمس Erasmus Desiderius (١٤٦٧ - ١٥٣٦) فى أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر. وارازمس هذا هولندى الأصل لقى تعاليمه الدينية فى باريس وفى اكسفورد وتنقل بعد ذلك بين ايطاليا وانجلترا ثم استقر به المقام بعد ذلك فى المانيا من عام ١٥١٤ إلى وفاته فى عام ١٥٣٦.

نال ارازمس تقديراً كبيراً من رجال الكنيسة ومن الأمراء والحكام على السواء رغم هجومه على الكنيسة وعلى تصرفات رجال الدين. فكان ارازمس إذن يتمتع

بمنزلة كبيرة بين أدباء عصره وعلمائهم. وقد نال ارازمس تلك المرتبة لأنه كان من الرواد الأول الداعين إلى العلم الجديد، ولكنه لم يتطرف فى دعوته فرغم حبه للحركة العلمية فى عصر النهضة إلا أنه كان يكره روح الوثنية التى تغلغلت فى حركة النهضة فى ايطاليا. وهو فى نفس الوقت كان يمقت الرهبنة التى تعتبر المثل الأعلى للحياة فى العصور الوسطى.

وقد دفعه إيمانه بالعلم إلى نشر التوراه من جديد فى صورة متقنة لما وجده من كثرة الأخطاء التى وردت فى الترجمات المختلفة التى سبقت عصره.

ونظراً لتلك النظرة المعتدلة لأمور الدين لم يلق ارازمس من العنت والاضطهاد ما لاقاه غيره من المصلحين. وظل حتى آخر أيام حياته من رجال الكنيسة الكاثوليكية المخلصين لتعاليمها.

فهو إذن لم يذهب إلى ما ذهب إليه غيره من المصلحين مثل ويكليف وجون هس بالمناداة بايجاد كنائس قومية لأن هذا العمل من شأنه أن يشجع على نمو الروح القومية المتطرفة. تلك الروح التى أدت إلى قيام الحروب الكثيرة فى أوربا وإلى نشوء الملكيات الاستبدادية فى أوربا والتى تعتبر من أهم النتائج السياسية لعصر النهضة.

فقد رأى ارازمس بثاقب بصره أن هذه النزعة القومية الانفصالية ستؤدى بوحدة أوربا السياسية وستقوم على انقاضها حكومات استبدادية.

ولكن مما يؤخذ على ارازمس أنه رغم وقوفه على مواطن الداء لم يستطع القضاء عليه بل أخذ ينادى بالرجوع إلى تعاليم الانجيل للاهتداء بها دون الاعتماد على جهل رجال الدين.

ويمكننا القول بأن ارازمس كان من أشد المخلصين للكنيسة الكاثوليكية رغم

هجومه الشديد على نقائصها، فهو إذن يريد بهجومه أن يصلح إعوجاجها وأن يقومها حتى لاتشتد النزعة القومية الانفصالية التى تؤثر سلبياً على الوحدة الدينية لأوربا[1].

**٥) حركة مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) فى المانيا:**

لحركة مارتن لوثر أهمية خاصة فى التاريخ الحديث لأنها بدأت بسيطة فى شكل هجوم على الأوضاع السيئة الموجودة بالكنيسة ونقد تصرفات رجال الدين، ثم تطورت من هذا المظهر البسيط إلى حركة قوية هوجمت فيها العقيدة الكاثوليكية نفسها.

ولكن هذه الحركة لم تقتصر على الناحية الدينية فحسب، بل لقد تطورت وأصبحت حركة سياسية أيضا بعد انضمام الأمراء الألمان لها لاتخاذها أداة لمنع التدخل الاجنبى فى شئون المانيا فى صورته الدينية أو السياسية. ولهذا فإن حركة مارتن لوثر تعتبر حركة قومية ضد التدخل الاجنبى أياً كان نوعه.

ثم تتطور الحركة تطوراً اجتماعياً عندما ثار المزارعون من أنصار مذهب لوثر ضد أمرائهم وأصحاب الأراضى والضياع.

فحركة مارتن لوثر إذن من الحركات الهامة التى تركت أثراً عميقاً فى المانيا بصفة خاصة وفى أوربا بصفة عامة. وستؤدى إلى ظهور حركة أخرى مضادة من داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها أطلق عليها اسم Catholique Reformation وستؤدى أيضا إلى نشأة الحرب الأهلية فى فرنسا، وإلى حرب أوروبية هى حرب الثلاثين عاماً خلال القرن السابع عشر.

أما عن زعيم تلك الحركة وقائدها فهو مارتن لوثر، ولد فى مقاطعة سكسونيا من أسرة فقيرة فى سنة ١٤٨٣ وقد تربى تربية دينية. وكان منزله المدرسة الأولى

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ١٠٤.

التى تربى فيها التربية الدينية الأولى، وسيكون لهذا أثره العميق فى حركته الاصلاحية فيما بعد. وقد نشأ فى طفولته فى جو قلق مضطرب، وفى فزع دائم من توسع الأتراك العثمانيين فى شرق أوربا آنذاك.

وكان مارتن لوثر فى صغره يرتزق من الغناء فى الكنائس وفى الطرق، وعندما انتعشت حالة أسرته المالية بعثت به إلى جامعة ارفورت سنة ١٥٠٠ واتجه فى دراسته وجهة قانونية كرغبة والده. فدرس القانون والأدب والفلسفة والموسيقى، ولكن فجأة تحول عن هذا الميدان إلى حياة الرهبنة ووهب نفسه للكنيسة، ويعللون حدوث هذا التحول المفاجىء إلى فقد أحد أصدقائه المخلصين، وإلى حادث تعرض له وكاد يودى بحياته، فاقسم بينه وبين نفسه على أن يهب نفسه للكنيسة إذا ما نجا من الموت. وقد بر مارتن لوثر بوعده ودخل فى سلك الرهبنة للقديس أوغسطين فى سنة ١٥٠٥، وعكف على دراسة الكتاب المقدس وكتب الأقدمين ثم عين استاذاً لعلم اللاهوت فى جامعة وتنبرج.

وقد امتاز مارتن لوثر بميزات الخُلق الالمانى من صرامة الخُلق وقوة الشخصية والثقة بالنفس والقدرة على التأثير على الغير.

قام مارتن لوثر بمعارضة الكنيسة الكاثوليكية لأول مرة فى سنة ١٥١٧، وذلك عندما وصل الراهب الدومنيكى تتزل Tetzal إلى مدينة ويتنبرج لبيع صكوك الغفران ولم تكن صكوك الغفران جديدة على الناس، بل كانت متداولة قبل لوثر. ولكن حدث أن رأى البابا إعادة بناء كنيسة القديس بطرس فأصدر عدداً ضخما من صكوك الغفران وبعث برسله إلى جميع أنحاء أوربا لجمع المال اللازم لهذا الغرض. وقد صحب هذا العمل دعاية ضخمة من قبل الكنيسة ورجال الدين وروجوا لبيعها بمختلف السبل بل لقد بلغ بهم الاسفاف إلى حد ادعاء أن تلك الصكوك تغفر للإنسان ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بل أن المغفرة تتسع لمحو ذنوب الآباء والأصدقاء. فكان هذا التجاوز لحدود الدين مدعاة لهجوم مارتن لوثر على

الكنيسة. بل إن مارتن لوثر فى هذا كان يعبر عن رأى غالبية الألمان، كما كان يعبر عن القومية الالمانية ومقاومة التدخل الأجنبى[1].

بدأ مارتن لوثر هجومه على الكنيسة بأن علق احتجاجه المعروف على أبواب كنيسة وتنبرج، الذى هاجم فيه صكوك الغفران هجوما عنيفا، وأعلن عن استعداده لمناقشة أى فرد فيما جاء فيه.

لم يكن مارتن لوثر يعلم بأن مهاجمته لتلك الصكوك ستنقلب إلى حركة خطيرة، وستؤثر إلى حد بعيد فى سياسة أوربا فى العصر الحديث، وستكون محور المنافسات والحروب الأهلية والدولية التى نشأت فى هذا العصر.

وسنتعرض الآن للخطوات التى سارت فيها الحركة والتى أدت إلى نموها ونجاحها فى آخر الأمر.

أولاً: كانت ألمانيا من الناحية الزمنية خاضعة لحكم الامبراطور شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وكان شارل يحكم أكبر امبراطورية موحدة عرفها التاريخ منذ عهد شارلمان ولكنها بطبيعة الحال لم تكن خاضعة لنظم حكم واحدة، بل كانت مقسمة إلى ولايات وإلى وحدات صغيرة يقوم على حكم كل منها وال طبقاً لظروفها الخاصة. ولهذا فقد اقتصرت سلطة الامبراطور على الناحية الأسمية فى معظم أجزائها وأصبحت المشكلة المتعذرة الحل بالنسبة لأباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة هى ايجاد نوع من الحكم الموحد وضمان سلام نسبى لهذه الامبراطورية المتسعة الارجاء.

وإن كان شارل الخامس قد نجح فى معالجته لبعض المشاكل الداخلية، إلا أنه قد أخفق فى ايجاد وحدة المانية لولاياتها المتفرقة.

وكان شارل الخامس من المخلصين للمذهب الكاثوليكى، ولكنه لم يكن

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : فى مطلع العصور الحديثة، ص ٣٧٣.

متعصبا له، ولهذا فقد نشأت مقاومته لمذهب لوثر على أساس سياسى أكثر منه دينى، وذلك لاعتقاده بأن تلك الحركة الدينية ستعمل على زيادة التفكك وعدم الوحدة، مما قد يؤدى إلى انفصال تلك البلاد سياسيا عن الامبراطورية الرومانية المقدسة. ولكنه فى نفس الوقت لايميل إلى استخدام الشدة والعنف ضد لوثر وأعوانه، ويؤثر استخدام اللين والتفاهم، على أمل أن تلك الحركة لن لتلبث أن تموت بمضى الوقت وقد ساعد هذا الموقف من قبل شارل الخامس على تهيأة الجو الملائم لنمو الحركة واشتدادها.

ثانياً: هذا من ناحية ظروف المانيا السياسية، أما من ناحية شخصية مارتن لوثر والدور الذى قام به للسير فى دعوته الاصلاحية، فنلاحظ أن مارتن لوثر كان فى نظر الشعب الالمانى المثل الأعلى للخلق الالمانى، ففيه الجرأة والصراحة وقوة التعبير والقدرة على اجتذاب القلوب حوله. وفيه أيضا الخلاص من تدخل الكنيسة الدينى ومن سيطرة الامبراطور الضعيف فالتفاف الالمان حوله فيه أكثر من معنى واحد، ففيه اصلاح شئونهم الدينية وأهم من هذا أو ذاك تخليصهم من سيطرة البابوية الايطالية الدخيلة ومن خضوعهم لسيادة الامبراطور الاسبانى شارل الخامس.

ثالثاً: وقد استغل مارتن لوثر الأوضاع الداخلية السائدة فى الولايات الالمانية فى السير بدعوته خطوات واسعة إلى الأمام. فوجد أن سلطة الامبراطور ضعيفة، وأن الأمراء يتمتعون بسلطات واسعة فى إدارة شئون ولاياتهم. فإذا فكر الامبراطور فى القيام بعمل حربى للقضاء على تلك الدعوة، فلا يمكن ذلك إلا بموافقة الأمراء الألمان وكان من الصعب على الامبراطور شارل الخامس الحصول على هذه الموافقة.

كذلك لم تكن الظروف المحيطة بالامبراطور شارل الخامس تسمح له بأن يتخذ خطوات حاسمة ضد تلك الحركة نظراً لمشاغله المتعددة فى ذلك الوقت،

فكان بينه وبين فرنسا حروب كثيرة، بالإضافة إلى مشاكله فى ايطاليا وفى الأراضى المنخفضة وفى محاربته للبربر فى شمال افريقيا، ومقاومته للتهديد العثمانى لممتلكاته فى شرق أوربا.

رابعاً: من الأسباب التى أدت إلى نجاح دعوة مارتن لوثر، أنه نادى بأن المانيا يجب أن تكون للالمان فقط، وهذه دعوة سياسية وجدت آذانا صاغية من قبل الالمان، نظراً لما عانوه من التدخل الأجنبى فترة طويلة من الزمن. وقد كره الالمان البابا لأنه ايطالى قبل كل شئ، وكرهوا الامبراطور لأنه اسبانى، وقد ساعد هذا الكره على التفاف العناصر الالمانية حول مارتن لوثر، فلم يعد لوثر فى نظرهم داعية دينيا فحسب، ولكن زعيماً قوميا أولا وقبل كل شئ. ولهذا فقد نجحت دعوته لأنها دعوة إلى التحرر من قيد السيطرة الاجنبية.

وظل الامبراطور فى تفكير مستمر بين الأقدام والاحجام، ولم يتدخل تدخلا فعليا لمقاومة الحركة إلا بعد مضى ثلاثين سنة على قيامها وبعد أن اشتد عودها وكثر اتباعها.

خامسا: أخذت الدعوة إذن إلى اصلاح احوال الكنيسة تنتشر ويتسع نطاقها وفشلت البابوية فى أن تضع حداً لهجمات لوثر فأصدر (البابا ليو العاشر) ضده قرار الحرمان. فقابل لوثر هذا القرار بالسخرية واحرقه على مرأى من الناس فى وتنبرج. ورأى الامبراطور شارل الخامس عقد مجمع فى ورمز Wormes سنة ١٥٢١ للنظر فى تلك المشكلة ودعى لوثر لحضور هذا المجمع. وحاول أصدقاؤه أن يحولوا بين لوثر وبين حضور هذا المجمع خشية أن يفعلوا به ما فعلوه فى جون هس من قبل. ولكن لوثر رفض الاذعان لرجائهم وذهب إلى المجمع بعد أن أمنه الامبراطور وأخذ فى مناقشة الأعضاء والدفاع عن آرائه بقوة وحزم وانفض المجمع دون الوصول إلى اتفاق بين الطرفين ودون أن يتراجع مارتن لوثر أو يعدل عن آرائه.

سادساً: وإزاء تلك النتيجة أصدر الامبراطور قرار حرمان لوثر من حماية القوانين الدينية والسياسية كما صدر إليه الأمر بمغادرة ورمز. وفى ذلك الوقت تقدم فردريك منتخب سكسونيا لحمايته باعتباره أستاذاً فى جامعة وتنبرج. وفى قصر هذا الأمير أو فى قلعته على أصح تعبير عكف مارتن لوثر على ترجمة الانجيل إلى اللغة الالمانية. وسيكون لتلك الترجمة أثر واضح فى نمو الأدب الالمانى.

سابعاً: ولم تقف مجهودات الامبراطور عند هذا الحد، بل دعا إلى عقد مجلس آخر فى مدينة نورمبرج سنة ١٥٢٢ لنفس الغرض، ورفض أعضاء مجلس الدايت الالمانى الخضوع لرغبات الامبراطور والوقوف ضد الحركة اللوثرية، بل لقد أبدوا استياءهم من تدخل البابوية فى شئون الولايات الالمانية.

ثامناً: وفى ذلك الوقت بدأت تظهر فى الأفق بعض العوامل التى أثرت على مجرى الحركة فحدث أن قام الفرسان الالمان بهجوم شديد على الأمراء ورجال الدين، وكان هدفهم من القيام بمثل هذا العمل ادخال بعض الاصلاحات بالقوة، كمنع تداول صكوك الغفران ومنع البابا من التدخل فى الشئون الالمانية وانقاص عدد رجال الدين. وقد قامت تلك الحركة بطبيعة الحال كرد فعل لثورة مارتن لوثر الدينية، ولو أن مارتن لوثر لم يحرض هؤلاء الفرسان على القيام بتلك الحركة إلا أننا لانستطيع أن نغفل الدور الذى قامت به ثورة مارتن لوثر فى تهيئة الاذهان للقيام بمثل تلك الأعمال. فالحركة اللوثرية فى طبيعتها خروج على الكنيسة وعلى الاوضاع القائمة، وما قامت حركة هؤلاء الفرسان إلا لتحقيق هذا الغرض أيضاً.

تاسعاً: بل لقد كان من رد فعل تلك الحركة الاصلاحية قيام ثورة الفلاحين الالمان فى جنوب وجنوب غرب المانيا، إذ ظن هؤلاء الفلاحون حركة مارتن لوثر هدفها الحرية والتخلص من كل القيود الدينية أو السياسية. ولماكانت تلك الطبقة تعانى من سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية الشئ الكثير، فقد

علقت آمالا عريضة على مارتن لوثر، واعتقدت فيه الزعيم الروحى والمصلح الاجتماعى الكبير الذى سيستطيع اخراجها من قيود الذل والعبودية. فقاموا بثورتهم الشهيرة فى جنوب وجنوب غرب المانيا مطالبين بالغاء حقوق الاقطاع التى اثقلت كاهلهم، وكذلك الغاء الضريبة العشرية التى كانت تفرض على المواطنين لحساب الكنيسة الكاثوليكية كما طالبوا أيضا بتعليمهم مبادئ الدين الصحيحة والمستمدة من الكتاب المقدس.

واشتعلت نار الحرب الأهلية فى سنة ١٥٢٤ ووقف مارتن لوثر فى حيرة، فهو بعاطفته يميل إلى تحسين حالة تلك الطبقة الكادحة المظلومة ولكنه فى نفس الوقت لايقر مطلقا الخروج عن طاعة الحكومة. فالطاعة للسلطة الحاكمة من الأسس الجوهرية التى قامت عليها دعوته.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد اعتمد مارتن لوثر فى محنته بعد صدور قرار الحرمان من حماية القوانين المدنية ضده بعد انقضاض مجمع ورمز على حماية أحد الأمراء، فهو إذن مدين فى حمايته وحماية دعوته على مساندة الأمراء الالمان. ولذا فمن مصلحة الدعوة تأييد الأمراء ضد ثورة الفلاحين وهذا ما حدث بالفعل. فوقف مارتن لوثر موقفا عدائياً من تلك الثورة، وحث الأمراء على اخضاعها فلا غرابة إذن إذا ما خسر مارتن لوثر الزعامة الشعبية وتأييد الفلاحين. ولكنه لم يهتم كثيراً بهذه الخسارة، لأنه لم يكن يعتمد فى نجاح دعوته على طبقة العامة بقدر اعتماده على تأييد بعض الأمراء وعلى سلطة الحكومة وعطف الطبقة الوسطى.

عاشراً: وفى مدينة (شبير Speier) وفى عام ١٥٢٦ عقد مجلس الدايت اجتماعه للنظر فى تلك المشكلة وقرر بعد بحث طويل ترك حرية اختيار المذهب الدينى لكل أمير من حكام الامارات الالمانية حسب رغبته. وكان صدور هذا القرار المعقول نصراً جديداً لحركة لوثر، فأقيمت الكنائس اللوثرية فى بعض الامارات الالمانية مثل هس وبراندنبرج وسيليزيا وشلزفج وهلشين.

ولكن حدث في سنة ١٥٢٩ أن اجتمع في مدينة شبير مجمع آخر يقرر سحب القرارات السابقة التي اصدرها المجلس الأول. فاحتج اتباع لوثر على هذا القرار الجديد، فسموا بالبروتستنت (المحتجين) واضطر لوثر واتباعه أن يكونوا جبهة متحدة من الامارات البروتستنتية للدفاع عن مصالحهم سمى بحلف شمالكلد Schmalkald League ذلك في عام ١٥٣١ وبإنشاء هذا الحلف تنتقل الدعوة من مرحلة سلمية اعتمدت فيها على قوة الحجة والاقناع إلى مرحلة أخرى جديدة تقوم على استخدام القوة والعنف في الدفاع عن المذهب الجديد.

ويعتبر إنشاء هذا الحلف أيضاً تحدياً صريحاً لسلطة الامبراطور، ولكنه لم يقابل القوة بمثلها، فقد آثر سياسة التفاهم واللين ريثما ينتهي من مشاكله المتعددة في ايطاليا ومع فرنسا من جهة، والاتراك العثمانيين من جهة أخرى. أي أنه أجل الاحتكام إلى السلاح لحل هذا النزاع إلى فرصة أخرى تكون أكثر ملاءمة بالنسبة إليه. وقد واتته تلك الفرصة بعد عقد صلح كرسبي مع فرنسا في سنة ١٥٤٤، فأخذ في إعداد قوات حربية كبيرة لمهاجمة المانيا وخصوصا بعد أن أخذت الدعوة في الانتشار السريع، وبعد أن دخلت اغارات المانية كثيرة في المعسكر اللوثرى، ومعنى هذا ضياع النفوذ الامبراطورى من المانيا وفشل تكوين الوحدة الالمانية التي كانت أهم أهداف الامبراطور.

وفي عام ١٥٤٦ هاجمت قوات الامبراطور الأراضي الالمانية بعد أن غادر مارتن لوثر الحياة الدنيا، وحدثت بين الطرفين معركة حربية على نهر الألب سنة ١٥٤٧ أطلق عليها موقعة مهلبرج Muhlburg انتصرت فيها قوات الامبراطور وقضت على كل مقاومة لها في المانيا. وكان في استطاعة الامبراطور في ذلك الوقت أن يفرض الحل الذى يراه، ولكنه آثر حل تلك المشكلة بشئ من التفاهم. فعقد مجلس الدايت الالماني بمدينة اوجزبرج Augsburg وأصدر هذا المجلس ما يسمى بالنظام المؤقت ريثما تحل المشكلة حلاً نهائياً. وقد شمل هذا النظام الجديد بعض العناصر من المذهبين الكاثوليكي والبروتستنتي، أي أنها محاولة للتوفيق بين

تعاليم المذهبين الدينيين.

ولكن هذا الحل لم يرض الطرفين المتنازعين فلم يقبل الكاثوليك أن يعامل البروتستنت بمثل هذا التسامح، كما عارض البروتستنت أيضا إقامة الشعائر الدينية الكاثوليكية داخل الولايات البروتستنتية، وقد كانت الظروف فى هذه المرة فى غير صالح الامبراطور، فلم يجرؤ على استخدام القوة من جديد لظهور مشاكل جديدة وجهت نظر الامبراطور إلى خارج حدود المانيا.

فمن هذه المشاكل التى ثارت فى وجه الامبراطور مقاومة الأمراء الالمان لزيادة نفوذه، ولتدخله فى الشئون الالمانية، فهو حاكم أجنبى أولا وقبل كل شئ، سواء فى نظر الأمراء البروتستنت أم الكاثوليك وإن تدخله فى المسائل الالمانية سيضر بهم على السواء. ولذا فقد قاوموا هذا التدخل بكل قوة مستغلين فى ذلك الظروف العصيبة المحيطة بالأمراء ففى ذلك الوقت ساءت العلاقات بينه وبين أخيه فرديناند حاكم النمسا بشأن وراثة عرش الامبراطورية.

وفى عام ١٥٥٢ قام حاكم سكسونيا بهجوم مفاجئ على قوات الامبراطور وأنزل بها هزيمة مفاجئة إلى حد أن الامبراطور نفسه كاد يقع فى الأسر.

وقد حاول الامبراطور شارل أن يستعيد نفوذه من جديد فى أن ينتزع من أيدى الفرنسيين فلم ينجح وأخيراً اضطر إلى التنازل عن العرش، فدعى مجلس الدايت الالمانى للانعقاد، فى أوجزبرج Augesburg فى عام ١٥٥٥ لوضع حل عملى لتلك المشكلة. وقد اصدر المجلس قرارات متعددة أهمها:

أولاً: لم يهتم المجلس بفكرة توحيد المانيا من الناحية الدينية ولكنه ترك لكل ولاية حرية اختيار المذهب الذى ترتضيه. أى أنه لم يعطى الحرية الدينية للفرد بل أعطيت للولاية، وبناء عليه فمن لايتفق مذهبه مع مذهب الولاية التى يعيش فيها، فعليه أن يرحل عنها إلى ولاية أخرى تتفق معه فى المذهب.

ثانياً: اعترف المجلس بالمذهبين الكاثوليكي والبروتستنتي، ولكنه لم يعترف بمذهب كلفن الذي أخذ ينتشر في ذلك الوقت خارج حدود المانيا.

وسيستغل الكاثوليك عدم اعتراف البروتستنت بمذهب كلفن في إذكاء العداوة بين الطرفين إضعافاً لكلا الجانبين.

ثالثاً: اتفق أعضاء المؤتمر على ابقاء ولايات الكنيسة التي تحولت إلى المذهب البروتستنتي قبل عام ١٥٥٢ في يد امرائها البروتستنت، أما الولايات الأخرى التي تحولت بعد هذا التاريخ فتعود ثانية إلى الكنيسة الكاثوليكية.

هذه هي أهم الشروط التي اتفق الطرفان على احترامها والسير بمقتضاها حقنا للدماء ولحاجة الامارات إلى الهدوء بعد هذا الصراع الطويل ولم تحقق قرارات مؤتمر اوجزبرج بطبيعة الحال كل ما كانت تصبوا إليه الامارات الالمانية من أهداف. وستضطر المانيا إلى خوض حرب طويلة في النصف الأول من القرن السابع عشر وهي حرب الثلاثين عاماً لتضع حداً نهائياً لتلك المشكلة بمقتضى معاهدة وستفاليا.

ويمكننا القول بأن تلك الحركة قد أدت إلى نتيجتين هامتين:

الأولى: أنها استطاعت أن تقضي على وحدة أوربا الدينية التي استمرت قرون طويلة.

الثانية: أن تلك الحركة قد عملت على ايجاد الكنائس المحلية الحكومية الخاضعة لسلطة رأس الدولة. وكان مارتن لوثر متأثراً في ذلك بالمصلح الانجليزي جون ويكليف.

كما ترتب أيضا على قرارات اوجزبرج أن بدأت الكنيسة الكاثوليكية تتنبه للخطر المحدق بها، وأخذت تحاول اصلاح عيوبها فنشأت جماعة الجزويت للقيام بحركة اصلاحية أطلق عليها اسم الحركة اليسوعية[1].

(١) محمد محمود السروجي (دكتور): معالم التاريخ الأوربي الحديث، ص ١٠٤.

### ٦) حركة تسفنجلى الاصلاحية فى سويسرا:

قامت فى سويسرا حركة اصلاحية أخرى تزعمتها شخصية سويسرية عرفت بحبها للدراسات الدينية والسياسية تدعى تسفنجلى Zwingli وقد ظهر هذا المصلح الدينى فى مقاطعة عرفت باستقلالها الدينى والسياسى. وتلقى دراسته بجامعة بال واهتم بصفة خاصة بدراسته لتعاليم القديس أوجستين وبالدراسات الإنسانية. وكغيره من المصلحين لم تعجبه حالة الكنيسة ولا ما تردى فيه رجال الدين من الفساد. فطالب بالحرية الدينية والفكرية كأساس لفهم الدين الفهم الصحيح.

وعندما عين تسفنجلى بمدينة زيورخ، وكانت مستقلة عن البابا من الناحيتين الدينية والسياسية، اتسع نشاطه وأخذ فى مناقشة المسائل الدينية والسياسية وهاجم الكنيسة لبيعها صكوك الغفران.

وفى عام ١٥٢٣ نشر خمس وستون رسالة تعتمد فى أساسها على الكتاب المقدس، نادى فيها بوضع حد لعبث رجال الدين، وذلك بإشراف الحكومة على الكنيسة. كما طالب أيضا بحل الأديرة.

وقد انتشرت مبادئه هذه بين طبقة الفلاحين، كما أيدتها الحكومة لما تضمنته من المطالبة بإشراف الحكومة على الكنيسة. فهذه الحركة إذن قد حظيت بتأييد الطبقة العامة والحكومة على حد سواء، وقد منحها هذا الصفة الشعبية الديمقراطية شأنها فى ذلك شأن حركة مارتن لوثر قبل قيام ثورة الفلاحين. وبعد حدوث تلك الثورة أصبحت حركة مارتن حركة اتوقراطية فبينما كانت الحركة اللوثرية محافظة كانت الحركة التسفجلية ثورة ديمقراطية، وهذه نقطة خلاف بين الحركتين.

وقد أحدث انتشار هذا المذهب الجديد فى زيورخ خلافاً وانقساماً فى التحالف السويسرى فبعض الولايات انضمت إلى تستفجلى وايدته، والبعض الآخر عارضه، ولم تظهر الفوارق واضحة بين المذهبين التسفنجلى واللوثرى فى بادئ الأمر، ولكن

عندما بدأ تستفنجلى تحديد مذهبه تحديداً دقيقاً بدأت الفوارق تبدو واضحة بعض الشئ إلى أن انتهى الأمر بوجود خلافات أساسية بين المذهبين.

أدى الخلاف بين الولايات المؤيدة لمذهب تسفنجلى وبين الولايات الكاثوليكية الأخرى إلى نشوب حرب بين الفريقين انضمت فيه فرنسا إلى جانب اتباع تسفنجلى ولم يحل هذا الانضمام بينهم وبين الهزيمة فى موقعة كابل Kappel فى سنة ١٥٣١ حيث قتل سفنجلى نفسه فى تلك المعركة وعقد بين الطرفين صلح كابل وهو شبيه إلى حد كبير بصلح اوجزبرج الذى عقد بين الكاثوليك واللوثريين. فقد اعترف كابل بالوضع الراهن فى سويسرا. أى أن تبقى المقاطعات التى أيدت الحركة كما هى دون أى تغيير. وكذلك ترك لكل مقاطعة الحق فى إدارة شئونها الدينية كما تشاء ودون اكراه.

على أن محاولة تسفنجلى نشر مذهبه فى سويسرا وفشله فى تحقيق هذا الهدف أدى إلى انتقال الزعامة الروحية من زيورخ إلى جنيف التى ستكون مركزاً لنشاط حركة كلفن.

### ٧) حركة كلفن الاصلاحية فى فرنسا:

إذا تركنا سويسرا وانتقلنا إلى فرنسا لوجدناها مسرحا لحركة اصلاحية أخرى هى حركة كلفن Calvin ولد جون كلفن فى مقاطعة بكاردى Picardy فى الشمال الشرقى من فرنسا فى عام ١٥٠٩ من أسرة فرنسية وتلقى دراسته الدينية والقانونية بها، وكان لدراسة القانون أثرها العميق فى تعاليمه الدينية وفى مذهبه الدينى. وقد اعتنق كلفن المذهب البروتستنتى واستفاد من تعالى القديس اغسطين ومن مذهب لوثر.

وفى عام ١٥٣٢ قام بنشر كتاب التسامح لسنيكا الفيلسوف. ولما كانت فرنسا تضيق الخناق على الخارجين على الكنيسة الكاثوليكية، وجد كلفن أن من الأفضل مغادرة فرنسا إلى سويسرا، لعلمه بأن الحالة هناك مهيأة لدعوته. وبالفعل

فقد كانت مدينة جنيف تابعة للسيادة الاسمية لدوق سافوى وكانت مركزاً هاماً للثقافة نظراً لقربها من الثقافة الفرنسية والايطالية والالمانية فهى إذن ذات صبغة عالمية وككل المراكز العالمية لاتهتم كثيراً بالنواحى الأخلاقية. أما من الناحية السياسية فكان النزاع على السلطة فيها قائماً على أشده بين ممثل الكنيسة والحاكم الإدارى – والسكان ودوق سافوى.

ولهذا فقد كانت مركزاً صالحاً لتعاليم كلفن وسياسته. وفى أثناء إقامة كلفن بمدينة بال السويسرية نشر كتابه الشهير Christianae Religionis Institutio وفيه أعلن بجرأة وبصراحة ضرورة الاعتماد على الكتاب المقدس كمرجع نهائى فيما يتعلق بالمسائل الدينية، كما نادى أيضا بأن تكون حرية الاعتقاد مكفولة للجميع.

وعاش كلفن فى جنيف ما يقرب من الثمانية والعشرين عاماً كرسها فى توطيد دعائم مذهبه الجديد، ولقد حاول أثناء إقامته بتلك المدينة أن يضع قانونا لإصلاح الحالة الاخلاقية ونظراً لشدة وطأة هذا القانون غضب عليه أهل المدينة وتقرر نفيه خارجها ولكنه أعيد إليها مرة ثانية.

وقد عمل كلفن على إنشاء كنيسة مستقلة وفقا لمبادئه ذات صبغة عسكرية ولها صلة وثيقة بالإدارة السياسية كى يضمن لها النجاح. وكما كان تسفنجلى الحاكم الديمقراطى لمدينة زيورخ، أصبح كلفن أيضا حاكماً اتوقراطيا لمدينة جنيف، ولكن اصلاحات كلفن ستكون أبقى أثراً وأعم من اصلاح زميله تسفنجلى.

وفى اصلاحاته العديدة حاول كلفن أن يسد النقص الموجود بالمذهب البروتستنتى ووضع قوانين صارمة لايحيد عنها فمن اصلاحاته الكثيرة وضع قانون لمدينة جنيف لارشادها من الناحية الروحية كما كون كذلك نقابة لاتباعه من رجال الدين وفرض عليها نظاماً عسكرياً صارماً. وأنشأ نظاماً تعليمياً يعتمد فى أساسه على دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية. وأصر على ضرورة حضور اجتماعات

الكنيسة، وراقب الأخلاق فى المدينة بكل شدة وعاقب على الزنا والخروج على الدين.

وبهذه القوانين الصارمة استطاع كلفن أن يسيطر على مدينة جنيف سيطرة تامة. ومع أن مذهب كلفن جاء ليكمل ما فى البروتستنتية من نقص، إلا أن هناك فوارق جوهرية بين المذهبين نتيجة للاختلاف فى كلا الشخصيتين. وكذلك الاختلاف فى الظروف السياسية. فبينما كان لوثر ينادى بضرورة سيطرة الدولة على الكنيسة، كان كلفن يرى عدم سيطرة الدولة على الكنيسة كما كان كلفن أكثر اهتماماً من لوثر بالنظام والقوانين.

ولن تتفق الدعوتان فى أن كلا منهما قد أدت خدمات جليلة للغة فكان لترجمة كلفن الانجيل إلى اللغة الفرنسية نفس الأثر الذى تركته ترجمة لوثر إلى اللغةالالمانية.

ويمكننا القول بأن مذهب كلفن قد أدى خدمات كبيرة للبروتستنتية وكان بمثابة الدم الجديد الذى أحياها وجدد نشاطها وحدد عقائدها ودافع عنها، وإليه أيضاً الفضل فى استقلال القسم الشمالى من الأراضى المنخفضة.

وإذا كانت البروتستنتية قد جاءت إلى فرنسا من جنيف، فإن فرنسا قد لعبت دوراً هاماً فى حركة الاصلاح التى بدأت فى أوائل القرن السادس عشر على أيدى نفر قليل من الإنسانيين من أمثال Le Fevre وبريكونى Briconnet ومارجريت Margarett أخت الملك فرانسوا الأول.

قام Le Favre بترجمة خطابات القديس بطرس، وكذا الكتب المقدسة الأربعة، واهتم تلميذه Briconnet بالناحية العملية لحركة الاصلاح. وكان هؤلاء المصلحون يرون اصلاح شئون الكنيسة دون الرجوع إلى روما فى هذا الشأن.

ثم اعقب الحركة اللوثرية حركة أخرى ظهرت فى فرنسا بظهور كلفن ونشره

لكتابه Christianae Religionis Institutio وكان البرلمان الفرنسى من أشد المعارضين لحركة الاصلاح الدينى والمضطهدين للبروتستنت. ولكننا سنجد أن هذا الاضطهاد يحدث رد فعل قوى فى نمو البروتستنتية، إلى الحد الذى ترى فيه الملكية فى فرنسا ضرورة التدخل لوقف تلك الحركة والقضاء عليها فى عهد هنرى الثانى وترتب على ذلك إنشاء محاكم لمحاكمة المارقين. وفى سنة ١٥٥١ صدر منشور شاوبريان بحرمان البروتستنت من بعض الحقوق المدنية.

وستكون الفترة فيما بين ١٥٥٨ و ١٥٥٩ مملوءة بحروب دينية طويلة شغلت فترة غير قصيرة من تاريخ فرنسا إلى صدور مرسوم Nantes فى سنة ١٥٨٨ الذى أباح للهيجونت Huguenots (اتباع كلفن) حرية العقيدة فى فرنسا.

وكما انتصرت العقيدة اللوثرية فى المانيا بعد حروب طويلة انتصرت الحركة الكلفنية فى فرنسا بعد حروب مماثلة.

وفى نهاية الأمر سيقضى رشليو على استقلال الهيجونوت، وسيطردهم لويس الرابع عشر من فرنسا بعد سحب مرسوم نانت.

## توجهات حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا واسكتلندة

كان الشعب الانجليزى بطبيعته لايهتم اهتماماً كبيراً بالمسائل الدينية أو الفقهية كغيره من الشعوب الأخرى. فالانجليز مشهورون بميلهم إلى المحافظة فى جميع شئونهم سواء منها السياسية أو الدينية، فهم يؤمنون بالتطور التدريجى ولايميلون إلى الحركات الانقلابية أو المفاجئة.

فإذا نظرنا إلى الكنيسة الكاثوليكية فى انجلترا فى أوائل القرن السادس عشر لوجدنا أن هذه الكنيسة كانت تتمتع بنوع من الاستقلال عن كنيسة روما. ولم يكن هذا وليد القرن السادس عشر، بل لقد حرصت الكنيسة الانجليزية طوال العصور الوسطى على أن تحتفظ بنزعتها القومية.

ولهذا نجد أن معظم الشعب الانجليزى قد وقف إلى جوار مليكه هنرى الثامن فى صراعه مع البابوية، لأنه وجد فى هذا الصراع دفاعاً عن قومية الكنيسة الانجليزية واحتفاظاً بمركزها القديم. ولذا لم يبد الشعب الانجليزى اهتماماً كبيراً عندما خطا هنرى الثامن خطوته الجريئة بفصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما، لأن هذا الانفصال لم يصحبه أى تغيير فى أسس العقيدة الدينية.

وهناك فارق هام بين حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا وحركات الاصلاح الأخرى التى نشأت فى أوربا. وهو أن حركة الكنيسة الانجليزية لن تتحقق عن طريق المنادين بالاصلاح الدينى من أمثال جون ويكليف وغيره، وإنما جاءت عن طريق رغبة شخصية تتعلق بالملك هنرى الثامن قبل أن تتعلق بالكنيسة الانجليزية نفسها كما أننا نستطيع أن نعتبر تلك الحركة خطوة سياسية أكثر منها دينية.

فالإصلاح الدينى فى انجلترا مرجعه إلى الخلاف الذى حدث بين الملك هنرى الثامن ملك انجلترا والبابوية بشأن رغبة الملك فى طلاق زوجته ليتزوج من أخرى ومعارضة البابوية فى ذلك. واستطاعت الملكية الانجليزية بمعاونة توماس وسمرست كروميل Cromwell من فصل كنيسة انجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية. وقابلت الكنيسة الكاثوليكية تلك الخطوة باصدار قرار الحرمان ضد الملكية الانجليزية.

وفى سنة ١٥٣٤ أعلن البرلمان الانجليزى بأن الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية التى أطلق عليها اسم الكنيسة الانجليكانية. وتبع ذلك القضاء على الأديرة ومصادرة أموالها وممتلكاتها، وقد أثار هذا العمل غضب أغلبية الشعب الانجليزى على دين الدولة الجديد. ولكن الملكية الانجليزية أخذت على عاتقها اسكات جميع الأصوات التى ترتفع بمعارضة إرادتها. وبهذه الوسيلة استطاع الدين الجديد أن يأخذ طريقه فى الانتشار، حتى إذا ماوصلنا إلى أواخر أيام حكم الملكة الياصابات نجد أن أغلبية الشعب الانجليزى قد تحولت إلى البروتستنتية، أى إلى مذهب الكنيسة الانجليكانية نتيجة لنمو فكرة القومية.

أصيبت حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا بنكسة شديدة بتولى الملكة مارى Mary عرش انجلترا. فما أن اعتلت هذه الملكة عرش بريطانيا إلا وقامت بالغاء التشريعات التى وضعها توماس كرمول وسمرست مما لايتفق مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، وأخذت فى اضطهاد العناصر غير الكاثوليكية وسادت فى انجلترا موجة من القتل والارهاب ضد هؤلاء المخالفين.

واعتبر الشعب الانجليزى تلك السياسة الرجعية من وحى زوج الملكة فيليب الثانى ملك اسبانيا التى تعتبر من معاقل الكنيسة الكاثوليكية. وفى ذلك الوقت بدأ التنافس الاستعمارى يشتد بين اسبانيا وانجلترا حول استعمار القارة الامريكية، ووجد الانجليز أن فى مقاومة نفوذ ملك اسبانيا ما يؤكد قوميتهم.

وقد كان لضروب الارهاب والاضطهاد أثر بعيد فى انتشار المذهب البروتستنتى بين الشعب الانجليزى. وفى مقاومته وعدم خضوعه للاضطهاد أياً كان نوعه.

خلف الملكة مارى على عرش انجلترا الملكة اليصابات. ولم تكن تعنى بالمسائل الدينية عناية تذكر. ولذا فقد وقفت موقفا معتدلا من حركة الاصلاح فارجعت الكنيسة الانجليزية إلى حالتها التى كانت عليها أثناء حكم والدها هنرى الثامن. ولأنها كانت تؤمن بأن ما أقدم عليه والدها من فصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما عمل سياسى له أهميته.

ولقد سارت اليصابات على سياسة عدم المجاهرة بالعداء ضد الكنيسة الكاثوليكية فى روما، ولكن عندما حرم البابا على الكاثوليك اقامة شعائرهم الدينية فى الكنائس الانجليزية فى عام ١٥٦٢ بدأ بينهما صراع طويل اتخذ شكل نزاع قومى مع اسبانيا.

وفى عام ١٥٥٩ أصدر البرلمان الانجليزى قانونين هامين هما الدعامة التى قام عليها النظام الكنسى الانجليكانى، القانون الأول ويطلق عليه اسم Supremacy وينص على رئاسة العرش الانجليزى للكنيسة الانجليكانية واتباع تعاليمها. وبهذين

القانونين تميزت الكنيسة الانجليزية عن غيرها وأصبح لها طابع خاص.

فى أثناء هذا الاضطراب الذى ساد الناحية الدينية فى انجلترا ظهر كلفن بمذهبه الجديد، وأخذت مبادؤه تنتشر فى ربوع اوربا وانتقلت منها إلى اسكتلنده عن طريق أحد مريديه ويدعى جون نكس John Knox حيث بدأت تنتشر فى تلك البلاد وتتسرب منها إلى انجلترا. ولكن الملكة اليصابات أخذت تقاوم هذا المذهب الجديد لما يتضمنه من تقديس للسلطة الروحية وجعلها فوق السلطة الزمنية، فخشيت أن يؤدى انتشار هذا المذهب إلى انهيار نفوذها.

وقد ظل اتباع كلفن فئة مستضعفة فى انجلترا حتى زالت أسرة تيودور من الحكم فبدأ نشاطهم فى الظهور وعددهم فى الكثرة.

وأما عن حركة الاصلاح الدينى فى اسكتلنده، فقد قامت فى نفس الوقت الذى قامت فيه بانجلترا. وقد ساعد على نموها الظروف السياسية التى أحاطت باسكتلنده وتركيز السلطة فى أيدى النبلاء الاقطاعيين.

وكما ذكرنا من قبل، عرفت اسكتلنده مذهب كلفن عن طريق أحد اتباعه ويدعى جون نكس John Knox عام ١٥٥٥. وأخذ هذا المذهب فى الانتشار بتأييد من النبلاء الذين أعلنوا فى عام ١٥٥٧ اتباع مذهب كلفن والقضاء على الكاثوليكية.

وقد كان لحركة كلفن أثر هام فى انعاش اسكتلنده وفى تحويلها من دولة من دول العصور الوسطى إلى دولة حديثة، لأنها قضت على الصلة التى تربط اسكتلنده بروما وشبه التبعية لفرنسا، وجعل من الميسور عليها الاندماج مع انجلترا فى أوائل القرن الثامن عشر[1].

وهكذا أدت حركة الاصلاح الدينى الى ظهور مذاهب دينية جديدة وإلى إحداث تعديل فى خريطة أوربا المذهبية.

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ١١٤.

## حركة الاصلاح الدينى فى الأراضى المنخفضة

**The Nitherland**

تقع الأراضى المنخفضة تقريبا فى المنطقة الواقعة بين نهر الالب وشمال فرنسا، وهى تشمل ما يطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم بلجيكا وهولنده. والأراضى المنخفضة عبارة عن جملة ولايات تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة فى عهد شارل الخامس ثم آلت إلى ابنة فيليب الثانى من بعده عن طريق الوراثة.

ولذا فثورة الأراضى المنخفضة وثيقة الصلة بشخصية الملك فيليب الثانى الذى كان يجرى فى عروقه الدم الاسبانى والالمانى. وكانت مملكته تضم اسبانيا وملحقاتها من الأراضى المنخفضة ومستعمراتها.

وإذا نظرنا إلى حالة اسبانيا فى تلك الفترة لوجدنا أنها كانت من أقوى الدول المسيحية الكاثوليكية ومن أكثرها ثروة وغنى، وذلك نظراً لتدفق الذهب عليها من مستعمراتها فى الامريكتين. كما كان مركزها كدولة استعمارية ذا أهمية دولية كبيرة وقد مكنها هذاالمركز الممتاز من ايجاد علاقات ودية وروابط قوية مع غيرها من الدول عن طريق الزواج والمصاهرة مثل انجلترا وفرنسا والبرتغال.

فالملك فيليب الثانى كان من أنشط الملوك الذين وصلوا إلى عرش اسبانيا، وكان متحمسا للدين المسيحى ومن يعتنقون نظرية التفويض الالهى وفى وجوب طاعة الشعب للملك. وكثيراً ماكان يلجأ الملك إلى استخدام وسائل القوة والعنف فى تنفيذ أغراضه.

هذا من ناحية الملكية الاسبانية، أما من ناحية السياسة الخارجية نجد أن الحكومة الاسبانية كانت تهدف إلى تحقيق أهداف ثلاثة وهى:

أولاً: الاهتمام بالسيطرة والاستعمار.

ثانياً: الاهتمام بالمسائل الأوربية وما يجرى فى القارة الأوربية.

ثالثاً: اتخاذ سياسة دينية معينة هدفها نصرة المذهب الكاثوليكى، وقد عرضتها تلك السياسة إلى الاصطدام بفرنسا.

وسنرى أن توزيع جهود اسبانيا نحو تحقيق هذه الأهداف الثلاثة سيؤدى بها تشتيت قواها وإلى اخفاقها فى نهاية الأمر.

ولن تستطيع اسبانيا أن تحافظ على ما نالته من مجد وما حققته من كشف نتيجة لسوء سياستها حتى اضطرت فى النهاية إلى الاستدانة من بنوك المانيا وايطاليا للصرف على قواتها الكثيرة العدد.

أما من ناحية الشعور الدينى فكان الشعب الاسبانى متعصبا للكاثوليكية نظراً للظروف التاريخية التى مرت باسبانيا، ونشوء الصراع الدينى المختلط بالسياسة بين الاسبانيين والعرب. ولذا تتسم السياسة فى اسبانيا بالتعصب الدينى وامتزاج السياسة بالدين.

كان هذا هو الحال بالنسبة لاسبانيا، فإذا انتقلنا إلى الأراضى المنخفضة الخاضعة لحكمها نجد أن الأمر يختلف عن ذلك. فبينما يسود التعصب الدينى اسبانيا يميل سكان الأراضى المنخفضة إلى الحرية الدينية نظراً لظروفهم الخاصة التى تختلف عن ظروف الاسبانيين.

كذلك كان وضع الأراضى المنخفضة بالنسبة لالمانيا وقربها منها وانتقال المذهب الجديد إليها سواء مذهب لوثر وكلفن وما استتبع من مطالبة سكان الأراضى المنخفضة بالحرية الدينية، تلك الحرية التى لم يكن فيليب الثانى على استعداد لمنحها اياهم. بل أن سياسة فيليب الثانى إزاء الأراضى المنخفضة كانت تهدف إلى توحيدها سياسيا تحت النفوذ والسيطرة الاسبانية. وكذلك توحيدها دينياً تحت سيطرة المذهب الكاثوليكى، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة.

ولم تكن الأراضى المنخفضة بطبيعة الحال على استعداد لقبول مثل تلك

السياسة التى لم يراعى فيها ارادتها أو مصلحتها الخاصة، والتى لاتتفق مع ماضيها القديم. فإذا رجعنا إلى الوراء لوجدنا أن الأراضى المنخفضة كانت خاضعة قبل عهد فيليب الثانى للامبراطورية الرومانية المقدسة خضوعاً اسمياً فى حين أنها كانت تتمتع باستقلال داخلى فى إدارة شئونها الداخلية، ولم تكن موحدة من الناحية السياسية، وقد رأت الولايات أن من مصلحتها ايجاد نوع من الرابطة والوحدة فيما بينها فأنشأت مجلسا يجمع الطبقات الارستقراطية والدينية والعامة أطلق عليها اسم States General للنظر فيما يهم الولايات جميعها. وظلت الولايات مع هذا مستقلة عن الأخرى وتحتفظ بتقاليدها ونظمها.

كما أننا نظرنا إلى حالة تلك الولايات بصفة عامة فى عهد شارل الخامس نجد أنها كانت تدين له بالولاء، ولم يكن التذمر من الحكم الاسبانى قد بلغ ما بلغه فى عهد خلفه فيليب الثانى. وهذا راجع بطبيعة الحال إلى ظهور حركة الاصلاح الدينى وانتشارها فى الأراضى المنخفضة، ومحاولة فيليب الثانى القضاء عليها بالقوة فأدى هذا إلى ازدياد حركة التذمر والكره لكل ما هو اسبانى وإلى قيام الثورة فى النهاية.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان الاختلاف كبيراً بين كل من الدولتين – اختلاف طبيعى يتعلق بطبيعة الأرض والموقع الجغرافى، واختلاف فى البيئة وفى نظام الحكم، وفى المذهب الدينى، وفى مدى تأثر كل منهما بحركة النهضة الأوربية. كل هذه العوامل قد ساعدت بطبيعة الحال على اختلاف توجه كل منهما وفى تباين نظرتهما للأمور.

فإذا تناولنا طبيعة الأرض بالبحث نجد اختلافاً بينا بين الاثنين فالأراضى المنخفضة سهلاً منبسطة، بينما الأراضى الاسبانية جبلية وعرة، وتمتد جبالها من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى. كذلك نلاحظ أن سكان اسبانيا يشتغلون بالزراعة أما أهالى الأراضى المنخفضة فهم يشتغلون بالتجارة وكذلك بتربية الاغنام

للاستفادة بصوفها فى صناعة المنسوجات الصوفية. كما أن صغر مساحة الأراضى المنخفضة جعلت أهلها يهتمون باستغلال كل شبر من أراضيها. ومن ناحية الموقع الجغرافى نجد أن بعد الأراضى المنخفضة عن اسبانيا وانفصال أراضى الدولتين عن بعضهما، أغرى سكان الأراضى المنخفضة على الثورة وخصوصا إذا كانت فرنسا وهى الدولة الفاصلة بين الدولتين على صلة عداء مع اسبانيا. ولكن اسبانيا كانت تستطيع الوصول إلى الأراضى المنخفضة عن طريق البحر، إلا أن هذا الطريق أيضاً كان محفوفاً بالمخاطر وخصوصاً إذا لم يكن هناك اتفاق بين الأراضى المنخفضة وانجلترا.

أما من ناحية نظام الحكم نجد أن اسبانيا دولة موحدة تحكم حكما استبداديا وتتمتع الملكية فيها بسلطة مطلقة فى إدارة شئونها. بينما نجد أن مدن الولايات المنخفضة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال، وان ربط بينها مجلس الطبقات إلى حد ما، وقد عرفت الأراضى المنخفضة نظام المدينة، وكان بها مدن لها شهرة عالمية ويسكن المدن بطبيعة الحال الطبقة الوسطى المثقفة المستنيرة، ومعنى هذا أن تلك البلاد بلاد راقية اشتغل أهلها بالصناعة والتجارة وأثروا من وراء ذلك. فهم إذن إذا ماقورنوا بسكان المدن الاسبانية يفوقونهم فى المستوى العلمى والعملى.

وإذا نظرنا إلى أثر حركة النهضة فى كل من الدولتين نجد أن اسبانيا قاومت الحركة الفكرية تعصبا لكاثوليكيتها، أما الأراضى المنخفضة فقد قامت فيها حركة فكرية وثقافية. وقد ساعدتها تلك الثقافة على أن تستغل تبعيتها لاسبانيا فى احتكارها للتجارة، وبذلك أخذت مدنها الشهيرة تنمو وتزدهر.

أما من ناحية المذهب الدينى، فكل من الدولتين يدين بالديانة المسيحية ولكن اسبانيا تعصبت للمذهب الكاثوليكى. بينما تأثرت الأراضى المنخفضة بحركة الاصلاح الدينى فى المانيا فعرفت مذهب لوثر ومذهب كلفن وتمسكت بحرية العقيدة. وقد أدى اختلاف نظرة كل منهما إلى الدين إلى قيام الثورة.

ومن أهم الأسباب التى أدت إلى الثورة هو الاحتلال الاسبانى للأراضى المنخفضة فالاحتلال يغيض إلى النفس مهما كانت المبررات، وخصوصا إذا كان من دولة أقل مرتبة فى الثقافة وفى الرقى. فالاسبانيون قد أقاموا بتلك البلاد حاميات عسكرية أخذت تعيث فى الأرض فساداً[1]، وتعتدى على أعراض الناس وممتلكاتهم دون مبرر لذلك. وقد اساءت تلك الحماقات إلى الأهالى ايما اساءة، وكانت من الأسباب الجوهرية فى انفجار الثورة.

ويمكننا أن نقسم العوامل التى ساعدت على نجاح تلك الثورة إلى قسمين: عوامل داخلية تتعلق بالأهالى أنفسهم، وعوامل أخرى خارجية.

أما عن العوامل الداخلية، فمنها:

أولاً: الموقع الجغرافى وانفصال اسبانيا عن الأراضى المنخفضة وقد أشرنا إليه من قبل.

ثانياً: ساعدت طبيعة الأرض الأهالى على مقاومة العدو، وذلك بقطع الترع والجسور، وغمر المساحات الواسعة بالمياه مما اضطر الاسبانيين على التراجع وعدم مواصلة الزحف والقتال.

ثالثاً: تركيز ثورة الأراضى المنخفضة تحت زعامة أوراغ Orange الذى استطاع أن يجمع حوله قلوب كبار الشخصيات الهولندية، وإن يضم صفوف الشعب، ويوحد قواها ضد الحكم الاسبانى.

رابعاً: تفوق الهولنديين فى الناحيتين – هذا التفوق الذى مكنهم من مقاومة القوات الاسبانية والبحرية ومن استيلائهم على جزر الهند الشرقية من الاسبانيين وظلت تلك الجزر فى أيديهم إلى قيام الحرب العالمية الثانية، حيث تمكنت القوات اليابانية من الاستيلاء عليها وطرد الهولنديين وتخليص تلك الجزر من حكمهم.

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٥٨٣.

خامسا: أن الثورة الكبيرة التى تركزت فى أيدى سكان الأراضى المنخفضة نتيجة لاشتغالهم بالتجارة مكنتهم من مواصلة القتال ضد الاسبانيين فترة طويلة من الزمن إلى أن كتب لهم النصر.

سادساً: إيمان الهولنديين بعدالة قضيتهم وتصميمهم على التخلص من السيطرة الاسبانية ومن التدخل فى شئونهم الدينية والسياسية.

أما فيما يتعلق بالعوامل الخارجية فيمكن ارجاعها إلى مساعدة كل من انجلترا وفرنسا للأراضى المنخفضة فى نضالها ضد اسبانيا. فانجلترا كانت ترى أن من مصلحتها استقلال الأراضى المنخفضة عن اسبانيا حتى لاتتمكن اسبانيا من اتخاذ تلك البلاد المواجهة لانجلترا قاعدة حربية لجيوشها ضد انجلترا.

كما أن فرنسا كانت لاترغب مطلقا فى وجود اسبانيا كدولة قوية على حدودها الجنوبية فكان من سياستها إذن العمل على إضعاف اسبانيا رغم اختلاف فرنسا مع الأراضى المنخفضة فى المذهب الدينى. كذلك وجدت فرنسا وقوفها هذا الموقف من اسبانيا فيه تحد لسياسة الامبراطورية الرومانية المقدسة. فكان تدخل الدولتين الكبيرتين انجلترا وفرنسا فى هذا النزاع تحقيقاً لمصلحتهما الخاصة.

كانت ظروف الحرب إذن فى صالح الأراضى المنخفضة فالجيوش الاسبانية فى حربها لتلك البلاد لم تكن تواجه القوات الهولندية فحسب، بل كانت تواجه ضغطاً آخر من قبل فرنسا، فكثيراً ما كانت الجيوش الاسبانية تضطر أثناء الحرب فى الأراضى المنخفضة إلى التدخل فى الحرب الأهلية فى فرنسا لشغل فرنسا عن مساعدة الثوار.

هذا من جهة ومن جهة أخرى قرر فيليب الثانى ملك اسبانيا ارسال الاسطول الاسبانى المسمى الأرمادا إلى الأراضى المنخفضة للقضاء على الثورة، وكان على الاسطول الاسبانى أن يسير بجوار الشواطئ الفرنسية والانجليزية. وقد خشيت انجلترا أن تكون تلك الحملة موجهة إليها نظراً لمساعدتها الأراضى المنخفضة فى ثورتها،

فاستعدت للأمر وبدأت المناوشات بين القوتين الكبيرتين ولم يكن القائد الاسبانى البحرى على درجة كبيرة من الكفاية والمقدرة الحربية، بينما كان على رأس البحرية الانجليزية قائد من أكفأ قوادها البحريين ويدعى هوكنز، كذلك كانت القطع البحرية الاسبانية كبيرة الحجم بطيئة الحركة وأن الاسطول الانجليزى كان يتكون من قطع حربية صغيرة الحجم سريعة الحركة.

ولهذا تمكن الاسطول الانجليزى من تحطيم أسطول أسبانيا الأرمادا فى سنة ١٥٨٨ ونجت أنجلترا من أعظم خطر تعرضت له فى تاريخها البحرى، وأدى هذا إلى اضعاف مركز أسبانيا بطبيعة الحال.

## حركة الاصلاح الكاثوليكى كرد فعل للحركة البروتستانتية

### Catholique Reformation

ظهرت تلك الحركة كرد فعل لحركات الاصلاح الدينى، إذ وجد المهيمنون على شئون الكنيسة والغيورون على العقيدة الكاثوليكية أن من مصلحتهم ومصلحة الكنيسة الكاثوليكية إذا ارادت لنفسها البقاء أن تصلح من شئونها وأن تقوم اعوجاجها وأن تتخلص من الشوائب التى علقت بها والتى كانت مركزاً لهجمات المصلحين أمثال مارتن لوثر وكلفن وغيرهم.

وقد قام بهذه المحاولة فى أول الأمر ارازمس Erasmus فحاول التوفيق بين مبادئ المذهبين والتقريب بين وجهة نظرهما، ولكن محاولته هذه ومحاولات غيره ممن ساروا على نفس الدرب لم يتحقق لها النجاح لاصرار كل من الطرفين على موقفه وعدم رغبتهم فى الالتقاء أو التقارب.

وفى عهد البابا بول الثالث Paul III قامت حركة لاصلاح شئون الكنيسة الكاثوليكية وعقد مجلس ترنت لهذا الغرض، وأسفر الاجتماع عن بعض القرارات أهمها الاعتماد على الكتاب المقدس والتقاليد الكنسية ومعارضة الكثير من العقائد اللوثرية، ولم يكن الامبراطور راضياً عن تلك الحركة.

ولكن فى عهد البابا يوليوس الثالث Julius III يستمر انعقاد المجلس فى ترنت ويشتد النقاش حول المسائل المعروضة على بساط البحث وتقوم الحرب فى المانيا وفى أجزاء الامبراطورية الأخرى، وأصبحت مدينة ترنت مهددة بزحف البروتستنت. ورغم تلك العقبات فقد سارت حركة الاصلاح بخطى واسعة فى عهد البابا بيوس الرابع الذى اتخذ من محاكم التفتيش قوة يعتمد عليها فى التخلص من الخارجين على سلطان الكنيسة. وفى عهده يجتمع المجلس مرة أخرى فى ترنت، وقرر مواصلة الاصلاح وعدم الأخذ بوجهة نظر البروتستنت. إلا أن المناقشة تعثرت عندما بدأوا يبحثون فى سلطة البابا، ومدى تلك السلطة. وطالت المناقشات دون أن يصلوا

إلى رأى قاطع فى هذا الموضوع.

وازدادت المنافسات عنفا بين الكاثوليكية والبروتستنتية نتيجة لتلك الاصلاحات وأعلنت الحرب صراحة على البروتستنت.

وكان سبيل الكنيسة الكاثوليكية فى القضاء على منافسيها الاعتماد على طائفة الجزويت Jusuits وطائفة الجزويت هذه طائفة دينية كاثوليكية متحمسة لكاثوليكيتها، قام بإنشائها رجل اسبانى الأصل يدعى دون انجو دى ريكولد Don Ingo de Recalde ممن تلقوا ثقافتهم الدينية بجامعة باريس. وقد كرس هذا الرجل حياته لخدمة الكاثوليكية، وكون فى عام ١٥٤٠ جمعية دينية أطلق عليها اسم جمعية المسيح. وكان هدف تلك الجمعية خدمة المسيح والبابا والديانة المسيحية، والعمل على نشرها عن طريق الوعظ والارشاد والتعليم والتدريب[١].

وقد وجدت تلك الجماعة من تشجيع البابوية ما ساعدها على القيام بمهمتها بنجاح كبير، فأرسلت البعوث التبشيرية المختلفة إلى جميع بقاع العالم بما فى ذلك الصين واليابان، واهتمت بصفة خاصة بفتح المدارس وتدريس العلوم الدينية والقانونية.

وإلى تلك الجماعة يرجع الفضل فى وقف انتشار البروتستنتية وإلى انعاش الكنيسة الكاثوليكية، فهذه الجماعة فى حقيقة الأمر تعتبر الجيش السلمى للكنيسة الكاثوليكية.

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد لجأت عن طريق الجماعة إلى وقف تيار البروتستانتية بالوعظ والاقناع والتثقيف والتعليم، فلم يكن هذا هو سبيلها الوحيد فى مكافحة منافسيها، إذ لجأت إلى سلاح آخر لايعرف الرحمة ولا اللين وهو إنشاء محاكم التفتيش للقضاء على المارقين والملحدين والبروتستنت، وقد انشئت

(١) الأب الدكتور / فاضل سيداروس اليسوعى : سر اليسوعيين فى فن التربية، مطبوعات الآباء اليسوعيين فى مصر، ١٩٩٢، ص ٥.

تلك المحاكم فى بعض الدول الكاثوليكية، ونجحت تلك الوسيلة فى القضاء على عوامل الفرقة والمحافظة على الوحدة الدينية فى اسبانيا وايطاليا.

وكان من الطبيعى أن تلجأ تلك المحاكم إلى وسائل التعذيب والارهاب وإلى تقييد الحريات، كحرية التعبير عن الرأى أو حرية العقيدة، ففرضت رقابة شديدة على كل ما ينشر من آراء فى الكتب والمنشورات. كما وضعت قائمة سوداء بأسماء الكتب المحرمة على الناس قرائتها، وحذف العبارات التى لاتتفق مع تعاليم الكنيسةالكاثوليكية.

وعوقب كل فرد تسول له نفسه قراءة الكتب المحرمة بالطرد من رحمة الكنيسة Excommunication وكان لكل تلك الإجراءات التعسفية أثرها الواضح فى تأخير ايطاليا[1].

## قيام حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨):

نشأت تلك الحرب الأوربية كنتيجة طبيعية لحركة الاصلاح الدينى وما ترتب عليها من انقسام أوربا إلى معسكرين دينيين وسياسيين، ولم تكن هذه الحرب محلية كالحروب الدينية التى نشأت فى فرنسا مثلا، بل كانت حربا أوربية اشتركت فيها دول كثيرة لتحقيق أطماع وأهداف مختلفة، إلا أنها كانت نهاية لهذا الانشقاق الدينى الذى عانت منه أوربا الشئ الكثير.

استمر هذا الصراع الدينى الذى اتخذ شكل حرب أوروبية ثلاثين عاماً. وقد اتخذ كل فريق منهم مختلف السبل، ومنتهى أساليب الوحشية والقسوة للقضاء على الفريق الآخر. فحرب الثلاثين عاماً حرب دينية مذهبية متعصبة اشتركت فيها معظم الدول الأوربية وخسر فيها الفريقان أموالا كثيرة وأرواحاً عديدة، وخرجت أوربا من تلك الحرب الطاحنة العمياء مخربة ومنهوكة القوى فهى إذن أسوأ حرب دينية عرفتها أوربا خلال العصور الحديثة.

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ١١٧.

ومما زاد فى امتداد أمد تلك الحرب الأطماع الشخصية التى لعبت دوراً هاماً فى توجيهها الوجهة التى تراها. بالإضافة إلى عدم تفوق أحدهما تفوقاً ظاهراً على الآخر، والانقسام الداخلى فى كلا المعسكرين. فقد انقسم البروتستنت على أنفسهم إلى اتباع لوثر واتباع كلفن وعملت عوامل الفرقة والتحاسد بين أنصار المذهبيين على عدم اتحاد كلمتهما فى أول الأمر إزاء الخطر الكاثوليكى.

وكذلك الحال بالنسبة للمعسكر الكاثوليكى فقد لعبت الأطماع الشخصية بين الزعماء دوراً خطيراً، فانعدمت الثقة بين الأمراء بعضهم وبعض وكذلك بين الأمراء والامبراطور.

ومن عوامل امتداد أمد تلك الحرب أيضاً حالة الفوضى الدينية والاضطراب التى سادت تلك الحرب، فسنجد أن بعض زعماء البروتستنتية يتخلون عن مذهبهم الدينى أثناء نشوب الحرب ليقوم بالدفاع عن أنصار المذهب الكاثوليكى وبالعكس - فعدم الثبات على مبدأ معين والتأرجح بين المذهبين جعل من العسير أن ترجح كفة على أخرى أو أن يحتفظ الفريق بما أحرزه من انتصارات على الفريق الآخر، فقد ينتصر اليوم لينهزم غداً وهكذا. فالحرب الثلاثينية إذن سجل حافل بالانتصارات والهزائم المتتالية لكلا الفريقين.

ويمكننا التعرف على أسباب قيام حرب الثلاثين عاما والعوامل التى أدت إلى ظهورها من خلال العرض التالى:

أولاً: لم يكن صلح أوجزبرج Augsbrurg الذى عقد بين الكاثوليك والبروتستنت فى عام ١٥٥٥ إلا هدنة مؤقتة ريثما يستعد الطرفان من جديد لاستئناف الكفاح، لأن هذا الصلح لم يكن عن رضى الطرفين، بل كان لحاجتهم فى ذلك الوقت إلى فترة من الهدوء والراحة لتنظيم صفوفهم من جديد لمواصلة الجهاد[1].

(١) عبد الحميد البطريق (دكتور) وعبد العزيز نوار (دكتور) : التاريخ الأوربى الحديث من عصر النهضة الى أواخر القرن الثامن عشر، ص ١٥٥.

ثانياً: إن الكنيسة الكاثوليكية قد استطاعت أن تقوى مركزها من جديد، فقامت حركة الجزويت لاستعادة ما كان للكنيسة الرومانية من مركز ممتاز، وتمكنت تلك الحركة من استرداد الكثيرين من أنصارها ممن تحولوا إلى المذهب البروتستنتى فحركة الجزويت إذن فى نظر البروتستنت حركة خطيرة هدفها القضاء على المذهب الجديد.

ثالثا: تطور الأمور فى أوربا إلى غير صالح البروتستنت، فقد اعترفت أوربا بما تقوم به جماعة الجزويت من خدمات جليلة للدين فى النواحى الاجتماعية والدينية والثقافية فارتفع بذلك شأن الكاثوليك بينما سادت التفرقة بين أنصار المذهبيين البروتستنتيين لوثر وكلفن. ولكن هذا الخطر المحدق بكلا الفريقين المتنازعين الكاثوليك والبروتستنت سيدفعهما إلى التكتل والوحدة دفاعا عن النفس والعقيدة، فسيظهر الاتحاد البروتستنتى وستتكون العصبة الكاثوليكية كرد فعل له.

وبتكوين هذين الاتحادين يبدأ الطرفان فى الاستعداد لخوض المعركة الجديدة وقد نشأ الاتحاد البروتستنتى بالمانيا التى كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية المقدسة ولم يكن يضم كل الولايات البروتستنتية فى ألمانيا. أما العصبة الكاثوليكية فقد تكونت من بعض الولايات الألمانية الكاثوليكية واتخذت مدينة بافاريا مقراً لها. ولم تكن تلك المدينة تبعد عن فيينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة كثيراً، ولذلك نجد أن الامبراطور يخشى على نفسه من وجود تلك العصبة على مقربة منه وخصوصا وكان على رأسها مكسميليان أحد الأمراء الأقوياء ذوى المطامع الواسعة فيبدأ النزاع بينه وبين الامبراطور.

وتنشأ الحرب بين الكاثوليك بزعامة مكسميليان دوق أوف بفاريا، وبين البروتستنت تحت قيادة فردريك. وستكون الغلبة للفريق الأول، نظراً لقوة مكسميليان وضعف فردريك.

وترتب على انتصار الكاثوليك سريان موجة من الارهاب والاضطهاد ضد البروتستنت، وسيحاول الفريق المنتصر ارغام انصار البروتستنتية على تغيير مذهبهم الدينى بالقوة. ونتيجة للضغط الشديد الواقع على البروتستنت تبدأ الولايات البروتستنتية التى لم تشترك فى الحرب السابقة فى مراجعة موقفها، ومحاولة شد أزر الفريق البروتستنتى فى محنته. ولهذا فستنضم إلى الاتحاد البروتستنتى لنصرة المذهب الجديد.

حدث هذا داخل المعسكر البروتستنتى، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه المعسكر الآخر يضطرب نتيجة للنزاع بين الامبراطور ومكسميليان. وهذا النزاع قد اتاح للبروتستنت تنظيم صفوفهم من جديد واصلاح داخليتهم.

وبينما يعمل البروتستنت على تقوية أنفسهم يخرج من بين صفوفهم أحد القواد العظام ويدعى فلنشتين Vallenstion وينظم صفوف الكاثوليك بعد أن غير مذهبه حبا فى تحقيق بعض المطامع الشخصية وقد كان لهذا القائد شهرة عسكرية كبيرة واستطاع أن يكون له جيشاً خاصاً من الجنود المرتزقة.

وقد رأى فلنشتين أن من مصلحته أن ينضم إلى جانب الامبراطور فى صراعه مع البروتستنت. وكان الامبراطور من جانبه يرى فى انضمام فلنشتين إلى المعسكر الكاثوليكى كسبا للمعركة ولكنه فى نفس الوقت كان يخشى قوته وبأسه ويعمل على التخلص منه فى الوقت المناسب.

وقد آثار ظهور فلنشتين بين صفوف الكاثوليك حسد مكسميليان، فبدأ التناقض واضحا بين الرجلين من جهة وبين فلنشتين والامبراطور من جهة أخرى ولكن بالرغم من هذا التناقض الداخلى فى صفوف قوات العصبة الكاثوليكية، فقد ظلت كفة الكاثوليك راجحة لانضمام فلنشتين إليها. وقد دعت تلك الحالة إلى تدخل بعض الدول البروتستنتية مثل الدانمراك والسويد إلى الاتحاد البروتستنتى.

وقد تدخلت الدانمرك فى أول الأمر، ولكن رغم مساعدتها للبروتستنت فقد

هزموا أمام قوات المعسكر الكاثوليكي، مما دعى ملك السويد ويدعى جستافوس أولفوس إلى خوض المعركة والانتصار على قوات فلنشتين ولكنه توفى فى هذه المعركة.

وقد انتهز الامبراطور فرصة انهزام فلنشتين فى هذه الحرب وقضى عليه. وبذلك يتخلص الامبراطور من أكبر منافس له، ربما تمكن من التغلب عليه والوصول إلى العرش، وعندما بدأت قوات الامبراطور الكاثوليكية تنتصر على البروتستنت، تدخلت فرنسا الكاثوليكية فى صالح البروتستنت لنصرة المذهب البروتستنتى، لأن فرنسا وجدت من مصلحتها أن تناوئ الامبراطورية المقدسة حتى لاتتمكن من تحقيق الوحدة الالمانية التى تخشى منها. فمن مصطلحتها إذن أن تبقى الولايات الالمانية مفككة وضعيفة وأن تظل سيطرة الامبراطور مزعزة أيضا.

ولم تكتف فرنسا بتأييد البروتستنت التأييد الأدبى فحسب، بل تدخلت بقواتها بالفعل وارسلت أشهر قوادها كونديه Condé ليحارب فى صفوف البروتستنت ضد قوات الامبراطور الكاثوليكية. كما كان فى صفوف قواتها أيضا الكردينال ريشليو، ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى الأراضى المنخفضة، انتصر فيها البروتستنت بمساعدة فرنسا وانتهى هذا النزاع بعقد صلح وستفاليا عام ١٦٤٨ Westphalia وبمقتضى تلك المعاهدة اعترف بالبروتستنت كمذهب دينى، سوى بين أنصار كلفن وأنصار لوثر فى الحقوق. كما منحت تلك المعاهدة البروتستنت حق الهجرة من ولاية إلى أخرى دون أن يفقدوا ممتلكاتهم[1].

كذلك منحت المعاهدة الأمراء الألمان الاستقلال عن الامبراطورية الرومانية المقدسة. أما فرنسا فقد منحت الالزاس واستولت حليفتها السويد على المنطقة الواقعة عند مصب نهر الويزر.

وترتب على هذا الصلح أن فقدت الامبراطورية الرومانية المقدسة كل أمل فى تكوين وحدة دينية فى المانيا تمهيداً لتحقيق الوحدة السياسية فيما بعد.

(١) جلال يحيى (دكتور) : عصر النهضة والعالم الحديث، ص ٤٦٩.

ومما يجب ملاحظته على حرب الثلاثين عاما ما يلى :

أولاً : أن هذه الحرب رغم أتخاذها المظهر الدينى الا أنها كانت فى حقيقتها حرب سياسية، لعبت السياسة والأطماع الشخصية دوراً هاماً فى توجيه أحداثها.

ثانياً: إن الجنود المرتزقة الذين خاضوا تلك الحرب لم يراعوا فيها غير مصالحهم الخاصة والتى لاتتحقق سوى بالسلب والنهب والتدمير والتخريب. ولهذا كان لهذه الحرب أعمق الأثر فيما أصاب أوربا من هدم وتخريب. ويجب أن ندرك بان استخدام الجنوب المرتزقة فى الحروب كان شيئاً مألوفاً، بل أن أوربا لم تعرف الجيوش الوطنية إلا عند ظهور الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر.

ثالثاً: لعبت السياسة دوراً هاماً فى تقرير مصير تلك الحرب، فبالرغم من أن فرنسا كانت تدين بالمذهب الكاثوليكى إلا أنها وجدت من مصلحتها الوقوف إلى جانب البروتستنت ضد قوات الامبراطورية الرومانية المقدسة، وتحقيقاً لسياستها التقليدية فى معاداة أسرة الهبسبرج الحاكمة لتلك الامبراطورية وللوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية.

وسنجد أن فرنسا تدخل فى حرب أخرى ضد الملكية الاسبانية التى تكون فرعاً ثانياً لأسرة الهبسبورج الالمانية. وسيستمر هذا الصراع لمدة اثنى عشر عاماً دون أن يصل الطرفان إلى حل لهذا النزاع. وستضطر فرنسا فى النهاية إلى الدخول فى حلف مع انجلترا نظير تنازلها عن ميناء دنكرك. واستطاعت القوتان المتحالفتان من هزيمة اسبانيا وعقد صلح البرانس فى عام ١٦٥٨ الذى مكن فرنسا من الاحتفاظ ببعض المدن الواقعة على حدودها الشمالية الشرقية. كما نصت المعاهدة أيضا على أن يتزوج ملك فرنسا لويس الرابع عشر ابنة فيليب ملك اسبانيا، وكان التصاهر بين البيوتات الملكية فى أوربا من العوامل التى دعمت روابط العلاقات الدولية بين تلك الدول الأوربية[١].

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ١٤٧.

# الفصل الرابع
## تطور الملكية الانجليزية فى العصور الحديثة

## الفصل الرابع

## تطور الملكية الانجليزية فى العصور الحديثة

تعتبر انجلترا من الناحية السياسية جزء من القارة الأوربية، ولكنها فى نفس الوقت منفصلة عنها بحكم موقعها الجغرافى وبهذا فانها تستطيع أن تشترك فى احداث تلك القارة دون أن تسمح لدول أوربا بأن تتدخل فى شئونها الداخلية. فهذا الموقع اذن قد نظم علاقة انجترا بأوربا لما فيه مصلحتها الخاصة. وسنجد أن الجزر البريطانية قد تعرضت فى تاريخها القديم لغزوات الرومان فخضعت لسلطة روما وتمتعت بالسلام الرومانى فترة طويلة من الزمن.

وفى العصور الوسطى اغارت عليها القبائل الجرمانية وكذلك الدانمراكيون والنورمنديون من شمال فرنسا وظلت تلك العناصر تنصهر داخل الجزر البريطانية وتكون منها الشعب الانجليزى، وقد ساعد على امتزاج تلك العناصر بعضها ببعض عدم تعرض الجزر البريطانية فى تاريخها الحديث لغزوات أجنبية.

أما من ناحية نظام الحكم فبينما كانت أوربا سائرة فى نظمها الاستبدادية نجد أن انجلترا قد بدأت تتلخص من تلك النظم وظهرت الملكية الانجليزية كرمز للوحدة القومية فى انجترا. وقد ساعد على تطور النظم ظهور طبقة وسطى قوية اسهمت إلى حد كبير فى تطور النظم بعيدا عن النزعة الاستبدادية، وستشهد أوربا فى تاريخها الحديث تطورا خطيرا فى هذا الميدان.

كانت انجلترا مقسمة إلى ثلاثة اقسام سياسية وهى انجلترا واسكتلندا وايرلندا ولكن الحرب الداخلية فى انجلترا التى عرفت باسم حرب الوردتين «سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٨٠» والتى نشبت بين اسرة لانكستر التى اتخذت الوردة الحمراء شعارا لها وبين اسرة يورك ذات الوردة البيضاء والتى انتهت بانتصار اسرة لانكستر وتولية هنرى تيودور عرش انجلترا باسم هنرى السابع، قد قضت على عدد كبير من الاشراف ووجهت نظر الشعب الانجليزى إلى تلك الأسرة الحاكمة التى استطاعت أن

تخلصها من الحرب الأهلية وأن تضع حدا للفوضى والاضطراب. وسيساعد هذا اسرة تيودور على اعادة الوحدة إلى انجلترا وإلى حكم البلاد حكما مركزيا إلى حد ما ولكنه لم يكن حكما استبداديا فهى اذن تختلف عن الملكيات الأوربية التى حكمت حكما استبداديا مطلقا. وكانت محبوبة لدى الشعب الانجليزى لانقاذه من الفوضى ولانها حكمت برضائه ولصالحه وكان حكم هنرى السابع أول ملوكها حكما محبوبا لدى الشعب لسياسته الاصلاحية فقد حاول تخليص البلاد من آثار الحرب الاهلية ونجح فى ذلك إلى حد كبير. كما شجع الطبقة الوسطى واعتمد عليها فى حكمه.

كذلك كان ابنه هنرى الثامن محبوبا من الشعب وذلك لنجاحه فى سياسته الداخلية والخارجية، فقد اعتبر الشعب الانجليزى حركة الاصلاح الدينى فى بريطانيا ثورة على التدخل الاجنبى فى شئون الكنيسة الانجليزية وتأكيداً للقوة الانجليزية[1].

وبعد هنرى الثامن جاء ادوارد السادس والملكة مارى ولم يكن حكمها محبوبا من قبل الشعب، وذلك لأن مارى تزوجت من الملك فيليب الثانى ملك اسبانيا وتعصبت للكاثوليكية وبدأت فى اضطهاد اتباع المذهب البروتستنتى. ولكن خلفتها على العرش الملكة إليزابيث «سنة ١٥٥٨– ١٦٠٣» وقد أحبها الشعب لانها رجعت إلى الكنيسة البروتستنتية، وعملت على تحقيق رغباته واحترمت ممثليه. وفى ذلك الوقت بدأت حركة الاصلاح الكاثوليكى تشتد وتقوى وتزعم فيليب الثانى ملك اسبانيا هذه الحركة، وأضمر شرا لانجلترا وقد ايقن الشعب الانجليزى بخطورة هذه الموقف على مستقبل البلاد. ولذا كان يميل إلى وضع السلطة فى يد شخص واحد حتى لاتعود البلاد إلى الفوضى مرة ثانية، ولتتمكن انجلترا من درء هذا الخطر الخارجى، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد أنه فى عهد تلك الملكة بدأت انجلترا حياتها الاستعمارية والتجارية وتأسست شركة الليفانت فى سنة ١٥٨١

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ١٩٠.

وشركة الهند الشرقية الانجليزية فى سنة ١٦٠٠ وتمكنت انجلترا من الدخول فى منافسات مع أسبانيا والبرتغال وهما الدولتين المحتكرتين للتجارة فالموقف اذن يحتاج إلى شخصية قوية تستطيع دفع الخطر عن البلاد وتحقيق اطماعها فى السيطرة والفتح. ساعدت تلك الظروف التى احاطت انجلترا على نمو قوة الملكية فى عهد الملكة اليزابيث وبفضل تركيز السلطة فى يديها استطاعت ان تنجح السياسة الخارجية نجاحا كبيرا، فقضت على قوة أسبانيا البحرية الا رمادا سنة ١٥٨٨، ووجهت ضربات شديدة إلى الكاثوليك بتحطيمها قوة فيليب الثانى ملك أسبانيا وزعيم حركة الاصلاح الكاثوليكى، وقضت على المعركة السياسية التى عاشت فيها انجلترا قبل تولية الأسرة عرش البلاد. واقترن عصر اليزابيث بثورة أدبية وعلمية فظهر شكسبير وبنسون وفرنسيس بيكون.

وبوفاة الملكة اليزابيث تولى عرش انجلترا جيمس الأول ملك اسكتلندا من اسرة استيورات باسم جيمس الأول فاجتمع فى يديه حكم اسكتلندا وانجلترا وليس معنى هذا ان المملكتين قد توحدتا فى ظل حكمه.

وكان جيمس الأول يعتنق مبدأ حق الملوك الالهى، وبأن الملك يجب أن يتصرف فى أمور الدولة بما يراه يتفق مع مصلحتها دون أن يكون للرأى العام أى تأثير على تصرفاته.

وقد حاول الملك أن يدعم سلطته فى انجلترا برعايته للكنيسة الانجليكانية ولكنه سرعان ماأصطدم بالرأى العام الانجليزى عندما حاول منح الكاثوليك الحرية الدينية حبا فى كسب عطفهم وتأييدهم للملكية. ولكن البرلمان الانجليزى ومن ورائه رجال الكنيسة عارضوا فى هذا الاتجاه كل المعارضة واصروا على موقفهم من اتباع الكنيسة الكاثوليكية مما دعا هؤلاء إلى التفكير فى الانتقام بمحاولة نسف البرلمان الانجليزى عند انعقاده فى ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥. ولكن اكتشفت المؤامرة وفشلت.

وكان لصدى تلك المؤامرة وقع سيء على انصار الكنيسة الانجليكانية واجتاحت البلاد موجه من السخط على الكاثوليك فحرموا من كل الحقوق المدنية والاشتراك فى الحياة البرلمانية أو تولى الوظائف العامة. وقوى نتيجة ذلك اتباع مذهب البيوريتان (البروتستنت المتطرفين) الذين أخذوا فى مناوأة الملكية لاختلافهم مع انصار الكنيسة الانجليكانية حول مبدأ خضوع الكنيسة لارادة الملك، اذ كانوا ينادون باستقلال الكنيسة عن الحكومة. وقد لقى هذا المبدأ بطبيعة الحال مقاومة شديدة من قبل الملكية لانه يحد من سلطتها المطلقة فى الشئون المدنية والدنيوية.

وفى عهد الملك جيمس الأول اثيرت مسألة دستورية على جانب كبير من الأهمية وهى هل من حق الملك التصرف فى أموال الدولة أم أن هذا الحق مقصور على البرلمان؟ وكان السبب فى اثارة هذه المشكلة هو جيمس الأول الذى سار فى سياسته الخارجية على سياسة مغايرة لتلك التى سارت عليها اليزابيث من قبل. اذ وجد جيمس أن من مصلحة السلام الأوربى أن يعقد محالفة مع أكبر دولة كاثوليكية وهى أسبانيا. وكان هذا الاتجاه يلقى معارضة شديدة من قبل البرلمان. ولهذا فقد أخذ البرلمان فى الضغط على الملك لتغيير تلك السياسة عن طريق رفضه للاموال التى يحتاج اليها مما اضطر الملك إلى حل البرلمان عدة مرات ليتخلص من معارضته. ظلت تلك المشكلة دون حل إلى أن تولى شارل الأول العرش (١٦٢٥-١٦٤٩) وكان الأمل معقودا على أن يضع الملك الجديد حدا لها. ولكننا سنجد أن هذه المشكلة ستعود إلى الظهور مرة ثانية وبشكل أوضح عندما أعلنت الملكية الانجليزية الحرب على أسبانيا وفرنسا لنصرة المذهب البروتستنتى، واخفقت فى تلك الحرب. واحتاجت الملكية إلى مزيد من الأموال ورفض البرلمان الانجليزى منحها اعتمادات مالية جديدة، ولكن البرلمان طلب أولا موافقة الملك على ملتمس الحقوق تأكيدا للعهد الأعظم الذى منح للشعب فى عام ١٢١٥، ولكن الملك حنث بما وعد به واجل انعقاد البرلمان.

لم تلق الناحية المالية معارضة البرلمان والشعب فحسب بل لقيت أيضا سياسته الدينية نفس المعارضة فنظرا لزواج الملك شارل الأول من زوجة فرنسية كاثوليكية أخذ فى رفع الاضطهاد عن الكاثوليك وفى مساومة فرنسا على حربها ضد البروتستنت ولقد لقيت تلك السياسة معارضة البرلمان مما اضطره فى النهاية إلى حله عام ١٦٢٩ ، وأن يحكم البلاد حكما مطلقا استمر احد عشر عاما.

وفى خلال تلك الفترة كانت الملكية تعمد إلى مختلف الوسائل الارهابية لتوطيد سلطتها، كما لجأت إلى طريق غير قانونية لجمع المال. ولكن حدث أن الملكية الانجليزية رأت ادخال الاسكتلنديين الذين يعتنقون مبادىء البيوريتان المذهب الانجليكانى بالقوة، فأصر هؤلاء على مقاومة القوة بمثلها وكونوا جيشا كبيرا هاجم انجلترا فى عام ١٦٣٨ . ولما كانت الملكية فى حاجة ماسة إلى المال لدفع هذا الخطر، اضطرت إلى دعوة البرلمان من جديد فى ابريل سنة ١٦٤١ ولكن البرلمان رفض الاذعان لمطالب الملك مالم يحقق مطالب الأمة الممثلة فى ملتمس الحقوق وكان جواب حل البرلمان بعد أن دامت جلساته ثلاثة أسابيع فقط ويدعى هذا البرلمان بالبرلمان القصير.

وكان للفشل الذى منيت به قوات الملك أثره فى دعوة البرلمان من جديد فى نوفمبر سنة ١٦٤٠ البرلمان الطويل لتدبير المال اللازم لدفع هذا الخطر، وقد وجد هذا البرلمان أن الفرصة سانحة لفرض مايراه من شروط.

وقد اضطر الملك مرغما إلى قبولها ريثما ينجلى الموقف، ويتمكن من التخلص من زعماء المعارضة. وحاول بعد ذلك بالفعل القبض على هؤلاء الزعماء أثناء انعقاد البرلمان، ولكنهم علموا بنية الملك وتمكنوا من الفرار. وكان لهذا الحادث أثر سىء فى اثارة الشعب إلى الحد الذى اضطر معه الملك إلى مغادرة العاصمة فى يناير سنة ١٦٤٢ .

انقسم الشعب اذن إلى قسمين القسم الأول ويضم الملك وبعض الأشراف من

الفرسان وأنصار الكنيستين الانجليكانية والكاثوليكية وكذلك الايرلنديين.

أما الفريق الآخر فكان يتزعمه أعضاء البرلمان والذين عرفوا بأصحاب الرؤوس المستديرة Round Heads والبيوريتان والاسكتلنديين وقد بدأت الحرب بين الفريقين فى أواخر عام ١٦٤٢. وكانت كفة الملكية راجحة فى أول الأمر بفضل زيادة قوتها ولكن ظهر بين صفوف قوات البرلمان شخصية حربية عظيمة وهى شخصية أوليفر كرومويل Oliver Cromwell (١٥٩٩-١٦٥٨) فاستطاع أن يقود قواته بنجاح، وأن ينتصر على قوات الملكية انتصارا حاسما فى موقعه نازبى عام ١٦٤٥ وقبض على الملك وقدم للمحاكمة أمام هيئة من أعضاء البرلمان، فقررت ادانته واعدامه، ونفذ ذلك فى ٩فبراير سنة ١٦٤٩، وكان اعدام الملك درسا قاسيا لكل من تسول له نفسه من الملوك على الاستبداد بحقوق الشعب والاستهانة بأمره. وكان أيضا حدثا خطيرا فى تطور الدستور الانجليزى.

وباعدام الملك شارل الأول نادى البرلمان بالغاء النظام الملكى واقامة النظام الجمهورى الذى استمر حوالى أربع سنوات. وفى خلال الحكم الجمهورى قامت انجلترا بحروب متعددة ضد ايرلنده، واسكتلنده وهولنده خرجت منها منتصرة. كما اصدر البرلمان الانجليزى فى ظل حكمها قانون الملاحة فى ٩ أكتوبر سنة ١٦٥١ ويقضى بحرمان السفن التجارية الأوربية نقل أية متاجر من آسيا أو أفريقيا إلى انجلترا الا على سفن انجليزية. وفى ذلك الوقت ثار خلاف بين البرلمان والجيش بشأن رغبة كرومويل فى حل المجلس النيابى لانه أصبح لايمثل الشعب تمثيلا صحيحا. وفى نفس الوقت كان البرلمان يعارض فى سيطرة الجيش على الحكم ويرى أن الأمور قد استقرت فى البلاد التى أصبحت تحكم حكما دكتاتوريا مستنيرا مايقرب من خمس سنوات إلى وفاته سنة ١٦٥٨.

وقد انتهت الجمهورية الانجليزية بوفاة كرومويل لانها تركزت حول شخصه، وقامت على اكتاف فئة قليلة من الشعب الانجليزى وهى الفئة العسكرية. ولم

يستطع ابنه ريتشارد أن يملأ منصب رئاسة الجمهورية فاعتزله بعد شهور قليلة تاركا للبرلمان مهمة اختيار نوع الحكم الذى يرتضيه. وقد سادت البلاد فترة من الاضطراب والفوضى ووجد أعضاء البرلمان أن من مصلحة انجلترا اعادة الملكية من جديد وبالفعل تولى شارل الثانى فى ٢٥ مايو سنة ١٦٦٠ العرش برغبة الشعب وموافقة البرلمان وقد أخذ البرلمان على عاتقه اعادة الحياة السياسية إلى ماكانت عليه من قبل من استئثار انصار الملكية من اتباع الكنيسة الانجليكانية بالحكم. ولكن الملكية الانجليزية كانت ترى حكم البلاد حكما مطلقا بعيدا عن سيطرة البرلمان وأن تعتمد فى هذا الحكم على تأييد الكاثوليك فى انجلترا ومعاونة فرنسا الحربية والمالية فى مقابل تعهد شارل الثانى باعادة المذهب الكاثوليكى ثانية إلى انجلترا.

وكان اصدار مرسوم التسامح الدينى Act of Indulgence بداية التحول فى سياسة انجلترا الدينية والسياسية. وكانت الخطوة التالية اعلان الحرب على هولندا البروتستنتية بالتحالف مع فرنسا.

وجد اتباع مذهب البيوريتان وأعضاء الكنيسة الانجليكانية أن عقيدتهم الدينية فى خطر وأن والوقت قد حان للوقوف أمام رغبات الملك. وأمام الضغط الواقع على الملكية وانشغال فرنسا عن مساعدته اضطر الملك للتراجع عن تلك السياسة فسحب المرسوم فى عام ١٦٧٥ وعقد الصلح مع هولندا.

ولكن أعضاء البرلمان من البروتستنت ارادوا انتهاز فرصة تخاذل الملك واصدروا مايسمى بقانون الاختبار الذى يحرم على اتباع الكنيسة الكاثوليكية تولى الوظائف العامة.

وبصدور هذا القانون سادت البلاد موجة من اضطهاد شديدة ضد الكاثوليك اغضبت الملك فقرر حل البرلمان فى سنة ١٦٧٩.

وفى تلك الفترة بدأت انجلترا تعرف الاحزاب السياسية فتكون فيها حزب التورى المؤيد للملكية وحزب الوجز Whigs الذى يمثل حقوق الشعب.

ويتولى الملك جيمس الثانى (١٦٨٥-١٦٨٨) عرش انجلترا تزيد الأمور سؤا ويشتد الصراع بينه وبين البرلمان نتيجة لسياسته الدينية اذ اعتمد هذا الملك على وجود جيش انجليزى ثابت فى العمل على نصرة اتباع المذهب الكاثوليكى المؤيدين لسلطة الملكية المطلقة، وفى المناداة بحقه المطلق فى تعديل القوانين. وبناء على ذلك الغى القوانين التى تضمن الحريات ثم اعلن سياسته الجديدة فى التسامح الدينى لكل الوظائف الدينية وامر باذاعتها فى الكنائس الانجليكانية. فرفض رجال الدين الاذعان لهذا الأمر، فقبض على سبعة منهم وقدمهم للمحاكمة بتهمة مخالفة أوامر الملك. ولكن المحكمة قضت ببراءتهم وكان ذلك بداية تحرك الثورة.

تطلعت البلاد إلى دعوة وليم اورانج حاكم هولندا لتولى عرش انجلترا وتخليص البلاد من أسرة استيوارت وكانت الظروف مهيأة لنجاح تلك الخطوة نظرا لاستعداد هولندا الحربى ولانشغال فرنسا بحربها فى منطقة الراين، فتقدمت قواته البالغة أربعة عشر ألف جندى ونزلت بجنوب انجلترا فى ٥ نوفمبر سنة ١٦٨٨ ودخلت العاصمة دون أية مقاومة، فى نفس الوقت الذى فر فيه جيمس الثانى ملتجئا إلى فرنسا. وقد اعتبر البرلمان الانجليزى فرار الملك بمثابة تنازل عن العرش، ومن ثم اعلن وليم اورنج ملكا على انجلترا. وحاول الملك الفار أن يستعين بفرنسا على استعادة ملكه مرة ثانية، وقد امدته فرنسا بقوات بحرية كبيرة استطاعت التغلب فى قوات انجلترا البحرية فى موقعه بيتشى هد Beachy Head فى أول الأمر ولكن سرعان مارجحت كفة الانجليز وانتصروا على قوات فرنسا فى موقعه لاهوج La Hougue البحرية بايرلنده. وبذلك يقضى على تلك المحاولة ويبوء جيمس الثانى بالفشل وتثبت قدم وليم اوراغ بصفة نهائية.

وقد عرفت تلك الثورة بالثورة المجيدة عام ١٦٨٨ ومع انها لم تحقق الديمقراطية الحقيقية فى الحكم ولا الحرية الدينية أو التجارية، الا انها قد وضعت الاساس السليم لتولى الملكية الحكم فالبرلمان الانجليزى قد استدعى وليم اوراغ

لتولى الحكم بشروط معينة ومحددة شملها ملتمس الحقوق. فلايحق له مثلا أن يتحدى سلطة البرلمان فى التشريع وفى ادارة شئون الأفراد اذ أن استدعاء الملك بهذا الوضع قام على أساس التعاقد بين الطرفين، فاذا حاول الملك أن يخرج على بنود هذا التعاقد فقد صلاحيته فى الحكم وحق على البرلمان عزله.

بهذا الاجراء السليم تلافت البلاد ماسبق أن وقعت فيه من خطأ باستدعائها شارل الثانى بعد سقوط الجمهورية دون قيد أو شرط.

أما عن علاقة انجلترا باستكلنده؟ وفى حقيقة الأمر لم يكن الوئام سائدا بين الاثنين، فالعلاقة بينهما كانت علاقة عدائية وذلك لاختلاف مصلحة كل منهما عن الأخرى. فاسكتلنده كانت على علاقة بالقارة الأوربية لاتستريح لها انجلترا. وعلى أى حال أدت تلك العلاقة السيئة إلى نشوب حرب بينهما هزمت فيها اسكتلنده. وبانتقال الوراثة إلى الملكة فى عام ١٧٠٢ يتم الاتحاد السياسى بين انجلترا واسكتلنده.

اما ايرلنده فلم تكن علاقتها بانجلترا بأحسن حال منها، اذ نشأ بين الجزيرتين تنافس مازال مستمرا حتى الوقت الحاضر. وفى أوائل القرن الثامن عشر استولت انجلترا على ايرلندة استيلاء تاما وتصبح منذ ذلك الوقت جزءا من الدولة البريطانية رغم اعتناقها للمذهب الكاثوليكى. وقد تم توحيد انجلترا واسكتلندا وأيرلندا فيما عرف بالمملكة المتحدة United Kingdom فى سنة ١٧٠٧[1]. وتبدو فى الأفق فى الأيام الاخيرة بوادر مصالحة بين المملكة المتحدة ومنظمة الجيش السرى الأيرلندى المطالب باستقلال ايرلندا الشمالية عن المملكة المتحدة.

(1) Rayner, Robert M. . A Concise History of Britain, P. 371.

# الفصل الخامس
# تطور الملكية الفرنسية فى العصور الحديثة

## الفصل الخامس

## تطور الملكية الفرنسية فى العصور الحديثة

سوف نتتبع فيما يلى تطور الأوضاع فى فرنسا بعد أن شهدت الأحداث التى صاحبت حركة الاصلاح الدينى فى مطلع العصور الحديثة وامتدت الى النصف الأول من القرن السابع عشر. وقد أثرت هذه الأحداث والحروب الدينية التى خاضتها فرنسا آنذاك تأثيراً سيئاً على جميع مرافق البلاد. فاضطربت اقتصاديات الدولة وتفككت سياسياً. وكانت تلك الأوضاع فى فرنسا فى حاجة الى علاج حاسم سريع بأن توضع السلطة فى يد شخصية قوية تستطيع النهوض بالبلاد وتستعيد لفرنسا ما كانت تتمتع به من هيبة ومكانة فى القارة الأوربية.

وقد وجدت فرنسا فى شخصية الملك هنرى الرابع (١٥٥٣-١٦١٠) الأمل الذى ترجوه. وكانت سياسته الداخلية تعتمد أولا وقبل كل شى على رفع شأن الملكية فوق مستوى الطوائف والأحزاب فى فرنسا، واستغلال جميع العناصر الموالية لها من انصار البروتستنتية والكاثوليكية فى تدعيم سلطته. كما انه لم يحاول الاعتماد على البرلمان.

وقد استطاع بفضل سياسته هذه أن يعالج الناحية الاقتصادية بنجاح كبير، كما تمكن من تكوين جيش قوى قضى على النزعات الانفصالية التى تهدد فرنسا.

أما من ناحية السياسة الخارجية فقد نجح هنرى الرابع فى استرجاع ماكان لفرنسا من هيبة ومكانة بين الدول فى أوربا، فتوسط فى النزاع القائم بين البندقية والبابوية كما أنه عاون أهل الأراضى المنخفضة فى صراعهم مع أسبانيا واعترف باستقلالهم عن أسبانيا خلال حرب الثلاثين عام.

وبوفاته يؤول عرش فرنسا إلى لويس الثالث عشر، وكان قاصرا فى ذلك الوقت فتولت الوصاية عليه امه مارى مديتشى. وفى ظل وصايتها تعثرت الأمور فى فرنسا إلى أن يتولى شئون الحكم بنفسه حيث اعتمد فى إدارة شئون البلاد على شخصية

قوية من اقدر رجال فرنسا فى ذلك الوقت وهو الكردينال رشيليو Richeliou (١٥٨٥-١٦٤٢).

تولى ريشيليو إدارة البلاد بعد أن تطرق الضعف والانحلال إلى كل النظم التى وضعها الملك هنرى الرابع من قبل. وكانت سياسة ريشيليو ترمى أولا وقبل كل شىء إلى تقوية سلطة الملكية فى فرنسا مهما كلفه الأمر. وكان يرى فى قوة الملكية علاجا للتنازع والانقسام الذى أصيبت به فرنسا، فكانت سياسته اذن ترمى إلى سلب الاشراف مالهم من نفوذ وشل حركة البرلمان.

وقد أثارت تلك السياسة مخاوف الهيجونوت (البروتستنت) وخشوا أن يسلبهم ريشيليو ماأحرزوه من كسب بمقتضى مرسوم نانت، فأخذوا يناوئونه، واعتصموا بمدينة لاروشيل الحصينة معقل البروتستنتية، ولكن ريشيليو استطاع بعد حصار طويل اسقاطها والقضاء على قوة الهيجونوت كقوة سياسية، وفى نفس الوقت لم يحاول ريشيلو الاعتداء على حقوقهم الدينية.

وبوفاة ريشيلو فى سنة ١٦٤٢ أصيبت البلاد بنكسة شديدة نتيجة لظهور الحركات الرجعية من جديد، ومحاولة استعادة ماكان لها من نفوذ وساعد على ذلك وفاة الملك لويس الثالث عشر، وتولية ابنه لويس الرابع عشر الحكم تحت وصاية أمه الملكة آن. وقد وفقت الملكة آن فى اختيار مزران Mazarin (١٦٤٢-١٦٦١) لادارة شئون البلاد خلفا لريشيليو.

قوبلت اصلاحات مزران فى معالجة الشئون المالية والاقتصادية، وتحديد سلطة الاشراف والبرلمان بمعاونة شديدة من قبل الشعب بتحريض الاشراف وأعضاء البرلمان فى باريس، ونظرا لانشغال فرنسا فى حرب الثلاثين عاما، اضطر مزران إلى الرضوخ للامر الواقع ولكن ما أن انتهت تلك الحرب وعقدت معاهدة وستفاليا حتى أخذ فى اعداد جيش كبير تحت قيادة امهر قواد فرنسا كنديه Condé ومحاصرة باريس. وأمام ضغط الحصار اضطرت المدينة إلى التسليم والبرلمان

إلى عقد الصلح مع مزران وانتهت هذه الحرب الاهلية التى سميت باسم حرب الفرند Fronde فى صالح الملكية ولكن لم تلبث حركة المقاومة أن بدأت تطل برأسها من جديد على ايدى الاشراف وبتأييد من اسبانيا، وتزعم تلك الحركة القائد الفرنسى الكبير كونديه طمعا فى القضاء على مزران والاستيلاء على الحكم، فاضطر مزران إلى الابتعاد عن الحكم لفترة ماريثما يتمكن من تكوين جيش كبير لمحاربة كونديه. وقد كتب لمحاولته هذه النجاح واضطر كونديه فى النهاية إلى الالتجاء إلى أسبانيا بعد أن أصيبت البلاد بخسائر جسيمة، نتيجة لتلك الحرب الاهلية. وكان ذلك من دواعى تمسك الشعب الفرنسى بالملكية والعمل على تقويمها للتخلص من تلك الحركات الثورية. وقد صادف هذا تولى الملك لويس الرابع عشر الحكم بنفسه بعد وفاة مزران.

حكم لويس الرابع عشر فرنسا لفترة طويلة حكما مطلقا بعد أن اخضع الاشراف لسلطته بعد أن حتم عليهم البقاء بجانبه فى بلاط فرساى - فلويس الرابع عشر قد ورث حكم فرنسا بعد أن قام كل من الملك هنرى الرابع وريشيليو ومزران بتوطيد سلطة الملكية فى الداخل وفى رفع شأنها فى الخارج نتيجة لاشتراكها فى حرب الثلاثين عاما.

فالملكية الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر تعتبر من أقوى الملكيات الأوربية، ومن أعظمها شأنا، وكان البلاط الفرنسى فى فرساى المثل الأعلى الذى تحاول الملكيات فى أوروبا أن تحتذيه. كما كانت فترة حكم لويس الرابع عشر فترة ممتازة فى التاريخ الفرنسى من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والعلمية والفنية. كانت اذن ملكية لويس استبدادية مطلقة، تؤمن بحق الملوك الالهى فى الحكم فكلمته قانون وأمره لايرد،وهو رأس الدولة، بل هو الدولة ذاتها. فلم تكن للنظم البرلمانية أى شأن عنده وقد استغنى عنها جميعا ووضعها تحت مراقبته[1]. وفى عصره ظهر

---

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث (١٧٨٩ - ١٩٥٠)، ص ٥.

رجال عظام في مختلف النواحي مثل كلبير Celbert في النواحي المالية والاقتصادية وكونديه Condé وتورين Turenne في النواحي الحربية، كما كان لوفوا Lauvois اقدر وزير للحربية.

بذل كلبير جهودا ضخمة في اصلاح مالية البلاد فقد بدأ بوضع ميزانية للحكومة تعمل بمقتضاها، وفي نفس الوقت فقد عمل على العناية بالصناعات المحلية إلى حد كبير، وكفل لها النجاح عن طريق فرض الضرائب العالية على الواردات من الخارج. وكذلك لقيت الشركات التجارية والملاحية تشجيعا كبيرا الا أن هذه الجهود الضخمة لم تأت بالنتيجة المرجوة منها نظرا لسياسة الاسراف التي سارت عليها الملكية وللحروب الكثيرة التي خاضتها.

اما عن سياسة لويس الرابع عشر الدينية فقد عول الملك على القضاء على الهيئات الدينية المستقلة عن سيطرة الهيئة الحاكمة باعتبارها هيئات خارجة على سلطة الملكية، ولذا واجه البروتستنت اضطهاد شديدا وكذلك جماعة الجانسنست Jensnist اتباع جانس المعادين للكنيسة الكاثوليكية.

كذلك دخل لويس الرابع عشر في صراع مع البابا انوسنت الحادى عشر لمحاولة لويس التلاعب ببنود اتفاقية كونكوردات التي عقدت عام ١٥١٦ بين البابوية وفرنسا بشأن تسوية المسائل الدينية المعلقة بينهما. واستمر الصراع فترة طويلة من الزمن إلى أن وصل الطرفان إلى اتفاق فيما بينهما في عهد البابا انسوسنت الثاني عشر ضمن للملكية السلطة على الشئون الدينية في فرنسا مع الاعتراف بنفوذ البابا الديني. وبذلك خرجت الملكية من هذا الصراع منتصرة واستطاعت بعد ذلك أن توجه ضرباتها إلى المعارضين لها من البروتستنت واتباع جانس ممن يتبعون مبادىء كلفن، وتعقبهم بالنفي والتشريد بعد أن الغى مرسوم نانت الذى ضمن الحرية الدينية لاتباع المذهب البروتستنتي في عام ١٦٨٥ . وقد فقدت فرنسا بهجرة هذه العناصر إلى خارج فرنسا عناصر نشيطة اسهمت إلى حد بعيد في نهضة البلاد.

أما عن سياسة لويس الرابع عشر الخارجية فقد تركزت حول مبدأين هامين:

أولا الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية، وساعدها على تحقيق هذا المبدأ انهيار سلطة الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الولايات الالمانية، وعجز تلك الولايات عن حماية نفسها نظرا لضعفها وتفككها. ولذا كانت الولايات الواقعة على حدود فرنسا الشمالية مثل بلجيكا ولكسمبرج وفرانس كانتيه هدفا لاطماع فرنسا كذلك الحال بالنسبة لحدود فرنسا الجنوبية، حيث توجد اسبانيا الدولة الضعيفة التى ارغمت فى معاهدة البرانس على الموافقة على زواج ماريا تريزا ابنه فيليب الرابع ووارثة العرش الاسبانى من لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكانت فرنسا تهدف من وراء هذا الزواج ضم العرش الاسبانى بممتلكاته إلى فرنسا.

الثاني: العمل على تفوق فرنسا والملكية الفرنسية فى أوربا، وعدم السماح لاية قوة أوربية أن تتفوق عليها. ولذا سارت على سياسة مناوأة أسرة الهابسبرج الحاكمة فى الامبراطورية الرومانية المقدسة[1].

أما فيما يتعلق بالمبدأ الأول فقد شنت فرنسا حربا ضد أسبانيا بشأن وراثة عشر بلجيكا سميت باسم حرب الوراثة الأولى (١٦٦٧-١٦٦٨) استطاعت فيها هزيمة أسبانيا أثناء انشغال كل من هولندا وانجلترا اللتين كان يهمهما أمر بلجيكا نظرا لموقعها الجغرافى كحاجز أمام القوات الفرنسية فى الشمال. ولكن لم تلبث الدولتين أن فرغتا من مشاكلهما الخاصة حتى عقدتا محالفة ثلاثية مع السويد للوقوف ضد اطماع فرنسا. فاضطر لويس الرابع عشر إلى عقد معاهدة إكس لاشابل فى سنة ١٦٦٨ تنازل بمقتضاها عن بعض البلدان الشمالية التى استولى عليها. وهذا يدلنا على أهمية بلجيكا بالنسبة لانجلترا، فقد وقفت بعد ذلك ضد الثورة الفرنسية لاستيلائها على تلك البلاد، وكذلك فعلت مع نابليون ومن بعده

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ١٧٤.

مع المانيا فى الحربين العالميتين. أما الحرب الثانية فكانت مع هولندا (١٦٧٢-١٦٨٩) وقامت لاسباب تجارية واقتصادية وكان هدف فرنسا القضاء على منافس قوى وهو هولندا من الناحية التجارية. حيث كانت هولندا جمهورية ولم يكن هذا النظام مرضيا عنه فى فرنسا لاسيما وأن هولندا كانت ملجأ للمضطهدين الدينيين الفارين من فرنسا. كما كانت هولندا تنشر الكتب التى تسيء إلى سمعة الفرنسيين.

وقد نجح لويس الرابع عشر فى حل التحالف الثلاثى بين انجلترا وهولنده والسويد بعد معاهدة دوفر السرية مع انجلترا وعزل هولندا قبل مهاجمته لها. وقد استطاعت الجيوش الفرنسية التقدم فى الاراضى الهولندية والانتصار على الهولنديين، ولكن تقدم هذه القوات قد وقف عن حد معين نتيجة لمقاومة وليم اورانج حاكم هولنده، وذلك بفتح الحدود وغمر البلاد بالمياه. وفى نفس الوقت تمكن من اخراج هولنده من عزلتها السياسية بالاتفاق مع أسبانيا وبراندنبرج والامبراطورية الرومانية المقدسة، حتى أصبح الاستيلاء على هولندا أمرا غير ميسور. ولكن موقف فرنسا كان مازال تفوق مما شجع الطرفين على عقد صلح نيميجن Nimeguen سنة ١٦٧٨ الذى سجل تفوقا فرنسا السياسى والحربى. فخرجت فرنسا منها مرفوعة الرأس واقتطعت جزءا من البلجيك وضمت إليها الالزاس وفرنسكنتية.

لم تحقق معاهدة نيميجن كل ماكان يصبوا اليه لويس الرابع عشر، فرأى لويس أن ينتحل المبررات لضم مناطق جديدة إلى فرنسا بحجة أن ماضم إلى فرنسا بمقتضى معاهدتى وستفاليا ونيميجن يجب أن يضم اليها ملحقاته وتحقيقا لهذا الادعاء استولى لويس على ستراسبوج وهى من أقوى المعاقل التى تفصل بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة.

وقد استغل لويس فرصة ضعف الامبراطوربة الرومانية المقدسة وانشغالها فى حروب مستمرة مع الاتراك العثمانيين وأخذ يستولى على بعض المواقع الواحد بعد

الآخر إلى أن سقطت فى يديه لكسمبرج سنة ١٦٨٤ واضطر الامبراطور إلى عقد هدنة اعترف فيها بما لفرنسا من مركز متفوق وبما استولت عليه من مواقع.

لم تلبث أوربا أن انتهت من مشاكلها وبدأت تتقرب إلى بعضها للوقوف ضد مطامع لويس فتكون حلف اجسبرج Augsburg ١٦٨٦ من الامبراطورية الرومانية المقدسة وأسبانيا والاراضى المنخفضة وبعض الولايات الالمانية ودخلت فى حرب مدمرة مع فرنسا سميت باسم حرب المحالفة العظمى Grand Alliance وقد كتب لفرنسا النصر فى أول الأمر ولكنها هزمت أمام القوات المتحالفة فى موقعتى بوين Boyne لاهوج Lahugue فاضطر لويس الرابع عشر إلى عقد معاهدة ريزويك Ryswick ١٦٩٧ وتنازلت فيها فرنسا عما استولت عليه من أراضى بعد معاهدة نيميجنن باستثناء استراسبورج، واعترفت كذلك بوليم اورانج ملكا لانجلترا.

وفى سنة ١٧٠١ ثارت مسألة الوراثة الاسبانية فى أوربا، فنظرا لعدم وجود وارث شرعى للعرش الأسبانى اوصى آخر ملوك أسبانيا بوراثة عرشه وملحقاته إلى دوق انجو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا. وبوفاة ملك أسبانيا تدخل لويس الرابع عشر لتنفيذ شرط الوصية وأعلن بأن تجارة أسبانيا وملحقاتها ستكون احتكارا لفرنسا. وقد أثار هذا الاعلان ثائرة انجلترا نظرا للعلاقات التجارية الواسعة التى تربطها بمستعمرات أسبانيا فى أمريكا، فكونت تحالفا جديدا منها ومن هولندا والنمسا فى عام ١٧٠١ وبدأت الحرب بين الطرفين واستمرت ثلاثة عشر عاما. وقدمت فيها انجلترا والنمسا خيرة جنودها وقوادها مثل ايوچين Eugene والقائد النمسوى ملبرو Marlberough أكبر قواد أنجلترا وفى تلك الحرب الضروس انتصر الحلفاء على فرنسا فى معركة بلنهيم ١٧٠٤ وفى معارك أخرى. ولكنهم لم يستطيعوا الانتصار على قواتها فى أسبانيا.

وفى ذلك الوقت سقطت الحكومة الانجليزية التى تولت الحرب وجاءت بعدها وزارة أخرى رأت الدخول فى مفاوضات مع فرنسا لتضمن مصالحها التجارية،

فعقدت معاهدة صلح اوترخت سنة ١٧١٣ وتلتها بعد ذلك النمسا بعد هزائم متعددة فعقدت معها صلح رستاد سنة ١٧١٤.

وقد خرجت فرنسا من هذه الحرب منتصرة فاحتفظت بكل اراضيها وتولى دوق انجو عرش أسبانيا وملحقاتها بشرط الا يضم عرش أسبانيا فى يوم من الايام إلى فرنسا، وفازت انجلترا بجبل طارق ونيوفوند لاند ونوفا سكوشيا وخليج هدسن. على إن التنافس بين فرنسا وانجلترا سوف يزداد تدريجياً سواء فى القارة الأوربية أو فيما وراء البحار، ليصل الى حد قيام حرب السنوات السبع بين الجانبين والتى ستنتهى بعقد معاهدة باريس فى سنة ١٧٦٣[1].

(1) Philips, C. H. : The East India Company 1784 - 1834, P. 299.

# الفصل السادس

# تطور روسيا القيصرية فى العصورالحديثة

## الفصل السادس

## تطور روسيا القيصرية فى العصور الحديثة

يشكل تاريخ روسيا القيصرية جانبا هاما من تاريخ أوربا الحديث، على الرغم من أن الأراضى الروسية تشكل مساحات واسعة من آسيا، وجزءاً محدوداً من شرق أوربا، غير أن روسيا كان لها دوراً رئيسياً فى صنع الأحداث فى القارة الأوربية مما جعل تاريخها يدخل فى نطاق التاريخ الأوربى والآسيوى فى آن واحد. وقد سكن الأراضى الروسية العنصر السلافى أو الصقلبى الذى اعتنق الديانه المسيحية على المذهب الأرثوذكسى وهو مذهب الكنيسة الشرقية التى تمركزت فى القسطنطينية. وقد خضع هؤلاء السكان لحكم القياصره الاستبدادى المطلق الذى ورثوه عن الدولة البيزنطية كما ورثوا عنها مذهبها الدينى.

وقد ارتبط تاريخ روسـيا فى نهاية العصور الوسـطى باغارات التتار عليها فى القرن الثالث عشر الميلادى، حيث هاجمتها جحافل التتار تحت قيادة جنكيزخان. وقد أصيب الجيش الروسى بضربة قاسمة أمام هجمات التتار عند بحر أزوف[١]. ونتيجة لتلك الحرب أن قوى الشعور القومى الروسى، كما ستقوى القيصرية معتمدة فى ذلك على التلويح بالخطر الخارجى، وتمكنت من تركيز السلطة فى يديها. غير أن البلاد تعرضت لفترة من الفوضى والاضطراب نتيجة انتهاء حكم الأسرة الحاكمة فيها، إلى أن تمكن النبلاء فى نهاية الأمر من تشكيل مجلس منهم لانقاذ البلاد من الفوضى التى تردت فيها. وقد اختار النبلاء واحداً منهم ليكون ملكاً على البلاد يدعى ميشيل رومانوف M. Romanof فى سنة ١٦١٣ وهو يعتبر أول مؤسسى لأسرة رومانوف التى ظلت تحكم روسيا حتى قيام الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧. وقد اعتلى عرش روسيا القيصر بطرس الأكبر (١٦٧٢ –

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ٢٠٩.

- A Short History of The USSR, Academy of Science of The USSR, Institute of History, Moscow 1965, P. 54.

١٧٢٥) الذى كان يمثل العنصرية الروسية بأجلى معانيها.

كانت روسيا دولة متأخرة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، وكانت تعتبر فى شبه عزلة عن الدول الأوربية المتحضرة. فهى بحكم موقعها الجغرافى تحوطها دول متأخرة ففى الجنوب حيث توجد شعوب اواسط ايران وكذلك تتصل بدول البحر المتوسط عن طريق البحر الاسود ومنطقة المضايق التى تشرف عليها الدولة العثمانية. وفى غرب روسيا توجد بولنده وهى ايضا دولة متأخرة شأنها فى ذلك شأن الدول الأخرى التى اشرنا اليها. فاتصال القيصرية الروسية بهذه الدول لايساعد على تقدمها وازدهارها. وقد فطن لهذا الأمر القيصر بطرس الأكبر وايقن بأن بلاده لن تستطيع مسايرة تقدم دول غرب أوربا مالم تأخذ بنظمها فى النواحى الثقافية والصناعية والتجارية بما يتلاءم مع طبيعة الحياة فى روسيا.

وسيأخذ القيصر الروسى عن الغرب الكثير من نظمه وعاداته وتقاليده وحاول أن يتخير من الدول الأوربية أحسن مافيها من نظم يقتبس منها أرقى ماوصلت اليه صناعتها، فاستعان بالالمان للتنظيم الادارى والنمساويين لاعادة تشكيل وتنظيم الجيش الروسى، والهولنديين لاقامة السفن على اساس فنى جديد. ولم يدخر القيصر الروسى وسعا فى الاستعانة بمختلف الخبراء والفنيين من سائر الاجناس لرفع شأن الصناعة والتجارة والعمل على رفع مستوى الحياة فى روسيا.

وحاول القيصر الروسى أن يخطو بروسيا طفرة واحدة فى طريق التقدم للحاق بالدول الاوربية التى سبقتها إلى هذا الميدان، واستخدم فى سبيل الوصول إلى غايته كل وسائل الشدة والعنف. ولم يلجأ إلى معالجة هذا التأخر عن طريق نشر التعليم بفتح أكبر عدد من المدارس بل كان كل همه الوصول إلى نتائج سريعة، وذلك عن طريق الاهتمام بالناحية المادية من اقامة المصانع والمؤسسات دون الانتظار إلى خلق طبقة مثقفة تتولى بنفسها ادراة تلك المصانع والمؤسسات.

وقد وجد بطرس الاكبر أن الطريق الطبيعى للاتصال بالغرب هو طريق بحر

البلطيق[1]، وأن هذا الطريق مغلق فى وجه روسيا لسيطرة السويد على المناطق المعتدة على سواحله فكان لابد اذن من الدخول فى صراع مع تلك الدولة لبسط سيطرتها على تلك المنافذ المطلة على دول أوربا، فدخل فى حرب (١٧٠٠-١٧٢١) معها بعد أن تحالف مع بولندا والدنمرك، ولكن تلك الحرب كانت فى غير صالح روسيا فى أول الأمر اذ استطاع شارل الثانى عشر ملك السويد ان يهزم روسيا وحلفائها منفردين فتمكن من انزال الهزيمة بالجيش الروسى فى موقعه(نارفا) .

وقد اغرى هذا الانتصار الملك شارل على التقدم داخل الأراضى الروسية للقضاء على قوتها الحربية. ولكن الروس نجحوا فى استدراجه داخل الاراضى الروسية حيث الحقوا به هزيمة فادحة فى معركة بلطاوة Poltava عام ١٧٠٩ وبذلك تتحقق امانى بطرس الاكبر فى القضاء على قوة السويد، والاستيلاء على ولايات بحر البلطيق بمقتضى معاهدة نيستاد Nystadt فى سنة ١٧٢١، فيما عدا فنلندا.

ومنذ ذلك الوقت زالت العوائق التى كانت تعترض روسيا فى الاتصال بدول غرب اوربا.وتوطيدا لهذه العلاقة الجديدة انشأ مدينة سان بطرسبرج (وهى التى سميت فيما بعد بمدينة لينينجراد بعد الثورة البلشفية) لتكون همزة الوصل بين العالم الغربى وبين مختلف اجزاء روسيا. أى أنه حاول صبغ تلك المدينة الجديدة بالصبغة العربية فى كل مظاهرها وعاداتها وتقاليدها لتكون مركز إشعاع تنبعث منه تيارات الحضارة الغربية إلى سائر انحاء روسيا. وقد نجح فى ذلك إلى حد بعيد، فروسيا منذ أن وجهها بطرس الاكبر نحو الغرب مازالت تتجه اليه حتى يومنا هذا، بل انها تعتبر نفسها دولة اوربية اكثر منها دولة آسيوية، وزاد اهتمامها بالمشاكل الأوروبية زيادة كبيرة وأن نظرة العالم الغربى إلى روسيا سيختلف من حين لآخر،

(١) حسن صبحى (دكتور) : معالم التاريخ الأمريكى الأوربى الحديث، ص ٣٠١.

فاذا كان على علاقة ودية بها اعتبرها دولة غربية وثقافتها ثقافة غربية. اما اذا كان علاقته بها غير ودية اعتبرها دولة شرقية ونعتها بالتأخر.

ويجب الايغرب عن بالنا ان بطرس الاكبر لم يجد الطريق امامه ممهدا فى محاولاته الاقتباس عن النظم الغربية، بل عارضته الطبقة الرجعية المحافظة، كما عارضته الاسرة المالكة نفسها، ولكن عزيمته لم تهن امام تلك العقبات، فسار على سياسة الشدة والعنف لادخال تلك النظم الغربية إلى بلاده، بحيث انه عندما وجد معارضة من الكنيسة الروسية لم يقف مكتوف اليدين، فادخل بعض التعديلات على نظام الكنيسة بحيث اصبحت تدار شئونها عن طريق احد اتباعه الذى عينه رئيساً للمجلس الدينى بعد أن عزل البطريرك والغى منصبه. أى ان بطرس الاكبر قد نجح إلى حد كبير فى تركيز السلطتين الدينية والزمنية فى يديه. ولو أن هذا النظام قد افاد روسيا فى عهد قياصرتها الاقوياء، الا أن ضعف هؤلاء قد أضعف اجهزة الدولة الاخرى فلم تجد الدولة فيها بديلا عن سلطة القيصرية المنهارة.

وتجدر الاشارة الى أن بطرس الأكبر كان يخشى على ضياع مجهوداته الاصلاحية بعد وفاته، لاسيما وأن المعارضة فى عهده كانت معارضة قوية، ولكنها تخشى الظهور فى مواجهة بطرس الأكبر وبطشه. هذا بالاضافة إلى أن ابنه أليكسيس Alexis ولى عهده، كان لا يرى وجهة نظر أبيه فى الاقتباس من النظم الغربية. وكان يميل بطبعه إلى رجال الدين والنبلاء الساخطين على سياسة والده. ولما كان بطرس لا يرجو من وراء ابنه خيراً على مستقبل النظم الجديدة، أمر بقتله فى سنة ١٧١٨. وهذه الحادثة تدل على قسوة بطرس الأكبر ووحشيته، وتصميمه على تنفيذ سياسته بمختلف السبل. وقد سادت روسيا فترة من الاضطراب والفوضى عقب وفاة بطرس فى سنة ١٧٢٥، استمرت الى سنة ١٧٦٢. وفى خلالها تبوأت كاترين الأولى زوجة القيصر بطرس العرش، وحاولت جاهدة أن تسير على سياسته رغم المشاكل والعقبات التى اعترضت طريقها، لاسيما وأن زوال

بطرس الأكبر من على مسرح الأحداث فى روسيا قد أوجد فراغاً كبيراً لم تستطيع كاترين أن تملأه.

وفى عهد حكم كاترين الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) سارت روسيا على نفس السياسة التى استنها بطرس الاكبر من قبل، وهى سياسة الاتصال بأوربا والاهتمام بالمشاكل الاوربية بما يحقق المصالح الروسية، فدخلت فى تحالف عسكرى مع النمسا وبروسيا بشأن تقسيم بولندة ونجحت بذلك فى اقتطاع اجزاء واسعة منها. وكذلك دخلت روسيا فى حربين كبيرتين مع الدولة العثمانية تمكنت فى خلالهما من بسط سيطرتها على الشواطىء الشمالية للبحر الاسود وكذلك شبه جزيرة القرم. أما من الناحية الداخلية فقد أخذت كاترين الثانية فى تكملة السياسية التى بدأها بطرس الاكبر وهى الاقتباس عن الغرب من ناحية المظهر فقط لا من ناحية الجوهر. فظلت روسيا تهتم بانشاء المصانع وبالاصلاحات المادية دون الاهتمام بتغيير النظم الاجتماعية أو العمل على رفع الغبن عن كاهل الطبقات الكادحة.

فنجد أن كاترين قد أهتمت أهتماماً كبيراً بحركة الاستنارة Enlightenment التى سادت أوربا فى ذلك الوقت، والتى كان من أعلامها ڤولتير Voltaire وديدرو Diderot. ولكن هذا الاهتمام لم يتعد الأسرة الحاكمة، أى أن أثرة لم يصل إلى الطبقات الدنيا التى كانت فى أشد الحاجة الى الاصلاح.

وقد ارتبطت سياسة روسيا الخارجية إلى حد كبير بموقع بولندا الجغرافى وبوضعها السياسى، فهى بحكم هذا الموقع توجد بين دول قوية ترى كل منها ان تسيطر على اجزاء منها. اما عن البولنديين انفسهم من العنصر الصقلبى ويدينون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى، اى انهم يدينون بالتبعية الروحية للكنيسة الرومانية بعكس الحال بالنسبة لروسيا التى اعتنقت المذهب الارثوذكسى وتدين بالتبعية الروحية للكنيسة الشرقية.

وقد عرفت بولنده النظام الملكى منذ امد بعيد، ولكنها كانت ملكية ضعيفة لم

تستطع السيطرة على مقاليد الحكم لمقاومة امراء الاقطاع فى تركيز السلطة فى يد الملكية. ومن الظواهر الغريبة فى نظام الحكم ان الشعب البولندى كان يفضل حكم امراء الاقطاع على حكم الملكية القوى، وبعكس الحال بالنسبة لسائر دول اوربا التى فضلت شعوبها الالتفاف حول الملكية لتقويتها ولاضعاف نفوذ امراء الاقطاع. واستطاعت بولندا ان تسيطر بعض الوقت على سواحل بحر البلطيق بعد هزيمة الفرسان التيوتون فى القرن الخامس عشر الميلادى.

اما من الناحية السياسية، فنتيجة لضعف الملكية البولندية ان انعدم التماسك والترابط بين اجزاء تلك الدولة، وساعد بطبيعة الحال على سقوطها ومحوها من الخريطة الاوربية عدة مرات كما أن وقوع هذه الدولة بين ثلاث دول كبرى هى روسيا والنمسا وبروسيا قد اطاح بها، نظرا لأن اراضيها كانت تتكون من سهول منبسطة، تكون فى حقيقة الامر امتدادا للسهول الروسية والالمانية فعدم وجود حدود طبيعية كالجبال والانهار قد سبب فى ضياعها عدة مرات فى تاريخها الوسيط والحديث.

فمثلا حدث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر نزاع بين روسيا والنمسا وخشيت بروسيا ان يؤدى هذا النزاع إلى تدخلها الحربى مرغمة فاقترحت على الدولتين المتنازعتين أن تشترك الدول الثلاث فى تقسيم بولندا فيما بينها فضا للنزاع وقبل الطرفان المتنازعان هذه التسوية وقسمت بولندا بين الدول الثلاث.

كذلك تعرضت تلك الدولة مرة اخرى لتفكك نتيجة لطمع بعض الدول المجاورة فى استقطاع بعض الاجزاء الهامة منها. وفى عهد نابليون يقضى عليها كدولة لها كيان سياسى. ثم يعيدها نابليون مرة اخرى تحت اسم ولاية وارسو. وبعد هزيمته يقرر الحلفاء فى مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥ ارجاع الحقوق الشرعية لاصحابها. اى بمعنى آخر عودة الحدود السياسية لدول أوربا إلى ما كانت عليه قبل حركة نابليون مع بعض تعديلات طفيفة. ولكن تلك الدول الاوروبية قد

استثنت بولندا من هذا المبدأ، فقررت تقسيمها بين دول متعددة. وكان لروسيا النصيب الاكبر منها، على ان تتعهد بادخال التعديلات الضرورية عليه.

وستقوم المنطقة البولندية بالثورة على الحكم الروسى، ولم تستطع انجلترا وفرنسا التوسط فى هذا النزاع بالطرق الودية، أو ان تحول بين روسيا وبين اخمادها لتلك الثورة بقوة الحديد والنار. وذلك لاعتماد روسيا على مؤازرة بروسيا، وبذلك تتمكن روسيا من اخماد تلك الثورة بمنتهى الشدة والعنف فى عام ١٨٦٢.

وبعد أن حلت كاترين مشكلة بولنده أخذت توجه نشاطها صوب الدولة العثمانية، ولا سيما على سواحل البحر الأسود الذى كان يعتبر بحيرة عثمانية، فنجحت فى الحرب التى استمرت من عام ١٧٦٨ إلى ١٧٧٤ فى إجلاء العثمانيين عن شمال البحر الأسود وانتزاع شبه جزيرة القرم وبحر أزوف من أيديهم. ولكن اطماع روسيا لم تقف عند هذا الحد، فشنت حربا أخرى على الدولة العثمانية فى سنة ١٧٨٧، امتدت الى سنة ١٧٩٢، وكان من نتيجتها نجاح الروس فى الاندفاع نحو الغرب على طول ساحل البحر الأسود حتى نهر الدنيستر. وبهذا النجاح الذى أحرزته روسيا على أيدى بطرس الأكبر وكاترين الثانية استطاعت أن تصبح احدى القوى الدولية الكبرى فى المجتمع الأوربى عند وفاة القيصرة كاترين الثانية فى أواخر القرن الثامن عشر[1].

وسوف تتعرض روسيا لمواقف جديدة عقب قيام الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩ حيث ستشترك فى التحالفات الدولية ضد التوسع الفرنسى، وستدخل فى مواجهة حربية ضد فرنسا الامبراطورية التى هاجمت الأراضى الروسية فى عهد نابليون بونابرت، وستنجح فى صد هذا الهجوم، كما ستشترك فى مؤتمر فيينا فى سنة ١٨١٥ الذى سيترتب على قراراته اعادة توزيع خريطة أوربا من جديد.

---

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ٢١٧.

# الفصل السابع

## الثورة الفرنسية بين أسبابها وأبعادها ونتائجها

## الفصل السابع

## الثورة الفرنسية بين أسبابها وأبعادها ونتائجها

تعتبر الثورة الفرنسية التى قامت فى سنة ١٧٨٩ من أهم أحداث التاريخ الأوربى الحديث وأخطرها، حيث لم ينحصر تأثيرها داخل فرنسا وحدها، ولا داخل القارة الأوربية بأكملها، بل امتد تأثيرها ليشمل المجال الدولى، فضلا عن استمرار تأثيرها فى أجيال عديدة أعقبت جيل الثورة، وظلت مبادئها الداعية الى الحرية والإخاء والمساواة ملهمة لحركة التحرر العالمى.

وعلى الرغم من أن الملكية الفرنسية كانت من أقوى الملكيات التى عرفتها أوربا، كما كانت أسرة البربون المتمسكة بنظرية حق الملوك الالهى فى الحكم من أقوى الأسرات الحاكمة فى القارة الأوربية فى العصر الحديث، بل إن البلاط الفرنسى فى فرساى بمن يضمهم من الشعراء والأدباء والفنانين كان مضرب الأمثال والمثال الأعلى الذى يحتذى به فى المجتمعات الأوربية. فإن فرنسا قد بدأت أوضاعها تتدهور عقب وفاه واحداً من أعظم ملوكها وهو لويس الرابع عشر الذى تعاقب على عرش فرنسا من بعده ملوك ضعاف ليسوا فى مقدرته السياسية أو العسكرية. ولهذا فقدت الملكية الفرنسية تدريجيا حب الشعب لها نتيجة لزوال الدوافع التى جمعت حولها قلوب الجماهير، ومن أهمها نجاحها فى تخليص فرنسا من الحكم الأجنبى، ودورها الكبير فى بناء مجد عسكرى بانتصاراتها الحربية فى مختلف الميادين بحيث أصبح لفرنسا مركزاً متميزا بين غيرها من الدول الأوربية. ولكن حينما أثقلت الملكية الفرنسية كاهل الشعب بالمصروفات الباهظة، والهزائم المتعاقبة، فقد فقدت محبة الشعب لها مما جعله يقبل على الثورة ضدها للتخلص منها.

إن المتتبع لتاريخ الثورات فى العصر الحديث – بل وفى غيره من العصور – يجد أنها لاتقوم فجأة، وإن بدا لغير المتعمق فى الدراسة غير ذلك، فلابد لكل ثورة

من الثورات مقدمات وأسباب تمتد فى أعماق الماضى سنوات عديدة. والثورة الفرنسية لم تشذ عن ذلك. ورغم اقتصار تلك الثورة على داخلية فرنسا أى برغم انطباعها بالطابع المحلى، فسيكون لها دوى كبير فى كل انحاء اوربا. وقد يتبادر إلى ذهننا هذا السؤال: لماذا كان لهذه الثورة كل هذا الدوى الكبير مع أن فرنسا تقع فى الطرف الغربى من أوربا، وليست مهيأة من حيث الموقع لانتشار مبادئها؟.

الجواب على هذا السؤال أن فرنسا كانت تتمتع بمركز ممتاز بين دول القارة الأوربية منذ عهد لويس الرابع عشر، بحيث أصبحت هذه الدول تنظر إلى فرنسا نظرة المعلم أو الرائد. فالملكيات الأوربية تحاول تقليد الملكية الفرنسية فى عظمتها وأبهتها. كذلك كان للمفكرين الفرنسيين أمثال فولتير وموليير وروسو وغيرهم منزلة سامية لدى شعوب أوربا. فهؤلاء المفكرون الفرنسيون كانوا فى نظر تلك الشعوب شخصيات أوربية وليست فرنسية، فمن الطبيعى إذن أن يكون لفرنسا مركز ممتاز[1].

وبالرغم من أن الثورة نشأت فى فرنسا وكانت أهدافها وطنية وقاصرة على فرنسا، إلا أنها سرعان ما أصبحت عالمية. فاصطدمت مع الدول الأوربية وهى النمسا وانجلترا وهولندا واسبانيا، ونتيجة لذلك تسربت الأفكار الثورية إلى أوربا.

ثم جاء بعد ذلك نابليون وتمكن من قهر أعظم دول أوربا وسيطر على غرب أوربا ووسطها مثل المانيا والنمسا وبولونيا كما تغلب على الدولة العثمانية فى مصر. ومن الطبيعى أن يعمل نابليون على نشر المبادئ الفرنسية، فهذه المبادئ لم تتسرب وحدها، بل نظرا لما كان لفرنسا من السيطرة فى عهد نابليون، فنابليون إذن كان عاملاً مهما فى نشر هذه المبادئ.

ومبادئ الثورة التى جاءت بها، مبادئ إنسانية تخاطب شعور بنى الإنسان

---

(١) بول هازار : الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر من منتسكيو إلى ليسنج، الجزء الأول، ص ٣٢٤.

جميعهم، فهى حينما تطالب بالحرية والإخاء والمساواة، فإنما تطالب بمبادئ تؤمن بها جميع الشعوب المحرومة منها. إذن كان للثورة الفرنسية أثر ظاهر فى أوربا لأن حالة الشعوب الأوربية كانت تشابه حالة الشعب الفرنسى إلى حد كبير. فالثورة الفرنسية لاتهم الفرنسيين وحدهم، بل تهم فرنسا وأوربا والعالم أجمع.

كانت شخصية لويس السادس عشر الجالس على عرش فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر شخصية ضعيفة لاتتحمل المسئولية الملقاة على عاتقها، وكان المنتظر أن يكون لزوجته مارى انطوانيت الأثر فى توجيهه نحو الخير أو الشر. فربما وجد الشخص الضعيف فى زوجته خير معين له إذا كانت محبة للخير فمارى انطوانيت كانت جميلة جدا، وقد استغلت جمالها فى التأثير عليه، فهى عظيمة الجمال، ومن أصل شريف، فهى من أسرة هابسبرج وابنة امبراطور النمسا، وفى نفس الوقت فهى ملكة فرنسا أعظم دولة فى أوربا. وكانت بجانب شخصية زوجها الضعيف لويس السادس عشر تظهر قوية. فهى أميرة نمساوية نشأت فى ڤيينا فى القصر الامبراطورى، فهى تعظم كل ماهو نمساوى، ونشأت فى البلاط الامبراطورى النمساوى وهو من أعظم البلاطات فى أوربا، ولذلك إذا كانت هناك عاصمة تصلح لأن تكون عاصمة أوربا فهى ڤيينا. فهى فخورة بالعادات والتاريخ النمساوى، وشربت العداء لفرنسا منذ الصغر، فتعليمها يربطها بالنمسا أكثر مما يربطها بفرنسا. والنساء يحترمن القوة، فلا ننتظر أن تكون هذه الأميرة محترمة لعادات الشعب الفرنسى وتقاليده ومطالبه. ففى ڤيينا نجد أن الأسرة الملكية لا تعلم ولاترى شيئاً عن حالة الطبقة الثالثة، فهى لاتقدر مطالب الشعب النمساوى، فضلا عن مطالب الشعب الفرنسى. فهذه الأميرة إذا كان يربطها بفرنسا شئ، فهى التقاليد الملكية، التى تتلخص فى أن تكون الآمرة الناهية فى البلاط الفرنسى، وألا تستمع لرغبات الشعب. هذا كان شعور الملكة بالنسبة للوطن الجديد الذى ستعيش فيه[1].

---

(١) جلال يحيى (دكتور) وجاد طه (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، ص ٣٠٣.

والواقع أن نابليون قد وقع فى نفس الخطأ الذى وقعت فيه العائلة البربونية، إذ تزوج من أسرة هبسبرج النمساوية، جريا على السنة التى سنها لويس الرابع عشر. فالزواج فى هذه الحالة يكون فاشلاً ولاتتحقق الرغبة منه فى ضم الأسرتين بعضهما إلى بعض. فنابليون كان أعظم رجل فى عصره واستطاع أن يفرض رأيه على الملكية النمساوية، فتزوج من ماريا تربوا ولكنه كان زواجاً فاشلا، لأن النمسا كانت من أولى الامبراطوريات التى تألبت على فرنسا.

إذا كان هذا هو شعور مارى انطوانيت نحو الشعب الفرنسى، فنجد أن شعور الشعب الفرنسى نفسه نحوها لم يكن باحسن حال منه. فالنساء الفرنسيات امتعضن من زواج لويس السادس عشر من امرأة أجنبية، وهذا الامتعاض له أثره فى نفوس الأزواج كذلك. هذا بالإضافة إلى أنها تنتسب إلى البيت الذى تربطه صلة عداء مع فرنسا. وكذلك لم تكن هذه الأميرة قد تأثرت بروح العصر الجديد فى فرنسا، ولم يكن تدخل هذه الأميرة مرضياً عنه عند الفرنسيين، ولم يكن فى صالح الشعب الفرنسى. فلو كانت الملكية قوية حازمة لاستطاعت أن تقوم بحركة اصلاح واسعة النطاق فى الناحيتين المالية والاقتصادية، وهما من أهم أسباب قيام الثورة[١].

فالحالة الاقتصادية والمالية كانت سيئة جداً لأسباب متعددة منها: الحروب الكثيرة التى خاضتها فرنسا فى أوربا فيما وراء البحار، ولسياسة التبذير والإسراف التى سارت عليها الملكية فى عهد لويس الرابع عشر والخامس عشر. وكذلك لفساد النظم المعمول بها من وجود جمارك داخلية وسياسة حماية التجارة التى وضعها كولبير. هذا بالإضافة إلى اعفاء طبقتى الأشراف ورجال الدين من الضرائب، وإلقاء عبء الضرائب كله على طبقة العامة.

كان على الملكية الفرنسية إذا أرادت اتباع سياسة قوية أن تقضى على كل

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٨.

عوامل الإسراف، من حد لسياسة التبذير التى سارت عليها الملكية الفرنسية وتحاشى الدخول فى حروب لن تجنبى منها فرنسا سوى الخسارة وكذلك الغاء المكوس الداخلية على الاشخاص والتجارة. ويجب كذلك التخلى عن سياسة حماية التجارة، وأهم من هذا كله الاهتمام بمسألة الضرائب والأساس فى فرض الضرائب ألا تكون مرهقة لعامة الشعب. وكان على الحكومة اقرار العدالة والمساواة، كل مطالب الشعب تنحصر فى اشراك الطبقات المعفاة من دفع الضرائب فى دفعها.

ولم يكن من السهل التخلى عن نظام حماية التجارة الذى وضعه كولبير لحماية الصناعات المحلية، والذى كان يفرض ضرائب على الواردات من الخارج فتحفظ الصناعات الداخلية بأثمانها، ولكن بعد أن فقدت فرنسا مستعمراتها أصبح هذا النظام لايمكن تطبيقه بسهولة.

ثم بعد ذلك من أهم مسائل الاصلاح المالى، هو معالجة نظام الضرائب على أساس المساواة بين الطبقات فى دفعها، وهذا الشعور بتسوية الطبقات فى دفع الضرائب شعور حديث، ونظرياته مستحدثة أتت فى العصور التالية للثورة. وحتى الكنيسة فى ذلك الوقت لم تكن تعلم بالواجب عليها مثل توزيع الصدقات والمعونات على المعوزين. فنجد فى رجال الكنيسة قسم يتمتع بكل شئ. وقسم آخر محروم من كل شئ، ومن هنا نعرف كيف انضم رجال الكنيسة المحرومون إلى الثورة. كما لم تكن منازل كبار رجال الدين مأوى للفضائل التى يجب أن يتحلوا بها وأحسن مثل لذلك «تاليران» فمنزله كان مأوى للخمور والفجور والراقصات. ولذا لانعجب إذا انصب السخط على الكنيسة وعلى نظمها، لأن الشعب كان ينتظر من رجال الدين التقى والورع والزكاة بصفة خاصة، فلما وجد الشعب أن رجال الدين ينفقون هذه الأموال فى ملذاتهم بعيدين عن مبادئ الإنسانية وشعائر الدين كفر بهم.

وبالرغم من ذلك نجد أن الشعب الفرنسى كان متمسكاً بكاثوليكيته أو على الأقل الطبقة الحاكمة بالرغم من حياة الترف والرذائل كانت متمسكة برجال

الدين الكبار. فرجال الحكم يحبون الاتصال برجال الدين والتقرب إليهم، لأنهم رأوا أنهم بهذه الوسيلة يستطيعون التأثير على العامة الذين لايستطيعون التفكير أو النقد. فلم يكن من السهل على رجال الحكومة فى فرنسا أن يحرموا الكنيسة من مواردها ففرنسا بنت الكنيسة الكبرى، وملكها حامى الكنيسة الكاثوليكية ويدلنا على ذلك أنه حين قامت الثورة الفرنسية وقررت إلغاء امتيازات الكنيسة، نجد أن رجال الدين لم يكونوا وحدهم الساخطين على هذا القرار بل كانت الملكية وطبقة الارستقراطية ساخطة عليه أيضاً.

ثم نجد أن الملك ورث الظروف السيئة عن آبائه وأجداده، ولكنه يعد أيضاً مسئولاً عن الأحوال السيئة التى وجدت فيها فرنسا أيام حكمه[1]، فالملك لم يكن يفهم الآراء الاقتصادية فى أواخر القرن ١٨ وقت ظهور الطبيعيين الذين يقولون بانتهاء فكرة حماية التجارة القديمة وسموا بهذا الاسم (أى الطبيعيين) لأنهم قالوا بأن الأرض هى مصدر كل ثروة، ومن هؤلاء شخصية ترجو إذ سنحت له الفرصة بتوليه شئون فرنسا المالية، ولو أنه وجد التعضيد اللازم من الملكية لربما تمكن من اصلاح الحالة بعض الشئ، ولربما لم تقم الثورة الفرنسية بهذا الشكل الذى قامت عليه.

وقد سبق «لترجو» أن قام بتجربته الاقتصادية عندما كان حاكما لقسم من أقسام فرنسا نجده يحاول تنفيذ بعض آرائه حينما كان واليا للأقليم الذى يقوم بإدارة شئونه. وقد أثارت سياسته فى الضغط على مخصصات البلاط الفرنسى مخاوف رجال الحاشية ومخاوف الملكة مارى انطوانيت وانتهى الأمر بابعاده عن الحكم (مايو ١٧٧٦) أى أن الملكية رفضت سياسة الاصلاح.

جاء بعده نكر، ولم يكن أحسن حظاً من سابقه وهو سويسرى الأصل ويعتنق المذهب البروتستنتى، له خبرة بالأمور المالية وبأعمال البنوك وكان نزيها كسابقه،

---

(١) جورج ليفيير : عصر الثورة الفرنسية، تعريب الدكتور جلال يحيى، ص ١٠٩.

ممتازاً فى عمله، ومتصلا بالحركة الفكرية التى ظهرت فى فرنسا ولكنه لم يكن يحسن الأمور السياسية وهو يحاول أن يتبع سياسة الاقتصاد. ولكننا نجد أنه أخفق فى هذه السياسة لأن فرنسا اشتركت فى حرب الاستقلال الامريكية، رغم سوء حالتها المالية. فلماذا تدخل فرنسا حربا خارجية لمساعدة الثوار الامريكيين؟ وهل كانت تستطيع ألا تتدخل فى هذه الحرب؟.

كان لفرنسا أن تنتقم لنفسها من انجلترا التى نجحت فى طرد النفوذ الفرنسى من أمريكا الشمالية والهند، وفرضت رأيها عليها فى معاهدة باريس. فكان طبيعياً أن تشترك فرنسا فى هذه الحرب بالرغم من أزمتها الداخلية. فنجد أن فرنسا فى أول الأمر لم تدخل الحرب بجانب الثوار الامريكيين بصفة رسمية، بل اكتفت بارسال المتطوعين من أبنائها ممن يمثلون الرأى العام المستنير، مثل «لافاييت»، ثم تلا هذه المرحلة مرحلة توثيق علاقتها بأمريكا والمحاربة إلى جانبها فى أوقات محنتها، ومنذ ذلك الوقت قامت رابطة وثيقة بين أمريكا وفرنسا مازال باقية حتى يومنا هذا. فالحكومة الفرنسية تدخلت أرضاء لنفسها من جانب، وإرضاء للشعب الفرنسى من جانب آخر، فقد دخل الشعب الفرنسى الحرب راضيا، بل وتحفزه عوامل الحقد القديمة ضد انجلترا.

أخذ «نكر» فى الشكوى من سوء الحالة المالية لأن هذه الحرب كلفت الحكومة أموالاً طائلة، فرفعت الحكومة الضرائب على الشعب لمقابلة تلك التكاليف، فتذمر الشعب وطالب بالاصلاح ووجد أن إصلاح الحالة المالية لايقوم إلا باشتراك الطبقات المعفاة من الضرائب فى دفعها.

ماهى سياسة فرنسا الخارجية فى ذلك الوقت؟ وكيف تفسر السياسة الخارجية لأية دولة ومدى استمرار تلك السياسة؟.

هناك عوامل تدعو إلى استمرار السياسة الخارجية، ومنها الموقع فمثلا انجلترا حتم عليها موقعها الجغرافى اتباع سياسة التفوق البحرى، وكذلك فرنسا بحكم

موقعها كانت لهاسياسة محيطية استعمارية وسياسة أخرى قارية فيما يختص بحدودها الشرقية.

كذلك التراث التاريخى، فلا يمكن للدول أن تتنكر لماضيها التاريخى فالدولة الروسية مثلا تعاقبت على الحكم فيها حكومات مختلفة من حيث المبدأ والبرنامج، ولكن من ناحية السياسة الخارجية لم يطرأ عليها أى تغيير يذكر. فسياستها تتلخص فى السيطرة على بحر البلطيق أى الاتجاه نحو الغرب ولو أدى ذلك إلى تغيير سياستها الداخلية فالدولة الروسية التى تتبع سياسة ديمقراطية فى بلادها لاتسمح لدول البلطيق بأن تتصرف فى شئونها تصرفاً يكون من شأنه المساس بمصالحها.

كذلك تهتم بالبحر الأسود والمضايق منذ عهد القيصر نيقولا الأول فسياسة العداء للأتراك مازالت موجودة من وقت قيام بطرس الأكبر إلى يومنا هذا. وذلك لأن الدولة التركية سلطنة أو جمهورية لازالت تسيطر على المضايق وهى المنفذ الوحيد لروسيا إلى البحر المتوسط.

وكان من سياسة روسيا التوسع فى آسيا وشمال الصين، ولازالت هى سياستها أيضاً بالرغم من أن الصين كانت حليفة لحلفاء روسيا، فهى تشجع الصينيين الشماليين الشيوعيين ضد إخوانهم الرأسماليين الذين تساعدهم انجلترا وأمريكا، إلى أن استطاعت فيما بعد أن تضمها إلى المعسكر الشيوعى قبل إنهياره فى الآونة الأخيرة.

وكذلك انجلترا سواء تولتها وزارة المحافظين أو الاحرار أو العمال فهى تعمل للسيطرة البحرية وحفظ التوازن الدولى. وقد تتغير السياسة الخارجية فى بعض التفاصيل وذلك بتغير الأزمان والأحوال وحركة التطور فى الاختراع والحالة الاقتصادية. فسياسة انجلترا فى الثلاثة الأرباع الأولى من القرن التاسع عشر كانت المحافظة على كيان الدولة العثمانية. ولكن هذه السياسة تغيرت، إلا أن هذا التغير كان ظاهريا فقط لأن سياسة انجلترا فى الشرق الأدنى كانت تتمثل فى سياسة

المحافظة على املاك الدولة العثمانية طالما كانت تتفق مع مصلحتها سارت عليها، وإذا تعارضت معها غيرتها.

كذلك نجد أن ذكريات الحروب الصليبية، والتجارة مع الشرق تحتم على فرنسا الاتصال بالشرق سواء كانت ملكية أو جمهورية. ففى الحرب العالمية الثانية تشبثت فرنسا بسوريا ولكنها أخفقت والذى يجب أن نعرفه أن لهذه الدول مبادئ لاتتغير إلا إذا تغيرت مصالحها. كذلك يجب أن نفهم أن المبادئ التى تنادى بهادول الغرب هى للدول الغربية فحسب، وليست للدول الشرقية التى لم تبلغ فى نظرها درجة من الحضارة تؤهلها للوقوف بجانب الدول الغربية فسياسة القوة التى سارت عليها الدول الغربية فى سياستها الخارجية وهى ما يطلق عليها اسم Machtpolitik سادت طوال القرن التاسع عشر.

وقد ذكرنا من قبل أن الملكية الفرنسية دخلت الحرب الامريكية للانتقام لنفسها ولضغط الرأى العام الفرنسى عليها، فنجحت الثورة الأمريكية ويرجع نجاحها إلى مساعدة الفرنسيين، ونجحت افكار روسو فى امريكا ، فتوجهت انظار الفرنسيين الى تطبيق هذه الافكار فى فرنسا نفسها ولكنها نتيجة لدخولها الحرب وزيادة سوء الحالة المالية نشر «نكر» فى فرنسا قائمة تسمى Compte Rondu تضمنت تفاصيل الميزانية الفرنسية، فأوضحت للرأى العام الفرنسى مدى ما ينفق على البلاط الملكى. وكانت النتيجة ابعاد «نكر» لان الملكية اعتبرت نشر تلك القائمة عملا ينطوى على التشهير بها، فهذه هى المرة الأولى التى نشرت فيها الميزانية والتى عرف فيها الشعب مدى الارهاق الذى يصيبه من اسراف القصر وتبذيره.

ولكن الملكية بدلا من أن تسير فى سياسة اصلاح الحالة المالية بعزم وقوة لتنقذ البلاد مما تعانية، وضعت مقاليد الامور فى يد احد اتباعها واسمه كالون Calonne وذلك لمدة سبع سنوات تزداد فيها الحالة المالية سوءا، فلم يتبع كالون سياسة الاقتصاد بل لجأ الى سياسة الاقتراض، وهى سياسة مفيدة فى كثير من الاحايين، ولكن على شرط ان يكون ذلك القرض مما تقدر عليه مالية البلاد، ولكننا نجد ان

فرنسا كانت عاجزة عن موازنة ميزانيتها، فزاد ذلك فى سوء حالها، الى ان تراءى اخيرا للشعب وللحكومة ان من الضرورى اشراك الشعب مع الحكومة فى معالجة الحالة المالية. فنجد الملك وكالون يطالبان بدعوة مجلس من الاعيان لفرض ضريبة جديدة. ولكن النبلاء رفضوا تحمل المسئولية وحدهم وارادوا ان يكون الشعب باجمعه مسئولا عن هذه الحالة، فلابد من استدعاء مجلس طبقات الأمة[1].

ولم يكن هذا المجلس قد اجتمع منذ ١٦١٤، فلابد اذن من اجراء انتخابات جديدة له، واستعانت الملكية بنكر لوضع قانون انتخاب المجلس الجديد، وقد راعت فى تشكيل المجلس ان يكون عدد مندوبى طبقة العامة ضعف عدد مندوبى طبقتى الاشراف ورجال الدين. وقد تحمس الشعب الفرنسى لانتخابات هذا المجلس تحمسا شديدا، بالرغم من أن المجلس لم تكن له سلطة حقيقية، ولايمكن المناقشة فيه لان الطبقات الثلاث كانت منفصلة بعضها عن بعض، وتقوم كل طبقة ممثلة فيه بتقديم رغباتها للملك، والملك ينظر فيها كرغبات للشعب، كما لم يكن للمجلس حق مناقشة الملكية، وفى اثناء الانتخابات للمجلس الجديد تسقط وزارة كالون وتحل محلها وزارة دى بريين De Brienne، وهذا يرى لمعالجة الحالة المالية ضرورة فرض ضرائب على الطبقات المعفاة منها كالاشراف ورجال الدين.

ونظرا لاخفاق دى برين فى معالجة الازمة المالية، وارضاء للشعب الفرنسى يعزل لويس السادس عشر دى برين ويكون وزارة يرضى عنها الشعب وهى وزارة نكر. ثم يدعى مجلس طبقات الامة الى الانعقاد فى ٥ مايو ١٧٨٩، وهذه السنة تعتبر بداية الثورة الفرنسية، فعقد المجلس فى حد ذاته ليس ثورة، ولكن يمكننا ان نعتبره ثورة لأن الملك ارغم على عقد المجلس من قبل الشعب. وقد عقدت على اجتماع هذا المجلس آمال عريضة لاصلاح الحالة المالية. ولكن فى الواقع لم يكن لهذا المجلس سلطة تذكر فالامور التى يقررها لايستطيع تنفيذها. ومنذ ذلك الوقت ستتطور الامور فى فرنسا تطورا خطيرا، ومن هنا نعتبر سنة ١٧٨٩ بداية الثورة، وبدء

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٩.

عهد جديد للملكية الفرنسية، لانه سيثير مشاكل فى نظام التمثيل البرلمانى، والمناقشة، وهى اشياء لم تكن لفرنسا معرفة بها من قبل. وكان لابد لمندوبى العامة من نفوذ كبير لان على طبقة العامة كان يقع عبء الضرائب والمسئولية. ولذا سيكونون اكثر شدة وتذمرا لشعورهم بالظلم، وكانوا فى نفس الوقت معجبين بثورة امريكا وبتطبيقها مبادئ روسو ومونتسيكيو تطبيقا عمليا. وهذا بالاضافة الى اعجابهم بالدستور الانجليزى رغم ان البرلمان الانجليزى فى ذلك الوقت لم يكن ليعطى طبقة العامة الحق فى الحكم ولكن موضع الاعجاب فيه هو أن الملك يملك ولايحكم وليس له سلطة فى فرض الضرائب.

ونجد أن اجتماع المجلس اثار مسألة عدد الاعضاء،فطالب العامة بأن يكون عددهم مساويا لعدد نواب الاشراف ورجال الدين، ثم طالبوا بأن يكون للمجلس السلطة فى تنفيذ المشاريع. وطالب العامة فى أول الأمر بأن يجتمع المجلس فى قاعة واحدة وان تؤخذ الاصوات طبقا لعدد اصوات الاعضاء لاطبقا للطبقة كما كان جاريا، وذلك لكى يحصل العامة على الاغلبية بمن ينضم اليهم ممن يعطفون على حركتهم من الاشراف ورجال الدين. وهؤلاء الاشراف كانوا يريدون من انضمامهم الى العامة ان يكون لهم القيادة والنفوذ.

وقبل ذلك كان المجلس يجتمع ويعرض الملك عليه آراءه ثم ينصرف اعضاؤه الى مدنهم قانعين. ولكن هذا المجلس طالب بأن المسائل التى تعرض عليهم يجب تنفيذها وان لايفض المجلس بل يبقى بجانب الملك. ولو أن الملك نفذ مطالبه بشدة لوضع حدا لتمادى نواب العامة، ولكنه كان ضعيف الشخصية يتأثر بآراء الملكة ورجال حاشيته. ويصر نواب العامة على تنفيذ مطالبهم، فاضربوا عن دفع الضرائب. وكلما مر الوقت كلما ازداد رجال العامة قوة بمن ينضم اليهم من اشراف ورجال الدين، وكلما زادت قوتهم كلما تشددوا فى مطالبهم بينما كان الملك ورجال الحاشية يزداد دون فى التردد.

وفى ذلك الوقت يظهر بين طبقة العامة نائب يدعى سييس Siéyés وهو من

رجال الدين الذين تولوا البحث فى الدستور، واعلن انه اذا رفضت طبقتا الاشراف ورجال الدين الانضمام اليهم ان يعلنوا انفسهم نوابا للشعب ويطلقون على انفسهم اسم «الجمعية الوطنية L'Assemblée Nationale» وقد ووفق على هذا الاقتراح فى ١٦ يونية ١٧٨٩. ولم يوافق الملك على اجتماع الطبقات فى قاعة واحدة واصر نواب العامة على مطلبهم فاضطر الملك مرغما على الموافقة. ورأى رجال الجمعية الوطنية ان يضعوا دستورا جديداللدولة، وسيظهر بجانب الملكية ورجال الشعب قوة أخرى سيكون لها تأثير قوى فى مجرى الثورة، وهى قوة الشعب الباريسى أو جيش الثور، فضعف الحكومة هو الذى اوجد القوة الجديدة لدى سكان باريس الذين عاشوا فى فقر شديد، هذا بالاضافة الى العمال والفلاحين الذين قصدوا باريس سعيا وراء الرزق، فزاد الاضراب فيها ووقعوا تحت تأثير خطابات المهيجين من امثال مارا Marat وديسمولين Desmoulins فكانوا اداة خطرة فى ايدى رجال الثورة.

خشيت الملكية هذه الثورة الجديدة لان فيها قوة تعمل على نشر الفوضى، فاستدعت جيشا كبيرا الى باريس لقمعها رغم معارضة الجمعية لهذا الاجراء. ولما عزل الملك نكركون المجلس الحربى الاهلى لحماية الجمعية الوطنية ، وقاد مارا وديمولين الشعب الثائر الى الباستيل ونجحوا فى اسقاطه فى ١٤ يولية ١٧٨٩[١]. وللمرة الثانية ارغم الملك على اجابة طلبات باريس. فسقوط الباستيل ليس فى حد ذاته عملا حربيا هاما، ولو أنه اعتبر انتصارا كبيراً للجمعية الوطنية وازدادت ثقة الجمعية بنفسها فباشرت وضع دستور جديد وعين باى عمدة لباريس وعزز الحرس الاهلى ووضع على رأسه لافاييت، وانشئت الصحف والنوادى لمناقشة أفكار الثورة وأهمها نادى كوردلير Cordeliars ونادى اليعاقبة Jacobins وسيكون لنادى اليعاقبة اثر كبير فى الثورة الفرنسية.

---

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ١٢.

راقب اذن الشعب الباريسى والجمعية الوطنية اعمال الملك، وفسروا اعماله بأكثر مما تحتمل، وازدادت الرغبة فى مجيء الملك الى باريس ليكون تحت مراقبتهم، فقامت مظاهرة (٥ أكتوبر ١٧٨٩) وهددوا الملك والملكة لولا ان جاء لافاييت وانقذ الموقف ورجع الملك الى باريس.

رأى كثيرون من الاشراف الذين لم يهضموا هذا المجلس وخافوا على أنفسهم من اعمال اهل باريس ان يهاجروا من فرنسا فتجمع عدد كبير منهم على الحدود الشمالية لفرنسا، ولم يكن ذلك فى صالح الملكية لانهم بدأوا ينتقدون تصرفات رجال الثورة ويشيعون بأنهم يتخذون العدة لاخماد الثورة والقضاء عليها وزاد ذلك فى شكوك الشعب من الملكية. وفى تلك الاثناء يوضع الدستور الجديد وهو دستور سنة ١٧٩١ وتعلن حقوق الانسان وتنص على ان الناس ولدوا احرارا، ويظهر فيه اثر روسو فى كتابه «العقد الاجتماعى».

فأساس الدستور الجديد ان الناس ولدوا احرارا ومتساوين فى الحقوق، وان الغرض من اى مجتمع انسانى هو المحافظة على هذه الحقوق واعلن ان الشعب مصدر السلطات والحرية هى ان يقوم الفرد بأى عمل على شرط الا يضر بمصلحة الآخرين. والقانون ما هو الا ابداء لرغبة الشعب من حرية الفكر والحرية الدينية وحق الملكية المقدس. وبالرغم من اعطاء الحرية الفردية للشعب الفرنسى فهو ملتزم بالانتخاب. ويجب أن نلاحظ ان حقوق الانسان فى فرنسا تختلف عن ملتمس الحقوق فى انجلترا سنة ١٦٢٨. فالثورة المجيدة (سنة ١٦٨٨) فى انجلترا نادت بحقوق الشعب الانجليزى وحده فلم يكن لها اثر خارج انجلترا، وذلك بعكس الحالة فى فرنسا إذ كان لاعلان حقوق الانسان اثر باقى فى اوربا والعالم، ومعناه الغاء بقايا الاقطاع والامتيازات. ومعنى هذا ايضا ان أصبح للمجلس دستور من آراء روسو ومن الدستورين الانجليزى والامريكى. وفى ذلك الوقت لم يرتفع صوت واحد للمناداة بالجمهورية، فلويس الرابع عشر قد استولى على العرش بحق الملوك الآلهى، ولكن الملك فى عهد الثورة

يجلس على العرش الفرنسى بعون الله ورغبة الشعب. وكانت الوزارة فى فرنسا مسئولة امام الملك وليس امام نواب الشعب. ولكن ميرابو احد زعماء الثورة نادى بالاخذ بالنظرية الانجليزية الحديثة التى تجعل الوزارة مسئولة اما المجلس، واعطى للملك حق الفيتو Vito ، ولم يوضع المجلس التشريعى الفرنسى فى يد مجلسين بل فى يد مجلس واحد مكون من ٧٤٥ عضوا. والسلطة القضائية وضعت فى ايدى قضاة لايعينون بل ينتخبهم الشعب. ووضع نظام المحلفين الانجليزى ثم اعيد تقسيم فرنسا الى اقسام ادارية بلغ عددها ٨٣ قسما اطلق على كل منها اسم معالمها الطبيعية كجبل أو نهر.

كان لاعلان حقوق الانسان فى فرنسا الاثر العالمى لاتصالها بالعالم الاوربى اما اعلان حقوق الانسان فى امريكا فلم يكن له تأثير كبير نظرا لانفصال امريكا عن العالم الاوربى. واخذ فى الدستور الجديد بنظرية مونتسكيو، فى انفصال السلطات الثلاث بعضها عن بعض لان اعضاء الجمعية الوطنية قد فهموا خطأ بأن السلطات فى انجلترا منفصلة كل الانفصال، فالواقع ان هذه السلطات ليست منفصلة تمام الانفصال عن بعضها، لان عملها يترتب بعضه على بعض ومرتبط بعضه ببعض، فالملك على رأس السلطة التنفيذية، وتستمد منه السلطة التشريعية قوتها، وكذلك كان للملك حق تعيين القضاة. وكان يمكن للحكومة ان تؤثر على القضاة بتعيينهم فى جهات ملائمة لهم أو بترقيتهم ، ولذلك نص الدستور الفرنسى على انتخاب القضاة. ثم الى جانب القضاة يوجد نظام المحلفين، وكذلك رجال الدين فقد خضعوا ايضا لقاعدة الانتخاب.

قضى الدستور الفرنسى الجديد على النظم القديمة التى كانت سائدة فى فرنسا مثل نظام الاقطاع والاعفاء من دفع الضرائب، واعاد تقسيم فرنسا اداريا ودينيا، وهذه الناحية الاخيرة تأثرت بآراء المفكرين[١] أمثال فولتير Voltaire

(١) حسن صبحى (دكتور) : معالم التاريخ الأمريكى والأوربى الحديث، ص ٣٤٤.

(١٦٩٤ – ١٧٧٨)، ومنتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥)، وروسو Rousseau (١٧١٢ – ١٧٧٨) الذين لم يكونوا يعتقدون فى الديانة المسيحية اعتقادا تاما. ونجد ان بعض رجال الثورة كان من البروتستنت، فكان لهم اثر كبير فى التشريع المدنى الذى وضع لنظام الكنيسة، كما سنجد ان المساوئ التى تردى فيها رجال الدين افقدتهم احترام رجال الثورة وليس معنى هذا ان الشعب الفرنسى لم يكن شديد التعلق بالمسيحية. ولكن ظهر هذا الشعور نتيجة لسوء تصرف رجال الدين من الناحية الاخلاقية، ولزيادة ثرواتهم زيادة كبيرة، ولآراء المفكرين المختلفين فى رجال الدين[1].

ولحل الازمة المالية التى واجهت رجال الثورة يتقرر الاستيلاء على ثروة رجال الدين، ثم يمنحون مرتبات ثابتة مع جعل وظائفهم انتخابية من قبل الشعب. على ان رجال الدين بالرغم من انتخاب الشعب لهم كانوا يميلون الى البابا بصفته الرئيس الاعلى للكنيسة الكاثوليكية ولقد اخطأت الثورة ورجالها فى هذا التشريع، لان الشعب الفرنسى كان متعلقا بالكاثوليكية، وافقد الثورة بعض الرجال الذين نفروا من هذا العمل، وكذلك اغضب هذا العمل الملك وقربه من الطبقة الارستقراطية ورجال الدين، فيستمع الى مشورتهم ويقرر الهرب، ولكنه يفشل ويقبض عليه، وسيزيد موقفه هذا من شك رجال الثورة ولكنهم مع ذلك تمسكوا بالملكية بشرط الموافقة على الدستور.

هذا هو الدور الأول من الثورة . قبل أن يدخل رجالها فى حروب خارجية تلك الحروب التى ستؤدى الى الغاء دستور سنة ١٧٩١. وستكون السلطة فى يد حزب اليسار من اليعاقبة والجيروند، وسرعان ما يصطدم المجلس بالملك، وتصطدم فرنسا بجيرانها ويعزوا بعض المؤرخين سبب الصدام الى الثورة الفرنسية نفسها.

---

(١) بول هازار : الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر، ص ١٠٩.

## موقف الدول الأوربية إزاء الثورة الفرنسية

نبدأ بموقف انجلترا ، فانجلترا التى قامت بينها وبين فرنسا حروب كثيرة لم تقف موقف عـــداء من الثورة فى أول الأمـــر، فكان الشعـــور الانجليـــزى بصفة عامة يعطف على الثورة وعلى مبادئها. فموقف رجال السياســـة بالنسبة للثـــورة كان موقف اعجاب بمبادئهـا، فمثـلا موقـــف بت Pitt الوزير الانجليـــزى كان موقف اعجـــاب من الثـــورة، فهـــى شبيهة بثـــورة ١٦٨٨ فى انجلترا التى ضمت حقوق الشعب الانجليزى والبرلمان امـــام الملكـــية. ولم يجد احد من الساسة الانجليز غضاضة فى هذه الثورة فللفرنسيـــين الحق فى المطالبة بحقوقهم واختيار نـــوع الحكـــم الـــذى يرتضونـــه وكان هذا موقف رجال السياسة.

اما موقف رجال الادب والشعر فكان موقف اعجاب وتقدير لمبادئ الثورة، فكان العصر فى انجلترا عصرار رومانتيكيا، فمبادئ الحرية والاخاء والمساواة التى نادت بها فرنسا قد سبقت بها العالم الأوربى. وكان هذا الرأى هو رأى غالبية الشعب الانجليزى.

وكانت هناك اصوات اخرى تقول بأن الثو رة الفرنسية تختلف عن الثورة الانجليزية فهى لاتخص فرنسا وحدها،بل سيكون لها اثر على كل البلاد الاخرى وهذه الثورة لن تنته بالمحافظة على حقوق الشعب، بل لقد بيرك Burke بأن الثورة ستنتهى الى ديكتاتورية الا ان اصحاب هذا الرأى بعيدين عن ميدان السياسة، ولذا ظلت انجلترا فى حالة سلام مع فرنسا.

اما عن موقف الدول الاخرى فكان يختلف عن موقف انجلترا، فاذا نظرنا الى دولتى النمسا وبروسيا نجد ان كليهما مشغول بالمصالحة الداخلية فالدولة النمساوية كانت مشغولة بتوحيد الجنسيات الخاضعة لحكمها وجعل اللغة الالمانية هى السائدة بينها جميعا. الا ان هـــذه المحاولـــة لم تفلح وستظل هذه القوميات

مختلفة بكيانها. وكانت النمسا ايضا مشغولة بمسألة بولونيا التى كانت تطمع الروسيا فى احتلالها ، ولذا اتبعت الروسيا سياسة توجيه اهتمام دولتى النمسا وبروسيا نحو الغرب حتى تستطيع التفرغ للمسألة البولونية. كان من الطبيعى ان تنظر الدولتان المستبدتان بعين القلق الى الثورة خصوصا وقد نجحت الثورة فى تحديد سلطة الملكية، فهما يخشيان ان تمتد الثورة اليهما، وكانت الملكية النمساوية تمت بصلة الى الملكية الفرنسية فامبراطور النمسا لايرضى بحالة الهوان والذلة التى آلت اليها الملكية فى فرنسا ، الا ان هذا لا يكفى وحده لاعلان الحرب على فرنسا. ولكن هناك مسائل اخرى عجلت بوقوع الحرب بينهما.

حاولت الدولتان التدخل السلمى فى صالح الملكيـــة، فاجتمع امبراطور النمسا وملك بروسيـــا فى مدينـــة بلنتز Billnitz حيث اصـــدرا بلاغـا (اغسطس ١٧٩١) يعلنـــان فيه ان مسألـــة النظـام فى فرنسا تهـم الـدول الأوروبيـــة. واذا تعاونت الدول الاخرى معهمـا فسيتدخلان لصالـح الملكية الفرنسية.

على أى حال كان لهذا البلاغ اثر سئ فى فرنسا فسيظن الثوار الفرنسيون ان الملكيات الاوربية تهددهم من اجل الملكية الفرنسية، وان هذه الملكيات ستتدخل فى الشئون الداخلية للثورة، فيزيد شكهم فى الملكية. ويطالب الرأى العام بمراقبة الملك حتى لايتصل بالخارج.

كانت الوزارة القائمة فى فرنسا وزارة الجيروند، وكانت مدام رولان Roland من اشهر الشخصيات فى حرب الجيروند Girondins وكانت زوجة لاحد زعمائه ، وهى ايضا من زعماء الجيروند ومن اجمل النساء فى ذلك الوقت فكان لها صالون لاجتماع الزعماء وعن طريق هذا الصالون اخذت تؤثر على مجرى الحوادث السياسية، وكانت تريد أن تدخل فرنسا الحرب. وترى انه يجب على فرنسا ان تمنع الدول من التدخل فى شئونها. ولم تكن أمور فرنسا تقرر فى الوزارة بقدر ما كانت تقرر فى الصالونات فى تلك الفترة من الزمن.

ونجد ان وزير الخارجية ديمورييه Dumouriz كان فى صف الحرب ايضا، والرأى العام الفرنسى باستثناء اليعاقبة كانوا مع فكرة الحرب. والملكيون انفسهم كانوا فى صف الحرب . الملكيون كانوا يريدون من وراء دخول فرنسا الحرب، اتصال الملكية الفرنسية بالملكيات الاوربية، ويأملون فى انتصار الملكيات الأوربية، وبذلك تثبت قدم الملكية الفرنسية. والجيروند يريدن الحرب لابعاد الخطر الخارجى، وتحديد قوة الملكية اكثر فأكثر. اما اليعاقبة فكانوا يرون ان فرنسا ستهزم وستتدخل الدول لصالح الملكية التى ربما يقوى مركزها، فنجد ان زعماء اليعاقبة مثل روبسبيير Robespierre كان ضد فكرة الحرب.

وعلى أى حال فمعظم الرأى العام كان فى صف الحرب، ولذلك تبدأ فرنسا باعلان الحرب على النمسا فى ٢٠ ابريل ١٧٩٢ وتنضم بروسيا إليها. وكان طبيعيا ان تهزم فرنسا فى أول الأمر فتتراجع جيوشها ويقوى سوء الظن فى الملكية. والسبب فى هذا التراجع نشأ من انحلال الجيش الفرنسى القديم فلم يكن لفرنسا قوة فتواجه بها اعداءها فالجنود الفرنسيون كانوا يفتقرون الى التدريب العسكرى والى الاسلحة الكافية ولايملكون سوى التحمس لفرنسا. وهذا لايكفى لاكتساب النصر، فكانت النتيجة انهزام فرنسا وزيادة شك الشعب فى الملكية واتهامها بانها ساعدت على تلك الهزيمة. ووجدبعضهم انه لا الملكية ولا المجلس بقادر على ضبط الامور فى فرنسا. وزادت قوة اليعاقبة كلما زادت الحالة الخارجية سوءا.

وقاد جيوش الاعداء برونسويك الضابط البروسى الكبير واحد قواد فردريك الاكبر فبعد انتصاره الأول على الجيوش الفرنسية، يصدر انذارا (٢٥ يولية سنة ١٧٩٢) يظنه فى صالح الملكية، كان من نتيجته ان تألفت لجنة الثورة على رأسها دانتون وترأست الحرس الاهلى واعلنت حالة الخطر واذيع البلاغ، وزاد الشك فى الملكية، ونادت اصوات بالقضاء عليها. وقامت ثورة بعزل الملك (١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢)، ولكن اكتفى بوقفة واستدعاء مؤتمر وطنى La Convention Nationale ينتخب بالتصويت العام، وعلى ذلك المؤتمر ان يفصل فى امر الحكم

فى فرنسا. وتكونت لجان ثورة على رأسها زعماء اليعاقبة فقامت مذابح ٢ – ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ( خشى زعماء اليعاقبة على انفسهم من الاشراف عندما تقهقرت الجيوش الفرنسية امام برنسويك وسقطت مدينة فردان، فطاف اليعاقبة بالسجون التى وضع فيها الاشراف وقتلوا ما يقرب من ١٥٠٠ شريف من ٢ – ٥ سبتمبر ١٧٩٢) فى فرنسا للقضاء على الثورة فى الداخل. وفى ذلك الوقت تحدث موقعة فالمى بين الفرنسين وقوات النمسا وبروسيا، وينتصر الفرنسيون فى تلك الموقعة التى لم تكن من المواقع العظيمة، ولكن كان لها اثر حاسم فى مجرى الحوادث فى فرنسا، فبعدها زال خطر الحلفاء عن باريس، وقامت مفاوضات بين قائد الجيش الفرنسى ديموريه وبرونسويك انسحب البروسيون على اثرها الى الحدود وبذلك انقذت الثورة من الخطر الخارجى الذى يتهددها.

وبالرغم من ذلك لم تتحسن الحالة الخارجية وذلك لعدة أسباب:

**أولا:** تكوين التحالف الأوربى الأول من انجلترا والنمسا وبروسيا وأسبانيا وهولندا ضد فرنسا، واعلنت الحرب عليها فى اوائل ١٧٩٣. ويرجع ذلك الى أن الانجليز لم يقابلوا بعين الارتياح الهجوم على الملكية الفرنسية وقتل الملك، فوجدوا فى ذلك مناقضة لمبادئ الثورة واخذ عدد المؤيدين من الشعب الانجليزى يقتنعون بآراء بيرك Burke الذى كان ينادى بأن الثورة الفرنسية ستنتهى الى دكتاتورية.

**ثانيا:** ان الثورة الفرنسية لن تعد مسألة داخلية صرفه تهم فرنسا وحدها، فالثورة قد خرجت من حدود فرنسا الى بلجيكا، واستولى الجيش الفرنسى عليها واعلن حرية الملاحة فى مصب نهر شلد Scheldt وكانت انجلترا حريصة على اغلاق مصب ذلك النهر، حتى لاتنافس تجارته تجارة نهر التيمز، ولذلك وجدت انجلترا ضرورة التدخل فى الحرب.

ثم من ناحية ثالثة نجد ان الثورة لم تعد محلية صرفه، فعندما احرز رجال الثورة

بعض النجاح فى صدهم لقوات الاعداء (فالمى) اعلنوا فى ١٩ نوفمبر ١٧٩٢ قرارا بتأييد فرنسا لكل امة تطالب بحريتها ، أى أن فرنسا مستعدة للتدخل فى شئون الدول الاخرى، وهذا مالاتقره الدول الأوربية[١].

اصبحت فرنسا اذن فى حالة حرب مع تحالف اوربى يضم الدول الأوربية العظمى، وستنهزم فرنسا امام قوات هذا التحالف فى موقعة نيرفندن Neerwunden (مارس ١٧٩٣) وانتشرت الخيانة فى صفوق الفرنسيين وانضم ديموريه الى جيوش الاعداء للاشتراك معهم فى دخول فرنسا وتخليصها من يد اليعاقبة.

وبجانب هذا الخطر الخارجى، تعرضت فرنسا لخطر داخلى، لا يقل شأناً عن الخطر الخارجى، إذ قامت ثورة تسمى ثورة لافندية La Vendée فى الولايات الجنوبية لفرنسا، قام بها الاشراف ورجال الدين. فكان اذن على رجال المؤتمر أن يفوضوا السلطة للجنة من العناصر المتطرفة فى فرنسا، تسمى لجنة الامن العام Comité du Salut Public وقامت الى جانبها محكمة تسمى محكمة الثورة، وبفضل هاتين الهيئتين قمعت الثورة بمنتهى الشدة والعنف، وتمكن اليعاقبة وهم المسيطرون على الهيئتين السالفتين من التنكيل بزعماء حزب الجيروند، فقضوا عليه قضاء يكاد يكون تاما كحزب سياسى. واستعان اليعاقبة على ذلك بتعضيد سكان باريس ، لأن – الجيروند كانوا يريدون وضع نظام للحكم لا تكون فيه باريس المسيطرة على الاقاليم الفرنسية، وايجاد حكم لامركزى، بعكس اليعاقبة الذى كانوا يعتمدون فى قوتهم على غوغاء باريس. ووصل عهد الارهاب الى غايته فى فرنسا وتضاءل نفوذ المؤتمر وقل عدد اعضائه واصبحوا يخشون تهديد باريس واللجان التى كان فى يدها الحكم.

ويرجع الى دانتون انقاذ فرنسا مرة اخرى من الخطر الداخلى والخارجى وسيخلفه فى لجنة الامن العام دوبسبير، وهو احد اتباع روسو، ولم يكن حتى ذلك

(١) جلال يحيى (دكتور) : معالم التاريخ الحديث، ص ٢٦٠.

الحين قد قام بدور هام فى الثورة. وكان رجلا مثاليا يريد انشاء دولة اساسها الفضيلة والسلام.

ومن الرجال الذين كان لهم فضل كبير فى انقاذ فرنسا كارنو Carnot الضابط الفرنسى الكبير الذى قام بتنظيم الجيوش الفرنسية والانتصار على الاعداء.

ولقد وضع اليعاقبة دستورا جديدا فى ١٧٩٣ ولكنهم ارجأوا تنفيذه وقضت محكمة الثورة فى ذلك الوقت الذى تعرضت فيه فرنسا للخطر الخارجى من قبل كثيرين من أعداء الثورة. واخذت فرنسا تعبئ قواتها لمواجهة الخطر الخارجى، فاعلنت التجنيد العام Levéé an masse لكل الشبان من سن ١٨ - ٤٠ ، وبفضل هذا الجيش الجديد هبت فرنسا للدفاع عن كيانها، واصبح مركز الحكومة الفرنسية مركزيا دكتاتوريا قائما على اساس لجان تختص كل منها بناحية من نواحى الحكم، والوقوف امام كل الحركات المعادية للثورة ، فاستطاعت الحكومة الفرنسية القضاء على ثورة لافوندية La Vendée ١٧٩٣[١].

اما من ناحية الخطر الخارجى، فنجد ان فرنسا قد دخلت الاراضى المنخفضة بعد انتصارها على قوات النمسا وبروسيا فى موقعة فالمى، وتمكنت من طرد الجيوش النمساوية وارغام النمسا على التخلى عن بلجيكا بعد موقعة جيمات (نوفمبر ١٧٩٢). ومنذ ذلك الوقت بدأت فرنسا تتخلى عن مبادئ الثورة وهى الحرية والاخاء والمساواة، وترجع الى مبادئ الملكية الفرنسية القديمة، وهى الوصول بفرنسا الى حدودها الطبيعية ، أى أن سياسة فرنسا منذ ذلك الوقت حتى نهاية عصر نابليون ستقوم على الفتح والتوسع على حساب الغير دون أى اعتبارا لى ما جاءت به الثورة من مبادئ انسانية رفيعة.

وسيوغر احتلال الاراضى المنخفضة صدر انجلترا على الثورة، لأن الاراضى المنخفضة تهدد الجزر البريطانية تهديدا خطيرا، لأنها تعتبر خير قاعدة ارتكاز لمن يريد

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٣٢.

غزو انجلترا من هنا كان القول «ان حدود انجلترا على الراين» . وقد قال نابليون ان بلجيكا مسدس مصوب الى قلب انجلترا ولهذا حرصت على الا تجعل هذا المسدس يقع فى يد من يستطيع ان يطلقه. ولذلك سعت انجلترا الى تأليف التحالف الاوربى الأول مع بروسيا ضد فرنسا. وكان من الطبيعى ان تنهزم قوات فرنسا امام هجمات القوات المتحالفة اذا استطاعت انجلترا الاستيلاء على طولون، واخلت القوات الفرنسية بلجيكا بعد انهزامها فى موقعة نيرفندن (مارس ١٧٩٣) ولكن بفضل ماكونه كارنو من قوات فرنسية جديدة، وماوضعه دانتون من نظام داخلى لفرنسا انتصرت فرنسا فى النهاية وانفرط عقد التحالف الأوربى الأول. ويرجع هذا النصر الى انقسام الاعداء على انفسهم بخصوص تقسيم بولندا مرة اخرى فى ١٧٩٣ فعقدت بروسيا الصلح منفردة مع فرنسا متأثرة بتقسيم بولندا دون أن يكون لها نصيب فى الغنيمة (صلح بال ٥ أبريل ١٧٩٥). وكذلك اسبانيا التى خشيت من عبور القوات الفرنسية لاراضيها (٢٢ يولية ١٧٩٥).

بعد أن فرغ اليعاقبة من انتصارهم على العدو الخارجى بدأوا ينقسمون على انفسهم فريق دانتون وكان يرى الرجوع بفرنسا الى حالتها الطبيعية ونبذ سياسة الارهاب وسفك الدماء، خصوصا بعد أن تخلصت فرنسا من الخطر الخارجى. وفريق هيبر Hépert وشوميت Chaumetto وكان يرى الاستمرار فى سياسة التطرف وسفك الدماء وفريق روبسبيير Robespiérre الذى كان لايتفق مع آراء كلا الفريقين وقد اخذ شومت على عاتقه القيام باصلاحات داخلية هامة بفرنسا، وهذه الاصلاحات لم تفد فرنسا وحدها بل افادت العالم اجمع. كادخال النظام العشرى فى المقاييس والموازين وتسمية الشهور والايام باسماء جديدة، واحلال عبادة (العدل والحق) محل الدين الكاثوليكى الذى لم تستطع الثورة القضاء عليه. ثم عدل هذا الدين الجديد الى دين الكائن الاعظم Etro Supreme ولقد استطاع روبسبيير أن ينفرد بالحكم بعد ان قضى على حزب شومت بمساعدة دانتون، ثم انقلب بعد ذلك على دانتون. ولقد ارسل اليعاقبة بعضهم البعض الى المقصلة

واعتمدوا فى ذلك على غوغاء باريس.ولكن باريس سئمت الارهاب وكذلك اعضاء المؤتمر الوطنى.

وهنا قام رجال المؤتمر بوضع دستور جديد لفرنسا سمى بدستور ١٧٩٥ يضمن لفرنسا الاستقرار الذى لم يتحقق لها فى ظل دستور ١٧٩١، ولكن اليعاقبة والملكيين قاموا بثورة سميت باسم ثورة فاندمبير Vendemiaire (اكتوبر ١٧٩٥) فقضى عليها نابليون. وهذا الدستور يضع السلطة التشريعية فى يد مجلسين : مجلس الشيوخ أو القدماء وهو مجلس منتخب ويتكون من ٢٠٠ عضو ووظيفته ايقاف القوانين التى لاتتفق والمصلحة العامة لفرنسا. ومجلس الخمسمائة أو العامة ووظيفته وضع مشروعات القوانين المراد تنفيذها، ويسقط ١/٣ كل من المجلسين كل عام، واشترط ان يكون ٢/٣ أعضاء المجلسين من اعضاء المؤتمر الوطنى. ووضع الدستور السلطة التنفيذية فى يد لجنة مكونة من خمسة اعضاء ويطلق عليها اسم حكومة الادارة، ويسقط عضو منها كل سنة بينما يسقط ١/٣ المجلسين كل عام. ومعنى هذا ان السلطة التشريعية تسقط قبل السلطة التنفيذية، اى ان السلطة التشريعية ستكون اكثر تأثرا بالاحداث الجارية بفرنسا من السلطة التنفيذية. كما اعلن الدستور الجديد حقوق المواطنين فى الحرية والاخاء والمساواة، ولو انه حدد سنا معينة ونصابا معينا للانتخاب.

وسيؤدى هذا الدستور بطبيعته إلى الحكم الاستبدادى الذى سيظهر فيما بعد وهو حكم نابليون، وسيكون تاريخ فرنسا من ١٧٩٥ الى ١٨١٥ هو تاريخ نابليون، بل ان تاريخ اوربا من الناحية الخارجية طوال هذه المدة سيكون تاريخا لنابليون ايضا. فنابليون كان اظهر شخصية فى ذلك الوقت ولاشك ان له عبقرية سياسية وادارية، وكان لظروف فرنسا الفضل فى ظهور هذه الشخصية، فأوقات الفوضى فى التاريخ كانت دائما تظهر الشخصيات القومية التى تستأثر بالسلطة مما يؤدى إلى تدهور الصناعة والتجارة. كل هذه كانت من العوامل التى جعلت الشعب الفرنسى ينتهى الى حكم رجل واحد يستطيع ان يمنح فرنسا ما فقدته من نظام وامن، وكذلك

من الناحية الخارجية فكانت الظروف غير مواتية لفرنسا، حقيقة ان لجنة الامن العام قد نظمت داخلية فرنسا وضمنت لفرنسا النصر على التحالف الاوربى الأول. لكن وجود النمسا وانجلترا لايزال مهددا لفرنسا، وقد استمرت الحرب بينهما مدة طويلة ولم تتمكن فرنسا من قهر عدوتيها القديمتين.

ومن ناحية ثانية لو درسنا حالة فرنسا الداخلية لوجدنا ان المؤتمر ولو انه انتصر على اعدائه وقضى على عهد الارهاب، الا ان مركزه كان مزعزعا ومهددا من قبل اليعاقبة حتى بعد تكوين حكومة الادارة. ولم تكن الامور مستقرة فى فرنسا ولم يكن دستور ١٧٩٥ عاملا على اقرار النظام فى فرنسا والقضاء على اعدائها فى الخارج ، فالخلاف بين السلطتين التنفيذية والتشريعية كان كبيرا. والخلاف والتحاسد بين اعضاء حكومة الادارة لم يعمل على سير الامور سيرا مرضيا داخل فرنسا وخارجها. ثم وجود الاحزاب المختلفة من ملكيين ويعاقبه ومتطرفين ومعتدلين يختلفون اختلافا بيناً فى آرائهم وطريقة تنفيذهم لها، كل هذا لم يجعل الامور مستقرة فى فرنسا، وجعل الشعب الفرنسى يتوق الى حكومة نشيطة قوية.

هذه الظروف كلها ساعدت على تعلق الشعب الفرنسى بنابليون، بينما بهرتهم انتصاراته الحربية فى ايطاليا ومصر. ولاشك ان التاريخ يعطينا مثل هذه الامثلة اذ ظهر فى انجلترا «أوليفر كرومويل» فى سنة ١٦٤٨، الذى كان شخصية قوية من ناحية السياسة والحرب، كما أعلن قيام الجمهورية عقب ثورة انجلترا التى لم تكن لها الصفة العالمية التى كانت للثورة الفرنسية، ولم تكن انجلترا ترمى من ورائها الى التسلط على ما حولها ولكن ذلك ربما كان راجعا الى ظروف انجلترا الجغرافية وحماية البحر لها وبعدها عن القارة الأوربية بخلاف فرنسا التى لها حدود متاخمة لدول القارة الكبرى. ولم ينجح كل من نابليون وكرومويل فى تأسيس أسرة حاكمة من بعده. فكرومويل لم يحاول تكوين اسرة، ولكن نابليون حاول ذلك، ونجح فى وضع بعض التقاليد وبعض الاسس، واستفاد منها فى المستقبل ابن اخيه نابليون الثالث (١٨٤٨ – ١٨٧٠) وكما رجعت اسرة استيوارت بعد وفاة

كروموبل ١٦٦٠ رجعت اسرة البربون بعد سقوط نابليون . ولكن تختلف الظروف التى تولى فيها الحكم كل منهما، فالشعب الانجليزى استدعى بنفسه اسرة استيوارت، لكن اسرة البربون رجعت الى فرنسا على رماح الأجانب، وكل منهما لم يعمر طويلا، فسرعان ما طردت اسرة استيوارت من انجلترا فى سنة ١٦٨٨ ، وأسرة البربون من فرنسا فى سنة ١٨٣٠ . اذ ظلت فى فرنسا رغم عودة الملكية فئة جمهورية قوية استطاعت أن تقضى على عرش شارل العاشر فى سنة ١٨٣٠ وعلى عرش لويس فيليب فى سنة ١٨٤٨ وعلى عرش نابليون الثالث فى سنة ١٨٧٠[1].

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة، ص ٢٩

# الفصل الثامن
# وصول نابليون إلى السلطة والحكم فى فرنسا

## الفصل الثامن

# وصول نابليون إلى السلطة والحكم فى فرنسا

تمكن نابليون بونابرت من الوصول الى السلطة والحكم فى فرنسا تدريجيا بعد أن حققت انتصاراته فى ايطاليا ومصر اعجاب الشعب الفرنسى به خاصة بعد أن قام بدور ايجابى فى القضاء على الثورات التى كانت تقوم ضد الثورة، فاشترك فى القضاء على ثورة الجنوب (لافنديه) وحصار طولون، والقضاء على ثورة فند مييير Vendemiaire (أكتوبر ١٧٩٥). ومنذ ذلك الوقت توثقت الصلة بينه وبين رجال حكومة الإدارة، وزادت تلك الصلة بزواجه من «جوزفين بوهارنيه Josephine Beauharnais» التى كانت على صلة وثيقة برجال حكومة الإدارة[١].

ولقد ساعدت الظروف أيضاً نابليون على الظهور، فلا زال الخطر الخارجى باقيا وما زال أمام فرنسا دولتان من أكبر الدول الكبرى، وكان على حكومة الإدارة توجيه ضرباتها الى الدول القارية، فجهزت قوة كبيرة لغزو النمسا عن طريق الراين والغابة السوداء. ولكى تزيد فى متاعب الجيش النمساوى، قررت أرسال حملة الى ايطاليا لحجز بعض القوات النمساوية هناك وسلم امر هذه الحملة الثانوية الى بونابرت[٢].

ويهمنا أن نلقى نظرة عامة على حالة ايطاليا فى ذلك الوقت فايطاليا الى الآن لم تلعب دوراً مهما فى الناحية السياسية وكذلك فى الناحية الادبية والعلمية وذلك لضعفها وتفككها ولتدخل النفوذ الاجنبى فى شئونها. فميلان خاضعه للنفوذ النمساوى، ومملكة بيد مونت المجاورة لفرنسا مستقلة وتعتبر من اقوى الدويلات الايطالية. ثم جمهورية البندقية وكانت مضمحلة فى ذلك الوقت وهنساك أيضا

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) بسام العسلى : نابليون بونابرت (١٧٦٨ - ١٨٢١)، ص ٨.

امارات وسط ايطاليا وهى توسكانا ومودينا وبارما وهى خاضعة للنفوذ النمساوى غير المباشر. ثم هناك نابولى وهى معادية لفرنسا لانه يقوم على حكمها فرع من أسرة البربون.

تسلم نابليون قيادة الجيش الفرنسى فى سافوى، وحاول أن يفصل سكان بيد مونت عن حلفائهم النمساويين، واستطاع أن يخرجهم من الحرب تاركين نيس وسافوى لفرنسا بعد أن هزم النمساويين فى موقعة نوت Monte Notte (أبريل ١٧٩٦) واجبرهم على التقهقر الى تحصيناتهم نحو الشرق، وتعقبهم فى سهل لومبارديا، ودخل مدينة ميلان حيث قوبل كبطل منتصر ومحرر للايطاليين لا كفاتح وقاهر. وكان عمل نابليون مهاجمة النمساويين فى حصونهم الكبيرة، ونجح فى الاستيلاء على منتوا Mantua وكانت من امتع المعاقل النمساوية فى شمال ايطاليا[1]، وبذلك يقع شمال ايطاليا فى ايدى الفرنسيين، ثم اتجه نابليون شطر الحدود النمساوية حتى وصل الى ليباخ.

وفى هذا الوقت الذى كان فيه نابليون منتصرا لم تلق جيوش الراين أى نجاح، فأصبح موقف نابليون دقيقا. وكان عليه أن يعقد الصلح مع النمسا وتم ذلك فى معاهدة ليوبن Leoben (١٨ ابريل ١٧٩٧). ولكن النمساويين كانوا مترددين فى قبول الصلح لانتظارهم وقوع ثورة فى باريس بسبب فشل الجيوش الفرنسية فى الميادين الأخرى. ولكن خاب ظنهم بعد انقلاب فركتيدور Coup d'etat de Fructidor ١٧٩٧، فعقدوا مع نابليون معاهده كامبو فورميو Campo Formio (أول أكتوبر ١٧٩٧) وبمقتضاها ضمت بلجيكا الى فرنسا، وأنشأ نابليون فى لمبارديا جمهورية الألب الشمالية وجعلها خاضعة للحكومة الفرنسية. واراد نابليون أن يرضى النمسا فعرض عليها البندقية ولكن لكى لا يصبح النفوذ النمساوى سائداً فى الأدرياتيك، استولت فرنسا على جزائر ايونيان وعقدت معاهدة بين الجانبين.

---

(١) جورج ليفيير : عصر الثورة الفرنسية، تعريب الدكتور جلال يحيى، ٤٦٧.

أما النصوص السرية ففيها اعترف الامبراطور النمساوى بحق فرنسا فى التدخل فى مسائل غرب المانيا، بل وضم بعض اجزائها اليها، واظهر نابليون فى هذه الحملة عظمة سياسية وحربية كبيرة، وفتحت امامه طريق المجد ومما يلاحظ على هذه الاتفاقية أن النمسا وفرنسا اتفقتا على اقتسام بعض الدويلات الصغيرة لتسوية النزاع، كما اظهرت المعاهدة استعداد الامبراطور النمساوى على التضحية بالمصالح الالمانية، واصبحت جمهورية الالب الشمالية التى انشأها نابليون فى شمال ايطاليا تنشر مبادئ الثورة الى كل اجزاء ايطاليا ولم يقتصر الفرنسيون على ذلك، بل اخذوا يتدخلون فى شئون الدويلات الايطالية متذرعين بأتفه الاسباب وقضوا على النظم الاستبداية فيها، وسلموا جمهورية البندقية للنمسا وقضوا عليها قضاءاً تاما، ولم يتعرض الفرنسيون للولايات البابوية لأن نابليون كان يفكر فى تحسين صلات فرنسا مع البابوية بينما كانت حكومة الادارة تبغى القضاء عليها.

كانت الحالة الداخلية فى فرنسا تزداد سؤا والناحية المالية بصفة خاصة، أما من الناحية الدينية فلم يكن هناك استقرار، فظل اغلب الفرنسيين متمسكين بالديانه الكاثوليكية، ولم ترق فى أعين الشعب عباد العقل الكائن الاعظم أو عبادة «عمل الخير للناس The Philanthropy» وهذه العبادة الاخيرة كان يعتنقها بعض رجال حكومة الادارة.

ثم نجد أن الجيش أصبح له شئ من الدكتاتورية. هذا بالاضافة الى أنه لم يكن هناك توافق بين السلطتين التشريعية والتنفيذية نتيجة للدستور الجديد (دستور ١٧٩٥). كذلك لم يكن هناك انسجام أو توافق بين أعضاء الهيئة التنفيذية (حكومة الإدارة) فمنهم من كان شديد التطرف ويعارض زملاءه فنجد أن السلطة التنفيذية بقيت فى ايدى اليعاقبة المتطرفين بينما الانتخابات الجديدة للمجلسين النيابيين اسفرت عن فوز المعتدلين وبعض انصار الملكية فأصبح أذن التعاون بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية عسيرا. فأستعانت حكومة الإدارة بنابليون على القيام بانقلاب فركتيدور (١٧٩٧) فتخلص نابليون بقواته الحربية من المعتدلين وانصار

الملكية فى الهيئة التشريعية، وذلك للمحافظة على التوازن بين الهيئتين ، ولتساعده الحكومة على عقد الصلح مع النمسا التى كانت تنتظر نتائج الحالة فى فرنسا، وهو صلح كمبيوفورميو السابق ذكره وبذلك خرجت النمسا من الحرب وبقيت انجلترا بمفردها.

ولم يكن صلح كمبيوفورميو موضعا للثقة، فالحالة السيئة بين فرنسا والنمسا ما زالت قائمة، وفرنسا تعلم ان دول أوربا لن ترضى بصلح مهين لكرامتها ولابد أن تعمل على القيام بحرب أخرى ضد فرنسا، على تقوية نفوذها فى البلاد المفتوحة، وعلى انشاء جمهوريات موالية لها فى البلاد المجاورة. وأخذت تحاول نشر مبادئ الثورة فى هذه الاماكن حتى تتمكن من تقويض العروش التى طالما هددت سلامة فرنسا، هذا من جانب فرنسا، ومن الجانب الآخر نظرت الدول بعين الفزع الى نمو فرنسا وزيادة سلطانها، كما خشيت هذه الدول على نظمها من انتشار مبادئ الثورة فيها، وكان الزمن فى صف مبادئ الثورة لا فى صف المبادئ الاستبدادية العتيقة.

رأت الدول أن فرنسا قد تعدت على حقوق الدول المجاورة لها وتدخلت فى شئونها الداخلية، وقضت على بقية الدول المستقلة والملكيات وانشأت فى مكانها جمهوريات هى فى الواقع تابعة لفرنسا، حدث ذلك فى هولندا وسويسرا وبيد مونت ونابولى والولايات البابوية، ولهذا لابد من وضع حد لاطماع فرنسا فكان لابد للنمسا التى ساءها تدخل فرنسا فى ايطاليا، ولاسيما فى نابولى أن تنضم الى انجلترا. وكذلك انضم القيصر الروسى «بول» الى انجلترا لاخذ فرنسا جزيرة مالطة من يد فرسان القديس يوحنا (٩ يونيه ١٧٩٨) الذين كانوا خاضعين لحماية الروسيا، كما انضمت الدولة العثمانية الى الحلفاء للانتقام من فرنسا لاستيلائها على مصر. وبذلك يتكون التحالف الدولى الثانى من انجلترا والنمسا والروسيا والدولة العثمانية فتمكنت جيوش الحلفاء تحت قيادة القائد الروسى الكبير سوفوروف من الانتصارات انتصارا حاسما على القوات الفرنسية فى موقعة «نوفى» بايطاليا، وارغمت القوات الفرنسية على الارتداد الى سواحل جنوة والتخلى عن

كل ما استولت عليه من اراضى شمال ايطاليا الا أن اختلاف قواد الحلفاء وكذلك اختلاف الدول المتحالفة انقذ فرنسا مؤقتا من خطر الغزو الأوربى الثانى بخروج الروسيا (أغسطس – أكتوبر ١٧٩٩) وادى ذلك الى سقوط حكومة الإدارة (نوفمبر ١٧٩٩). وكان العامل الأول لسقوطها نابليون، وكان العامل الثانى سييس، والثالث طبيعة دستور ١٧٩٥ وفساد حكومة الإدارة وسؤ تصرفها، ولكل هذه العوامل كان الشعب الفرنسى مستعداً لقبول حكم شخص يمكنه اصلاح حالة البلاد الداخلية واكتساب النصر الخارجي، ولهذا نستطيع أن نتصور تحمس الشعب الفرنسى لاستقبال نابليون عند عودته سرا الى فرنسا فى اكتوبر ١٧٩٩، وكان نابليون قد درس جيدا الموقف السياسى فى فرنسا وكيفية معالجتة والوصول الى مأربه الخاصة وهو أن يكون رئيسا للدولة الجديدة.

كان نابليون يظن أن انتصاراته الخارجية ستكون عوناً له على تحقيق مآربه. ولكن هذه الانتصارات لم تكن عونا له على المجلسين. فحينما حاول نابليون التأثير على هذين المجلسين نودى فيهما بسقوط كرومويل. ولكن نابليون استطاع الاستفادة من مركز أخيه وكان رئيسا لمجلس الخمسمائة، ومن مركز سييس أحد أعضاء حكومة الإدارة. فاتفق نابليون مع سييس على وضع خطة معينة للتخلص من الهيئتين التشريعية والتنفيذية وأقامة نظام جديد يكون لهما فيه السلطة العليا.

وقد تم لهما التخلص من معارضة الهيئة التشريعية، فيما سمى بانقلاب فركتيدور Coup d'etat de Fructidor ١٧٩٧، وكان هذا الانقلاب هو الجزء الأول من الخطة الموضوعية. أما الجزء الثانى فسيتم له بواسطة اخيه لوسيان والجنود ويسمى انقلاب برومير Brumaire ١٨ نوفمبر ١٧٩٩ وسنلخص هذا الانقلاب فى أن سييس وكانت له اغلبية برلمانية فى مجلس الشيوخ يقرر انتقال الهيئة التشريعية الى سان كلو لبحث مؤامرة مزعومة تدبر لفرنسا حيث كان هناك نابليون فى انتظارهم بقواته فارغم حكومة الادارة على الاستقالة كما ظهر اعضاء المجلسين

وقرر الباقون تأليف حكومة مؤقتة حتى يتم وضع الدستور الجديد الذى يسمى الدستور القنصلى ١٧٩٩ وهو يرجع الى حد كبير الى تفكير سييس، وأن كان نابليون ادخل عليه تعديلات تمس الناحية السياسية، فسييس يضع سلطة رئيس الجيش لتكون فى المرتبة الثانية. ولكن نابليون يرمى الى أن يكون رئيس الجيش هو رئيس الحكومة. وسييس نتيجة لدراسته الدستورية كان يرمى إلى ايجاد حكومة بيروقراطية.

نص دستور ١٧٩٩ على وضع السلطة التنفيذية فى يد قناصل ثلاثة كان نابليون هو القنصل الأول وله سلطات واسعة كاختيار الوزراء وكبار رجال الجيش، وحق اعلان الحرب وتوقيع المعاهدات وسن القوانين، ويعاونه قنصلان آخران كمساعدين له (وهما Lebrun, Cambacéres) اما السلطة التشريعية فوضعت صوريا فى يد مجالس ثلاث. الأول هو مجلس الشيوخ وعلى رأسه سييس ويختاره القنصل مدى الحياة وله حق انتخاب اعضاء المجلسين، ومراعاة تطبيق مواد الدستور.

اما المجلس الثانى فهو مجلس التربيون Tribunat ويتكون من مائة عضو يسقط خمسهم كل عام، وهو أشبه بمحكمة لمناقشة المشاكل التشريعية مع ابداء رأيها فيها دون أن يكون لها حق القبول أو الرفض.

اما المجلس الثالث فهو المجلس التشريعى ويتكون من ثلثمائة عضو وله حق الموافقة أو الرفض على مشروعات القوانين دون اى مناقشة.

وكل هذه المجالس لم يكن لها سلطان تشريعى، ولم يكن لها فى حقيقة الأمر سلطان بجانب سلطان نابليون، فيستغنى نابليون عنها جميعا دون ان يقوم الشعب الفرنسى ضده. وسيكون الحكم فى يده سواء اكان قنصلا أو امبراطورا(مايو ١٨٠٤).

وقد أوصل النصر الخارجى نابليون الى القنصلية، وعرف نابليون ان الانتصار

الحربى هو الكفيل بالمحافظة على هذا المركز، فالموقف الخارجى قريب الشبه الى حد كبير بالموقف حينما تقلد نابليون قيادة الحملة الايطالية فاعد نابليون جيشين للتخلص من الخطر النمساوى الاول يتجه الى الراين والآخر الى ايطاليا. اجتازت القوات الفرنسية جبال الالب السويسرية ونزلت فى سهل لمبارديا وتقابلت مع جيوش النمسا فى سهل مارينجو Marengo (١٤ يونيه ١٨٠٠) وانتهت بهزيمة ساحقة فسارعت بطلب الهدنة، ولكن نابليون لم يجب النمساويين الى طلبهم الا بعد آن هزمهم فى موقعة هوهنلند Hohenlinden ( على يد القائد Moreau) فى ٣ ديسمبر ١٨٠٠. فعقد صلح لونيفيل Luneville (فى ٩ فبراير ١٨٠١) وهو يشبه صلح كمبيوفورميو فيما يختص بايطاليا، وفيه سلم النمساويون بكل البلاد الواقعة غرب الراين، وفتحوا باب المناقشة فى مسائل المانيا. واعترفت النمسا بالجمهوريات التى اقامها نابليون فى ايطاليا وسويسرا وهولندا.

على اى حال كان نابليون بعد ذلك الصلح يسعى الى تقسيم المانيا الى ثلاث مناطق يسيطر عليها الفرنسيون جميعا. اما بخصوص انجلترا فقد حاول نابليون تكوين حلف بحرى ضدها لان الاسطول الفرنسى لايستطيع وحده الصمود امام الاسطول الانجليزى وتكون هذا الحلف من الدول التى تذمرت من تفتيش الاسطول الانجليزى لها، وهى الروسيا وبروسيا والسويد والدنمارك. فاسرعت انجلترا بالقضاء على الاسطول الدنمركى امام كوبنهاجن. كما قتل بول قيصر الروسيا فى ذلك الحين. وبذلك ينحل التحالف البحرى ويفقد نابليون الأمل فى القضاء على انجلترا. ولما كانت وزارة ولنجتون الانجليزية غير راغبة فى استخدام السلاح كما كانت فرنسا ايضا عقد صلح اميان Amiens (٢٥ مارس ١٨٠٢) وبه تخلت انجلترا عن كل ما أخذته من فرنسا الا سيلان وترينداد وراس الرجاء الصالح كما تعهدت ايضا برد جزيرة مالطة الى فرسان القديس يوحنا. كما سلمت انجلترا مصر للسلطان العثمانى وسيتيح هذا الصلح لنابليون فرصة عظيمة للقيام باصلاحاته الواسعة فى

فرنسا[1].

وبهذا الصلح استردت فرنسا كل ما فقدته من ممتلكاتها. وستكون جزيرة مالطة السبب فى وقوع حرب فيما بعد، لأن انجلترا رفضت الجلاء عنها بحجة توقع حرب جديدة كما ساعد على نشوب تلك الحرب ايضا استيلاء فرنسا على الأراضى المنخفضة وحرصها على تقييد ومقاومة التجارة الانجليزية فى فرنسا، وفى نفس الوقت عملت فرنسا على زيادة قوتها البحرية لتتعادل مع قوة انجلترا البحرية.

لم يعر نابليون دستور١٧٩٩ اهتماما كبيرا، فلم يشرك الشعب معه فى الحكم واصبح يعتمد على تأييد الكنيسة والفلاحين، وحاول ابعاد اليعاقة عن فرنسا، واتخذ سببا لذلك القاء قنبلة عليه اتهم فيه اليعاقبة والملكيين (١٨٠٠) وذلك كى يخلو له الجو وتنعدم المقاومة فى فرنسا.

واذا نظرنا الى فرنسا بعد صلح اميان نجد انها بمقتضى تلك المعاهدة اصبحت سيدة القارة الأوربية. ولكن الحكم فيها اصبح شخصيا برضاء الشعب الفرنسى لارغما عنه. ثم اخذ نابليون يوسع سلطاته الدستورية شيئا فشيئا فبعد ان اصبحت مدة القنصلية مدى الحياة منح السلطة فى اختيار من يخلفه من بعده. ثم اخذ يقيد السلطة التشريعية بحجة قيام الخطر الخارجى وحماية لنابليون نفسه من مؤامرات اعدائه من الموالين للملكية والمحبين لليعاقبة. ولما نقض نابليون صلح اميان كان ذلك فى مصلحته، اذا وقفت فرنسا كلها بجانبه.

وفى ١٨٠٣ حدثت مؤامرة كدودال لاغتيال نابليون وتتلخص تلك المؤامرة فى ان احد الملكين ويدعى جورج كدودال قام باغراء بعض القواد الفرنسيين امثال مورووبيشيجرز وبايعاز من الحكومة الانجليزية على تدبير مؤامرة تبدأ بقيام ثورة فى

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٦٤.

مقاطعتي نورمانديا وبريتانيا يغتال في اثنائها نابليون ويسند رياسة الدولة الى احد افراد اسرة البربون.

ولكن هذه المؤامرة باءت بالفشل، ولو انها اكسبت نابليون عطف الشعب الفرنسي واتاحت له الفرصة بأن يتمتع بمزيد من الحرية، فاقترح احد اعوانه في مجلس التربيون في ٢٣ ابريل ١٨٠٤ بان يصبح مركز نابليون وراثيا في ذريته، ثم منحه مجلس الشيوخ في مايو ١٨٠٤ لقب «امبراطور الفرنسيين» وحضر البابا الى فرنسا وقام بتتويج نابليون وزوجته جوزفين على مثال اباطرة الرومان القدماء[1].

وقد فهم نابليون ان أغلبية الشعب الفرنسي مازالت متعلقة بالكاثوليكية وان الديانات التي جاءت بها الثورة لم يكن لها نصير، ولابد من الاستفادة من ذلك الشعور، ولابد أن يستغل ذلك الشعور لتأييد سلطانه في فرنسا، فيعمل على توثيق علاقته بالبابوية. ثم يعقد صلح الكونكوردات في ١٥ يولية ١٨٠١ يعترف فيه البابا بمصادرة املاك الكنيسة على ان يعطى رجال الدين مرتبات مناسبة في مقابل اعتراف الحكومة الفرنسية بالديانة الكاثوليكية وسيادتها الروحية. ولكن نابليون حرص على أن يكون له هو الاشراف على الكنيسة وامورها، فهو الذي يولي الموظفين الكبار، وبذا تمكن من تعيين انصاره هو. فنابليون لم يجعل للبابوية اذن سلطة كبيرة في فرنسا. بل عمل على اشراف الدولة على الكنيسة سواء اكانت كاثوليكية أو بروتستنتية أو كلفنية. وبذلك ترجع الى الحالة الدينية في فرنسا ما كان لها من استقرار لم تعرفه اثناء عهد الثورة.

اما الناحية القانونية فلم تكن اصلاحاته فيها باقل من الناحية الدينية ويعتبر نابليون نفسه ان اصلاحاته القانونية ليست باقل اهمية من انتصاراته الحربية فقد كانت حكومة الادارة تتوق الى القيام بمثل تلك الاصلاحات ولكن تنفيذها يحتاج الى حكومة قوية وعبقرية فذة. ووجدت هذه الصفات في حكومة نابليون وفي

(١) بسام العسلي : نابليون بونابرت، ص ١١٢

شخصية نابليون. وفى هذه القوانين ركزت مبادئ الثورة وانتشرت فى خارج فرنسا. فقد كان الاساس الذى بنيت عليه هذه القوانين هى فكرة المساواة والتسامح الدينى والملكية. فاعترف ذلك القانون بحق الوراثة والطلاق وجعلت الحكومة هى المسيطرة على المسائل الشخصية لا الكنيسة. كما الغى نظام انتخاب القضاة (قانون ١٨ مارس ١٨٠٠) فأصبح القضاة يعينون بواسطة نابليون أو مجلس الشيوخ مع عدم قابليتهم للعزل. وكان تأثير نابليون على وضع القانون عظيما يشمل الأمور الجنائية والتجارية والقضائية. ولقد ظهرت فى تلك القوانين سواء اكانت دينية أو قانونية أو ادارية روح الثورة الفرنسية الى جانب روح لويس السادس عشر.

وفى الناحية الادارية تظهر روح التركيز واحترام الشعب للحكومة فقام نابليون باصلاح التعليم وجعله خاضعا لاشراف جامعة الدولة. كما حدد العلوم التى تدرس فيها، ولم يشجع الدراسات الاخلاقية والفلسفية، وقيد حرية الصحافة. وانشأ له بلاطا، وكذلك انشأ الرتب والنياشين المختلفة وعمل على تقوية موارد فرنسا من انشاء الطرق وشق الترع وغيرها، كما عرفت فرنسا فى عهده الثورة الصناعية.

والى جانب تنظيم النواحى الدينية والقضائية والادارية، وضع «القانون المدنى» ليكمل الناحية الاجتماعية، ولينظم علاقات الافراد بالمجتمع الفرنسى الجديد. وهذا القانون عبارة عن مجموعة من المواد جمعت من بعض القوانين المختلفة التى سادت فى فترات معينة من تاريخ فرنسا، مثل القانون الرومانى وقوانين الملكية وقوانين الثورة. وسمى هذا القانون الجديد بقانون نابليون (٢١ مارس ١٨٠٤) وهو مازال سائدا فى فرنسا حتى اليوم بالاضافة الى الدول التى اقتبست نظمها من النظام الفرنسى.

ولقد شمل تنظيم نابليون كل نواحى النشاط فى فرنسا، وتم هذا الانقلاب الكبير فى النظم الفرنسية فى الفترة بين ١٨٠٠ ، ١٨٠٤. وبهذه الاعمال المجيدة استطاع نابليون ان يكون امبراطوراً.

وتجدر الاشارة الى أن صلح اميان (٢٥ مارس ١٨٠٢) لم يكن نهاية الحرب

بين انجلترا وفرنسا، فهو صلح قصير المدى، وشروطه ما كانت تدعوا الى استمرار السلام مدة كبيرة، فلم يكن بين الدولتين ثقة متبادلة. ولقد عملت فرنسا على بسط نفوذها ، بل لقد وضعت جيوش احتلال فى الجمهوريات التى بجانبها، فنجد نابليون يعين نفسه رئيسا للجمهورية الايطالية. كذلك بعض الحملات التى قامت بها فرنسا فى عرض البحار اثارت مخاوف انجلترا، مثل حملة سان دومنجو التى كان الغرض منها القضاء على الحركة الاستقالية التى قام بها احد السود ويدعى Toussin L'ouvertues وكان يسكن هذه الجزيرة عدد كبير من السود فقام هذا الاسود وقضى على حكم البيض، وانشأ حكومة السود واتبع سياسة نابليون واعلن نفسه قنصلا. وكانت هذه الجزيرة تابعة لفرنسا، فقيام هذه الحركة اذن قد اضاع النفوذ الفرنسى منها، ولو سرت هذه العدوى فى الممتلكات الفرنسية لانفصلت كل جزر الهند الغربية عن النفوذ الاجنبى. ولهذا رأى نابليون ان يستعيد هذه الجزر بعد فشل حملته على مصر التى كان يراد بها تعويض فرنسا عما فقدته.

وقد فهمت انجلترا من ارسال حملة فرنسية كبيرة فى عرض البحار لاخضاع تلك الثورة، ان فرنسا مازالت تنظر الى الناحية الاستعمارية، وان ظنها بأن صلح اميان سيضطر فرنسا الى الخضوع والانصراف الى النواحى الداخلية قد تبدد. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فاستيلاء الفرنسيين على هذه الجزيرة معناه الاستيلاء على كل جزر الهند الغربية.

ولم يكتف نابليون بذلك، بل ارسل بعثتين فرنسيتين الى منطقة الشرق الادنى والهند، وهما بعثة ديكان، وهدفها الهند. وبعثة سبستيانى Sebastiani ووجهتها الشرق الادنى. وقد اخافت هاتان البعثتان انجلترا خوفا شديدا وخشيت ان يؤدى بقاؤهما الى اثارة القلاقل ضدها فى هذه المنطقة من العالم. وقد نشرت بعثة سبستيانى تقريرا اوضحت فيه ان الحامية الموجودة بمصر ضعيفة لاتستطيع الدفاع عنها، وان فرنسا يمكنها بقوة

فرنسيــة صغيره استعــادة تلك البلاد مرة اخــرى.

ثم هناك عوامل اخرى كانت تبعث القلق فى نفوس كل من الدولتين منها ان التجارة الانجليزية لم تلق ترحيبا فى الاجزاء التى كانت تحكمها فرنسا نتيجة لسياسة نابليون التى سار عليها فى تقييده لتبادل تلك التجارة. كما ان الصحافة الانجليزية اخذت تهاجم نابليون وتندد باعماله، وتثير الرأى العام الانجليزى ضده. كذلك لم تقم انجلترا بتنفيذ شروط صلح اميان فقيام الحرب بين الدولتين كان يرجع الى عوامل متعددة بعضها نفسى والبعض الآخر يرجع الى سلوك كل منهما تجاه الاخرى، وعدم توفر الثقة بينهما. هذا بالاضافة الى ان نابليون لم ينس سياسة الانتصار والحرب، فلابد له من ان يعمل على اشعار فرنسا بأنها فى خطر دائم، وانه الشخصى الوحيد الذى يستطيع حمايتها والذود عن كيانها.

اخذ نابليون يتحرش بانجلترا الى ان اعلنت الحرب عليه فى ١٦ مايو ١٨٠٥ وحاولت كل من فرنسا وانجلترا ان تضم اليها اكبر عدد من الحفاء وكان نابليون قد استعد لهذه الحرب، فقوى جيوش الاحتلال الفرنسية فى نابولى وهولندا. كما استولى على هانوفر وكانت تابعة للتاج الانجليزى، فكان ملك انجلترا حاكما لتلك المقاطعة. وحاول نابليون ضم الروسيا وبروسيا اليه فلم يفلح، وحاول ضم اسبانيا اليه فنجح فى اول الامر. وكان بت وزير خارجية انجلترا قد استطاع تكوين حلف اوربى ثالث (١٨٠٥) ضد فرنسا من الروسيا والنمسا والسويد. وتمكن نابليون من اقناع بروسيا بالوقوف على الحياد فى هذه الحرب فى نظير منحها مقاطعة هانوفر.

وكان الغرض من هذا الحلف الاوربى الثالث هو ارجاع فرنسا الى حدودها القديمة وعقد مؤتمر دولى لفض المشاكل الدولية وايجاد نوع من النظام التعاهدى فى اوربا.

وجد نابليون ان من الضرورى القضاء على انجلترا، فعهد الى قواته على ساحل فرنسا الشمالى بمهاجمة الأراضى الانجليزية. ثم حاول الاسطولان الفرنسى

والاسبانى الخروج الى عرض البحر فى اتجاه انجلترا، فيقابلهما الاسطول الانجليزى بقيادة نلسون عند الطرف الأغر فى ٢١ اكتوبر ١٨٠٥ ويقضى عليهما فى معركة حاسمة، وبذلك تنجو بريطانيا من خطر عظيم كان يتهددها فى عقر دارها[١].

ولما فشل نابليون فى محاولة غزو الجزر البريطانية يتجه الى الولايات الالمانية، وكان عليه أن يقضى على قوتى النمسا وروسيا. اما بروسيا فقد اضاعت بوقوفها على الحياد فرصة ذهبية، وذلك لخوفها من فرنسا من جهة جارتيها النمسا وروسيا من جهة اخرى. هذا بالاضافة الى الصداقة التى سادت العلاقات بينها وبين فرنسا منذ معاهدة بال. كما أن نابليون كان يغريها نوفر اذا وقفت على الحياد. ولقد هاجم نابليون قوات النمسا وحدها وقضى عليها فى موقعة أولم Ulm (٢٠ اكتوبر ١٨٠٥)، ثم واجه قوات الروسيا والنمسا فى موقعة «اوسترلتز» (٢ ديسمبر ١٨٠٥) وأو موقعة الاباطرة،فكانت هذه نصرا حاسما لنابليون، ولم تستطيع النمسا الثبات بعد ذلك، وتقهقرت الجيوش الروسية الى الشمال الشرقى. وكان على نابليون اقرار العلاقات النمساوية الفرنسية. واراد ايضا ان يظهر بصفة محرر للولايات الالمانية من اسرة الهبسبرج، اى انه صمم على ابعاد النفوذ النمسوى عن هذه الولايات. ولهذا يرغم النمسا فى صلح برسبرج (٢٦ ديسمبر١٨٠٥) على التنازل عن سيادتها عليها. وبذلك تتلاشى الامبراطورية الرومانية المقدسة.

وبعد أن زال ذلك النظام الذى فرضته النمسا على هذه الولايات ارتفعت مقاطعات بافاريا وبادن وبرسبرج الى ملكيات. واقتطع نابليون من اطراف النمسا ماشاء، وضم البندقية الى مملكة ايطاليا، ثم كون نابليون مايسمى باتحاد الراين Confederation of the Rhineواعلن نابليون نفسه حاميا لهذا الاتحاد، وقرر أن يكون حليفا دائما لنابليون وكان على الدولة الألمانية الثانية (بروسيا) ان تقبل هذه

---

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٧٨.

التغييرات الجديدة فى المانيا. ولكن بروسيا كانت مترددة بين انصار السلام وانصار الحرب فقررت اخيرا الحرب وارسلت مندوبا عنها الى نابليون يعلنه هذا القرار، ووصل المندوب بعد موقعة «استرلتز»، وفى خريف ١٨٠٦ تحطمت قوة بروسيا الحيوية فى موقعة يينا Yena (١٤ اكتوبر ١٨٠٦) واورستدت Auerastadt ١٨٠٦. وبين هاتين الموقعتين دخل نابليون مدينة برلين فى ١٨٠٦ واصبح سيد اوربا بلا منازع بعد أن قهر بروسيا والنمسا وروسيا. ومن برلين اعلن نابليون «مراسيم برلين» التى تنص على محاصرة الجزر البريطانية الاقتصادية، وتحريم التبادل التجارى بينها وبين سائر الموانى الأوربية. ثم تحطمت مقاومة الدولتين الروسية والنمساوية معا فى موقعتى «ايلاو» Eylau وفى اميدلاند Emiedland (فبراير ١٨٠٧). وفى معاهدة تلست «Tilsit» (٨ يوليو ١٨٠٧) يقرر نابليون مصير بروسيا ونوع العلاقات الفرنسية، وخسرت بروسيا عددا من سكانها ونصف اراضيها وحدد عدد جيشها وانشئت دويلات جديدة من ممتلكاتها مثل دوقية وارسو، وامارات وستفاليا التى كونها من المناطق الواقعة غرب نهر الالب، وعين اخاه «جيروم» حاكما عليها. وعقدت اواصر الصداقة بين الروسيا وفرنسا على اساس اعتراف الروسيا بكل التغييرات التى احدثها نابليون فى المانيا، وتطبيق الحصار على الجزر البريطانية، فى نظير مساعدة نابليون للروسيا فى تحقيق اطماعها فى تركيا وفنلنده ونهر الطونة. وبذلك يصل نابليون فى ١٨٠٧ الى اوج عظمته بعد ان هزم قوات القارة الأوربية وقلد اخوته عروش اوربا. ثم تبدأ بعد ذلك الامبراطورية النابليونية فى التدهور والانهيار[١].

**اسباب انهيار امبراطورية نابليون :**

يمكننا أن نرجع أسباب إنهيار امبراطورية نابليون الى عدة عوامل أهمها:

أولا: أن أوربا أفاقت من غشيتها وحاولت القضاء على السيطرة الفرنسية

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٨٠.

واستخدمت نفس الوسائل التى تغلبت بها جيوش فرنسا على اوربا. ويبدو أن الثورة الفرنسية حملت معها عوامل هدمها فلقد دخلت الجيوش الفرنسية البلاد المفتوحة بمبادئ الثورة وهى الحرية والاخاء والمساواة وحكم الشعوب نفسها بنفسها. ولذا سنجد ان هذه الشعوب ستعمل على تطبيق تلك المبادى والاحتفاظ بحقوقها. فالشعب الفرنسى كان يحارب حكومات لا قوميات، وكان يواجه قوات مرتزقة لاتمثل الشعوب، وقد وجدت شعوب أوربا ان الحكم الفرنسى ليس فى صالحها دائما، وان نابليون يعمل على ان يقوم كل شعب بدفع نفقات النصر الذى احرزه واعباء جيش الاحتلال. وجد كل شعب من الشعوب الأوربية ان نابليون وفرنسا من ورائه لا يعملان الا لمصلحة فرنسا وحدها. ولم يكن حكم نابليون لها حكما ديمقراطيا، بل كان حكما قائما على الاستبداد. فكان هذه الشعوب قد استبدلت حكما استبدايا بآخر من نوعه. وسنجد ان هذه الشعوب التى ايقظتها صيحات الحرية ستعمل على ادخال النظم والاساليب الحربية الفرنسية حتى تحارب فرنسا بنفس سلاحها هذا بالاضافة الى سوء الحالة الاقتصادية من جراء حصار انجلترا لاوربا وحصار نابليون للجزر البريطانية. فأصبحت اوربا محتلة بقوات لاتحترم الا مصلحة فرنسا ومصلحة نابليون.

**ثانيا:** كانت اوربا تشعر شعورا واحدا ازاء فرنسا، وهو الشعور بالعداء بعد اوسترلتز وبينا وفريدلند. فالعلاقات تحسنت نوعا ما بعد «تلست» بين فرنسا وبروسيا. ولكنها كانت فترة محدودة. والنمسا ولو انها سلمت لنابليون فى صلح برسبرج الا انها سلمت مرغمة وستنتهز الفرصة للقضاء على نابليون. وسنجد الدول الاخرى مثل اسبانيا تتألب على فرنسا، وهذه الدول فى مجموعها اقوى من فرنســا من الناحيــة الحربية ومن ناحيــة الثــروة. وكانت هذه الشعوب تدفع ثمن هذه الحروب عن طريق الضرائب المنتظمة وتقديم زهرة شبابها لخدمة نابليون، فاذا كانت هذه الـــدول تستطيع تقديم

محاربين لنابليـــون لتثبيت دعائم حكمه الاستبـــدادى فى انحاء اوربا. كان فى وسعهـــا ان تستخـــدم هؤلاء الشبان فى القضـــاء على النفوذ الفرنسى وحكم نابليون.

**ثالثا** : كانت عداوة الدول الأوربية لنابليون، وخصوصا عداوة انجلترا من الاسباب الهامة فى انهيار امبراطورية نابليون. فمقاومة انجلترا لنابليون بالحصار البحرى الذى فرضته على الدول الأوربية عجل بنهاية نابليون ولم يكن فى استطاعة نابليون القضاء عليها، وحاول ذلك مرارا ايام حكومة الادارة، كان احد رجالها غير الاقوياء. وحاول بعد ذلك أن يضيِّق عليها فى مستعمراتها فلم يفلح، ثم حاول ان يضم الدول البحرية الى جانبه، ولكنه فشل، فحطم الاسطول الانجليزى الاسطول الدنمركى فى مياه كوبنهاجن. كما ان لنلسون اثر كبير فى هزيمة نابليون. ولكن نابليون لم ييأس بعد ان هزم القارة الأوربية، فحاول أن يكون حلفا اوربيا، كما حاول ايضاً ضم الاسطول الاسبانى الى الاسطول الفرنسى ، فدمرهما نلسون فى موقعة الطرف الاغر (٢١ اكتوبر ١٨٠٥) وسمى احد ميادين لندن الكبيرة باسم ميدان الطرف الاغر وبه تمثال لنلسون[١]. وكان هذا الانتصار حاسما فى العلاقات الانجليزية الفرنسية، فلم يفكر نابليون فى غزو انجلترا مرة اخرى. وسيكون لموقعها الجغرافى، وتفوقها البحرى اكبر الاثر فى سقوط نابليون آخر الآمر.

**رابعا**: سيحاول نابليون من جهة اخرى حصار انجلترا اقتصاديا واصدار مراسيم برلين ثم مراسيم ميلان، وكان على الدول الحليفة لنابليون ان تنفذ ذلك، وقد اضر هذا بمصالح تلك الدول، وكان رد انجلترا على ذلك حصار اوربا. ولم يكن لهذا الحصار تأثير كبير على فرنسا، فكل ماكان له من اثر منع فرنسا من الاتجار فيما وراء البحار ولم تكن لهذه التجارة قيمة كبيرة بالنسبة لها، الا انها اضرت الدول الاخرى الحليفة لفرنسا.

---

(١) بسام العسلى : الأميرال نلسون (١٧٥٨ - ١٨٠٥)، ص ١٢٦.

خامسا: كانت انجلترا شوكة فى جانب فرنسا، ولكننا نجد أن فرنسا لاتقاسى من انجلترا بقدر ما تقاسى من سياسة انجلترا فى اثارة دول اوربا عليها ثم هناك عوامل تختص بفرنسا نفسها، فقيامها بحروب كثيرة اضعفها من الناحية الحربية فكثيرون من شبان فرنسا قتلوا فى هذه المعارك ثم ان جيوش نابليون لم تعد هذه الجيوش القومية التى عرفتها اوربا بل اصبحت بانضمام عناصر اجنبية كثيرة اليها، جيوش مرتزقة. ثم نجد قواد نابليون انفسهم اخذوا يحقدون على نابليون أو على بعضهم البعض، وترتب على هذا انضمام البعض الى صفوف الاعداء.

سادسا: من هذه الاسباب نهضت الدول الأوربية للتخلص من نابليون. وخير مثل لذلك دولة بروسيا. فبروسيا لم تعد هذه الدولة المنهارة فقامت فيها نهضة كبيرة، وحاولت التخلص من كثير من مساوئ الحكم القديمة فبروسيا عندما قابلت نابليون قابلته بجيوش مأجورة من بقايا فريدريك الاكبر ولم تكن تصلح للقرن الثامن عشر والجيش البروسى من طبقة الفلاحين الارقاء لاتدفعه للدفاع عن ارض بروسيا مصلحة قومية، فالحكومة هي اداة في يد الملك يديرها كيفما يشاء.سنجد ان هذه الاحوال تتغير، فمن حسن حظ بروسيا انها وجدت رجالا أكفاء فى مختلف نواحي الحياة يعرفون كيف يستعيدون مركزها القديم كدولة كبرى.

فمن الناحية الحربية وجدنا رجالا عظماء على رأسهم قائد يدعى شارنهرست Scharnhorst ونايزوناو Gneisenau. ومن رجال الحرب ايضا الضابط البروسى الكبير كلوزفتس Clausewitz وهو الذى نظم القواعد الحربية لنابليون وجعلها تتلائم مع دولة بروسيا. فهؤلاء الثلاثة قاموا بتنظيم الجيش البروسى على أسس وطيدة وحاولوا اشعال حماس الجند. والاخير هو مؤسس المدرسة الحربية الحديثة قضى على الطبقات فى الجيش فاصبح

الجيش البروسى منذ ذلك الوقت اداة قومية مهمة فى خلق دولة بروسيا الحديثة.

كذلك ستقوم نهضة سياسية واجتماعية على يد مصلحين كبيرين هما البارون شتين Stein والمستشار هاردنبرج Hardenberg فيقضيان على نظام استرقاق الفلاح او ما يسمى Serfdom. فاصبحت الارض ملكا للزراع وازيلت الحواجز الجمركية التى تفصل بين اجزاء بروسيا. ولم تكن الحركة الفكرية بأقل نموا من الحركتين الحربية والاجتماعية فالعصر كان عصر كانت Kant وفخته Fichte وجوته Goethe وشلر Schiller فسادت هذا العصر نهضة عقلية وادبية بجانب النهضة الحربية، وتكونت جمعيات رياضية تسمى رابطة الفضيلة Tugenbund. ولم يكن الاصلاح التعليمى بأقل شأنا من مختلف النواحى الاخرى فتأسست جامعة برلين، وكان لها أثر كبير فى النهضةالعلمية[1].

**سابعا:** هذا من جهة بروسيا، واذا اتجهنا نحو اسبانيا نجد ان الثورة التى قامت بها ضد الحكم النابليونى كانت عظيمة الاثر، فرأى نابليون بعد «تلست» ان أسبانيا غنيمة له، نظرا لضعفها من الناحية المليكة والاخلاقية والاقتصادية، فنجد ان الملك وبجانبه الملكة وعشيقها والوزير الاكبر، كل منهم يريد الاستئثار بالسلطة. فالحالة الخلقية كانت أسوأ حالة اخلاقية عرفتها اوربا فظن نابليون ان من السهل الاستيلاء على اسبانيا واغلاق أبواب اوربا كلها امام البضائع الانجليزية. فتدخل بين الملك وابنه، وارسل فى استدعائهما، وحجزهما طرفه، وأرسل جيشا لاحتلال اسبانيا وتنصيب اخاه عليها. ولكن الاسبانيين قاموا بحرب عصابات ناجحة وساعدهم الانجليز، وكان فى امكان نابليون القضاء عليها. ولكن ذلك يحتاج الى وجوده هو وبقاء قوة قوية فيها،

(١) فيشر، هـ. أ. ل.: تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٩٥ - ٩٦.

في الوقت الذى كان فيه نابليون يوجه اهتمامه الى اوربا لانها كانت على وشك الثورة، فيحاول الاجتماع بقيصر الروسيا لتوطيد دعائم الحكم الفرنسى فى اوربا فى نظير مساعدة نابليون له فى تقسيم املاك الدولة العثمانية. ولكنه رأى انه لا يستطيع الانتفاع بروسيا. ثم وجد كذلك انقلاب النمسا عليه، فاعداؤه يحاولون الانقضاض عليه، فينتصر عليهم فى «واجرام» (٦ يوليو ١٨٠٩) فاضطر النمسا الى قبول صلح فيينا فى ٤ أكتوبر ١٨٠٩ تخلت فيه عن سلزبرج، كما تنازلت عن غاليسيا الشرقية لروسيا وغاليسيا الغربية إلى وارسو. وكان من نصيب فرنسا تريستا وما حولها من الاراضى النمساوية شمال بحر الأدرياتى.

**ثامنا** : ساءت علاقة الروسيا بنابليون نتيجة لأختلاف وجهات النظر، لاسيما على المسألة البولندية، وهذه الحرب كلفت نابليون كثيرا، وظن نابليون انه يستطيع ان يحتفظ بالنمسا وبروسيا على الحياد ولكنه فشل، فعقدت بروسيا مع الروسيا معاهدة كليس (٢٨ فبراير ١٨١٣) لتثأر لنفسها من هزيمة يينا فانتصر نابليون عليهما فى أول الامر فى لوتزن Lutzen (١٤ مايو ١٨١٣) وبوتزن Butzen (٢١ مايو ١٨١٣)، ولكنه طلب الصلح وطلب توسط النمسا فيه، فاشترطت النمسا ان يتنازل نابليون عن اراضيها أولا، فلما رفض انضمت الى اعدائه فى ٢٣ يونية ١٨٩٣ وانضمت اليهم السويد، فاضطر نابليون الى التقهقر الى ما وراء الالب لان قواده لم يصبحوا له مخلصين ولم ينقادوا له الانقياد التام، وحدثت موقعة ليبزج او معركة الامم Volkerschlact فى ١٦ أكتوبر ١٨١٣ واضطر نابليون الى التقهقر غربى الراين، وانهارت قوة فرنسا فى الجانب الشرقى من أوربا، وانسحبت جيوش فرنسا من اسبانيا تتبعها جيوش ولنجتون. فكان على نابليون الدفاع عن أراضى فرنسا المهددة من ناحية الراين، ومن ناحية جبال البرنيز، واضطر نابليون الى التسليم. ثم يعقب ذلك حكم المئة يوم وتنتهى بهزيمته فى ووترلو فى سنة ١٨١٥ وبتسليم

نابليون فى النهاية، فتتداعى الامبراطورية النابليونية تداعيا تاما. فانهيار امبراطورية نابليون كما رأينا إنما يرجع إلى أسباب داخلية وأخرى خارجية، ولكنهـا أدت مجتمعة إلى وضع حد لامبراطورية كانت تهدف إلى توحيد القـارة الأوربيـة عن طريق التوسع والفتح، وأن كانت هذه المحاولة ستأخذ طريقها لتحقيق هذا الهدف فى العصور التالية بأساليب جديدة.

# الفصل التاسع
# مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ وأثره على أوربا

# الفصل التاسع

## مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ وأثره على أوربا

يعتبر مؤتمر ڤيينا الذى عقد فى اليوم التاسع من يونيو سنة ١٨١٥ أكبر المؤتمرات الدولية التى شهدتها أوربا فى تاريخها الحديث، وكان ذلك تنفيذاً لشروط معاهده باريس الأولى فى ٣٠ مايو ١٨١٤. وفى هذا المؤتمر احتكرت الدول العظمى فى أوربا آنذاك سلطة صنع القرار واستبدت بالتصرف فى مستقبل الشعوب والحكومات الأوربية. ولم تضع هذه الدول أى إعتبار لمبادئ الوحدة الوطنية أو الحركات القومية أو رغبات الشعوب، كما وضعت حداً للتغيرات السياسية والاجتماعية التى تسبب الحكم الفرنسى ومبادئ الثورة الفرنسية فى ايجادها.

وكانت الأعمال العسكرية فى أوربا قد بلغت ذروتها من الشدة والعنف، كما كانت النمسا قد بدأت تدخل فى مفاوضات مع فرنسا فى نوفمبر سنة ١٨١٣ بشأن الوصول الى اتفاق فيما بينهما يضع حداً للحروب القائمة خصوصاً وأن النمسا قد حاولت استغلال هزيمة نابليون فى الروسيا لكسب أفضل الشروط لإنهاء الحرب. وكانت شروطها تدور حول انسحاب القوات الفرنسية من جميع الأراضى التى احتلتها فى أوربا فيما عدا بلجيكا والمنطقة المحصورة بين نهرى الراين والألب. ونظراً لأزمة الثقة المتبادلة بين الطرفين فشلت المفاوضات فى البداية واستمرت الحرب.

وكان نابليون يشعر رغم قوته بأنه فى حاجة الى صلح مشرف يختتم به حياته عن طريق المفاوضة خصوصا وان كثرة الحروب التى خاضها قد افقدته الصفوة المدربة من خيرة جنوده، وان ما بقى لديه من قوات قد انهكتها الحروب المتصلة، وان فرنسا لم تعد قادرة على تزويد نابليون بكل ما يحتاج اليه من رجال وعتاد واموال، فى نفس الوقت الذى كان فيه خصومه على استعدادا لبذل المزيد من التضحيات للقضاء عليه.

المندوبين نشاطا وقوة اسكندر قيصر الروسيا وكان يمثل بلاده فى الاجتماع ومثل تاليران فرنسا. وما رأى اعضاء المؤتمر منحصرا فى حل تلك المشكلة عن طريقين: اما تثبيت ابن نابليون الطفل على عرش فرنسا ووضعه تحت الوصاية او المناداة باحد قواد نابليون ملكا على فرنسا. وظلت المناقشات تدور حول هذين الحلين فترة من الزمن الى ان استطاع تاليران من ان يوجهه مناقشات الاعضاء نحو اعادة اسرة البربون الى حكم فرنسا تمشيا مع الروح التى سيطرت على المؤتمر والتى كانت تنادى بمبدأ ارجاع الحقوق الشرعية لاصحابها كاساس لحل المشكلات التى تمخضت عن حروب نابليون. وقد صادف هذا الرأى هوى فى نفوس الدول الملكية الاستبدادية مثل الروسيا والنمسا وبروسيا، اذا ان عودة الملكية الى حكم فرنسا من جديد انما يمثل انتصار الملكيات الاستبدادية على النظم الثورية التى جاءت بها الثورة.

عادت الملكية الى حكم فرنسا من جديد على أسنة رماح الحلفاء ، ورغم ارادة الشعب الفرنسى، وجلس لويس الثامن عشر (شقيق لويس السادس عشر) على عرش فرنسا، كملك دستورى. ولكن هذا الدستور لم يمنح الشعب الفرنسى كل ما كان يصبوا اليه من حقوق، وظلت الروح الملكية الاستبدادية المستمدة من حق الملوك الالهى فى الحكم تسيطر على الدستور الجديد.

وصل الى سمع نابليون وهو بمنفاه أنباء الخلاف بين خصومه المجتمعين فى ڤيينا حول المسألة السكسونية البولندية، كما علم ايضا أن الشعب الفرنسى لم يقابل الملكية الفرنسية العائدة بشئ من الارتياح، وأنه اذا ما حاول الهرب والعودة الى فرنسا، فسيجد الشعب الفرنسى فى استقباله استقبال الغزاة الفاتحين. كل هذه الامور دفعت نابليون الى التفكير الجدى فى الهرب، وتم له ذلك ونزل على شاطئ فرنسا الجنوبى. وما أن علم الشعب الفرنسى بهذا النبأ حتى هب لاستقباله وهرع اليه جنودة القدامى وقواده الذين تخلوا عنه من قبل، ووجدت الملكية الفرنسيه ومن

ورائها الاشراف نفسها مضطرة الى مغادرة فرنسا من جديد لانها لم تكن تعتمد على شيء داخل البلاد، فلا الشعب يكن لها شيئا من الحب أو التقدير، ولا الجيش الفرنسي موضع ولائها واخلاصها.

وما أن علم اعضاء المؤتمر بنبأ قرار نابليون ودخوله أرض فرنسا الا واضطربوا لذلك اضطرابا شديدا لا لأنهم كانوا يخشون لقاء نابليون او يتوقعون هزيمتهم امام قواته، ولكن لان هذه المغامرة سترغمهم على سفك المزيد من الدماء دون ما حاجة الى هذا العمل. فمصير نابليون محتوم لان قواته المترنحة اصبحت لاتقوى على مواجهة جيوش اوربا الوطنية، وان انتصارات مارنجو واوسترلتز وينا لن تعود مرة ثانية، فجيوش اوربا المرتزقة التى عرفها نابليون فى فتوحاته لم يعد لها وجود، وان قوات اوربا قد اصبحت على قدم المساواة مع قواته ان لم تفوقها فى العدد والعدة هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فنابليون قد عاد الى فرنسا محاولا استعادة ما كان له من مجد حربى وسلطة مطلقة فى فرنسا، ولم يكن الشعب الفرنسى مستعدا فى ذلك الوقت لان يقدم مزيدا من التضحيات تفوق ما قدمه من قبل. وهذا بالاضافة الى ان كره معظم الشعب الفرنسى لطريقة حكم نابليون الاستبدادية جعلته يفكر جلياً فى اتخاذ خطوت عملية لاسترضائه والحصول على تأييدة. ولهذا – فبالرغم من التبعات العسكرية الجسيمة التى كانت ملقاة على كاهل نابليون فى ذلك الوقت – لم يتوان فى دعوة الامة الفرنسية للاستفتاء على الدستور الجديد الذى قرر منحه لها والذى كان ينص على تشكيل مجلسين تشريعيين ينتخب الشعب احدهما على ان تكون الوزارة مسئولة امام مجلس البرلمان، ولو ان الشعب الفرنسى لم يتحمس لهذا الدستور الجديد الا ان الاغلبية التى حصل عليها نابليون قد اضفت عليه الصفة الشرعية الدستورية.

بدأ نابليون كعادته بمهاجمة اعدائه قبل ان يكملوا استعدادهم او قبل ان يحكموا تكتلهم على اقل تقدير، فهاجم الجيش البروسى والانجليزى وانتصر

عليهما انتصارا غير حاسم. وعندما اعيدت الكرة ثانية دارت الدائرة على قوات نابليون فهزم هزيمة ساحقة فى معركة ووترلو فى ١٨ يونيو سنة ١٨١٥ - وسقطت بعد ذلك مدينة باريس، وبهذه النهاية تنقضى فترة حكم المائة يوم[١]

ما من شك فى ان عودة نابليون مرة ثانية الى حكم فرنسا ودخوله فى حرب مع اعدائه ستؤثر فى التسوية التى ستتم بين الحلفاء وفرنسا. واذا كان اعداء فرنسا قد عاملوها فى أول الامر بشئ من التسامح تسهيلا لمهمة الملكية الفرنسية الجديدة وتدعيما لمركزها فى البلاد، وتمشيا مع ما نادى به الحلفاء فى ذلك الوقت بأنهم كانوا يحاربون نابليون لافرنسا، ولهذا يجب الا يؤخذ الشعب الفرنسى بجريرة نابليون، وان تقتصر العقوبات على نابليون وحدة دون اشراك الشعب الفرنسى معه. ولكن عودة نابليون وتأييد الشعب الفرنسى له قد هدم هذه النظرية، ووجد الحلفاء انفسهم مدفوعين بدافع الانتقام الى اشراك الشعب الفرنسى فى العقوبة، لانه ربط مصيرة بنابليون. ولهذا فقد فرض على فرنسا دفع تعويض حربى قدرة ٧٠٠ مليون فرنك فرنسى، والزامها بقبول ١٥٠ ألف جندى تحت قيادة ولنجتون كقوات احتلال. وكذلك حرمت فرنسا من كل التحف والنفائس التى جمعها نابليون فى حروبة المختلفة مع دول اوربا.

وفى ذلك الوقت بدأ الحلفاء يفكرون من جديد فى اعادة النظر فيمن يلى حكم فرنسا، وعاودتهم فكرة اسناد عرش فرنسا الى نابليون الطفل مع فرض وصاية عليه، لحماية سياسة الغرب، وكذلك فكروا فى وضع احد افراد اسرة اورليان (فرع من فروع اسرة البوربون) على العرش ايضا. ولكن الحلفاء وجدوا ان تغيير نظام الحكم فى فرنسا بهذه السرعة، واسقاط حكم اسرة البوربون الذى لم يمض عليه سوى اسابيع معدودات، يعرّض فرنسا للاضطرابات ورأوا من الحكمة الابقاء عليه مرة ثانية.

---

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ١١٤

وقفت الدول المتحالفة من فرنسا موقفا غير موحد، فبينما كانت انجلترا والروسيا تؤيدان مبدأ احتفاظ فرنسا بحدودها الطبيعية قبل الثورة، كانت بروسيا ترغب فى حرمانها من مقاطعتى الألزاس واللورين وضمهما اليهما. ولكن نجحت كل من الروسيا وانجلترا فى المحافظة على حدود فرنسا كما هى، فيما عدا بعض التعديلات البسيطة التى تناولت بعض الاجزاء.

واذا كان الحفاء قد اختلفوا بشأن الحدود الفرنسية، فقد اتفقوا على ضرورة مقاطعة مبادئ الثورة وارجاع النظام الرجعى القديم الى اوربا كما كان قبل قيام الثورة.

كان لابد من وضع تنظيم جديد لاوربا بعد هذه الحرب الطاحنة التى اجتاحت اوربا مدة ربع قرن من الزمان، فاجتمعوا من قبل فى مؤتمر وستفاليا لنفس الغرض. ولهذا يمكننا اعتبار مؤتمر وستفاليا ومؤتمر ڤيينا خطوات فى تطور القانون الدولى ومبدأ التحكيم الدولى وان كان كلا المؤتمرين قد اشار الى فكرة التحكيم الدولى لفض المنازعات بين الدول بالطرق السلمية، الا أنها لم تجد طريقها الى التنفيذ بشكل منظم الا عند تكوين عصبة الامم عقب الحرب العالمية الاولى.

واجتمع ممثلوا الحلفاء فى مؤتمر ڤيينا لاعادة تنظيم اوربا من جديد وقد سيطرت عليهم نزعات واتجاهات متباينة حاولوا صياغتها فى نصوص تضفى عليها صفة الشرعية، فكان عليهم اولا تحقيق مصالحهم ومطامعهم الخاصة ولو على حساب الشعوب الضعيفة، ومعنى هذا ان الدول الكبرى صاحبة المصالح يجب ان تتجاهل الحركات القومية التى ارتفعت لتنادى بحقها فى الحياة الحرة الكريمة كى تحتفظ بما كان تحت يدها من اراضى وممتلكات. فادعوا بأن لهم حقوقا يجب الحفاظ عليها وان مهمتهم من وراء عقد المؤتمر هى ارجاع الحقوق الشرعية لاصحابها.

والى جانب هذا المبدأ العام الذى نادى به اعضاء المؤتمر مبدأ آخر هو مبدأ التعويض، وهو يقوم على اساس تعويض الدول التى قدمت الكثير من التضحيات فى حروبها مع نابليـون على حساب الدول الصغرى. فالدول المتحالفة لم تدخل الحرب ضد نابليون دون قيد اوشرط، وانما دخلت بناء على اتفاقات فيما بينها، وان هذه الاتفـاقات تناولت تحقـيق بعض المصالح الاقليـمية على حسـاب الدول الصغرى والشعوب الضعيفة[1].

هذا بالاضافة الى تعارض المصالح بين الدول المجتمعة، ومحاولة كل منها ان تخرج من المؤتمر بنصيب الاسد، وان تجعل من الاجتماعيات ميدانا للمحاورة والمداورة للوصل الى اهدافها.

على هدى هذه المبادئ والاهداف حاول المؤتمر أن يتلمس طريقة لايجاد نوع من الاستقرار الاوربى الذى افتقرت اليه اوربا ردحا غير قصير من الزمن فى ضوء معاهدة شومون (٩مارس ١٨١٤) التى وقعتها الدول الاربع الكبرى وهى انجلترا والروسيا وبروسيا والنمسا والتى تعهدت فيها بقيام تحالف فيما بينها مدته عشرون عاما، ويكون الهدف منه اولا توحيد جهودها للقضاء على حكم نابليون ومنعه هو واسرته من العودة لحكم فرنسا مرة أخرى. وثانيها ضمان ماتضعه الدورة من حلول وتسويات للمشكلات الاقليمية لمدة عشرين عاما.

اما بخصوص الهدف الاول فقد نجح الحلفاء فى اسقاط نابليون وارغامة على التنازل عن العرش هو واسرته وفى اعادة اسرة البوربون مرة ثانية لحكم فرنسا. وترتب على ذلك عودة نفوذ الملكية واعوانها من جديد، والقضاء على مكاسب الثورة الفرنسية والرجوع بالحكم الى حالة تشبة ما كان سائدا بفرنسا قبل قيام الثورة. ولكن بالرغم من ذلك فقد عوملت فرنسا – كدولة مهزومة – فى معاهدة باريس الاولى (٣٠ مايو ١٨١٤) بشئ من التسامح المشوب بالعطف، فقد كان فى

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ١١٥.

مقدور الحلفاء أن يحرموها من كل شيء، من ممتلكاتها ومن تجارتها، ومن اسلحتها، ولكنهم لم يذهبوا فى معاملتها الى هذا الحد، بل اعترفوا بحدودها كما كانت عليه فى ١٧٩٢ وليس كما كانت فى ١٧٨٩.

اما عن ممتلكاتها فيما وراء البحار فقد اخذت انجلترا منها جزيرة مالطة. وكذلك جزيرة موريشيوس (وهى قاعدة بحرية هامة فى الطريق المؤدية الى الهند). وتوباجو وسانتالوتشيا، وكان لاسبانيا نصيب من جزيرة سان دومنجو. ومع ذلك فقد احتفظت فرنسا بكل مراكزها التجارية فى الهند.

كذلك اوضحت المعاهدة عن عزم الدول الموقعة عليها فى خلق اتحاد المانى واعادة هولندة الى الوجود، والاعتراف باستقلال سويسرا، والاعتراف باستقلال الولايات الايطالية الخارجة عن نطاق الممتلكات النمساوية.

وعندما اجتمع الحلفاء فى مؤتمر ڤيينا للاتفاق على تسوية المشكلات الاوربية بعد ان تمت تسوية الاوضاع الخاصة بفرنسا، بدأت الخلافات تبدو واضحة جلية، واخذت المطامع الاقليمية تأخذ شكلا خطيرا هددت المؤتمر بالفشل وقسمت اعضاءه كتلتين متنازعتين: فالروسيا وبروسيا فى جانب انجلترا والنمسا فى الجانب الآخر. وفى ذلك الوقت طلبت فرنسا الانضمام الى المؤتمر بعد ان صفت حسابها مع الحلفاء. وكان على هذه الدول ان تفسح لها المجال تثبيتا للحكم الملكى فى فرنسا. وقد وجد ممثل فرنسا فى المؤتمر «تاليران» الفرصة سانحة لاستغلال هذا الانقسام لمصلحة فرنسا. وكان الخلاف يدور بين الفريقين حول رغبة بروسيا فى ضم كل مقاطعة سكسونيا اليها وتؤيدها فى ذلك الروسيا فى مقابل تأييد بروسيا لها فى ضم جزء كبير من بولندا اليها. وقد عارضت النمسا معارضة قوية فى ذلك ورأت فى حصول بروسيا على سكسونيا تهديدا خطيرا لحدودها. كما ان توسع الروسيا على حساب بولندا يشكل خطرا عليها من ناحية ثانية. وقد ايدتها انجلترا

وفرنسا وتطور الخلاف بشكل ادى الى عقد تحالف سرى بين كل من النمسا وانجلترا وفرنسا للوقوف ضد اطماع الدولتين، الروسيا وبروسيا ولو ادى ذلك الى استخدام القوة.

وما ان وصل الى علم الدولتين نبأ هذه المحالفة الا واخذت كل منهما تقلل من غلوائها وتتنازل عن بعض مطالبها للالقتاء مع وجهة نظر الاخرين خصوصا عندما علمتا بعزم الدول الثلاث انجلترا والنمسا وفرنسا على استخدام القوة اذا لزم الامر.

وبينما الدول المتحالفة مشغولة فى ايجاد تسوية لاوربا واذا بها تفاجأ بهرب نابليون وبفرار الملكية وبترحيب الشعب الفرنسى المنقطع النظير له، وبوصوله الى باريس دون اراقة دماء، ومن باريس اعلن نابليون عن عزمه فى حكم فرنسا حكما دستوريا وفى اقامة علاقة سلام ومحبة مع جميع الدول. ولكن هذه المغامرة الفريدة من نوعها لم تعمر اكثر من مائة يوم، رمى فيها نابليون بأخر سهم فى جعبته وطاش هذا السهم وهزم فى موقعة ووترلو فى سنة ١٨١٥ التى وضعت حدا لتاريخ نابليون، بل لتاريخ اوربا لمدة تقرب مع ربع قرن من الزمان.

واذا كان لهذه المغامرة من نتيجة، فلا تعدو ان تكون تلك الشروط القاسية التى فرضت على فرنسا بمقتضى معاهدة باريس الثانية التى اضاعت ما بذلة تاليران من جهود لكسب افضل الشروط لبلاده. وقد ارغمت هذه المحاولة الحلفاء على اعادة النظر فى كل ما منح لفرنسا من قبل. ففرض عليها اعادة حدودها الى ما كانت عليه فى ١٧٩٠ وحرمانها من بعض المواقع الاستراتيجية الهامة. بل انها كادت تفقد مقاطعتى الالزاس واللورين لولا معارضة انجلترا. لذلك فرض عليها غرامة حربية كبيرة وارغمت على رد ما سبق ان سلبته من متاحف اوربا من كنوز اثرية ذات قيمة علمية وأثرية كبيرة.

وفى ٩ يونيو ١٨١٥ وقبل حدوث موقعة ووترلو بأيام وقعت معاهدة فيينا

(وهذا يدلنا على مدى وثوق الحلفاء بانفسهم وتأكدهم ان نابليون انما يحارب محاربة اليائس. وانه لو قدر له الانتصار فى هذه المعركة فلن يغير هذا من النتيجة النهائية للحرب) وهى تتكون من عدة اقسام رئيسية، أولى تلك الاقسام ما يتعلق بمبدأ ارجاع الحقوق الشرعية لاصحابها، اى ارجاع حالة الدول الاوربية الى ما كانت عليه قبل قيام الثورة الفرنسية وحروب نابليون. أى بمعنى آخر تحقيق مبدأ التوازن الدولى الذى كان موجودا فى ذلك الوقت. وقد تطلب تحقيق هذا المبدأ عوضت بعض الدول عن بعض المناطق التى فقدتها مناطق اخرى ليظل التوازن الدولى معمولا به. كانت هذه هى القاعدة المرعية اذا ما أستثنينا الروسيا التى خرجت بنصيب الاسد نظراً لما، كانت تحتفظ به من جيش كبير العدد بلغ المليون جندى. ولذا اضطرت كل من انجلترا والنمسا مرغمتين على منح ولاية وارسو - بعد تنازل بروسيا عنها - الى الروسيا رغم كبر مساحة هذه الولاية، مما سيتيح للروسيا التفوق فى اوربا، وما يستتبع ذلك من اخلال بالتوازن الدولى فى نظر كل من انجلترا والنمسا.

اما فيما يتعلق بمطالب بروسيا فى ضم اقليم سكسونيا بأكمله اليها فى مقابل تنازلها للروسيا عن بولندة (ولاية وارسو)، فقد عارضت النمسا وانجلترا فى منحها اياها كاملة حتى لايتضخم حجم بروسيا فيخل ذلك بالتوازن الدولى. فاضطرت بروسيا فى نهاية الامر الى قبول ضم نصف سكسونيا ومقاطعة الراين الالمانية وبذلك أصبحت مساحتها اكبر مما كانت عليه فى ١٨٠٥ وهو التاريخ الذى حدد لارجاع حدود كل دولة الى ما كانت عليه حينذاك.

اما بخصوص الولايات الالمانية التى اجتاحتها قوات نابليون واقامت فيها نوعا من الوحدة فقد تمت تسوية اوضاعها السياسية طبقا لمشيئة الدولتين الالمانيتين الكبيرتين النمسا وبروسيا اللتين كانتا تتنافسان حول زعامة هذه الولايات. وقد نجحت النمسا

فى الجولة الاولى واستطاعت ان تشكل الولايات الالمانية تبعا لاهوائها، وذلك للحد من سلطة بروسيا، فاقامت النمسا ولاية بافاريا كدولة قوية تعتمد على ولائها فى مقاومة النفوذ البروسى فى الولايات الالمانية.

كذلك تمكنت النمسا من اقامة اتحاد للولايات الالمانية التسع والثلاثين تحت زعامتها بصفتها الدولة الالمانية الكبرى. ورغم ان تسوية المسألة الالمانية قد تمت بما لايتفق ورغبات الولايات الالمانية، الا أنها لم تكن مجحفة بحقوق الالمان، مثلما حدث فى المسألة الايطالية[1].

واذا انتقلنا الى الولايات الايطالية التى كانت تشبة فى وضعها السياسى الولايات الالمانية الى حد بعيد، نجد ان نظرة الدول الاوربية اليها وعلى رأسها النمسا قد اختلفت عن نظرتهم للولايات الالمانية. فقد اهملت المطالب القومية للولايات الايطالية اهمالا شديدا فيه مساس بكرامة الايطاليين. وتم هذا بفضل سياسة مترنيخ الرجعية الاستبدادية ومؤازرة الدول الاوربية له. فايطاليا لم تكن فى نظر مترنيخ سوى تعبير جغرافى ومنطقة نفـــوذ لبلاده. ولذا فقـــد شكل ايطاليا طبقا لاهوائة ووفق ميولة الاستبدادية الرجعية. فقد اعاد مملكة نابولى الى ماكانت عليه من قبل مع وضع احد افراد اسرة البربون الفرنسية ملكا عليهـــا. وفى نفس الوقـــت عقـــد معه معاهدة سرية تمنعة (ملك نابولى) من منح بلاده حكما دستوريا الا بعـــد موافقة النمسا. ولم تكن الاخيرة ترضى بأى حال من الاحوال ان يجد النظام الدستورى طريقة الى ايطاليا حتى لاتنتقل عدواه الى الولايات الايطالية التابعة لحكمها.

كذلك استطاعت النمسا استرجاع لومبارديا واحتلال ولاية البندقية وبذلك تمكنت من استعادة نفوذها فى ايطاليا والضغط على الولايات الايطالية الاخرى لاتباع سياسـة تتفق مع رغبـاتها ومصالحهـا. كذلك اسـترد البابا ممتلكاته

---

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ٢٠.

(الولايات البابوية). كما ضمت بيد مونت اليها مدينة جنوا.

اما القسم الثانى من تسوية ڤيينا فهو الخاص باحاطة فرنسا بدول قوية تمنعها من الاعتداء على غيرها. ولما كانت كل من هولندة وبلجيكا تقع على حدود فرنسا الشمالية ولاتستطيع بمفردها ان تقاوم التوسع الفرنسى، فقد رؤى ادماج الدولتين فى بعضهما لكتون دولة واحدة قوية على حدود فرنسا، رغم كره البلجيكيين الشديد لجيرانهم الهولنديين. ولهذا ولدت هذه الدولة الجديدة ضعيفة، ولم تحقق الهدف الذى وجدت من اجله وسرعان ما أنفصم هذا الاتحاد بعد خمسة عشر عاما من قيامه.

كذلك اعترفت الدول الاوربية باستقلال سويسرا وضمان حدودها، واستعادت كل من اسبانيا والبرتغال ما كان لها من حدود قبل الغزو النابليونى. كما كوفئت السويد على انضمامها الى جانب الحلفاء فى الحرب ضد نابليون بمنحها النرويج التى كانت تابعة للدنمرك.

ومن التسويات الهامة التى تمت بمقتضى هذه المعاهدة وضع تنظيم دولى لاستغلال الانهار الدولية حتى لايؤدى تضارب المصالح بين بعض الدول حول الاستفادة من هذه الانهار الى قيام نزاع دولى قد يؤدى الى نشوب حرب.

كذلك اعلنت الدول الموقعة على المعاهدة استنكارها لتجارة الرقيق بصفتها تجارة غير مشروعة ولاتتفق مع ابسط القواعد الانسانية. وكان لهذا الاستنكار صداه فى تحريم ممارسة هذه التجارة فى المستعمرات الخاضعة لحكم كل من اسبانيا وفرنسا والسويد وهولنده.

واذا القينا نظرة على تلك المعاهدة نجد أنه رغم ما وجه اليها من نقد وتجريح فقد استطاعت تلك التسوية ان توجد السلام فى اوربا لفترات استمرت قرابة الاربعين عاما اى الى نشوب حرب القرم. فلم يكن فى الامكان احسن مما كان فى مثل الظروف الدولية التى احاطت توقيع تلك المعاهدة، إذ وجدت صناعية غير

منبثقة من رغبة الشعوب، مثل الوحدة بين هولندة وبلجيكا، والوحدة بين السويد والنرويج كان الدوافع اليها اقامة دول قوية للاحاطة بفرنسا هو الشغل الشاغل للدول المجتمعة في المؤتمر دون نظر لرغبات الشعوب، فمسألة الامن والسلم الاوربى قد حجبت ما عداها من المسائل الاخرى.

واذا كانت التسوية قد ضحت بمصالح الشعوب الصغيرة ارضاءاً للدول الكبيرة، فلم يكن هذا العمل يجافى روح العصر الذى سيطرت فيه النزعة الاستبدادية الرجعية كرد فعل للمبادئ التحررية التى نادت بها الثورة الفرنسية. كما ان التضحية بمصالح الشعوب الصغيرة لاتختص به هذه التسوية دون غيرها من التسويات التى تمت طوال العصور التاريخية الحديثة.

وقد تضمنت معاهدة باريس التى وقعتها الدول الاربع الكبرى وهى انجلترا والروسيا والنمسا وبروسيا المحافظة على ماجاء بمعاهدات شومون وفيينا وباريس لمدة عشرين عاما ولو بحد السيف. على ان تجتمع هذه الدول فى فترات محدودة لبحث الموضوعات ذات الاهمية المشتركة لايجاد الحلول المرضية لها. وقد اختلفت وجهة نظر كل من انجلترا والنمسا فى تفسيرها لهذه المعاهدة. فالنمسا رأت ضرورة اجتماع ممثلى الدول الاربع فى مؤتمرات دورية لحماية الحدود الاقليمية التى اشارت إليها اتفاقية فيينا لمدة عشرين عاما، بما فى ذلك التدخل المسلح لقمع ايه ثورة تنشأ فى احدى الدول الاوربية. بينما ذهبت انجلترا فى تفسيرها لهذا البند مذهبا آخر، فهى ترى ضرورة عقد المؤتمرات الدورية لحفظ الحدود الاقليمية دون تدخل من قبلها فى الشئون الداخلية لاية دولة، فالثورات طالما كانت لاتهدد السلام الاوربى فهى مسألة داخلية لايجب على انجلترا أن تزج بنفسها فيها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فحياة انجلترا الدستورية قامت على ثورة، ومن حق كل شعب ان يثور وأن يطالب بنوع الحكم الذى يرتضية دون تدخل من قبل دولة أخرى.

ونتجة لهذا الاختلاف فى الرأى وفى النظرة الى الأمور ازدادت هوة الخلاف

بين الدولتين مما ادى الى فشل هذه المؤتمرات فى نهاية الأمر.

وفى ٢٦ سبتمبر ١٨١٥ أعلن التحالف المقدس بين الملوك ووقعه جميع ملوك اوربا فيما عدا الوصى على عرش انجلترا. وهذا التحالف الذى نادى به اسكندرقيصر الروسيا والذى كان يهدف من ورائه الى ايجاد اتحاد مسيحى من ملوك اوربا يقوم على تعاليم المسيح فى ان يعامل كل ملك اخاه بالبر والمحبة والسلام.

وقد اثير حول هذا التحالف ضجة مفتعلة وبولغ فى اهميته وخطره. وذهب البعض الى حد وصفه بأنه اتحاد الملوك المستبدين الطغاة ضد حركات التحرر، وبأنه عائق فى طريق الحرية. ولم يكن لهذا التحالف فى حقيقة الامر أثر يذكر على سير الامور فى أوربا. فالنمسا لم تكن مؤمنة به ودائمة السخرية منه، وكذلك انجلترا لم تعترف بوجوده، لم يكن له نصير سوى قيصر روسيا وحده. هذا بالاضافة الى ان هذا التحالف قام على أسس ومبادئ انسانية عامة هى اقرب الى الوعظ والارشاد منها الى المبادئ السياسية.

وان كانت الدول الاربع المتحالفة قد اختلفت فى تفسيرها لبعض النقاط الا أنها قد اتفقت جميعا فى نظرتها الى فرنسا، فقد اتحدت كلمتهم فى ضرورة وفاء فرنسا بما عليها من التزامات طبقا للمعاهدات. وعندما اجتمعوا فى اكس لاشابل Aix-la-Chapelle ١٨١٨ استقر رأيهم على ضرورة سحب قوات الاحتلال من فرنسا بعد ان أثبتت حسن نيتها، وبعد ان ادت ماعليها من ديون، وطالبوا بانضامها اليهم فتكون الحليف الخامس، دون ان يتعارض وجودة مع وجود الحلف الرباعى الاصلى، وظل كل منهما يمارس نشاطه فى وقت واحد[١].

وفى عام ١٨٢٠ قامت ثورة عسكرية فى اسبانيا ضد ملكها المستبد مطالبة بعودة دستور ١٨١٢ ونجحت الثورة فى ارغام الملك على الاستجابة الى مطالبها،

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) وعبد المجيد نعنعى (دكتور) : التاريخ المعاصر – أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، ص ١٥٧.

[illegible]

بضرورة التدخل العسكرى لقمع الثورات أينما كانت واعلان الدول الثلاث عدم اعترافهم بشرعية ابو بحق اى شعب فى المطالبة بتحديد سلطة الملك. وبمقتضى تلك القرارات استطاعت النمسا ان ترسل بقواتها الى ايطاليا، وان تخمد الثورة فى كل من نابولى وبيد مونت، وان تلغى الدستور وان تعيد ملكيتها من جديد.

وامام هذا الاجراء العنيف اعلنت الحكومة الانجليزية استنكارها لما حدث وعدم اعترافها به وتنصلها من تبعاته وتمسكها بما سبق ان أعلنته من قبل.

وفى سنة ١٨٢١ قام اليونانيون بالثورة ضد الحكم العثمانى وطالبوا باستقلالهم عن الدولة العثمانية، وقد نظر مترنيخ الى هذه الثورة على أنها تهديد للحكم الملكى ايا كان نوعه بصرف النظر عما اذا كان الملك فى هذه الحالة السلطان العثمانى المسلم. فليس هنام فارق بين الملك المسلم والملك المسيحى فالثورات تهدد كليهما على السواء. وكان من رأية ان يقوم بعمل من شأنه تأييد موقف السلطان العثمانى ليحول بذلك دون تدخل الروسيا ضد الدولة العثمانية لنصرة اليونانيين، فاتفق مع كاسلرية على دعوة مؤتمر للنظر فى هذه المشكلة فى خريف عام ١٨٢٢.

وقبل موعد عقد المؤتمرات ازداد خطر الثورة فى اسبانيا، وفى نفس الوقت انتحر كاسلريه وخلفه فى منصبه كاننج الذى كان يختلف عن سلفة فى عدم ايمانه بالمؤتمرات وبجدوى حضور هذه المؤتمرات. فاذا كان كاسلريه يرى الاشتراك فى عقد المؤتمرات ابقاء على التضامن الرباعى بين الدول دون التورط فى قبول قرارات هذه المؤتمرات التى لاتتفق مع وجهة نظر انجلترا، نجد كاننج لا يؤمن بالمؤتمرات ويعمل على مقاطعتها، والقضاء عليها فى نهاية الامر.

وعندما انعقد مؤتمر فيرونا للنظر فى المشكلة الاسبانية اعلنت انجلترا بأنها لاتقبل مبدأ التدخل بالقوة بأى حال من الاحوال وتحت اى ظروف. وأمام هذه الاصرار فشل اعضاء المؤتمر فى ان يتدخلوا ككل لاخماد الثورة الاسبانية. ولكن فرنسا تدخلت بمفردها وعلى مسئوليتها الخاصة لقمع الثورة. وقد اغمضت انجلترا

عينيها عن هذا التدخل المنفرد ونجحت فرنسا فى القضاء على الثورة وفى اعادة ملك اسبانيا الى عرشة مرة اخرى.

ولم يقاطع كاننج هذا المؤتمر فحسب، بل قاطع كل المؤتمرات التى عقدت بعد ذلك مثل مؤتمر ديسمبر ١٨٢٣ الذى عقدة ملك اسبانيا للنظـر فى امر المستعمرات الاسبانية فى العالم الجـديد. وكذلك المؤتمر الـذى عقـدة فى ١٨٢٤ للنظر فى المسألة اليونانية التركية. وقد ادى عدم اشتراك انجلترا فيهما الى فشـلهما.

واذا كانت المؤتمرات فشلت فى اداء مهمتها فى اقامة الحكومة الدولية.، فذلك يرجع الى تمادى بعض الدول فى توسيع اختصاصات تلك المؤتمرات، وعلى رأس تلك الدول الروسيا والنمسا وبروسيا، وقد برر كاننج عدم اشتراكه فى المؤتمرات باسباب ثلاثة:

**السبب الأول :**

هو ان الشعب الانجليزى الذى بنى حياته الدستورية على اساس الثورة لاينظر بعين الارتياح الى جلوس المندوب الانجليزى الى جانب مندوبى الدول الاستبدادية لعقد الاتفاقات السرية. واذا كانت انجلترا ستتمسك برأيها وبوجهة نظرها ففى هذه الحالة لن تستطيع التغلب على اصوات الدول الاستبدادية العديدة.

**ثانيـــــــا :**

ان نظام المؤتمرات على النحو الذى سار فيه، قد فرض القوة كوسيلة مشروعة للقضاء على الثورات الداخلية والتى تعتبر من الشئون الداخلية لكل دولة ولايجوز التدخل فيهـا. وان مبدأ التدخل هذا لاتقرة الحكومة الانجليزية ويأباه الشعب الانجليزى.

ثالثـــــــا :

ان هذه المؤتمرات لاتمثل الا الدول الكبرى فحسب، ومن الضرورى ان تشمل المؤتمرات الدول الكبرى والصغرى على حد سواء. فاهمال تمثيل الدول الصغرى فيه جعل مصالحها عرضة لضياع ولتسلط الدول الكبرى عليها.

وعلى اى حال اذا كانت انجلترا قد هدمت قوة نابليون، فلم تحاول بعد ذلك الانتقام من فرنسا، بل عاملتها معاملة انسانية واصبحت العداوة التقليدية بعد ذلك ليس لها وجود. فحروب نابليون تعتبر آخر حروب بين فرنسا وانجلترا نتيجة لروح التسامح التى أبدتها انجلترا فى مؤتمر فيينا وبعد مؤتمر فيينا فحمت فرنسا من انتقام الدول الاوربية مثل بروسيا والنمسا. ففرنسا بعد استتباب الامن اصبحت عضوا فى التحالف السلمى الاوربى.

وكان يدير سياسة اوربا فى ذلك الوقت الوزير الانجليزى كاسلريه وزير الخارجية وهو شخصية قوية وله مركز قوى فى الوزارة الانجليزية وله اتصالات بملوك اوربا وساستها. واتبع فى سياسته الخطوات التى رسمها بت، فاخذ يحقق ما ترمى اليه انجلترا من اغراض سياسية. ثم صلته بولنجتون اكبر شخصية فى أوربا بعد سقوط نابليون وكذلك صلته برئيس الوزارة. ولذلك لم يستطيع احد فى الوزارة معارضة هذه السياسة، بل أن كاسلريه اعتمد على صلاته الشخصية بملوك أوربا، لاسيما ان معاهدة التحالف طالبت الدول المتحالفة بعقد اجتماعات دورية يمثل الدول فيها ملوكها أو وزراؤها للمناقشة فى المصالح المشتركة والسلام فى أوربا.

ولقد وجدنا ان مؤتمر فيينا ميزبين الدول الكبرى والصغرى بدرجة كانت مؤلمة لكرامة الدول الصغرى. ولم تهتم الدول الكبرى بفكرة القومية، وكانت تختلف عنهم انجلترا فى هذا الموضوع، فاذا وجدت انجلترا ان المبادئ الثورية أصبح لها الصفة الدستورية، ولم يكن لها صفة يعقوبية (ارهابية) أو حربية، فانها لاتعارضها. كما كانت انجلترا ترى فى الدول الصغرى ضعفا وفوضى بعرضاتها للانقلابات

الثورية، ولذلك فهى لاتعطف عليها كثيرا. وكذلك انجلترا لم تكن ترضى عن مساعدة الدول الكبرى والملوك المستبدين ضد هذه الحركات الثورية، ولذا لم توافق على التدخل المطلق فى شئون الدول الصغرى. فكاسلريه لم يتدخل فى صالح الدول الصغرى، وكذلك لم يؤيد الملوك الاتوقراطيين كما حدث فى موقف انجلترا ازاء الاسكندر قيصر الروسيا فى التحالف المقدس، فلم يكن موقفها هذا مشجعا للقيصر. ولكن رغم ذلك اشتركت فى التحالف مجاملة له ولو أنها لم توقعه لوجود وصى على العرش[1].

اشتركت انجلترا اذن فى المؤتمرات التى عقدت فى ذلك الوقت واعطت ولنجتون حق الاشراف على جيوش الاحتلال بفرنسا. ورأى ولنجتون ان تسحب انجلترا الجيوش من فرنسا لان هذه الجيوش تسبب ذكرى اليمة للاسرة البربونية (١٨١٥- ١٨٣٠) وتوافق دول اوربا على النظر فى الموضوع المقترح.

واذا نظرنا الى مدى تطبيق مبادئ السياسة الانجليزية بعد سقوط نابليون، نجد ان كاسلريه سار عليها فاشترك مع الدول الاوربية لاسقاط نابليون، ثم تحالف مع الدول الاخرى لعدم الاخلال بالامن والوقوف اما فرنسا، ولكن انجلترا فى نفس الوقت عاملت فرنسا معاملة حسنة وساعدت اسرة البربون فى الوصول الى الحكم للعمل على اقرار الاوضاع فى فرنسا، ثم احاطت فرنسا بدول قوية، فضمت هولندا الى مملكة الاراض المنخفضة، كما قوت بيد مونت ثم تحالفت مع الدول ضد فرنسا الى حين، ولما أطمأنت الى حالة فرنسا الداخلية طلبت من الدول سحب قواتها منها، وكذلك منعت الدول الاخرى من اقتطاع اجزاء منها، فقد كانت بروسيا تريد ضم الالزاس واللورين فرفضت هذا الطلب، لأن هذا الضم يجعل من بروسيا دولة قوية تهدد السلام الاوربى. كذلك وقفت انجلترا موقفاً حاسماً تجاه الروسيا، اذا

---

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ١١٨.

شجعت الروسيا دولة بروسيا فى مطالبها بخصوص الالزاس واللورين، وذلك كى تتمكن الروسيا من التفرغ لبولندا. ولكن انجلترا استطاعت اقناع الدولتين بالعدول عن هذا المطلب. فشخصية كاسلريه اذن كانت شخصية قوية فرضت سلطانها على غيرها، وذلك بالاضافة الى صلة ولنجتون بملوك ووزراء أوربا.

وكان كاسلريه (١٨١٢ - ١٨٢٢) من المحافظين يكره الثورات، ولكن انجلترا فى نفس الوقت لاتستطيع ان توافق مع الدول الاوربية على التدخل فى كل ثورة اوربية، لان انجلترا تقوم حياتها الحديثة على ثورة ١٦٨٨ فلا تريد حرمان الشعوب مما تتمتع به. هذا بالاضافة الى مشاغل انجلترا العديدة، وعدم تفرغها لهذه الثورات. ومن جهة ثالثة فاذا تمخضت هذه الثورات عن دساتير ديمقراطية فلا بد من الاعتراف بها، وفى نفس الوقت لاتستطيع تأييد الملوك المستبدين. فبعد مؤتمر فيينا تشترك انجلترا مع الدول الثلاث الكبرى للعمل على صيانة السلام كما انها كانت صاحبة الاقتراح الخاص بسحب جيوش الاحتلال من فرنسا. اى ان فرنسا لم تعد خطرا على السلام الاوربى بل يجب ان تشترك فى المؤتمرات التى تدعو للسلام وكذلك تقترح انجلترا اشتراك فرنسا فى المناقشات العامة. وكان الرأى العام الانجليزى يخشى من اشتراك فرنسا فى هذه المؤتمرات حتى لا يؤدى هذا الى ان تتعاون انجلترا مع الدول المستبدة ضد رعاياها لأن نجاح هذه الثورات او فشلها لايمس مصالح انجلترا فى شئ.

ثم ان تدخل انجلترا فى شئون الدول الصغرى، قد لاتجنى منه انجلترا سوى كره هذه الدول التى ترفض ان تقوم الدول الكبرى بحل مشاكلها، كذلك ترفض انجلترا اقتراح الاسكندر قيصر الروسيا الذى يرمى الى تكوين عصبة عامة تضمن عروش الملوك واراضيهم، فيرفض كاسلريه هذه الفكرة لانها فكرة غير عملية وذلك لان الارستقراطية الانجليزية كانت لاترضى ان يسيطر الملوك المستبدون على ممالكهم.

ثم من ناحية ثانية ان انجلترا غير مستعدة فى كل وقت لقمع الثورات، وكانت تعتبر ان الملوك المستبدين ملوك ضعاف لايجب مساعدتهم ضد الاهالى. فلايمكن لانجلترا ان تضمن ولايات البابا مثلا. كما نجدها لاتتدخل فى الثورة الاسبانية التى قامت ضد مليكها فرديناند السابع، وذلك لان انجلترا لاترى فى هذه الثورة ما يسبب حربا عالمية، هذا بالاضافة الى ان انجلترا لوقامت بمساعدتها فربما ادى انتصار الثوار الى تغيير سياستهم مع انجلترا. وهذا فضلا عن ان الشعب الانجليزى كان ضد فرديناند. فينسحب كاسلريه من التحالف الدولى وقد شجع هذا الانسحاب ثورة البرتغال التى لم تؤيدها انجلترا لافعليا ولارسميا. فقيام هذه الثورة جعل الاسكندر قيصر الروسيا يرى فيها فرصة لاجتماع الملوك ووجد كاسلريه نفسه محتاجا امام الرأى العام الانجليزى ان يصرح بأن الثورات فى اسبانيا ونابولى ما هى الا ثورات محلية. مع انه فى قراره نفسه كان يود القضاء عليها. وفى نفس الوقت لم يقف فى وجه المؤتمرات بل كان يرسل مندوبا عنه ليعلن انه لايقبل مبدأ التدخل العام فى أمور الدول لأنه يحد من النشاط القومى وضد التحالف الدولى العام، فلا تريد انجلترا ان تكون كالبوليس فى اوربا. ورأت ان سياستها لاتتفق مع سياسة الدول الاوربية، الا ان كاسلريه ظل محافظا على علاقاته بها. فعقد مؤتمر ليباخ (١٨٢٠ – ١٨٢١) وكانت الدول تعرف ان كاسلريه يعمل على القضاء على الثورة.

ثم يعقد مؤتمر فيرونا ١٨٢٢ للبحث فى الثورة الاسبانية التى اندلعت فى عام ١٨٢٠ الا أن كاسلريه ينتحر قبل انعقاد المؤتمر، فيحل محلة كاننج وكانت شخصيته قوية الا انه لم يكن له اتصالات شخصية مع ساسة اوربا، فيفضل سياسة الاعتزال، فيشكك فى المؤتمرات ويرى عدم تدخل الدول فى شئون الدول الاخرى، ويهتم مصالح انجلترا الاقتصادية وبالاخص موضوع المستعمرات الاسبانية فهو يخشى تدخل الجيوش الانجليزية فى اسبانيا حتى تستغل فرنسا هذا العمل فى احتلال يغض الاراضى الاسبانية، ولكنه بعض النظر عن فرنسا عندما قامت باحتلال جزء من اسبانيا لاخضاع الثورات بها، الا أنه يسمح لفرنسا ان

تخمد الثورات فى مستعمرات اسبانيا. فرأى كاننج أن ينصح اسبانيا بتعديل دستورها على شرط الا يكون ضد مصالح الانجليز، ولم يبد كاننج تأييدا من المملكة الا أنه يعلن ان انجلترا لا توافق على تدخل الدول فى شئون المستعمرات الاسبانية، وذلك لزيادة الصلة التجارية بينها وبين انجلترا ايام حروب نابليون. وكان كاننج يرى احراج الاحزاب فى اسبانيا باعتراف انجلترا باستقلال المستعمرات ولكنه لم يترك مجالا للشك فى انه لن يساعد ملك اسبانيا المستبد على استرجاع هذه المستعمرات.

وفى ١٨٢٣ يعلن منرو مبدأه الذى يسمى باسمه، وهو ينص على ان أى تدخل فى شئون الولايات المتحدة او الاعتداء عليها يعتبر عملا عدائيا وأنها لو كانت تخشى قوة الاسطول الانجليزى لما أعلنت امريكا هذا المبدأ فانجلترا كانت تحبذ هذه الخطوة من جانب الولايات المتحدة، وكانت على استعداد لان تحارب كل دولة تعمل على نقضة.

وكان اعلان مبدأ منرو فاصلا فى امريكا الجنوبية، وقد اعلن كاننج استقلالها كى تتفق مع اسبانيا وتعلن النظام الملكى الا ان احلامة ذهبت سدى، فلم تتفق مع اسبانيا وتعلن النظام الملكى بل أعلنت النظام الجمهورى، وفى ١٨٢٥ اعترفت انجلترا باستقلال هذه الولايات.

وفى مسألة الثورة اليونانية كانت انجلترا تهتم بعلاقاتها الودية مع الروسيا، ولكن ازدياد مصالح انجلترا فى الهند وتقدم النفوذ الروسى فى الولايات البلقانية جعلت انجلترا تخشى الروسيا. وفى نفس الوقت فالثورة اليونانية ثورة مسلحة، وقد عمل الباب العالى على اخمادها وساعده فى ذلك محمد على. وكانت بعض الدول الأوربية تنادى بحماية الحق الشرعى لاصحابه. ومن هذه الدول النمسا فالنمسا لم تكن تفرق بين الملك المسلم والملك المسيحى فهى تقف الى جانب السلطان العثمانى ضد رعاياه اليونانيين المسيحيين لأنه صاحب الحق الشرعى فى بلاد اليونان.

اما الروسيا فكانت تعطف على الشعب اليونانى لما فى ذلك من اضعاف لتركيا، ولذلك تتدخل الى جانب الثورات فتقوم الثورات فى المناطق اليونانية القريبة من الحدود الروسية، اما انجلترا فكانت تخشى ان تتدخل الروسيا وحدها فيكون لها النفوذ فى الدولة الجديدة التى ستنفصل عن الدولة العثمانية ولذلك تتدخل ويعترف كاسلريه بالثوار اليونان كمحاربين فى مارس ١٨٢٢ فيرى اذن التدخل الى جانب الثوار اليونانيين لان الرأى العام الانجليزى يعطف على اليونان.

وجاء بعده كاننج Canning (١٧٧٠ – ١٨٢٧) وكان يؤثر سياسة العزلة وعدم التدخل فى مشاكل القارة الاوربية الا ان الشعب الانجليزى يدفعه الى التدخل لمساعدة اليونانيين. وترجع مساعدة الانجليز لليونانيين اولا الى فكرة مساعدة مسيحيين ضد ملك مسلم. فالدولة العثمانية ليست دولة اوربية. وفى نفس الوقت تسيطر على اجزاء اوربية واسيوية وافريقية، وتهيمن على المسالك التجارية فى العالم وهى فى الوقت ذاته دولة اسلامية ولهذا نجد ان الدول الاوربية كانت تنظر اليها نظرة خاصة[1]. ومن الطبيعى ان انجلترا التى لم تكن تعطف على الدولة العثمانية تجد نفسها مضطرة الى ان تقف الى جانبها حماية لها من اطماع الروسيا، فتتأثر انجلترا بسياسة الروسيا ازاء تركيا فالروسيا تحاول جاهدة الاستيلاء على المضايق ولكن انجلترا لا توافق على ذلك مطلقا، لان الدولة العثمانية فى وجودها فى هذه الجهات تعتبر خطرا على مصالحها، بل يمكنها ان تستغل ضعف السلطات لزيادة نفوذها. اما اذا حل القيصر القوى محل السلطان العثمانى الضعيف فسوف تتعرض المصالح الانجليزية فى الشرق لاعظم الاخطار. واذا كانت انجلترا تعمل على المحافظة على املاك الدولة العثمانية فكيف تساعد الثوار على الانفصال؟

الجواب على هذا السؤال هو ان تدخل الروسيا فى البلقان حتم على انجلترا

(١) فيشر، هـ. أ. ل. : تاريخ أوربا فى العصر الحديث، ص ١٢٣.

التدخل حتى لاتنفرد الروسيا بهذا الميدان فتعرض مصالحها فى الشرق للخطر.

وسياسة فرنسا لاتختلف عن سياسة انجلترا وهى المحافظة على بقاء الدولة العثمانية، فهى لاتستطيع ان تطمئن الى سيطرة الروس على تلك المنطقة لوجود مصالح لها ثقافية واقتصادية فهى تريد ان يكون لها المركز السامى فى شرق البحر المتوسط. ثم هناك العامل الثانى المهم الذى دعا الى التعاون بين انجلترا وفرنسا الا وهو نابليون الثالث، الذى وجد من مصلحته ومصلحة عائلته مصادقة بريطانيا، لان العداء بين انجلترا وفرنسا ذهب بالعرش النابليونى.

ومن الناحية الاقتصادية نجد ان فرنسا سوقا جيدة للبضائع الانجليزية. وكذلك فرنسا كانت محتاجة لهذا التعاون الاقتصادى مع انجلترا ثم بعد ذلك مصالح العائلتين الحاكمتين فى كل من فرنسا وانجلترا كانت تقتضى التعاون، بالرغم من ان الملكة فيكتوريا كانت تشك فى هذه الاسرة فى أول الامر الا انه بعد مضى فترة قصيرة توطدت أسس الصداقة بينهما. ثم ان هناك وجهة نظر مشتركة حيال الدولة العثمانية وهى المحافظة عليها ومنع الروسيا من السيطرة على شرق البحر المتوسط.

ومن الناحية الاخرى كانت كل من الدولتين الغربيتين تشكان فى الدولة الروسية، فكان قيصر الروسيا نيقولا مكروها منهما لميولة الاستبدادية. هذا بالاضافة الى أن الروسيا كانت من اكبر اعداء نابليون الاول، فلابد أن ينظر اليها نابليون الثالث بكراهية، كذلك نجد أن نابليون الثالث كان يسعى الى تغيير نصوص معاهدة فيينا التى تضر بمصالح فرنسا، ولكن قيصر الروسيا كان يصر على التمسك بها تمسكا حرفيا، فاذا ارادت فرنسا تغيير تلك المعاهدة فكان عليها ان تصطدم بالروسيا. هذا بالاضافة الى العداء بين نيقولا قيصر الروسيا وبين نابليون الثالث نتيجة لان القيصر الروسى لم يخاطب نابليون الثالث بعد توليه عرش فرنسا بلقب أخ. وكان ذلك شائعا بين ملوك فرنسا. وكان هذا جارحا لكرامة نابليون الثالث. اى ان القيصر

الروسى لايعترف بالعائلة النابليونية كعائلة حاكمة.

اذن كان يهم نابليون الثالث التعاون مع انجلترا وخصوصا ضد الدولة الروسية لكى تعود لفرنسا كرامتها، ولكنه لم يستطع تغيير نصوص معاهدة فيينا. كما كانت تهمه مصالح فرنسا التقليدية فى الشرق، من مصالح سياسية وتاريخية وثقافية. فنجد ان فرنسا كانت من اولى الدول التى حصلت من الدولة العثمانية على امتيازات فى سنة ١٥٣٥ تخول لها حق حماية الرعايا الكاثوليك فى الدولة العثمانية اى ان فرنسا كانت من الناحية الدينية حامية الديانة الكاثوليكية فى الشرق الادنى[1].

والروسيا عندما وجدت انه ليس من السهل عليها القضاء على الدولة العثمانية حاولت ان تأخذ امتيازات منها وان تفرض حمايتها عليها. وعرفنا ان الدولة الروسية حاولت ان تفرض شبه حماية على الدولة العثمانية فى معاهدة «هنكار اسكلة سى» فى ١٨٣٣[2]، ولكن تدخل الدول الاوربية لم يجعل لهذه المعاهدة اية قيمة، فلجأ القيصر نيقولا الى حل آخر الا وهو تقسيم املاك الدولة العثمانية، وعرض هذه الفكرة على انجلترا، فلم توافق عليها حتى لاتتيح لروسيا فرصة الوصول الى البحر المتوسط على حساب ضعف الدولة العثمانية.

هذه هى الخطوط الرئيسية لتاريخ اوربا الحديث ابتداء من عصر النهضة الأوربية وحتى عقد مؤتمر فيينا فى سنة ١٨١٥، وما ترتب عليه من نتائج على الساحة الأوربية من جهة، والساحة العالمية من جهة اخرى، وقد انعكس تاريخ هذه الفترة التى امتدت الى ثلاث قرون على تاريخ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين الذى سنتناوله بالدراسة فى الجزء الثانى من هذا الكتاب بمشيئة الله تعالى.

---

(1) Hurewitz, J. C. : Diplomacy in The Near and Middle East, Vol. 1., PP. 1 - 5.

(٢) عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : تاريخ المشرق العربى (١٥١٦ - ١٩٢٢)، ص ٣٥٤.

# الفصل العاشــــر

## التنافس الاستعمارى الأوربى فيما وراء البحار
## فى أعقاب مؤتمر ڤيينـــا سنة ١٨١٥

# الفصـــل العاشـــر

# التنافس الاستعمارى الأوربى فيما وراء البحار

# فى أعقاب مؤتمر فيـــنا سنة ١٨١٥

من أهم النتائج التى اسفر عنها استقلال الولايات المتحدة الامريكية فى أوائل الربع الاخير من القرن الثامن عشر، ظهور التدخل الامريكى فى أسواق التجارة الشرقية فى المحيط الهندى عامة والبحر الاحمر على وجه الخصوص، تلك الاسواق التى احتكرها الاوربيون منذ مطلع العصور الحديثة، وكاد الانجليز – بصفة خاصة – ينفردون بالسيطرة عليها[1] عندما بدأت الطلائع الأولى للتدخل الامريكى هناك فى الظهور. اذ بدأ بعض المغامرين الامريكيين فى أوائل القرن التاسع عشر يحومون حول «وعاء العسل» الذى طالما اغترف منه الانجليز وكادوا يحتكرونه لانفسهم احتكاراً كاملا. ولهذا فإن الانجليز سيقفون حائلا دون هذا التدخل الامريكى الذى سيشكل منافسا خطيراً لهم فى هذا الميدان الهام.

## أثر الصراع الانجليزى الامريكى على أسواق التجارة الشرقية :

ولا شك أن هذه المنافسة الامريكية كانت انعكاساً طبيعياً للصراع الانجليزى الامريكى قبيل استقلال الولايات المتحدة الامريكية وفى اعقابه، كما أنها كانت تعبيراً عن المعاناه البالغة التى احس بها الامريكيون وهم يسعون الى نيل استقلالهم والى بناء دولتهم ودعم مستقبلهم فى شتى المجالات. فرغبة الولايات الانجليزية الشمالية فى الحصول على الاستقلال عن انجلترا توفرت بعد معاناه بالغة تزايدت

(1) Graham, G. S. : Great Britain in the Indian Ocean 1810 - 1850, PP. 282, 287.

درجتها نتيجة لفرض قوانين الملاحة "Navigation Acts" (١٦٥١ - ١٦٦٠) التى أضرت كثيراً بمصالح تلك الولايات[١].

فعلى الرغم من أن الغرض من اصدار قوانين الملاحة لم يكن يقصد به الاضرار بالمستعمرات الانجليزية فى امريكا الشمالية، ولكنه كان قبل كل شئ يقصد به العمل على تقوية البحرية الانجليزية وتوجيه ضربة قاضية للبحرية الهولندية، ولكن هذه القوانين أضرت بالمستعمرات المذكورة اضرارا بالغاً[٢]، ثم جاءت بعد ذلك محاولة الانجليز احتكار التجارة الامريكية، فزاد غضب سكان المستعمرات الانجليزية الامريكية بطبيعة الحال.

ولهذا فقد تاقت الولايات الانجليزية للاستقلال عن حكومة انجلترا، لاسيما وأن ظروفها الداخلية، وبعدها عن انجلترا[٣] قد خلق الرغبة قوية لديها للاستقلال. هذا فضلا عن أن حكام تلك المستعمرات كانوا فى كثير من الاحيان من المغامرين الذين لاذمام لهم، فتجاهلوا القوانين،وامتدت اليهم يد الفساد والرشوه، وطغى عليهم الجشع فساءت ادارتهم، وارتفعت الشكوى قوية منهم.

بل وحتى بعد قيام ثورة عام ١٦٨٨ فى انجلترا حل البرلمان الانجليزى محل الملكية فى الاشراف على المستعمرات، ولكن المصالح التجارية لاعضاء البرلمان لم تعمل على تحسين الحالة بل زادتها سوأ. فعمل البرلمان على تضييق حرية المستعمرات من الناحية الاقتصادية، وبدأ أولا فى الاصرار على تنفيذ قوانين

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة، ص ٤٣.

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ الاستقلال الى منتصف القرن العشرين، ص ١١.

(٣) حسن صبحى (دكتور) : معالم التاريخ الامريكى ١٤٩٢ - ١٩١٧، ص ٣٩.

الملاحة، ثم قيام صناعات فى المستعمرات تنافس الصناعة فى انجلترا، بل أنه أوقف كذلك التجارة المبيحة بين المستعمرات الامريكية وجزر الهند الغربية الفرنسية[1]، مما أثر كثيراً فى نفسية الامريكيين.

وهنا صممت الولايات الانجليزية الامريكية على ضرورة الاستقلال عن الحكومة الانجليزية، وجاء الموقف الاوربى فى النصف الثانى للقرن الثامن عشر والظروف الخارجية لانجلترا ذات أثر حاسم فى مصير هذه الولايات الامريكية، بحيث شجعت مختلف الظروف السياسية تلك الولايات على الوصول الى نيل الاستقلال. اذ كانت الحرب بين فرنسا وانجلترا فى أوربا وامريكا الشمالية وآسيا أول خطوة فى سبيل الاستقلال. فكان انتصار الانجليز حاسما على الفرنسيين فى كندا على تلال ابراهام، تلك التلال التى بدأ عليها تاريخ الولايات المتحدة الامريكية. فلقد ساهم سكان هذه الولايات بنصيب كبير فى طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية بحيث تلاشى الخطر الفرنسى ولم تعد الولايات الانجليزية الامريكية بحاجة لا لحماية الانجليز، ولا لاستمرار بقائهم فى العالم الجديد. اذ كانت تلك الولايات لا تجرؤ على القيام بثورة صريحة ضد انجلترا، طالما كان الخطر الفرنسى موجودا فى كندا وفى غربى هذه الولايات. ومعنى ذلك أن تلك الولايات كانت فى حاجة الى قوة الاسطول الانجليزى والجيش الانجليزى لدرء ذلك الخطر الفرنسى ولكن عندما انسحب الفرنسيون من شمال امريكا وفقاً لمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣. وبعد حرب السنوات السبع، فقد بقى الانجليز وحدهم، مما أدى الى تقوية روح التذمر بينهم والسخط من بقائهم، وزكى ذلك الشعور لدى الامريكيين ضرورة العمل لنيل الاستقلال.

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : المصدر السابق، ص ٤٤.

وقد ساعد على تنمية شعور العداء لدى الامريكيين ضد الانجليز أن الحكومة الانجليزية لم تقنع بما كان موجودا فى امريكا من قيود على التجارة والملاحة، خاصة وأن انتصارها على الفرنسيين كان عاملا على تقوية روح السيطرة لديها. اذ فهمت الحكومة الانجليزية أنها أدت خدمة كبيرة لهذه المستعمرات، وغالت فى تقدير مجهودها وما بذلته من تضحيات مغالاة شديدة. وكان من نتيجة ذلك الشعور أن تمادت فى تقييد التجارة الامريكية من جهة، كما صممت من جهة أخرى على فرض ضرائب جديدة على المستعمرات لكى تقوم بجزء من النفقات، هذا فضلا عن رغبتها فى تكوين جيش أمريكى[1].

ومن الطبيعى ألا تكون هذه السياسة مرضية لسكان المستعمرات الانجليزية الامريكية، الذين لم يتركوا أوطانهم ليجدوا الضيق والحرج فى موطنهم الجديد. كما أن الكثيرين من المهاجرين كانت تجرى فى عروقهم دماء الحرية التى ورثوها عن آبائهم واجدادهم ،عن بيئتهم القديمة، والتى عملت البيئة الجديدة على تغذيتها دائما وتقويتها. ثم أن هذه المستعمرات قد وصلت بالرغم من التضييق على حرياتها الاقتصادية الى درجة كبيرة من الاستقلال فى ادارة شئونها الداخلية، بحيث كانت كل منها الى حد ما جمهورية صغيرة، والى درجة من الثروة والرخاء المادى تدعوها الى طلب المزيد من الحرية والاستقلال.

وهكذا لم يكن غريباً أن ثارت الولايات الانجليزية الامريكية متحدة المطالب، وأحتجت بعنف على البرلمان الانجليزى، الذى لم يعد يستطيع فهم مطالبهم فضلا عن عدم تقديره لمصالحها حق قدرها. وانتقدت هذه الولايات بجرأة وقوة موقف البرلمان الانجليزية، وانكرت بشدة مايدعيه من سلطان على المستعمرات. ثم بدأت

(1) Guitteau, W. : The History of The United States, P. 107.

بعد ذلك الثورة الأمريكية المسلحة ضد سيطرة البريطانيين وتسلطهم على الولايات الانجليزية الامريكية. وأعلن الكونجرس الامريكى استقلال الولايات المتحدة وانفصالها عن انجلترا فى ٤ يوليو سنة ١٧٧٦[1].

وقد وقع على عاتق قادة الثورة الامريكية المحافظة على الوحدة الجديدة بين الولايات الامريكية من جهة[2]، وحسن استغلال الظروف الاوربية لكى تحقق مطالب كالولايات المتحدة فى الحرية والاستقلال من جهة اخرى، ومن حسن حظ هذه الولايات أن الجو الاوربى كان ملائما للسياسة الخارجية الامريكية، فسياسة فرنسا التقليدية فى ذلك الوقت كانت تدعوها دائما الى القعود لانجلترا كل مرصد، كما كانت الرغبة كبيرة لدى الفرنسيين للانتقام من الانجليز. ذلك لأن فرنسا البربونية ما كانت تستطيع أن تنسى استيلاء انجلترا على ممتلكاتها فى الهند وفى امريكا الشمالية. وقد كانت الفرصة لفرنسا فى الثورة الامريكية لطرد الانجليز بدورهم من مستعمراتهم الانجليزية الامريكية، فقدمت فرنسا كل مساعدة ممكنه للامريكيين الثائرين، بحيث أدت العلاقات السيئة المتوترة بين فرنسا وانجلترا فى ذلك الوقت الى توثيق الصلات ما بين فرنسا التى كانت على وشك الثورة، والولايات الامريكية الثائرة، حتى لقد استطاع مندوب هذه الولايات فى باريس أن يمهد الطريق لعقد تحالف فرنسى امريكى كان من شأنه ان يدعم مركز الثورة الامريكية ويقوى جانبها. خاصة بعد أن سارعت فرنسا إلى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة، وإلى عقد حلف حربى معها فى أعقاب موقعة «سراتوجا» التى انتصر فيها الامريكيون على الجنود الانجليز فى أكتوبر سنة ١٧٧٧[3].

---

(1) Elson, H. W. : History of The United States Of America, P. 232.
(2) Commager, H. S. : Living Ideas In America, P. 126.
(٣) حسن صبحى (دكتور) : معالم التاريخ الامريكى، ص ٧٠.

وبعد عقد هذا الحلف بين الفرنسيين والولايات المتحدة الامريكية، فقد أرسلو حملة عسكرية لمساعدتها. وقام الاسطول الفرنسى بقطع المواصلات بين انجلترا وقواتها فى امريكا، واحرز بالفعل بعض الانتصارات على الاسطول الانجليزى. ثم توالت الهزائم على الانجليز فى الشرق والوسط والجنوب، ونزلت بهم خسائر فادحة حين سلمت قواتهم عند «يوركتون» فى أكتوبر سنة ١٧٨١[١].

ولاشك أن نجاح الولايات المتحدة فى سياستها الخارجية لم يكن مقصورا على التحالف مع فرنسا، ذلك لان السياسة الامريكية الخارجية كانت ترمى الى ضم كل الدول المناوئة لانجلترا الى جانب القضية الامريكية. وكانت انجلترا قد اتبعت فى سياستها البحرية سياسة تفتيش السفن المحايدة، مما جعلها تجر على نفسها سخط الدول الاوربية التى لها تجارة بحرية مهمة. ولذا لم يكن غريبا نجاح الامريكيين فى علاقتهم مع هولندا واسبانيا، وهما وأن كانتا دولتين مستضعفتين فى أوربا، الا أنهما مدتا يد المساعدة والعون للولايات المتحدة بالاسلحة والذخائر الحربية التى ساعدتها فى تحقيق النصر على القوات الانجليزية.

ولهذا فقد اضطرت انجلترا فى آخر الامر الى انهاء الحرب بعد أن وجدت ألا فائدة من استمرارها بعد الهزائم الكبيرة التى منيت بها، وبذلك ظفرت الولايات المتحدة باستقلالها. ورأت انجلترا ألا سبيل الى اصلاح موقفها السياسى الا بالتراضى مع ابنائها الثائرين فى الضفة الاخرى للاطلنطى. وبدأت مفاوضات الصلح فى أبريل سنة ١٧٨٣، ولم توقع معاهده الصلح بصفة نهائية الا بعد أن تقرر السلام فى أوربا بين الانجليز والفرنسيين. وهكذا كانت معاهدة سنة ١٧٨٣ اعترافاً ضمنيا من جانب انجلترا بخطأ سياستها الاستعمارية القديمة، اذ أخذت

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : المصدر السابق، ص ٤٨

انجلترا درسا عنيفا فى امريكا، ولذا عدلت فى سياستها الاستعمارية بحيث استطاعت رغم هذه الخسارة الكبرى أن تصبح اكبر امبراطورية استعمارية فى العالم[1]، كما أن هذه المعاهدة حددت العلاقات الانجليزية الامريكية لوقت معلوم، ولكنها لم تؤثر كثيرا فى علاقات الولايات المتحدة بأوربا بوجه عام.

وبعد أن فازت الولايات المتحدة باستقلالها وجمهوريتها فقد كان عليها أن توطد مركزها السياسى. وألا تتورط فى حروب خارجية، حتى تخلق من سكان هذه الولايات المتعددة المنازع والمختلفة المشارب، شعبا واحدا تربطه رابطة القومية، وأن تجعل له هدفا واحدا هو استقلال الولايات واتحادها وضمان حقوقها. وكان على الولايات المتحدة أيضا أن تدعم أسس نظامها الجمهورى، كما توحى إليها بيئتها وظروفها وآمالها، وأن تحقق مبدأ حكم الشعب نفسه بنفسه وانماء نظم الحكم المحلية وفقا للدستور الاتحادى الديمقراطى والذى وضعته الولايات المتحدة فى مؤتمر فيلادلفيا فى سنة ١٧٨٧.[2] واستطاعت الولايات المتحدة أن تصبح مثلا حيا يحتذى فى القارتين الامريكيتين.

وقد ساعد الولايات المتحدة على النمو فى أعقاب الاستقلال انهماك أوربا فى مشاكلها المعقدة وحروبها الطويلة مع نابليون، وثوراتها المتعددة وحركاتها القومية.[3] كل هذا كان من شأنه أن يعطى الولايات المتحدة فرصة الهدؤ والنمو والاتساع واستغلال اراضيها الواسعة وثرواتها العظيمة.[4] ولعل أهم الصفقات التى اجرتها أية دولة فى العالم فى العصور الحديثة هى صفقة شراء «لويزيانا Louisiana» من

---

(١) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : المصدر السابق، ص ٤٩.

(2) Pratt, J.W.:A History of United States Fereign Policy, P.5.

(3) Fisher, H.A.L. : A History of Europe, pp. 963, 964.

(٤) حسن صبحى (دكتور) معالم التاريخ الامريكى، ص ١٠٧-١١٠.

نابليون الاول وبذلك استطاعت الولايات المتحدة أن تضم اليها حوض المسيسبى أطول أنهار العالم[1]، فكانت أكبر امبراطورية استطاعت دولة شراءها. وكان ضم تلك الاراضى بالغ الاثر فى حياة الجمهورية الامريكية، فتهيأت لها الظروف للتوسع إلى المحيط الهادى، فضلا عن النشاط الذى ستمارسه أيضا فى المحيط الاطلسى والهندى، ذلك النشاط الذى يهمنا بالدرجة الاولى فى هذا البحث، والذى وجد فيه الامريكيون فرصتهم لمشاركة الانجليز فى الاهتمام بالتجارة الشرقية، بل ولمنافستهم باحتكار بعض سلع هذه التجارة على نحو ماحدث مع محصول البن اليمنى المربح والهام، والذى كانت تنفرد اليمن بين دول العالم بانتاجه حينذاك. وكان الامريكيون يقومون بنقله بواسطة سفنهم من ميناء مخا على الساحل اليمنى المطل على البحر الاحمر إلى القارة الامريكية.

وقد ظل الامريكيون يقومون بهذا النشاط البحرى التجارى المتزايد فى المحيط الهندى والبحر الاحمر وخاصة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، على الرغم من صدور «مبدأ منرو The Monroe Doctrine» فى شهر ديسمبر سنة ١٨٢٣. ولايجب أن يغيب عنا أن هذا المبدأ لم يعوق الامريكيين عن القيام بنشاطهم البحرى والتجارى المتزايد فى المحيط الهندى والبحر الاحمر والبحار الشرقية بوجه عام. ولكن الدافع الاول للمناداه بمدأ منرو هو الدفاع عن حق الشعوب الامريكية وشعوب العالم الجديد، فى تقرير مصيرها، وفى الدفاع عن حقها فى الحرية والاستقلال أمام مطالب أوربا[2].

ولاشك أن مبدأ منرو كان وليدا للظروف السياسية التى أحاطت بأمريكا فى

(1) Amercian Historical Association, A.H.A. Pamphlets, No.222., For Western Frontiers, Essay by Harvey L. Carter.

(2) Pratt, J.W.: Op. Cit., pp. 79, 80.

أواخر الربع الاول للقرن التاسع عشر، وقد وجدت الولايات المتحدة فى حكومة انجلترا، وكان على رأسها «كاننج» أكبر نصير لها فى رفع علم الحرية فى أمريكا الجنوبية. وأن كان هدف انجلترا المباشر هو المحافظة على مصالحها الاقتصادية والتجارية أولاً وقبل كل شئ. فلقد رأت انجلترا أن هذه المصالح تتعرض لخطر شديد اذا عادت أمريكا الجنوبية الى الحكم الاسبانى مرة أخرى أو خضعت للحكم الفرنسى. ولما وثقت الولايات المتحدة من تأييد انجلترا الصادق لها فى مجال حماية امريكا الجنوبية، خاصة بعد أن عملت روسيا على دفع فرنسا لترسل حملة الى هناك، وجدت الولايات المتحدة فى نفسها القوة لتنادى بمبدأ منرو[1].

على أن تفوق البحرية الانجليزية، وتصميم انجلترا على منع أى اعتداء على امريكا الجنوبية، هو الذى جعل لمبدأ منرو قوة فى أول الامر، لان الولايات المتحدة كانت لا تزال دولة لم تستكمل بعد قوتها، ولم تكن تستطيع لاى خطر اوربى دفعا. ويحق «لكاننج» وزير خارجية انجلترا فى بداية العشرينات للقرن التاسع عشر أن يقول «أنه عضد الدنيا الجديدة، لكى يحفظ التوازن فى العالم القديم»[2]. ولهذا فإن فرنسا اذا كانت قد عولت على اقرار الامور فى اسبانيا كما يشتهى الرجعيون واصحاب مبدأ اعادة الحقوق الشرعية وكبت رغبات الشعوب، فلقد صممت انجلترا على منعها بالقوة اذا حاولت ارسال حملة فرنسية عبر الاطلنطى والقضاء على الجمهوريات الناشئة التى اصبحت تربطها بانجلترا أوثق الروابط التجارية، ولذا حين قررت دول التحالف الخامس الاروبى عقد مؤتمر «فيرونا» فى ديسمبر سنة ١٨٢٣ كان عزم انجلترا على التخلى عن ذلك التحالف نهائيا، فى الوقت الذى كانت رسالة الرئيس منرو فى طريقها الى أوربا.

(1) Pratt, J. W. : Ibid., P. 81, 85.

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : المصدر السابق، ص ٥٣.

وعلى الرغم من أن مبدأ منرو لم تعترف به أوربا رسميا الا فى اوائل القرن العشرين، فلاشك أنها احترمته بالفعل فى مواطن متعددة، مما جعل الولايات المتحدة فى مبدأ الامر بمنجاة من التورط مع الدول الاخرى الاوربية، كما وضع أساسا ثابتا لسياسة دفاعية، بحيث أصبح المبدأ الأول للسياسة الامريكية خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص. كما عبر مبدأ منرو عن موقف الدنيا الجديدة للجمهورية بازاء العالم الملكى القديم، وحدد موقف الولايات المتحدة الى حد كبيرا أزاء جمهوريات امريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى. ولم يوضع هذا المبدأ حقيقة تحت الاختبار الجدى الا فى أوائل القرن التاسع عشر وطبق بنجاح فى النصف الثانى لذلك القرن[1].

وجدير بالذكر أن الولايات المتحدة قد ذهبت فى تفسير مبدأ منرو مذاهب شتى تطورت مع الزمن وفقا لمصالحها الخاصة. اذ كان هذا المبدأ مكونا من جزئين أساسيين : أولهما، عدم تدخل الولايات المتحدة فى شئون اوربا، والثانى هو عدم قبول الولايات المتحدة لتدخل أوربا فى شئون امريكا أو فرض نظامها السياسى أو الاقتصادى عليها، وكانت الولايات المتحدة تعترف بذلك التفسير طالما كانت قوتها محدودة، ومشاغلها الداخلية والامريكية كبيرة، ولكن حين بدأت تشعر بنمو قوتها وازدياد هيبتها الخارجية، أخذت تطبق ذلك المبدأ على أساس جزئه الثانى فقط، وهو منع دول أوربا من التدخل فى شئون امريكا[2].

ولهذا فإن مبدأ منرو لم يعوق الامريكيين عن القيام بنشاط بحرى وتجارى فى البحار الشرقية ومن بينها البحر الاحمر منذ أوائل القرن التاسع عشر عندما بدأوا يشعرون بمقدرتهم على تحقيق ذلك، مما سيجعلهم يشكلون منافسا بحريا وتجاريا

(1) Coolidge, A. C. : The United States as A World Power, P. 96.

(٢) محمد مصطفى صفوت (دكتور) : المصدر السابق، ص ٥٧.

خطيراً للانجليز فى تلك البحار.

**- ظهور النشاط التجارى الانجليزى والامريكى فى البحار الشرقية وجنوبى البحر الاحمر :**

وهكذا فقد كان أهم نتائج الثورة الامريكية واستقلال الولايات المتحدة هو تدخل الامريكيين فى أسواق التجارة الشرقية التى احتكرها الاوربيون منذ مطلع العصور الحديثة، اذ بدأ المغامرون الامريكيون وفى مقدمتهم مواطنى «ماساتشوستس Massachusetts» الذين كانوا يشكلوا مجتمعا بحريا نشيطا بارسال سفنهم لتعبر نصف الكرة الارضية فى أوائل القرن التاسع عشر وتتجول فى المحيط الهندى وجنوب المحيط الهادى، وتصل الى شرق افريقيا والبحر الاحمر، محاولة شق طريقها للوصول الى اسواق التجارة فى تلك المناطق[1].

غير أن هذه الاسواق كانت مغلقة حينذاك بواسطة المحتكرين الانجليز عن طريق النظام التجارى الذى وضعته شركة الهند الشرقية الانجليزية "East India Company" التى انشئت فى ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠ فى عهد الملكة اليزابيث الاولى Elizabeth I»[2] واحتكرت التجارة الشرقية بوجه عام[3].

وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية تعتبر أن التجارة اليمنية مجالا هاما من مجالات نشاطها التجارى فى جنوبى البحر الاحمر، وحققت فعلا من وراء تلك التجارة ارباحا كبيرة، وذلك بواسطة الاعداد الضخمة من التجار الهنود المعروفين باسم «الباتيان» فى مخا والحديدة وجده، وقد قامت الشركة بعدة محاولات مبكرة لاقامة وكالات تجارية لها فى الموانى اليمنية منذ اوائل القرن السابع عشر بدأت

---

(1) Coupland, R. : East Africa and its Invaders, P. 362.
(2) Hoskins, H. L. : British Routes to India, PP. 4, 5.
(3) Coupland, R. : Op. Cit., P. 362.

بأرسال سفينة تجارية تابعة لها إلى جزيرة سقطرى الواقعة جنوبى الساحل الجنوبى، للجزيرة العربية وعلى مقربة من رأس جورد فوى على الساحل الشرقى لافريقيا. وكان يقود هذه السفينة الضابط البحرى الانجليزى «وليم كيلنج William Keeling» الذى حاول الوصول الى عدن ليقيم وكالة تجارية فيها، غير أن الانجليز لم يتمكنوا من تحقيق اغراضهم نظرا لوجود العثمانيين فى اليمن فى ذلك الحين (١٥٣٨ - ١٦٣٥).

على أن الانجليز أرسلوا بعد ذلك الى ميناء عدن السفينة الانجليزية «أسنشون Ascension» يقودها الضابط البحرى الانجليزى «الكسندر شاربى ALexander Sharpy» وذلك لاقامة علاقات تجارية مع بلاد اليمن[١]. وقد وصل «شاربى» إلى عدن فى ٨ أبريل سنة ١٦٠٩، واستقبله حاكمها فى بداية الامر استقبالا طيبا[٢]. غير أن العثمانيين لم يلبثوا أن اعتقلوه وصادروا حمولة سفينه، ثم اطلقوا سراحه ورحلوه الى مخا وهى الميناء الحيوى لليمن حينذاك. وبذلك فشلت محاولة الانجليز حينذاك لاقامة علاقات تجارية مع الموانى اليمنية.

وقد عاودت شركة الهند الشرقية الانجليزية محاولتها فى العام التالى مباشرة فى سنة ١٦١٠ فأرسلت ثلاث سفن انجليزية الى عدن يقودها «سير هنرى ميدلتون Sir Henry Middleton» فوصلت اليها فى اليوم العاشر من نوفمبر من السنة المذكورة[٣]. وقد ترك «ميدلتون» السفينة الانجليزية «بيركورن Peppercorn» فى عدن، وتوجه بالسفينة «دارلينج Darling» إلى مخا حيث استقبله حاكمها العثمانى «رجب أغا» بكل مظاهر الترحيب. غير أن هذا الترحيب لم يدم طويلا، فسرعان

(1) Ingrams, H. : The Yemen, Imams, Rulers, and Revolutions, P. 46.
(2) Playfair, R. L. : Ahistory of Arabia Felix or Gemen, P. 105.
(3) Hunter, F. M. : An Account of The British Settlement at Aden, P. 164.

ماهاجم بعض الجنود العثمانيين «سير ميدلتون» وقتلوا ثمانية من رجاله، وساقوه اسيرا إلى صنعاء[١]. ومعه عدد من رفاقة، كما أن العثمانيين هاجموا سفنه بقوة قوامها ثلاثمائة وخمسين مقاتلا عثمانيا وحاولوا الاستيلاء على السفينة «دارلينج» غير ان بحارتها استبسلوا فى الدفاع عنها ولم يمكنوا العثمانيين من الاستيلاء عليها رغم مادار من قتال عنيف. وفى صنعاء ابدى الوالى العثمانى تعجبة من جرأة «الصليبيين» الذين يحاولون الاقتراب من الجزيرة العربية والأماكن المقدسة الاسلامية. وبعد أن استطلع العثمانيون رأى الاستانة اطلقوا سراح «هنرى» ومرافقية، غير أنهم أنذروهم الا يعودوا على الاطلاق الى الجزيرة العربية[٢]. فرجعوا الى سفينتهم ورحلوا عن المنطقة بخفى حنين[٣].

وقد أعقب هذه المحاولات الثلاث محاولة رابعة فى سنة ١٦١٢[٤]. عندما توجهت بعثة انجليزية يقودها القبطان «جون ساريز John Saris »[٥]. قوامها ثلاث سفن لزيارة ميناء مخا اليمنى، وكان يتولى زمام الامور فيها حينذاك حاكم عثمانى يدعى «أدهر» وهو يونانى المولد بعد عزل حاكمها السابق «رجب أغا» وقد رحب «أدهر» بالبعثة الانجليزية وطلب من «ساريز» أن ينسى المعاملة السيئة التى لقيها «سير هنرى ميدلتون» على يد سلفه «رجب أغا» وقد أصدر الوالى العثمانى فى اليمن فى ذلك الوقت تعليمات تسمح للاجانب بحرية التجارة على السواحل اليمنية مع السفن الهندية الانجليزية، كما سمح أيضاً بشراء كل ما يلزمهم من ميناء مخا اليمنى[٦].

(١) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، ص ٤٢٧.

(٢) أحمد فضل العبدلى : هدية الزمن فى اخبار ملوك لحج وعدن، ص ١٠١.

(3) Playfair, R. L. : Op. Cit., PP. 105 - 108.
(4) Marston, T. E. Britain's Imperial Role in The Red Sea Area, P. 25.
(5) Hunter, F. M. : Op, Cit., P. 164.
(6) Playfair, R. L. : Op. Cit., P. 108.

وهكذا حقق الانجليز بعض النجاح فى جولتهم الرابعة نتيجة لتساهل العثمانيين معهم، ذلك التساهل الذى كان مبعثة اطمئنان العثمانيين للفتور الذى اعترى المنافسة البرتغالية من جهة. ورغبة العثمانيين فى تبادل المنفعة الاقتصادية مع الاجانب ورواج الحركة التجارية فى ممتلكاتهم من جهة أخرى، على أن «ساريز» وجد حينذاك أن الظروف المحيطة لا تشجع على استمرار اشتغاله بالتجارة مما دفعه الى الرحيل عن مخا بعد أن حقق هذا القدر المعقول من النجاح.

على أن هذا التساهل العثمانى مع الاجانب قد ظهر ايضا عندما عاود الانجليز نشاطهم للمرة الخامسة فى سنة ١٦١٨ حين وصل الى القبطان «شلنج Shilling» على ظهر السفينة الانجليزية «آن رويال Anne Royal» لاقامة وكالة تابعة لشركة الهند الشرقية الانجليزية. وفى ذلك الوقت كان يحكم مخا «رجب أغا» الذى سبق أن وقع فى أسره «سير هنرى ميدلتون». غير أنه فى هذا المرة قدم اعتذاره الشديد للقبطان «شلنج» عن مسلكة السابق، موضحا انه فعل ذلك تنفيذا للتعليمات التى صدرت اليه من الوالى العثمانى فى صنعاء. على أن السياسة العثمانية حينذاك سمحت للانجليز بمزاولة نشاطهم التجارى بحرية تامة فى ميناء مخا، وبتشييد وكالة تشرف على مصالحهم هناك، وبتحديد ضرائب الاستيراد والتصدير بنسبة ٣٪ فقط تدفع نقداً أو عيناً[1]. وبذلك ظل موقف العثمانيين متأرجحا ازاء محاولات الانجليز اقامة علاقات تجارية مع الموانى اليمنية بين الرفض والقبول حتى استقر موقفهم نسبياً فى سنة ١٦١٨ باتاحة الفرصة للانجليز لمزاولة نشاطهم التجارى فى الموانى اليمنية[2].

(1) Playfair, R. L. ; Op. Cit., P. 110.
(2) Crichton, A. : History of Arabia, Ancient and Modern, Vol. 11, PP. 153, 154.

وتجدر الاشارة الى أنه مما خفف من حدة الضربة الاقتصادية الشديدة التى اصيبت بها اليمن نتيجة لتحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح، انتشار زراعة البن فى اليمن واستمرار تصديره لبلدان الشرق الاوسط واوربا عن طريق البحر الاحمر وطريق رأس الرجاء الصالح فى وقت واحد، وقد وصلت سفارة عثمانية الى اليمن فى سنة ١٧١٢ للتفاهم مع الامام على أساس قصر تصدير البن اليمنى عن طريق البحر الاحمر بدلا من طريق رأس الرجاء الصالح الذى أضر كثيراً بدخل السلطان العثمانى. وكان أساليب السفارة العثمانية قائمة على أسس دينية لحث الامام على تحقيق تلك الغاية، غير أن الامام رفض الاستجابة لمطلب العثمانيين[١]. الذين كانوا قد خرجوا من اليمن بعد أن مكثوا فيه قرابة قرن من الزمان (١٥٣٨ - ١٦٣٥) وذلك حفاظا على دخله الخاص.

كما حرص الانجليز على انتهاج سياسة محددة ازاء الائمة الزيديين بعد جلاء العثمانيين عن اليمن تركزت على مساندتهم لحكم الائمة حتى يجدوا لهم نصيرا داخل اليمن يمكن أن يسهم فى تسهيل عمليات التبادل التجارى وخاصة ماكان يتعلق منها بتجارة البن اليمنى فى ميناء مخا. وقد استمرت هذه العلاقات الودية لمدة قرنين من الزمان على نحو ما يؤكده «هارولد انجرامز» موضحا أن الانجليز الذين احتلوا عدن فى سنة ١٨٣٩ مدينون بالكثير لاسلافهم الذين سعوا لايجاد علاقات طيبة مع الائمة[٢].

وجدير بالذكر أن الهولنديين قد سعوا من جانبهم الى تنشيط التجارة الهولندية اليمنية فى أوائل القرن الثامن عشر واستمرت تلك المساعى فترة غير قصيرة، وكانت تعتمد على محصول البن اليمنى حتى نقل الهولنديون زراعة هذا المحصول

(1) Marston, T. E. : Op. cit., PP. 26, 28.
(2) Ingrams, H. : Op. Cit., PP. 51, 52.

الى جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية فى نهاية القرن الثامن عشر، كما انتقلت زراعة البن ايضا الى أمريكا الجنوبية، مما أدى فى النهاية الى أن تصبح اليمن غير منفردة بانتاج ذلك المحصول الهام[1]. وقد نتج عن ذلك قلة دخل اليمن وتدهورت اقتصادياته مما زاد من حدة الاضطرابات الداخلية، الامر الذى يجعلنا نقول أن استقرار اليمن كان مرتبطا – الى حد كبير – بقدراتة التجارية و.خاصة فيما يتعلق بتصدير البن، حتى أن عدن وقطعبة وتعز وابو عريش اصبحت دويلات منفصلة عن بعضها، وعانى الائمة من حركات التمرد التى كانت شائعة حينذاك. وقد أكد هذه الصورة «كارستن نيبور Karsten Niebuhr» الرحالة الدنماركى الذى زار بلاد اليمن فى سنة ١٧٦٢ فى مؤلفه المشهور[2] الذى ترجم الى عدة لغات والذى ضمنه تفاصيل أول رحلة علمية جديدة قامت بدراسة جغرافية ونباتات اليمن واحواله الاجتماعية فى القرن الثامن عشر، مما وجّه أذهان الاوربيين الى أهمية اليمن حينذاك.

وجدير بالذكر أن تجارة البن اليمنى لها أثر كبير فى عودة النشاط التجارى للطريق البحرى القديم عبر البحر الاحمر فى أوائل القرن السابع عشر، بعد أن كانت التجارة الشرقية قد تحولت الى طريق رأس الرجاء الصالح عقب وصول البرتغاليين الى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر. وقد ساعد على ذلك أن البن اليمنى كان سلعة شائعة ومحبوبة فى أوربا وامريكا على السواء[3].

وبعد أن غادر الهولنديون اليمن فى سنة ١٧٦٢ وفقدوا كل أمل فى استمرار

---

(١) عبد الحميد البطريق (دكتور) : من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ – ١٨٤٠، ص ٤٦.

«قدر نيبور تجارة البن المصدرة من موانى اليمن حينذاك بما يوازى خمسة آلاف جنية انجليزى شهريا».

(2) Karsten Niebuhr : Beschreibung Von Arabien, Copenhagen 1772.

(3) Waterfield, G. : Sultans of Aden, John Morray, London, 1968, P. 6.

وكالاتهم التجارية فيها، انفسح المجال امام الانجليزية للاشتغال بتصدير البن والتجارة اليمنية الى بلدان أوربا، بينما كان التجار الهنود «البانيان» يحتكرون تلك التجارة داخل اليمن ذاتها ويسهلون العمليات التجارية مع الانجليز والسفن الانجليزية[1]

ومن هنا حرص الانجليز على مواصلة اهتمامهم بانشاء وكالات تجارية لهم فى الموانى اليمنية بعد أن بدأ نشاطهم يظهر بوضوح فى طريق البحر الأحمر ومصر نتيجة لاتفاقهم مع المماليك فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر، حتى أن شركة «الليفانت الانجليزية Levant Company» التى اختصت بالحوض الشرقى للبحر المتوسط والتى تأسست فى سنة ١٥٨١ [2]. أتهمت شركة الهند الشرقية الانجليزية بأنتهاك سيطرتها على التجارة فى شرقى البحر المتوسط حينذاك[3].

وتحقيقاً لتلك الاهداف الانجليزية رأت حكومة بومباى وخاصة بعد وصول الحملة الفرنسية الى مصر فى عام ١٧٩٨ ضرورة القيام بنشاط واسع النطاق مستعينة بقواتها الهندية للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الاحمر للحيلولة دون أية محاولة فرنسية للوثوب الى الهند من جهة، ولحماية جهودها الرامية الى تنشيط التجارة المتبادلة مع سواحل البحر الاحمر[4] والسواحل اليمنية على وجه الخصوص. ولهذا حركت من بومباى قوة بحرية فى شهر ابريل سنة ١٧٩٩ قوامها ثلاثمائة أوربى وهندى يقودها «الكولونيل جون موراى Colonel Jhon Murray» وأتجهت نحو المدخل لجنوبى للبحر الاحمر. وقد قامت هذه القوة باحتلال جزيرة «ميون أو بريم Perim» الواقعة فى أضيق نقطة ببوغاز

(1) Marston, T. E. · Op. Cit., P. 29.

(٢) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسة فى الخليج العربى، ص ٢٨

(3) Marston, T. E. . Op. Cit., PP. 31, 32.

(4) Graham, G. S. · Op. Cit., P. 287.

باب المندب[1] الذى يصل البحر الاحمر بخليج عدن وذلك فى اليوم الثالث من شهر مايو، وظلت تحتلها حتى اوائل شهر سبتمبر من السنة المذكورة.

غير أن البريطانيين تبينوا أن المضايق فى المدخل الجنوبى للبحر الاحمر لا يمكن السيطرة عليها من جزيرة بريم بواسطة المدفعية الساحلية[2] كما أن مناخ الجزيرة ردئ للغاية[3]، وليست بها مياه صالحة للشرب[4]. ولهذا سحب «موراى» قواته من جزيرة بريم خاصة بعد أن أطمأن لحسن نوايا سلطان لحج وعدن الذى أبدى موافقته المبدئية على بقاء البريطانيين مؤقتا فى عدن خلال الفترة التى يحتاجونها. وقد اتجه «موارى» بقواته الى عدن حيث استقبلة سلطانها استقبالا طيبا[5]. وبذل «موارى» محاولاته للتحالف مع السلطان لضمان اتخاذ عدن محطة دائمة للسفن البريطانية، غير أن هذا الموضوع تأجل الاتفاق عليه[6]. واضطرت هذه القوة البحرية البريطانية أن تنتظر فى عدن حتى شهر مارس سنة ١٨٠٠ لتستعين بالرياح الموسمية للتوجه عائدة إلى الهند.

على أن شركة الهند الشرقية الانجليزية كانت تبذل جهودها بصفة دائمة لتنشيط التجارة المتبادلة بين سواحل البحر الاحمر وممتلكاتها فى الهند. غير أن هذا النشاط التجارى بدأ يتدهور نتيجة للسياسة التى انتهجتها الدولة العثمانية حينذاك وسايرها فيها سلطان لحج وعدن، فالبن اليمنى الذى كان يرسل الى أوربا والهند اخذ طريقة الى مصر أو حملته القوافل من جدة الى مكة ليجمع اخيراً فى عاصمة

---

(1) George, H. B. : A Historical Geagraphy of The British Empire, P. 124.
(2) Playfair, R. L. : Op. Cit., PP. 122 - 123.
(٣) صلاح العقاد (دكتور) : فى جنوب الجزيرة العربية، ص ١٥.
(4) The Middle East, A Political and Economic Survey, 1958, P. 103.
(5) Ingrams, H. : Op. Cit., P. 50.
(6) Aitchison, C. U. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating To India and The Neighbouring Countries, Vol. XI., P. 123.

الدولة العثمانية. بل أنه بين عامي ١٧٩٨ ١٨٠١ اشترت السفن الامريكية كميات كبيرة من البن اليمني وبدأت تتعامل مباشرة مع المنتجين الاصليين[١] ولهذا سارعت أدارة الشركة إلى أرسال «الكومودور سيرهوم بوفهام Commodore Sir Home Popham» قائد السفينة الانجليزية «رودني H. M. S. Rodney» على رأس بعثة الى البحر الاحمر للعمل على احياء التجارة بين هذه المناطق وممتلكات الشركة.

بل أن حكومة الهند البريطانية كلفت «السير هوم» ايضاً بمهمة نقل القوات التي كانت ستنضم لجيش «الجنرال بيرد General Baird» من بومباي الى مصر، ولهذا التقى «السير هوم» بعد أن عبرت هذه القوات صحراء مصر الشرقية من القصير الى النيل، وكانت قوات «الجنرال بيرد» ستتعاون مع القوات البريطانية الاخرى الاتية عبر البحر المتوسط لطرد الفرنسيين من مصر ومنع اية قوى اجنبية من السيطرة على الطريق الموصل بين الشرق والغرب عبر مصر والبحر الاحمر. وسيكون هذا التعاون بين القوات البريطانية من الشمال والجنوب ظاهرة واضحة في استراتيجية الدفاع البريطاني عن المصالح الامبراطورية منذ ذلك الحين. كما كانت هذه الحادثة دلالة على أول استخدام للبحر الاحمر من قبل انجلترا في الاغراض العسكرية الحديثة[٢].

وكانت جهود شركة الهند الشرقية الانجليزية لتنشيط التجارة مع الموانى اليمنية تبدو واضحة في المحاولات التي بذلها في هذا السبيل «الدكتور برنجل Dr.Pringle» الطبيب البريطاني الذي عمل في بومباي ثم صاحب «موراي» في رحلته السابقة الى الموانى اليمنية وأقام في مخا في سنة ١٨٠٠[١] فقد أوصل في

(1) Marston, T E. Op. Cit., P 50
(2) Marston, T E Ibid, P. 32

رحلته السابقة الى الموانى اليمنية وأقام فى مخا فى سنة ١٨٠٠[1]. فقد أوصل فى شهر مايو من نفس السنة عدة خطابات وهدايا من الحاكم العام للهند الى على منصور إمام صنعاء[2] لحثة على اصدار تعليماتة لحكام الموانى اليمنية بعدم مضايقة السفن الانجليزية عند قيامها بعمليات التبادل التجارى فى تلك الموانى وتزويدها بما تحتاج اليه لمواصله رحلاتها. وقد استقبل إمام صنعاء الدكتور «برنجل» بحفاوة وتكريم، واصدر تعليماته لحكام الموانى اليمنية فى مخا والحديدة واللحية لتقديم كافة التسهيلات والاحتياجات اللازمة للسفن الانجليزية بالاسعار العادية. كما تم الاتفاق على حماية البحارة على الشاطئ والمحافظة على شحنات السفن بقدر الامكان اذا جنحت أو تحطمت. وفضلا عن ذلك فقد وافق الامام على منصور أيضاً على بناء مستشفى بحرى فى مخا لاستقبال المرضى من الاسطول التجارى الانجليزى. وقد غادر «الدكتور برنجل» صنعاء متجها الى مخا بعد نجاحه فى الحصول على كل هذه التسهيلات.

وكان اهتمام الانجليز بالتجارة مع اليمن قد ازداد بعد أن نجحت المنافسة الامريكية فى أخذ معظم كميات البن المصدرة من اليمن الى خارج البلاد. ويرجع السبب فى ذلك الى الاسعار التى كانت تتعامل بها شركة الهند الشرقية الانجليزية والتى كانت فى مركز لا يمكنها من منافسة عروض الامريكيين حينذاك. كما أن الضعف المتزايد للائمة الزيديين والصراع المستمر بين القبائل اليمنية قد انعكس على انتاج البن فى اليمن مما ادى الى اضعاف محصوله[3]، ونتج عن ذلك زيادة الطلب فى الوقت الذى سيقل فيه العرض الى حد كبير.

---

(1) Playfair, R. L. : Op. Cit., P. 123.
(2) Marston, T. E. : Op. Cit., 32, 33.
(3) Aitchison, C. U. : Op. Cit., Vol. XI, P. III.

وقد استمرت جهود شركة الهند الشرقية الانجليزية لتدعيم تجارتها مع اليمن، ورعاية مصالحها فى منطقة البحر الاحمر وخاصة عندما عينت «السير هوم» مندوبا لها فى الجزيرة العربية فى سنة ١٨٠٢[١]، ومنحته صلاحيات كاملة تمكنه من عقد المعاهدات التجارية تبعا لما تتطلبه المصالح الانجليزية. وطلبت اليه التوصل الى عقد معاهدات تجارية مع أمام صنعاء وسلطان لحج وعدن على وجه الخصوص، ولهذا فقد أبحر «السير هوم» من «كلكتا» متجها الى مخا، حيث وجه بعثة الى أمام صنعاء شكلها من «المستر اليوت» و «الملازم لامب» و «الدكتور برنجل» لتعرض عليه اقتراح التوصل الى عقد معاهدة تجارية. غير أن الامام رفض مواد المعاهدة المقترحة، ولم يشأ أن يزيد تعاونه عن هذا الحد حتى لا يؤدى الى التدخل الاجنبى فى شئون بلاده. وقد مات «مستر اليوت» بالحمى فى صنعاء، بينما غادرها «الملازم لامب» و «الدكتور برنجل» فى اليوم الرابع من سبتمبر من السنة المذكورة وهما يحملان رفض الامام الى الحاكم العام للهند وممثلة «السير هوم بوفهام»[٢].

فيران «السير هوم» لم يفقد الامل فى تحقيق بعض النجاح لشركة الهند الشرقية الانجليزية، فتوجه الى عدن وبذل جهوده لاقناع السلطان أحمد بن عبد الكريم العبدلى سلطان لحج وعدن بعقد معاهد للصداقة والتجارة. وتم ابرام المعاهدة فى اليوم السادس من سبتمبر ١٨٠٢ وصدق عليها «السير هوم» نيابة عن «اللورد ولسلى Lord Wellesly» الحاكم العام للهند حينذاك[٣]. وقد نصت هذه المعاهدة على ايجاد اتصال تجارى بين شركة الهند الشرقية الانجليزية أو أية رعية بريطانية تحت حكم الحاكم العام للهند ورعية السلطان أحمد بن عبد الكريم

---

(1) Aitchison, C. U. : Op. Cit., Vol XI, P. III.
(2) Playfair, R. L. : Op. Cit., PP. 124 - 126.
(٣) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق، ص ١٣٦.

العبدلى[1]. ووافق الجانبان على اعتبار ميناء عدن مفتوحا لاستقبال البضائع التى تحملها السفن الانجليزية على أن تدفع نسبة ٢٪ ضرائب جمركية لمدة عشر سنوات ترفع بعدها هذه النسبة الى ٣٪ فقط.

ونصت المعاهدة كذلك على حرية الرعايا البريطانيين فى العمل فى أراضى السلطان ونقل ثرواتهم لمن يشاءون، كما تعهد السلطان ببذل جهوده لاستعادة ديون الرعايا البريطانيين من رعاياه. وفى حالة حدوث أى نزاع بين الرعايا البريطانيين يجب أن يرفعوا دعواهم للوكيل البريطانى فى عدن ليجرى احكامة فى قضاياهم بموجب القوانين المتبعة فى بلادهم. وأخيراً تعهد السلطان فى هذه المعاهدة بأن يبيع لبريطانيا قطعة من الارض غربى عدن لتقيم عليها شركة الهند الشرقية الانجليزية مبانيها بالشكل الذى ترتضيه[2].

ومن الواضح أن هذه المعا هده تعد بداية التدخل البريطانى فى شئون عدن وعند المدخل الجنوبى للبحر الاحمر، كما أنها تنتقص من السلطة الشرعية لحكام هذه المنطقة فى بلادهم، فتحديد الرسوم الجمركية بنسبة تقل كثيراً عما يتقاضاه السلطان من قبل، فضلاً عن الاعتراف للوكيل الانجليزى – الذى كان لا يعدو أن يكون قنصلا لبلاده – بالتدخل فى نظر المنازعات للرعا يا البريطانيين فى عدن ورفع نتائجها الى حكومة الهند البريطانية لتقرير ما تراه، فإن ذلك كله لا يتفق مع سيادة سلطان لحج وعدن، كما يعطى الفرصة للبريطانيين للتدخل فى شئون سلطته، ولهذا فقد وصف «هارولد جاكوب» هذه المعاهدة بأنها رائعه بالنسبة للبريطانيين خاصة اذا ما ادخلنا فى اعتبارنا الاطراف التى عقدتها والزمن الذى

(1) Hurewits, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I., P. 126.
(2) Aitchison, G. U. : Op. Cit., Vol. XI., PP. 119, 122.

وقعت فيه[1]. بينما اعتبرها «توم ليتل» أولى تورط لبريطانيا في جنوب الجزيرة العربية[2].

ويبدو تزايد اهتمام حكومة الهند الانجليزية بالتجارة في منطقة البحر الاحمر من خلال التصريح الذى أدلى به «اللورد فالنتيا Lord Valentia» الذى وصل الى الهند على رأس بعثة بريطانية في سنة ١٨٠٥ موضحا أهمية طريق البحر الاحمر بالنسبة للتجارة الهندية، ومؤكدا ضرورة العمل على ايجاد افضل الوسائل لتدعيم قوة بريطانيا في البحر الاحمر حتى يمكنها مواجهة أى تقدم عدائى من ناحية الغرب، وهذا بالاضافة الى العمل على زيادة حجم التجارة الهندية في المنطقة، وتبعا لذلك فقد قام «فالنتيا» بزيارة معظم الموانى الهامة في البحر الاحمر مبتدئا بعدن وجمع معلومات قيمة عن حالة التجارة. وأخيراً اشار «فالنتيا» الى أهمية احتلال بريطانيا لعدن التى اعتبرها «جبل طارق الشرق» وأوصى بانشاء وكالة تجارية في عدن، وبتعيين مقيم دائم بها ليتمكن البريطانيون من احتكار التجارة اليمنية وخاصة تجارة البن الرائجة من جهة، واحتكار التجارة مع بربرة على الساحل الافريقى المواجه من جهة أخرى، بل أنه قد أوصى ايضا بالتحالف مع «الوهابيين» من ناحية الشرق والاحباش من ناحية الغرب، لضمان حماية المصالح التجارية لبريطانيا في منطقة البحر الاحمر.

غير أن «فالنتيا» أوضح في نفس الوقت أن الحبشة لن تحقق الكسب السريع والفائدة المباشرة للبريطانيين على النحو الذى يمكن أن تحققه عدن للمصالح البريطانية بل أنه أشار أيضاً الى أن سيطرة البريطانيين على جزيرة كمران ستنتج

(1) Jacob, H. : Kings of Arabia, P. 65.
(2) Little, T. : South Arena of Conflict, London, Pall Mall, 1968.

لبريطانية سيطرة مباشرة على تجارة الحبشة، وكانت شركة الهند الشرقية الانجليزية ترغب فى تحقيق ذلك. وقد اورد «فالنتيا» كل هذه الآراء والتوصيات فى تقريره المطول الذى أرسله الى «جورج كاننج» وزير الدولة البريطانية للشئون الخارجية. ويعتبر هذا التقرير على جانب كبير من الاهمية لانه يوضح الاوضاع القائمة فى منطقة البحر الاحمر ووجهة النظر البريطانية ازاءها فى ذلك الحين[1].

على أن اللورد «فالنتيا» قد أنهى تقريره هذا بجملة اعاد كتابتها بعد ذلك بخمسة وستين عاما «اللورد روبرت نابيير Lord Robert Napier» الذى قاد الحملة الانجليزية على الحبشة فى سنة ١٨٦٨ اذ قال «أنه فيما يتعلق بالحبشة فأنها بلد مسيحى يجب أن يتحرر من الحكم المستبد الذى يتحكم فى مقدراته، كما يجب تطويقه بعيداً عن سيطرة المسلمين، وأننا بتحقيق ذلك سنفتح سوقاً رائجة لمنتجاتنا». وبذلك ولدت أسس السياسة البريطانية ازاء الحبشة، تلك السياسة التى استمرت حتى وصلت الى هناك الحملة البريطانية فى سنة ١٨٦٨، حيث ظهرت للبريطانيين الطبيعة الحقيقية للحبشة والصعوبات التى تكتنفها. وقد لقى هذا التقرير الذى قدمه «فالنتيا» أهتماما كبيراً لدى المسئولين بوزارة الخارجية البريطانية[2].

وعلى أية حال فأن «فالنتيا» أرسل اخيرا سكرتيره «هنرى سولت Henry Salt» فى بعثة الى الحبشة عاد بعدها يوصى بضرورة بذل الجهود لكى يحصل الاحباش على منفذ بحرى لبلادهم على البحر الاحمر يتيح لهم الاتصال بالمستعمرات البريطانية فى بلاد الشرق. غير أن اقتراحات «فالنتيا» هذه لم يحفل بها احد الى أن اهتم بتنفيذها «هنرى سولت» نفسه الذى اصبح بعد ذلك القنصل العام لبريطانيا

(1) Marston, T. E. : Op. Cit., PP. 34, 35.
(2) F. O. I/I., Valentia To Canning, 9/13/08.

في مصر[1].

أما بالنسبة لتحركات «سولت» فيمكن تتبعها من خلال التقرير الذى قدمه لوزارة الخارجية البريطانية وأوضح فيه أنه وصل الى مصوع ثم انتقل الى «تيجرى Tigré» فى الحبشة حيث قدم مامعه من هدايا الى «بحر نيجوس Bahr Negos» حاكم هذه المنطقة. غير أن «سولت» لم يجد ما يشجعه على اقامة علاقات تجارية مستقرة نتيجة لرفض الاحباش لهذا الاتجاه، ولضعفهم عن السيطرة على المنطقة الساحلية، مما جعله يشك فى نجاح أى تدخل بريطانى فى الحبشة حينذاك[2]. وقد أرفق «سولت» بتقريره هذا صورا من المراسلات التى دارت بينه وبين حكومة بومباى وتضم استفسارات من تلك الحكومة عن هذه الرحلة واهدافها، مما كان يظهر وجود نوع من السباق بين شركة الهند الشرقية الانجليزية ووزراء خارجية بريطانيا فى ذلك الحين.

وجدير بالذكر أن الرسائل المرسلة من مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الانجليزية ومقره فى لندن كانت تصل الى الحاكم الانجليزى العام فى كلكتا فى فترة تتراوح ما بين خمسة الى ثمانية شهور، أما المراسلات التى كانت تتطلب ردودا حول الامور الرسمية فقد كانت تستغرق فترة تصل الى عامين كاملين.

على أن «سولت» قد أرسل ايضاً تقريراً سياسيا إلى حكومة الهند عن الاوضاع السياسية فى البحر الاحمر موضحا أن البريطانيين يمكنهم الحصول على ما يريدونه فى اليمن اذا تحالفوا مع شريف ابى عريش أو إمام صنعاء، وكان شريف أبو عريش أو «شريف اللحية» كما يسميه «سولت» يحكم منطقة تهامة، وهى الاراضى

(1) Marston, T. E. : Op. Cit., P. 34.
(2) F. O. I/I., Salt To F. O. 3/4/II, Report on His Expedition.

الساحلية المنخفضة الممتدة من ميناء اللحية شمالا الى ميناء مخا جنوباً، وأيضاً منطقة زيلع على الساحل الافريقى للبحر الاحمر. وذكر «سولت» أنه شاهد سفينة فرنسية فى «خليج أنسلى Annesley Bay» واوضح أنها جاءت الى هناك بغرض شراء قطعة من الارض المطلة على هذا الخليج. وقد أوصى «سولت» فى تقريره ايضا بضرورة التحالف مع الوهابيين لمنع الفرنسيين من التسلل الى ايران من جهة، ولفتح طريق البحر الاحمر أمام البريطانيين من جهة أخرى عن طريق ميناء عدن وجزيرة كمران واستبداله بالطريق البرى الذى كان مهددا حينذاك والمار بالبصرة والخليج العربى.

وتجدر الاشارة الى أن الرأى قد استقر فى انجلترا على ارسال «هنرى سولت» مرة ثانية الى منطقة البحر الاحمر فى سنة ١٨٠٩. وقد وصل الى مينا مخا اليمنى فعلا فى شهر نوفمبر من السنة المذكورة، حيث وجد أسعار البن قد ارتفعت بفضل وجود التجار المنافسين من الامريكيين حتى بلغ سعر البالة ٧٥ دولارا الامر الذى سبب متاعب كثيرة لشركة الهند الشرقية الانجليزية نتيجة لارتفاع الاسعار، وعلى أية حال فقد أوضح «سولت» أنه لم تكن توجد فى البحر الاحمر حينذاك سفن معادية للبريطانيين كما لم تكن توجد لمحمد على اية سفن هناك فى ذلك الحين مما كان يجعله يرى انه من السهل على البريطانيين السيطرة على أى موقع يريدونه فى منطقة البحر الاحمر.

وهكذا كنت تحركات البريطانيين فى البحر الاحمر وعلى مقربة من عدن فى مطلع القرن التاسع عشر وقد تمت هذه التحركات بتوجيه من قبل شركة الهند الشرقية الانجليزية فى بعض الاحيان، كما كانت بتوجية من قبل وزارة الخارجية البريطانية فى احيان أخرى، حتى رجع «سولت» الى انجلترا، ولم يعد الى المنطقة

ثانية الا عندما عين قنصلا عاما لبريطانيا فى مصر لدى حكومة محمد على. ولا يعنى هذ ان محاولات البريطانيين للحصول على امتيازات لتجارتهم فى المنطقة قد توقفت، بل انهم انتهزوا كل فرصة ممكنة لتحقيق اغراضهم.

وتجدر الاشارة الى أنه قد نوقشت لدى الدوائر البريطانية اهمية احتلال البريطانيين لميناء عدن اليمن فى نهاية القرن الثامن عشر عندما احتلت قوات بونابرت مصر فى سنة ١٧٨٩ وكانت تتطلع لشن غزو فرنسى على الهند فى ذلك الحين وقد نتج عن قيام الحرب بين بريطانيا والامريكيين فى الفترة ما بين عامى ١٨١٢ ، ١٨١٤ أن بدأ بعض الساسة الانجليز يعيدون التفكير فى احتلال عدن. بل أن «هنرى سولت Henry Salt» قنصل بريطانيا فى مصر اقترح على حكومة بومباى وجوب أرسال احدى بطاريات الساحل العسكرية الى سلطان عدن لمساعدته فى الدفاع عن ميناء عدن، نظراً لأن البريطانيين كانوا فى حرب مع الامريكيين الذين كانوا مرتبطين بعلاقات ودية مع تلك الموانى، والتى كانت معظم سفنهم تفوق فى تسلحها السفن التجارية البريطانية التى كانت تبحر الى تلك الموانى. وعلى الرغم من ذلك فان هذا الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ خاصة بعد توقيع الصلح مع الامريكيين، كما أن التهديد الفرنسى تضاءل نسبيا حينذاك[1].

وقد حدث فى شهر يوليو سنة ١٨١٧ أن تلكأ أحد الاعراب فى الوكالة البرى البريطانية فى ميناء مخا اليمنى. غير أن الحرس الهنود ابعدوه بالقوة مما آثار بعض العرب الذين تجمعوا وأهانوا عدداً من الضباط البريطانيين الموجودين بالوكالة. بل أن الوكيل البريطانى فى مخا وهو «الملازم دومنكيتى Lieutenant Domincetti» قد تعرض لاهانه من قبل «الدولة» حاكم مخا الذى استدعاه بالقوة فى وقت غير

(1) Marston, T. E. : Op. Cit., PP. 39, 40.

مناسب، كما هوجمت الوكالة وتعرضت للنهب والسلب، وقد اطلق حاكم مخا سراح الوكيل البريطانى وامر بترحيله الى الهند، واغلقت بطبيعة الحال الوكالة البريطانية فى المدينة.

وقد انتهزت حكومة بومباى هذا الحادث واستغلته لمصلحتها بعد مرور عامين من حدوثه خاصة وأنها كانت تنقب عن سبب مناسب يبرر تدخلها. وقد طلبت من أمام صنعاء ان ينزل العقاب بالحاكم السابق لمخا لمسئوليته عن تلك الحادثة، بل إن الحاكم العام للهند أمر بتوجيه قوة كافية الى مخا لتدعيم مطالب حكومة الهند البريطانية مستقبلا فى الميناء اليمنى. كما كانت تهدف حكومة «بومباى» الى فرض معاهدة على إمام صنعاء يوافق فيها على أن يكون للوكيل البريطانى فى مخا حرس خاص مثلما لنظيره فى البصرة وبغداد ويكون هذا الحرس من القوة بحيث يكفل للقيم الحماية والاحترام. كما أن كل العاملين فى الوكالة البريطانية يجب أن يكونوا تحت الحماية البريطانية وتابعين من الناحية القضائية للوكيل البريطانية. أما من الناحية التجارية فيجب انقاص نسبة الضرائب الجمركية على التجارة البريطانية من ٣ ١/٢ إلى ٢ ١/٤ ٪. وهذه المطالب دون شك كان من الصعب على الامام ان يتقبلها وهى تنتقص من سيادته وتضعف من ايراداته.

وقد اصدرت حكومة الهند البريطانية تعليماتها الى «الكابتن وليام بروس Captain William Bruce المقيم البريطانى فى «بوشهر» ليمثلها فى هذه المفاوضات، ولهذا ابحر «بروس» إلى مخا فى ٢٣ أغسطس ١٨١٩ برافقة أسطول قوى يقوده «الكابتن لملى» وقد تسلم «بروس» فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨١٩ اجابة امام صنعاء التى أبدى فيها مشاعره الودية، وانه ارسل مبعوثه الفقيه حسين للتفاهم معه. وقد طلب الفقيه حسين من المبعوث البريطانى مرافقته إلى صنعاء حيث يمكن احضار حاكم مخا السابق للتحقيق فى الواقعة غير أن «بروس» أوضح أنه

لحين تقديم الاعتذار المطلوب فانه لايمكنه التوجه إلى صنعاء[١].

وجدير بالذكر أن «وليم بروس» مبعوث حكومة الهند البريطانية للتفاوض مع امام صنعاء بشأن الوكالة البريطانية فى مخا قد طلب من «هنرى سولت» قنصل بريطانيا فى مصر -حينذاك تأكيد تبعية مخا لمحمد على، وكان هذا المطلب هو أول علامة مميزة للوجود المصرى فى اليمن، وأول استخدام للاساليب الدبلوماسية تقوم به شركة الهند الشرقية الانجليزية فى تعاملها وعلاقتها مع الحكومة المصرية[٢].

بل أن حاكم بومباى «الفنستون Elphinstone » طلب من «سولت» القنصل البريطانى فى مصر حينذاك تأكيد تبعية اليمن لمحمد على، واستئذانه – فى حالة الضرورة – فى قيام حكومة بومباى بمحاصرة الموانى اليمنية، وأن حدوث ذلك لايعنى وجود أية نية لدى البريطانيين لغزو اليمن[٣].

وقد أجاب «سولت» على «بروس» موضحا ان محمد على قد منح الامام الولايات التى سيطر عليها ابنه ابراهيم من «الدولة» حاكم الحديدة، مقابل كمية معينة من محصول البن اليمنى ترسل كخراج سنوى للباب العالى، وفضلا عن ذلك كان محمد على على علم تام بأهداف حكومة بومباى، وكان يأمل أن تقدم ترضية مناسبة من قبل الامام عن الاهانة التى الحقت بوكيل الشركة البريطانية فى مخا، وابدى استعداده للتوسط لحل هذه المشكلة فى الوقت الذى تحدده الشركة، مما يظهر تفوق مركزه فى اليمن حينذاك.

غير ان الحوادث تطورت بسرعة وظهر اثناءها اتجاه الامام ومبعوثه للمماطلة فى تحقيق المطالب البريطانية مما أدى بالمبعوث إلى توجيه تحذير للسفن الراسية فى مخا

(1) Playfair, R. L. : Op. Cit., PP. 134, 136.
(2) I. O., Egypt, V. 7, Bruce (Macha) to Salt, 10/6/20.
(3) I. O., Egypt, V. 7, Elphinstone to Salt, 6/8/20.

بأن الميناء محاصرة بقطع الاسطول البريطانى فى اليوم الثالث من شهر ديسمبر ١٨١٩ . وقد بدأ قصف الميناء بمدفعية الاسطول فى اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور حتى تم اسقاط البرجين الرئسيين المدافعين عن المدينة فى اليوم الثلاثين من نفس الشهر[١] واضطر حاكم مخا فى اليوم التالى إلى اصدار قرار يمنع أى شخص من اهانة الرعايا البريطانيين والاتعرض لعقوبات قاسية. كما لم يجد إمام صنعاء بدا من الموافقة على تخفيض نسبة الضرائب على التجارة البريطانية من ٣ ١/٢ ٪ الى ٢ ١/٤ ٪. واضطر الامام إلى توقيع المعاهدة التى اقترحتها بريطانيا فى ١٥ يناير سنة ١٨٢١ وارسل صورة معتمدة منها إلى المبعوث البريطانى فى ميناء مخا اليمنى.[٢]

على أنه يلاحظ فى نفس الوقت انه قد ظهر اهتمام قليل من قبل بريطانيا بميناء عدن فى سنة ١٨٢٠ عندما قام السلطان احمد العبدلى سلطان لحج وعدن بابلاغ القبطان «هينز» الذى وصل إلى ميناء عدن بأنه يرغب فى أن يكون للانجليز موطىء قدم فى تلك الميناء. وكان غرضه من ذلك دعم العلاقات التجارية مع شركة الهند الشرقية الانجليزية. كما أن السلطان العبدلى قام بابلاغ «هتشنسون Hutchinson» وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية فى مخا انه سوف يمنح الشركة حق انشاء وكالة بريطانية فى عدن نظير قيام بريطانيا بمساعدته ضد القبائل اليمنية المجاورة لسلطنته. وكان على «هتشنسون» أن يجيب عليه بقوله أن حكومة الهند لاترغب فى القيام بأية ترتيبات سياسية، ولكنها تقصر نشاطها على دعم العلاقات التجارية مع الموانى اليمنية[٣].

---

(1) I. O., Egypt, V. 7, Bruce to Salt, I/20/21.
(2) Craham, G. : Op. Cit., PP. 287, 288.
(3) Hutchinson To Henry Salt, January 24, 1823, See Marston, T. E. : Op. Cit., PP. 39, 40, 65.

وهكذا تمكنت بريطانيا من تدعيم نفوذها التجارى فى الموانى اليمنية المطلة على الجزء الجنوبى من البحر الاحمر، ونالت شركة الهند الشرقية الانجليزية مكانة تجارية ممتازة فى المنطقة. وبهذا استحوز البريطانيون فى وقت مبكر على مزايا تجارية هامة ضمنت فى معاهدة رسمية اضطر امام اليمن للتوقيع عليها تحت تهديد مدفعية قطع الاسطول البريطانى التى نفذت إلى البحر الاحمر[1]. كما أن معاهدة الصداقة والتجارة التى عقدتها بريطانيا مع سلطان لحج وعدن فى سنة ١٨٠٢ كانت بداية لسلسلة من المعاهدات المماثلة مع اهالى المنطقة لضمان المصالح التجارية البريطانية فى الطريق البحرى إلى الشرق عبر البحر الاحمر[2].

واذا كانت بريطانيا قد حققت هذا القدر من النجاح فى الجزء الجنوبى من البحر الاحمر، فانها لم تتمكن رغم الجهود التى بذلتها لاخراج الفرنسيين من مصر ان تحل محلهم، أو تبقى على قواتها محبوسة هناك بعد جلاء الفرنسيين، فأضطرت اخيرا إلى سحب قواتها من مصر بعد صلح اميان فى سنة ١٨٠٣. بل ان البريطانيين فشلوا فى تنفيذ خطتهم المبنية على تكوين حزب قوى موال لهم من المماليك ومساندته حتى يمسك بمقاليد الامور فى مصر لتحقق بريطانيا اغراضها عن طريقه. وكان البريطانيون قد اخذوا معهم عند انسحابهم «محمد الألفى» وهو أحد زعماء المماليك ليجعلوا منه نواة هذه القوة الموالية لهم. وقد عاد الألفى إلى مصر بعد أن نسق خططه مع الانجليز الذين زاد خوفهم من عودة نابليون اليها ثانية بعد أن ابرم معاهدة مع السلطان العثمانى فى سنة ١٨٠٦. ولهذا ارسل الانجليز حملة «فريز Frazer» فى سنة ١٨٠٧ للتثبت من عدم محاولة الفرنسيين العودة إليها فى الوقت الذى كان محمد على قد ظهر على مسرح الاحداث فيها وسيطر

(1) Playfair, R. L. : Op. Cit., PP. 137, 139.
(2) Ghorbal, S. : The Beginnings of The Egyptian Qustion and The Rise Of Mohamed Aly : P. 156.

على الموقف هناك تسانده قوة شعبية تصدت للبريطانيين فى رشيد. وقد شكل فشل حملة «فريزر» فى رشيد ضربة قوية للنفوذ البريطانى فى مصر خسرت بريطانيا عددا كبيرا من جنودها الذين اشتركوا فى تلك الحملة[1].

واذا كانت بريطانيا قد خسرت جولتها فى مصر سنة ١٨٠٧ فقد كان لها فى نفس الوقت السيادة البحرية الكاملة فى البحر المتوسط، خاصة وان البريطانيين كانوا قد احتلوا جبل طارق فى سنة ١٧٠٤[2] فسيطروا بذلك على مدخله الشمالى، كما انهم كانوا قد احتلوا ايضا جزيرة مالطه فى سنة ١٨٠٧ وهى نقطة استراتيجية هامة فى وسطه[3]، ثم انهم ضموها إلى مستعمراتهم بعد انعقاد مؤتمر فيينا فى سنة ١٨١٥.[4] بل أن بريطانيا اطمأنت بعض الشيء باتفاقها مع محمد على بشأن جلائها عن مصر، عندما تعهد بمقاومة أى محاولة أوربية تستهدف احتلال الاراضى المصرية أو المرور بها للوصول إلى الهند عبر البحر الاحمر[5].

ورغم جلاء الفرنسيين عن مصر فى سنة ١٨٠٢ فقد ظلت رغبتهم فى العودة اليها والتحكم فى طريق البحر الاحمر قائمة. ولهذا أوفد «بونابرت» الكولونيل سباستيانى Sebastiani إلى مصر للتعرف على نيات البريطانيين ولدراسة الاوضاع الجديدة هناك فى نهاية عام ١٨٠٢. وقد حاول «سباستيانى» أن يقوم بواجبه على خير وجه ونجح فى ذلك حتى اختير سفيرا لفرنسا لدى الدولة العثمانية فى سنة ١٨٠٦[6].

(1) Fortescue, J. W. : A History of The British Army, Vol. V., P. 17.
(2) A Red Book on Gibraltar, Issued by The Spanish Government, Madred, 1965, PP. 13, 16.
(3) George, H. B. : Op. Cit., PP. 13, 19.
(٤) حسن صبحى (دكتور) : التنافس الاستعمارى الاوربى فى المغرب ١٨٨٤ - ١٩٠٤، ص ١٥.
(5) Kirk, G. E. : A Short History Of The Middle East, P. 75.
(6) Hoskins, H. L. : British Routes To India, P. 61.

وقد ظل «نابليون» حتى نهاية حياته السياسية مهتما بمصر وبالطريق الموصل إلى الشرق عبر البحر الاحمر. وكان يرسل مبعوثيه لجمع البيانات والمعلومات الهامة ولعرقلة مصالح ومساعى اعدائه البريطانيين فى هذه المناطق.

وعندما فرغت فرنسا من تصفية مشاكلها الداخلية الناجمة عن الاوضاع غير المستقرة فيها، فضلا عن مشاكلها الخارجية مع الدول الاوربية التى نجمت عن الحروب النابليونية، فانها اخذت تبحث عما يعوضها عن مستعمراتها المفقودة[١].

ولاشك أن أنظار الفرنسيين قد اتجهت إلى المناطق الساحلية الهامة الممتدة من البحر الاحمر إلى الخليج العربى وكانت كلها لاتزال فى ايدى اصحابها العرب. وكانت فرنسا تدرك أن العقبات التى تواجه تحقيق اطماعها فى هذه الجهات تكمن بالدرجة الاولى فى الاطماع البريطانية المنافسة من ناحية، بالاضافة إلى العرب أصحاب البلاد الاصليين من ناحية أخرى.

وقد حاولت فرنسا أن تعيد العلاقات التجارية مع السيد سعيد سلطان زنجبار فى سنة ١٨١٧ بعد عودة «البوربون» إلى العرش، ورحب السلطان باعادة علاقاته القديمة مع فرنسا[٢]، غير أن الفرنسيين ارسلوا بعض سفنهم الحربية إلى زنجبار فى سنة ١٨٤٠ وطلبوا من ابن السلطان أن يصرح لهم باقامة بعض المبانى والحصون فى «موجاد يشو» و «برزوا» لخدمة اغراضهم التجارية. ولما اعتذر ابن السلطان وممثله «هلال» عن تلبية مطلبهم فقد ابحروا إلى المدينة نوسى بى Nossi-Be الواقعة على مقربة من ساحل مدغشقر الغربى حيث انزلوا قواتهم ونفذوا أغراضهم بالقوة.

وقد احتج السيد سعيد سلطان زنجبار مستنكرا العدوان الفرنسى، وأبرق إلى

(1) Coupland, R. : Op. Cit., P. 436.
(2) Coupland, R. : Ibid., P. 424.

«بالمرستون» ينبئه بما حدث وطلب مساندة بريطانيا له فى مقاومته لهذا العدوان والا سيضطر لمفاوضة الفرنسيين اذا لم تتحرك الحكومة البريطانية لمساعدته. غير أن بريطانيا لم تحرك ساكنا لنجدة سلطان زنجبار لانها لم تكن تهتم بالسلطان ذاته، بل كان يهمها بالدرجة الاولى حينذاك مواصلاتها فى البحر الاحمر والمحيط الهندى. وقد رأى البريطانيون فى هذه المحاولات الفرنسية فى تلك المناطق البعيدة مايشغل الفرنسيين عما هو اجدى وأهم، اذ طالما كانت التحركات الفرنسية بعيدة عن «ممبسا» جنوبا فهى لاتهدد المصالح البريطانية عبر طريق البحر الاحمر وهو مايهم بريطانيا فى المقام الاول بطبيعة الحال.

على أن ماأثار البريطانيين فعلا واقلقهم على مصالحهم فى جنوب البحر الاحمر فى اوائل القرن التاسع عشر تلك المنافسة الامريكية التى تمثلت فى جهود التجار الامريكيين من مواطنى «ماساتشوستس» الذين نافسوا التجار الهنود المنطلقين من المستعمرات الانجليزية فى الهند على التجارة الشرقية بوجه عام وتجارة البن اليمنى بوجه خاص[1]. كما حاول التجار الامريكيون منافسة التجار الهنود فى بيع المنسوجات القطنية، ونافسوهم أيضا فى صيد الحيتان من المحيط الهندى وشاركوهم فى تجارة الرقيق والبخور واللبان والصمغ والجلود والعاج. بل ان الامريكيين كانوا يجمعون مخلفات الطيور البرية « Guano » من جزر «كوريا موريا» المواجهة للساحل الجنوبى للجزيرة العربية، وذلك قبل قيام الحكومة البريطانية بمحاولتها الفاشلة لاخذ كميات من تلك المخلفات لاستخدامها فى تسميد الارض فى الجزر البريطانية نفسها.

وقد تبينت شركة الهند الشرقية الانجليزية منذ اوائل القرن التاسع عشر أن

(1) Coupland, R. : Op. Cit., P. 362.

الامريكيين يعتبرون منافسين جادين لها. فعلى الرغم من بعد بلادهم عن ميدان التجارة فى البحر الاحمر والمحيط الهندى، فانهم كانوا يحضرون من بلادهم النائية للاشتراك فى النشاط التجارى هناك. بل ان التجار الامريكيين اخذوا يرسلون سفنهم إلى الموانى اليمنية وخاصة ميناء مخا، حيث يحصلون على ثلاثة ارباع اجمالى محصول البن اليمنى الذى كان يبلغ فى عام ١٨٠٩ ثلاثة عشر ألف باله. وقد أدت منافستهم هذه فى مجال تلك التجارة إلى رفع سعر البالة من ٥٦ دولارا (أى حوالى ١١ جنيها استرلينيا) إلى ٧٥ دولارا (أى حوالى ١٥ جنيها استرلينيا). وقد قام التجار الامريكيون باستخدام الطريق الموصل إلى البحر الاحمر عبر طريق رأس الرجاء الصالح مع المرور بمحاذاة الساحل الشرقى لافريقيا. وقد وفر ذلك عليهم نفقات النقل التى كانت تحصل عليها شركة الهند الشرقية الانجليزية والشركات الفرنسية الاخرى التى اتخذت من جزر موريشيوس ورينيون Mauritius and Réunion قواعد لها.

وكان التجار الامريكيون على درجة فائقة من الهمة والنشاط على نحو مايمثله التاجر الامريكى «تشارلز ميليت Charles Millet » فقد ابحر هذا التاجر من بلاده بسفينته الشراعية المعروفة باسم «آن Ann » ووصل إلى ميناء مخا فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٢٦ ومعه حمولة ضخمة من البضائع القطنية والمسامير والتبغ حيث افرغ سفينته لدى التجار الذين كانوا يقومون ببيعها لحسابه حتى يعود اليهم فى رحلته التالية. وكان «ميليت» هذا يقوم بشحن سفينته بكميات هائلة من محصول البن اليمنى يأخذه مع إلى بلاده. ثم يعاود رحلاته إلى بلاد الشرق بصفة منتظمة. ويعتبر «ميليت» مثالا للتجار الامريكيين الذين كان لهم دور فعال فى التجارة الشرقية فى ذلك الحين[1].

---

(1) Waterfield, G.:Op. Cit., P. 30.

## جهود البريطانيين لمواجهة المنافسة الامريكية وغيرها في جنوبى البحر الاحمر:

وعلى هذا النحو من الجهود التى بذلها التجار الامريكيون للمشاركة فى التجارة الشرقية بوجه عام وتجارة البن اليمنى بوجه خاص منذ اوائل القرن التاسع عشر، فقد احس البريطانيون بانهم يواجهون منافسا خطيرا لمصالحهم فى جنوب البحر الاحمر والمحيط الهندى[1]، ففى خلال ثمانية عشر شهرا بين عامى ١٨٣٢، ١٨٣٤ وصلت إلى ميناء زنجبار على الساحل الشرقى لافريقيا ٣٢ سفينة امريكية عرجت كثيرات منها إلى جنوب البحر الاحمر، هذا فى الوقت الذى لم تصل إلى الميناء المذكور سوى سبع سفن بريطانية لاغير. وقد وصلت إلى ميناء مخا اليمنى مجموعة كبيرة من تلك السفن الامريكية لنقل كميات من البن اليمنى الذى كان يلاقى ترحيبا بالغا وسوقا رائجة فى الولايات المتحدة حينذاك[2].

ولاشك أن حكومة الولايات المتحدة الامريكية كانت تساند التجار الامريكيين فى جهودهم الرامية إلى مشاركة الانجليز بل منافستهم فى العمليات التجارية بالاسواق الشرقية بعد ان كانوا ينفردون باحتكارها منذ انشاء شركة الهند الشرقية الانجليزية فى عام ١٦٠٠. ومما يؤكد ذلك الاتجاه لدى حكومة الولايات المتحدة الامريكية هو قيامها بعقد اول معاهدة مع سلطان مسقط وزنجبار فى سنة ١٨٣٣ - حيث كانت سفنه تبحر بالتجارة فى ارجاء المحيط الهندى والبحر الاحمر وكانت تهدف إلى ضمان حسن سير عمليات التبادل التجارى مع التجار الامريكيين[3]. اما بالنسبة لسلطان مسقط وزنجبار فقد اقبل على عقد هذه المعاهدة بعد ان تبين

(1) Marston, T. E. : Op. Cit., P. 31.
(2) Waterfield, D. : Op. Cit., P. 41.
(3) Coupland, R. : Op. Cit., P. 365.

الفوائد الجمة التى ستعود عليه نتيجة لارتباطه مع التجار الامريكيين وحكومتهم بعد ان اصبح لهم دور فعال فى منافسة احتكار الانجليز للتجارة الشرقية فى المحيط الهندى والبحر الاحمر منذ اوائل القرن التاسع عشر.

وتشير بعض الدراسات الوثائقية إلى ان بريطانيا لم تكن تواجه منافسة من قبل الامريكيين حول ميدان التجارة الشرقية عامة وتجارة البن اليمنى على وجه الخصوص. بل انها واجهت نفس المنافسة من قبل محمد على الذى وصلت قواته الى تهامة اليمن لتعقب «تركجة بيلمز» المتمرد عليه والذى فر من الحجاز الى اليمن فى سنة ١٨٣٣. اذ وضح ان محمد على كان يبغى من الوصول الى تهامة اليمن حينذاك السيطرة على تجارة البن اليمنى المربحة، ومنافسة البريطانيين كذلك فى هذا الميدان. ومما يؤكد ذلك قيامه بفرض ضرائب باهظة على التجار التابعين لشركة الهند الشرقية الانجليزية بلغت نسبتها ٤/١ ٧٪ فى الموانى اليمنية.

ونتيجة لذلك فقد قام «اللورد بالمرستون» وزير الخارجية البريطانية بتوجيه تعليماته إلى «كامبل» القنصل البريطانى فى مصر فى اول مارس سنة ١٨٣٧ ليطلب بشكل قاطع من محمد على رفع القيود المفروضة على التجارة البريطانية على وجه السرعة، لان بريطانيا لن تسمح للمصريين بأن يواصلوا تطبيق هذا النظام الذى ينطوى على العداء الكامل للتجارة البريطانية، وانه اذا لم ترفع هذه القيود فان الحكومة البريطانية سوف تأخذ فى اعتبارها فورا اتخاذ كافة الاجراءات التى تضمن المحافظة على «شرف بريطانيا العظمى» وعلى مصالحها التجارية فى منطقة البحر الاحمر[١]. وهذا فى الوقت الذى كان الامريكيون يبذلون فيه جهدهم ويحصلون على نصف حجم التجارة الموجودة فى الموانى اليمنية فى ذلك الحين[٢].

(1) F. O. 78/318, From Polmerston To Campbell, March I., 1837.
(2) Waterfield, G. : Op. Cit., PP. 31, 32.

وقد أكد هذه الجهود الامريكية للسيطرة على التجارة اليمنية عامة وتجار البن بصفة خاصة فضلا عن عمليات النقل البحرى، ما أشار اليه «كامبل» القنصل البريطانى فى مصر الذى كتب إلى وزارة الخارجية البريطانية فى شهر نوفمبر سنة ١٨٣٧ مشجعا الحكومة البريطانية على تبنى فكرة الاسراع بامتلاك عدن، فى الوقت الذى قامت فيه لجنة «مجلس العموم البريطانى House of Commons Committee» باقرار اقامة خط بحرى للبواخر يربط انجلترا بالهند. وكان بعض الخبراء لايزالون يشيرون إلى استخدام مخا وسقطرى أو بريم أو كمران كمحطة للبواخر البريطانية على هذا الطريق فان «الكولونيل كامبل» اشار الى اهمية عدن فى هذا السبيل بقوله:

"It would not only prevent the possibility of any attempt by Mohammed Ali (Viceroy of Egypt) and others to extend their conquests beyond the Red Sea, but, moreover besides its advantageous position as a coal depot of our communication between Bombay and Suez, it would most probably throw the whole trade of Mocha coffee into that port, and give to England the whole command of that article a great quantity of which is at present bought by Americans(1)".

وهذا يعنى ان «كامبل» القنصل الانجليزى فى مصر كان يعتقد فى اوائل نوفمبر سنة ١٨٣٧ ان احتلال البريطانيين لعدن لم يمنع فقط اية محاولة محتملة يقوم بها محمد على وآخرين لمد نفوذهم فيما وراء البحر الاحمر، الى جانب موقع

(1) I. O., Factory Records, Persia, Vol. 58, Colonel Patrick Campbell, British Consul - General in Egypt in Egypt, To Lord Palmerston, Foreign Minister, Alexandria, Novemvber I. 1837.

عدن الممتاز كمحطة لتزويد البواخر الانجليزية بالفحم على طريق المواصلات البريطانية البحرية بين بومباى والسويس. بل انه رأى ايضا ان عدن فضلا عن ذلك ستجذب تجارة البن اليمنى والمربحة بأكملها من ميناء مخا، وتصبح بريطانيا مسيطرة تماما على تلك التجارة وتكسر احتكار الامريكيين لها بعد ان كانوا يستحوزون على كميات هائلة من محصول البن ويقومون بنقلها إلى الولايات المتحدة بواسطة السفن الامريكية.

وهكذا شكل التجار الامريكيون فى ذلك الوقت المبكر منذ بداية النصف الاول من القرن التاسع عشر واثناءه منافسا خطيرا للنشاط التجارى لشركة الهند الشرقية الانجليزية فى منطقة البحر الاحمر والمحيط الهندى رغم بعد الولايات المتحدة الامريكية عن البحار الشرقية. وقد وجه ذلك البريطانيين إلى ضرورة السيطرة على عدن للاستئثار بتجارة البن اليمنى بعد تحويلها من مخا إلى ذلك الميناء، فضلا عن احتكار الاسواق التجارية بمنطقة البحر الاحمر لتحطيم المنافسة الامريكية وغيرها بعد أن بدت خطورتها بشكل ملحوظ.

وجدير بالذكر أنه قد نشب تنافس حاد بين المصريين والبريطانيين فى اعقاب احتلال بريطانيا لعدن حول تجارة البن اليمنى على وجه الخصوص. ففى نهاية شهر فبراير سنة ١٨٣٩ توجه إلى عدن مبعوث الشيخ الشرزبى حاكم اقليم الحجرية اليمنى ليوضح ان الشيخ الشرزبى يرغب فى زيارة «هينز» المقيم السياسى البريطانى فى عدن بعد ان تلقى عدة رسائل من الحاكم المصرى فى اليمن يعرض منحه مكافآت عظيمة ووعودا كريمة اذا هو سلم اقليمه للمصريين. واوضح مبعوث الشيخ الشرزبى ايضا ان رئيسه يرغب فى ان يتفق مع الانجليز لتجد صادرات اقليمه الخصب طريقا ومخرجا لها عبر عدن وليس طريق الموانى اليمنية الاخرى التابعة

لحكم محمد على مثل ميناءى مخا والحديدة. كما اوضح ايضا ان الحاكم المصرى فى تهامه حذر الشيخ الشرزبى بانه اذا توجه إلى عدن فان الانجليز سوف يقبضون عليه نظرا لما بين الجانبين المصرى والانجليزى حينذاك من علاقات طيبة.

وقد اوضح «هينز» لرئاسة بومباى ماحدث موضحا انه ليس من المستغرب ان السلطات المصرية ستكون قلقة للغاية لحرصها على امتلاك اقليم الحجرية. اذ كان دخل هذا الاقليم من محصول البن اليمنى فقط من خلال تصديره عبر ميناء مخا يبلغ ٦٠,٠٠٠ ستون الف دولار (أى مايعادل ١٢,٠٠٠ جنيه استرلينى) سنويا وأن المصريين كانوا على علم تام بأن الشيخ الشرزبى اذا وجد معبراً لتجارة البن غير عدن، فان ميناء مخا الذى يسيطرون عليه ستقل قيمته كثيرا، وان تلك الخطوة ستشكل الخطوة الاولى نحو الانهيار الاقتصادى الذى كان لابد من حدوثه فى مخا اذا استمر العلم البريطانى يرفرف على ميناء عدن[1] ولهذا فقد عقد «هينز» مع الشيخ عون بن يوسف الشرزبى شيخ الحجرية المعاهدة التى حددت أن ما يرتضيه البريطانيون فى عدن سيكون محل التنفيذ[2]. وواضح من ذلك ان الشيخ الشرزبى حاكم الحجرية كان يعتقد ان التعامل مع البريطانيين سوف يوفر عليه كثيرا من الضرائب التى فرضتها الادارة المصرية على الصادرات بعد ان اصلحت الموانى اليمنية من جهة، فضلا عن خشيته من احتكار محمد على لمحصول البن اليمنى الهام من جهة اخرى.

واذا كان قد سبق ان أثير حوار علمى بعيد المدى حول تحديد ماهية الدوافع الحقيقية لاحتلال البريطانيين لعدن فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩. ورؤى انها تتلخص

(1) I. O., Secret Department. Bombay, To Secret Committee Vol, 6, February 25, 1839.
(2) I. O., Bombay Secret Proceedings, Haines To Bombay Government, April 13, 1854.

فى رغبة البريطانيين فى استخدام عدن محطة لتموين السفن البريطانية بالفحم والمياه والمؤن اللازمة، نظرا لموقعها المتوسط بين بومباى والسويس من جهة، وصلاحية مينائها للملاحة طوال فصول السنة. كما اتخذها البريطانيون مركزا لوقف توسع محمد على وتصفية نفوذه فى الجزيرة العربية حتى لايهدد طريقى مواصلاتهم الى الهند عبر الخليج العربى والبحر الاحمر على السواء. بل ان البريطانيين رأوا ان عدن يمكن ان تكون قاعدة دفاعية امامية فيما [1] وراء نطاق حدودهم لمواجهة المنافسة الضاريه من قبل روسيا القيصرية التى كانت تسعى للوثوب على المصالح البريطانية عبر استانبول والعراق وايران من جهة، ومن قبل فرنسا التى كانت تتسلل لتحقيق غاياتها بضرب بريطانيا فى الشرق عبر البحر المتوسط ومصر من جهة اخرى هذا فضلا عن الدور الذى كانت تلعبه النمسا ايضا فى ذلك الحين محاولة السيطرة على جزيرة سقطرى الواقعة امام القرن الافريقى وعند المدخل الجنوبى لخليج عدن من جهة ثالثة على نحو ماورد بتصريحات بعض المسئولين البريطانيين فى ذلك الحين[2]. أما مسألة جنوح السفينة الهندية «دوريا دولت» على الساحل اليمنى القريب من عدن وتعرضها للنهب وطلب الانجليز الحصول على التعويض اللازم من سلطان لحج وعدن، ثم نقل ملكية عدن الى الحكومة البريطانية ورفض السلطان ذلك ، فلم يكن هذا الحادث سوى ذريعة للاحتلال ومن نوع الاحداث المناسبة للاستثمار لخدمة الاهداف البريطانية خدمة ممتازة[3].

اذا كانت هذه الدوافع كلها قد أدت الى احتلال البريطانيين لعدن، فإن رغبة البريطانيين فى الاستحواز على التجارة اليمنية بوجه عام، واحتكار تجارة البن اليمنى المربحة حينذاك بشكل خاص، وتحطيم المنافسة الامريكية فى هذا المجال بعد أن

(1) Graham, G. S. : Op. Cit., PP. 301, 306.
(2) Marston, T. E. Op. Cit., P. 58.
(3) Graham, G. S. : Op. Cit., P. 393.

بدت خطورتها بشكل ملحوظ، تعتبر من اهم دوافع البريطانيين لاحتلال عدن فى نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر.

وبعد احتلال البريطانيين لعدن فى ١٩ يناير سنة ١٨٣٩ ونجاحهم فى اخراج المصريين من اليمن وفقا لقرارات مؤتمر لندن فى سنة ١٨٤٠ فقد قام محمد على بتسليم منطقة تهامه القريبة من عدن والممتدة على الساحل اليمنى المطل على البحر الاحمر [١] للشريف الحسين بن على بن حيدر حاكم ابى عريش عاصمة المخلاف السليمانى بشمالى اليمن ليحكمها ممثلا عن الباب العالى [٢].

وتجدر الاشارة الى ان الحسين بن على بن حيدر حاكم تهامه الجديد قد فرض ضرائب باهظة على التجار والاهالى فى المناطق التابعة له بحجة انه يقوم باعداد جيش كبير يهاجم به عدن لينتزعها من أيدى البريطانيين.

كما رفع الحسين نسبة الضرائب على البضائع البريطانية فى ميناء مخا حتى بلغت ٧٪ من قيمتها. بل انه أهان الرعايا البريطانيين فى مخا ورفض ارسال المؤن اللازمة الى عدن. ثم ذهب الى أبعد من ذلك عندما انزل العلم البريطانى عن مبنى الوكالة الانجليزية فى مخا [٣]، وأرسل خطابا الى المقيم السياسى البريطانى فى عدن فى شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ اتهم فيه «عبد الرسول» وكيل البريطانيين فى مخا بأنه «كاذب ومنافق»، كما اتهم الانجليز بأنهم يعملون على تخفيض الضرائب بما يؤثر تأثيرا سيئا على دخل حكومته فى تهامة اليمن [٤].

وعندما علمت حكومة لندن وخاصة وزارة الخارجية البريطانية، عن طريق

(1) Douin, G. Histoire de Régne du Khédive Ismail Tome III, 1 ére Partie, P. 233.
(2) Marston, T. E. Op. Cit., P. 100.
(3) F. O., 78/3/85, Haines To Secret Committee, 9/14/40.
(4) Marston, T. E. Op. Cit., P. 102.

«مجلس شئون الهند India Board» الذى كان يدير شئون شركة الهند الشرقية فى لندن، بالتصرفات العدائية التى قام بها الشريف حسين حاكم تهامه ضد الوكالة البريطانية فى مخا، فقد ثارت ثورة عارمة حفاظا على مصالح بريطانيا فى البحر الاحمر. ولما كانت وزارة الخارجية البريطانية لا تعلم حقيقة الاوضاع القائمة فى المنطقة واستنادا الى ان كل ما فتحه محمد على فى الجزيرة العربية قد آل الى الدولة العثمانية، فان الوزارة قد احتجت على الباب العالى فى الآستانة[1]. وقد سارع الباب العالى الى ارسال أشرف بك الى مخا لاقرار الامور بما يتفق والمصالح البريطانية. وقد مر بمصر اثناء توجيهه الى مخا فى شهر مارس سنة ١٨٤٢[2] واعطيت له صلاحيات عزل الشريف حسين نفسه اذا استدعت الضرورة ذلك على نحو ما أخطرت الحكومة البريطانية «هينز» بذلك فى شهر مايو من تلك السنة[3].

وعلى أية حال فقد ضاق اهالى تهامة بعبء الضرائب التى فرضها الحسين عليهم فى تهامة، فضلا عن الضرائب التى فرضها على البضائع الانجليزية وبدأوا يفرون من مخا والحديدة متجهين الى عدن. وقد انتشرت فى عهد الحسين الامراض فى اليمن مما جعله يخشى على رجاله ويصدر اوامره لجميع السفن الراسية فى مخا والحديدة بافراغ شحناتها ونقل المرضى فقط الى عدن، وقد بلغ معدل الداخلين الى عدن شهريا حوالى ألف ومائتين من سكان تهامة.

(1) I. O., B. S. C. 1842, Government of India To Bombay, 2/28/42, Enclosing Aberdeen To Fitzgerald, 12/22/41.
(2) F. O., 78/502, Barnett To F. D., 3/20/42.
(3)

وقد ترتب على ذلك ان ازداد تعداد السكان فى عدن وبدأت المدنية تتوسع لتستقبل المهاجرين والتجار والداخلين اليها حتى بلغ عدد منازل المدينة ألفى منزل بنيت من الحجارة والطين فوق بقايا مدينة عدن القديمة. وفى سنة ١٨٤٢ بلغ تعداد سكان عدن خمسة عشر ألف نسمة وانتعشت المدينة واستعادت بعض مجدها الغابر، خاصة بعد ان اصبحت ميناء حرا مفتوحا للتجارة فى سنة ١٨٥٠[1].

وقد اجرى احصاء رسمى لسكان عدن سنة ١٨٥٦ ووجد ان تعداد السكان حينذاك قد بلغ ٢٠,٦٥٤ نسمة. وفى سنة ١٨٧٢ اجرى احصاء آخر فى عدن اظهر مدى التزايد المستمر فى تعداد السكان الذى بلغ حينذاك ٢٩,٢٨٩ نسمة. وكان تعداد الجنود بينهم ٣,٤٣٣، اما بقية السكان فكان بينهم ٨,٢٤١ يمنيا، و٤,٣٤٦ صوماليا، ٢,٦١٤ هنديا مسلما، و١,٤٣٥ يهوديا، و٨٥١ هنديا من البانيان غير المسلمين، و ١٨٢ بريطانياً مدنيا. اما الباقون فكانوا من الاتراك والمصريين والاكراد والصينيين وبعض الاوربيين، وامريكى واحد فقط. وكان ذلك الامريكى هو «المستر وليم لوكرمان» الذى كان يشتغل بالتجارة. وقد عينته حكومة الولايات المتحدة الامريكية قنصلا فخريا فى عدن فى سنة ١٨٧٩، غير ان القنصلية الامريكية الرسمية انشئت فى سنة ١٨٩٥، وكان القنصل الرسمى فى عدن حينذاك هو «مستر ماسترسن[2]».

ولاشك ان تزايد سكان عدن على النحو المشار اليه انما يؤكد حرص البريطانيين على تنشيط تلك المدينة بحيث تجتذب النشاط التجارى من الموانى

---

(١) حمزة على ابراهيم لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، ص ٢٢١.

(٢) حمزة على ابراهيم لقمان: نفس المصدر، ص ٢٢٢.

اليمنية الاخرى أمثال مخا والحديدة وكان ذلك نتيجة طبيعية لجهود البريطانيين فى كسر احتكار التجار الامريكيين للتجارة اليمنية عامة وتجارة البن اليمنى على وجه الخصوص. وقد واجه البريطانيون مواقف الشريف الحسين بن على بن حيدر حاكم تهامة بتركيز جهودهم لنقل النشاط التجارى من موانيه ليتركز هذا النشاط فى عدن. واتفق مع البريطانيين فى هذا الموقف امام صنعاء الذى كان يعادى الحسين ويرغب فى استرجاع تهامة من قبضته ومن تبعيتها للدولة العثمانية. غير ان المقيم السياسى البريطانى فى عدن «هينز Captain Haines» لم تكن لديه تعليمات بعقد اتفاق مع امام صنعاء للتعاون عسكريا ضد الشريف الحسين حاكم تهامة، وهذا قد جعله يرد محاولتين من جانب الامام لطلب التعاون. غير أنه عرض على الامام أن يفتح ميناء عدن لتصدير البن اليمنى بدلا من تصديره عن طريق مخا. بل أن المقيم السياسى «هينز» اخطر المجلس السرى The Secret Board لشركة الهند الشرقية الانجليزية فى ١٠ ابريل سنة ١٨٤٢ بأن إمام صنعاء عاد مرة اخرى وعرض عليه تعاون بريطانى يمنى لحصار ميناء مخا فى مقابل تنازل الامام لبريطانيا عن تهامة بعد تخليصها من حكم الحسين[١]. وقد وصل الامر بالامام الى هذا الحد نكاية بالحسين نظرا لانه لم يكن قادرا على التغلب عليه حينذاك.

وفى نفس الوقت وجه الشريف حسين ضربة اقتصادية ضد البريطانيين فى عدن عندما هبط بالضريبة الجمركية على البن المصدر من مخا على السفن الامريكية الى ٣٪ فقط، بل انه تنازل ايضا عن رسوم الرسو فى الميناء فى سنة ١٨٤٢. وكان يهدف من وراء ذلك الى توجيه عمليات تصدير البن الى مخا بدلا من عدن حتى انه اقنع «مستر ويب Mr. Webb» قائد السفينة الامريكية «راتلر

(1) Marston, T. E. Op. Cit., PP. 103, 105.

Rattler» بأخذ شحنات البن اللازمة له بصفة دورية من مخا[1] .وكان طبيعيا ان يرحب هذا التاجر الامريكى باستيراد البن من مخا بدلا من عدن بتلك الشروط المرضية، وحتى يتفادى منافسة البريطانيين للامريكيين فى هذا المجال.

وازاء هذا الموقف فقد رأت حكومة الهند البريطانية ان تسعى من جانبها لاقامة علاقات ودية مع الحسين بن على بن حيدر بعد ان ملك زمام الامور فى تهامة محاولة استرضاءه . ولهذا اصدرت تعليماتها الى «كابتن مورسبى Captain Morsby» لتتقدم تجاه ميناء مخا لمحاولة استرضاء الشريف حسين واقامة علاقات ودية معه. وقد نجح «كابتن مورسبى» فى الاتفاق مع شريف مخا وعقد معه معاهدة تجارية تتفق والمصالح البريطانية فى البحر الاحمر[2]. وكانت السياسة البريطانية قد اتجهت حينذاك الى اغفال امر الدولة العثمانية صاحبة السيادة فى سواحل البحر الاحمر، وشرعت تتحالف مع بعض شيوخ تلك المناطق او صغار امرائها وتحصل منهم على صك بالتنازل عن بعض الاماكن التى فى حوزتهم [3]. وقد تمكنت بريطانيا من وضع اقدامها فى تلك الارجاء باتباعها لهذه السياسة.

وعندما قتل امام صنعاء فى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٩ فقد تعرضت اليمن لحالة من الفوضى والاضطراب، وتوقفت الطرق المؤدية الى مخا والحديدة. بل ان الضرائب الباهظة التى فرضها الترك فى مخا أدت الى توقف الحركة التجارية بها وتدفقت التجارة بعد ذلك الى عدن فى سنة ١٨٥٠ [4]مما ادى الى زيادة عدد سكانها على النحو الذى أشرنا اليه نتيجة لانتعاشها من الناحية التجارية على وجه الخصوص.

---

(1) I. O., B. S. C., 1842, Haines To Bombay, 5/31/42.
(2) I. O., B. 8.
(٣) محمد صبرى (دكتور) : مصر فى افريقية الشرقية، مرجع سابق، ص ١٧.
(4) Marston, T. E. Op. Cit., PP. 152, 153.

وجدير بالذكر ان العثمانيين بعد ان استقروا فى تهامة فى سنة ١٨٤٩ حاولوا ان يسيطروا على مناطق انتاج البن لتحويل تصديره الى مخا والحديدة بدلا من عدن. غير انهم لم يوفقوا فى ذلك نظرا لرفض القبائل الزيدية للسيطرة التركية على بلادهم. واصبح لذلك معظم محصول البن اليمنى يصدر لخارج اليمن عن طريق عدن حيث يتفادى التجار دفع الضرائب التى كان يفرضها الاتراك على ميناءى مخا والحديدة، مما ادى الى اضمحلال الحركة التجارية فيهما، وأثر ذلك بالتالى تأثيرا بالغا على اقتصاديات اليمن.

وقد حدث ذلك فى الوقت الذى حرص فيه البريطانيون على ان يظل ميناء عدن حرا[1] «Free port» كما أن الغالبية العظمى من السفن اتجهت الى ميناء عدن وفضلته عن غيره لاعتبارات معينة. اهمها ان الرسو فى عدن يوفر على التجار دفع ضريبة قدرها ٥٪ للجمرك العثمانى بالنسبة للسفن البريطانية. أما بالنسبة للسفن غير البريطانية فكان عليها ان تدفع ضريبة قدرها ١٢٪ الى جانب ضريبة اخرى تدفع على كل بالة بن. هذا فضلا عن ان الرحلة فى البحر الاحمر كانت خطيرة نسبيا نظرا لكثرة الشعاب المرجانية وكان يمكن تجنبها او اختصارها اذا ما اتيحت لتلك السفن فرصة الرسو فى ميناء عدن[2].

وهكذا تحولت مخا الى مدينة خاملة واصبحت تجارتها ضئيلة ودخلها تافه، كما ان القلة الباقية فيها من سكانها كانوا على استعداد للرحيل الى عدن اذا ما سمح لهم بذلك. وكان «هينز» المقيم السياسى البريطانى فى عدن حينذاك يرقب كل ما يدور عند المدخل الجنوبى البحر الاحمر وفى الموانى الواقعة هناك. وقد ابلغ حكومته فى بومباى فى شهر مايو سنة ١٨٥٠ عن حالة الانهيار التى اعترت ميناء

(1) Waterfield, G. : Op. Cit., P. 200.
(2) Marston, T. E.;Op. Cit., P. 159.

مخا اليمنى[١] ،مما سيؤدى بالتالى الى ازدهار النشاط التجارى فى عدن نتيجة لهجرة معظم سكان مخا اليها. وقد تحولت كل تجارة البن اليمنى المتجمعة من جميع مناطق انتاج البن فى اليمن الى ميناء عدن فى سنة ١٨٥٢ حيث اصبح يتم تصديره الى اوربا وامريكا من هناك. وقد بلغت كميات البن المنقولة من مناطق زراعتها الى عدن فى السنة المذكورة اربعة آلاف حمولة، وكل حمولة منها كانت زنتها ثلاثمائه رطل . وقد جذبت تجارة البن اليمنى الى عدن تجارة الامريكيين الضخمة التى بلغ حجمها اكثر من ٢٨,٠٠٠ ثمانية وعشرون الف جنيه استرلينى فى سنة ١٨٥٢ ، كما تضاعف حجمها فى العام التالى. هذا مع العلم بأن الحجم الكلى للتجارة فى عدن كان يقدر حينذاك بحوالى ٦٠٠,٠٠٠ ستمائة الف جنيه استرلينى سنويا[٢] . وكان ذلك دليلا على نجاح الانجليز فى كسر احتكار الامريكيين لتجارة البن اليمنى التى كان يعتبر ميناء مخا مركزها الرئيسى خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر، واصبحت هذه التجارة فى قبضة الانجليز وتتم تحت اشرافهم فى ميناء عدن بعد سيطرتهم عليها فى عام ١٨٣٩[٣] .

واذا كانت البحوث السابقة لم تلق على موضوع « المنافسة البريطانية الامريكية فى جنوب البحر الاحمر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر القدر الكافى من الضوء الجديد بأهميته، فأننى ارجو ان اكون بهذا البحث قد جمعت خطوط الضوء وركزتها حول هذا الموضوع الهام، رغم ضآلة المادة العلمية التى خلفتها لنا عنه المصادر التاريخية المختلفة.

---

(1) Marston, T E.:Ibid., P. 162.
(2) I. O., Haines To Bombay, May 29, 1952, Letters From Aden, Vol. 32.
(٣) فاروق عثمان اباظة (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر، ١٨٣٩ – ١٩١٨، ص ١٤٩.

# ثبت المصادر والمراجع

## أولا - باللغة العربية

### (أ) الوثائق:

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة اسكندرية الشرعية سجل مبايعات رقم (١) ، من ٢٤ شعبان ٩٥٧ هـ - ١٥٥٠م الى ١٧ شعبان ٩٥٨هـ / ١٥٥١م.

### (ب) المخطوطات:

- ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود (ت سنة ١٠٠٧هـ/ ٨ - ١٥٩٩م) : «الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية» مخطوطة مصورة على ميكروفيلم محفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٣٥٦. وهى مصورة عن الاصل المحفوظ بمكتبة راغب باشا باستانبول تحت رقم ٠٩٧٩ وتتكون من جزئين فى ثلاثة مجلدات، وتتناول تاريخ اليمن منذ القدم حتى عهد السلطان العثمانى مراد الثالث (١٥٦٤ - ١٥٩٥م).

- ابن الديبع، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى (٨٦٦ - ٩٤٤هـ / ١٤٦١ - ١٥٣٧م) : «الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار مدينة زبيد» ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ ، وتتناول تاريخ اليمن فى الفترة الممتدة بين (٩٠١ - ٩٢٣ هـ / ١٤٩٥ - ١٥١٧م).

- ابن اياس، محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، خمسة اجزاء، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤م.

- بامخرمه، ابو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ هـ - ١٩٤٠م): قلادة النحر فى وفيات اعيان الدهر، مخطوطة رقم ٨٨ بمكتبة بنى جامع باستانبول، مصورة برقم ١٦٧ تاريخ بدار الكتب القاهرة.

- عيس بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى (ت ١٤٠٨هـ/ ١٦٣٨م): «روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح» مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ تاريخ م، وتقع المخطوطة فى ثلاثة اجزاء وتتناول تاريخ اليمن منذ مطلع القرن (١٠ هـ/١٦م).

- قطب الدين النهروالى، محمد بن احمد الحنفى المكى، مفتى مكة فى عصره والمتوفى سنة ٨٩٩هـ - ١٥٨٠م: «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٤١٤ تاريخ، وتناول تاريخ اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى حتى نهاية حملة سنان باشا الوزير على اليمن. وقد أشرف على نشر المخطوطة حمد الجاسر لأول مرة عام ١٩٦٧.

- ————: « الاعلام بأعلام بلد الله الحرام». القاهرة، المطبعة العامرة العثمانية، ١٠٢٣ هـ (١٨٨١).

- الموزعى ، شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد: نائب الشريعة فى مدينة تعز. لم يعرف تاريخ وفاته ويرجع أنه كتب مخطوطته فى عهد السلطان عثمان الثانى (١٦٨ - ١٦٣٢م)» الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان، مخطوطه مصورة محفوظه بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩ وهى منقولة من نسخة الميكروفيلم المحفوظ بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية. الميكروفيلم مصور من نسخة مكتبة على اميرى باستانبول.

- يحى بن الحسين بن الامام القاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ -

١٧٨٩م) : «انباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن» مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ، وتتناول عرض الاحداث منذ الهجرة النبوية حتى عام ١٠٥٦ هـ (٦ - ١٦٣٧م).

**(جـ) بحوث ومؤلفات منشورة:**

ابراهيم شحاته حسن (دكتور) : وقعه وادى المخازن فى تاريخ العرب ٩٨٦هـ/١٥٧٨م قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية فى القرن السادس عشر الميلادى، دار الثقافة الدرار البيضاء - ١٩٧٩.

ـــــــــــــ: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة فى تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠ - ١٩٤٧)، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٨١.

ابراهيم على طرخان (دكتور): مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٧٢-١٥١٧)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠.

اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، جـ٢ ، الطبعة الاولى ١٣١٤هـ.

احمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين، الطبعة الاولى، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٦٣.

أحمد فضل بن على محسن العبدلي: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن المطبعة السفلية، القاهرة ١٣٥١هـ.

أحمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس، الاسكندرية ١٩٦٨.

بانيكار، ك.م.: آسيا والسيطرة الغربية، تعريب عبد العزيز جاويد، ومراجعة احمد

خاكى، دار المعارف بالقاهرة.

باول أينتسيج : نظام أوربا الجديدة، ترجمة احمد عبد الخالق ومحمد بدران، القاهرة ١٩٤١.

بدر الدين الخصوصى (دكتور) : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٤.

بسام العسلى : نابليون بونابرت (١٧٦٨ – ١٨٢١) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

———— : جورج واشنطن (١٧٣٢ – ١٧٩٩) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

———— : الأميرال نلسون (١٧٥٨ – ١٨٠٥) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

بول هازار : الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر من منتسكيو إلى ليسنج، الجزء الأول، نقله إلى العربية الدكتور/ محمد غلاب والدكتور/ ابراهيم بيومى مدكور، الادارة الثقافية فى جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٧.

الجرافـــى : عبد الله بن عبد الكريم: المقتطف من تاريخ اليمن، مطبعة الحلبى، القاهرة ١٩٥١.

جلال يحيى (دكتور) : فجر التاريخ الحديث، الاسكندرية، ١٩٧٦.

————: عصر النهضة والعالم الحديث، الاسكندرية، ١٩٧٩.

جلال يحيى (دكتور)، وجاد طه (دكتور) : معالم التاريخ الأوربى الحديث، منشأة المعارف الاسكندرية.

جمال الدين محمد اسماعيل (دكتور) : التطور الاقتصادى فى أوربا ، القاهرة ١٩٥٣.

جورج ليفيبر : عصر الثورة الفرنسية، تعريب الدكتور جلال يحيى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الأسكندرية، ١٩٧٩.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : الاسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى، دار الفكر الجامعى، الاسكندرية، ١٩٨٦.

جيـــــــــان: وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية، نقلة الى العربية يوسف كمال، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٢٧.

حسن صبحى (دكتور) : معالم التاريخ الأمريكى والأوربى الحديث، ١٤٩٢ - ١٩١٧ ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٦٨.

حسن عثمان (دكتور) : منهج البحث التاريخى، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠.

حمزة على ابراهيم لقمان: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة ، القاهرة ١٩٦٠.

سعاد ماهر (دكتوراه) : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : الحركة الصليبية، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة ج الأولى - جزآن ، القاهرة ١٩٦٣.

ــــــــــــــــ: أوربا العصور الوسطى، جزآن، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨.

ـــــــــــــــ: اضواء جديدة على الحروب الصليبية، العدد ١١٨، المكتبة الثقافية، القاهرة ١٩٦٤.

السيد مصطفى سالم (دكتور): الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩.

الشاطر بصيلى عبد الجليل: الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال فى المحيط الهندى وشرق افريقيا والبحر الاحمر، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٢.

صلاح الدين البكرى اليافعى: فى جنوب الجزيرة العربية، مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٩٤٩.

صلاح العقاد (دكتور) التيارات السياسية فى الخليج العربى، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة، ١٩٦٥.

عبد الحميد الطريق (دكتور): من تاريخ اليمن الحديث ١٥١٧ - ١٨٤٠ معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٩.

عبد العزيز سليمان نوار (دكتور): الشعوب الاسلامية، دار النهضة العربية، ببيروت ١٩٧٣.

ـــــــــــــــ: تاريخ العرب المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٣.

عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) وعبد المجيد نعنعى (دكتور): التاريخى المعاصر - أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة العربية للطباعة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣.

عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور): اوربا فى مطلع العصور الحديثة، مكتبة الانجلو المصرية، الجزء الاول، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٧.

ـــــــــــــــــــــ: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ثلاثة اجزاء مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٣ .

العقيلي، محمد بن احمد عيسى: تاريخ المخلاف السليماني او الجنوب العربي في التـاريخ، جـزآن ، الجـزء الاولى طبع بمطابع الرياض (١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م) ، الجـزء الثـاني طبع بمطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة (١٣٨٠هـ / ١٩٦١م) .

ـــــــــــــــــــــ: المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية نشرتها لجنة تدوين تاريخ قطر - الدوحة - قطر ٢١ - ٢٨ مـارس سنة ١٩٧٦ .

عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦ .

ـــــــــــــــــــــ : تاريخ المشرق العربي (١٥١٦ - ١٩٢٢)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦ .

فاروق عثمان أباظة (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، ١٨٣٩- ١٩١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦ .

فيشر هـ . أ. ل: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، تعريب محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، ١٩٦٩ .

ـــــــــــــــــــــ: تاريخ أوربا في العصر الحديث ١٧٨٩ - ١٩٥٠ . تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة، ١٩٦٤ .

محمد صبرى (دكتور) : مصر فى افريقيا الشرقية ، هرر زيلع وبربره، ١٩٣٩.

محمد عبد العال أحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملامح فاسكو دى جاما، مجلة معهد الدراسات والبحوث الافريقية بجامعة القاهرة، العدد الخامس ١٩٧٦.

ـــــــــــــــــــ: البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمنى بامخرمه كما سجلها فى مخطوط «قلادة النحر» دراسة وتحقيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية ١٩٨٠.

محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) : فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولى من البرالى البحر، مكتبة دار التراث، القاهر ١٩٧٩.

محمد محمود السروجى (دكتور) : تاريخ أوربا الدبلوماسى، الاسكندرية ١٩٦٦.

ـــــــــــــــــــ: سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثورة العسير ١٨٦٤ - ١٨٦٦، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد التاسع، ديسمبر ١٩٥٥.

ـــــــــــــــــــ: سياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ الاستقلال الى منتصف القرن العشرين الاسكندرية ١٩٦٥.

ـــــــــــــــــــ: معالم التاريخ الأوربى الحديث، مطبعة المصرى بالاسكندرية ١٩٦٧.

محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ، القاهرة ١٩٥٩.

محمد مصطفى صفوت (دكتور) : الجمهورية الحديثة، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٥٨.

محمود سعيد عمران (دكتور) : الحملة الصليبية الخامسة ، حملة جان دى برين على مــصــر، ١٢١٨ - ١٢٢١م / ٦١٥ - ٦١٨ هـ. الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية ١٩٧٨ .

المليارى، زين الدين المعبدى: تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتكاليين، نشره داود لويس لشبونه ١٨٩٨ .

هارتمان، ل. م. وبارا كلاف، ج : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠ .

الهمدانى، ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٣ .

الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن، ط٢، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٤٧ .

## ثانيا : باللغات الأجنبية

**(أ) وثائق لم يسبق نشرها:**

– مختارات من سجلات وزارة الخارجية البريطانية (F.O.) المحفوظة فى (P.R.O).

– مختارات من سجلات وزارة الهند البريطانية (I.O.) المحفوظة فى (P.R.O).

**(ب) وثائق منشورة:**


- Aitchison, C.U.: A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads relating to India and the Neighbouring contries, 12 Vols., Calcutta 1982.
- A Red Book on Gibraltar, Issued by the Spainsh Government, Madrid, 1965.
- Hurewitz, J.C.: Diplomacy in the Near and Middle East, . Cols, New York, 1956.


**(جـ) بحوث ومؤلفات منشورة:**


- Acton, Lord: Lectures on the French Revolution, 1910.
- Alvarez, F.: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the years 1520 - 1527. Translated and Edited by Iord Stanley of Alderly London, Haklyot Society, 1881.
- Alkinson, W.C.: A History of Spain and Portugal, Pelican B. 1970.

- Briggs, M., Economic History of England .

- Commager, H. S. : The History of the United States, 1951. : Kiving Ideas in America.

- Coolidge, A. C. : The United States as A Worled Power, N. Y. 1918.

- Coupland, R.: East Africa and Its invaders, Oxford, Clarendon press, 1938.

- Crichton, A. History of Arabia, Ancient and Modern, Edinburgh 1934.

-Denison, R.E.: The Portuguese in India and Arabia, J.P.A.S., part 1., January 1922.

- Elson, H.: History of the United States of America, N.Y. 1927.

- Epstein, N.: Early History of the Levant Company, London.

- Ferrand, D.: Le pilote Arabe de Vasco de Gama et les instructions nautques des Arabes au XVe Siecle, Annales de geographie, paris, 1922.

- Fisher, H.A.L.; History of Europe, London 1943.

- Graham, G.S.: Great Britain in the Indian Ocean, 1910 - 1850, Oxford 1967.

- Hammer, J.: Historie de I'Empire Ottoman, depuis son origine jusque'a nos jours; Tomes 18, Paris, 836.

Hoskins, H.L. British Route

- "The Growth of British Interest in the Route to India Tufts Coll., Mass., U.S.A. journal of Indian History, II.

- Howe, Sonia, E.: In Quest of Spices, London 1946.

- Hunter, F.M.: An account of the British settlement at Aden, London, Turbner and Co., 1877.

- Jacob.,H.: Kings of Arabia, London, Mills and Boon, 1923.

- Johnston, H.: History of the Colonization of Africa by Alien races, Cambridge, 1899.

- Kammerer, A. : La Mer Rouge, I Abyssinie et i'Arabie depius L'Anticuite. Le Caire, L'imprimerie de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale, pour la Societe Royal de Geographie D'Egypte 1929-1935.

- King, B., A History of Italian Unity, 192.

- Kink, G.E.: A Short History of the Middle East, New York, 1950.

- Marston, T.E.: Britain's imperial Role in the Red Sea Area, 1800 - 1878,. The Shoe String Press, Inc. Hamden, Connecticut, U.S.A.

- Phillips, W.A., Modern Europe 1815- 1899, London 1908.

- Philips, C. H. : The East India Company 1784 - 1834, London.

- Pratt, J.W. : A History of United States Foreign policy, prentice Hall.

- Playfair, R.L.: A History of Arabia Felix or Yemen, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series, XLIX.

- Plowdem, W.: Travels in Abyssina and the Galla Country, London, Longmans, 1868.

- Prestage : The Portuguese pioneers, Lonson, 1962.

- Rabbath, E.: Mer Roug et Golfe d'Aqaba dans evolution du Droit International, Societe Egypienne de Droit International, Janvier, 1962.

- Rayner, Robert M. : A Concise History of Britain, Longmans, Bambay, 1948.

- Ross, E.D. : The portuguese in India and Arabia between 1507 - 1517, Journal of the Royal Asoatic Society, London Part IV, October 1921.

- Sanger, R.H.: The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr., New York, 1954.

- Serjeant, R.B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, Hadrami Chronicles with Yemeni and European Accounts of Dutch pirates off Mocha in 17 th Century, Oxford, Clarendon Press, 1963.

- Sorel, A. : L'Europe et la Revolution Francaise 1889.

- Strandes, J.: The Portuguese Period in East Africa, Translated by Wallwork, Nairobi.

- Stripling, G. W.F.: The Ottoman Turks and the Arabs, 1511-1574, University of Illionois Press, Urbans, U.S.A.

- Strong, A.: The History of kilwa, Journal, of the Royal Asiatic Society, London, 1895.

- Wilson, A.T.: The Persian Gulf, London 1954.

- Ziada, M.M.: Foreign Relations of Egypt in the Fifteenth Century, 2 Vols. Loverpool 1930.

**(د) الدوريات Periodicals:**

- American Historical Assosiation, No. 222.

- The Middle East, A Palitical and Economic Survey, 1958.

## الفهرس

